

2020

31.12.2019

ستيفن كونور

فلسفة الرياضة



ترجمة

طارق راشد عليان

ستيڤن كونور

فلسفة الرياضات

ترجمة: طارق راشد عليان

مراجعة: د. شحدة فارح

GV706 .C66125 2019

Connor, Steven, 1955-

فلسفة الرياضة / تأليف ستيفن كونور ؛ ترجمة طارق راشد عليان ؛ مراجعة
شحدة فارع. - ط. 1. - أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2019.
282 ص. ؛ 21 سم.

ترجمة كتاب: A Philosophy of Sport

تدمك: 1-186-37-9948-978

1- الرياضة البدنية - فلسفة. أ- عليان، طارق راشد. ب- فارع، شحدة.
ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Steven Connor

A Philosophy of Sport

A Philosophy of Sport by Steven Connor was first published by Reaktion Books, London, UK, 2011

Copyright © Steven Connor 2011



كلمة
KALIMA

www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 971 2 5995 579



عام التسامح
YEAR OF TOLERANCE

Abu Dhabi
ثقافة والسياحة
Culture & Tourism



إن دائرة الثقافة والسياحة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبير وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب
عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الدائرة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة».

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل
الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى، بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من
دون إذن خطي من الناشر.

فَلسفَةُ الرِّياضَةِ

المحتويات

7 المقدمة
25 الفصل الأول: التاريخ
61 الفصل الثاني: الفضاء
87 الفصل الثالث: الزمان
121 الفصل الرابع: الحركة
149 الفصل الخامس: المعدّات الرياضيّة
185 الفصل السادس: القواعد
229 الفصل السابع: الفوز
271 المراجع

المقدمة

ليس هناك ارتباط طبيعيّ، ظاهرياً، يربط الرياضة بالفلسفة. فمن المفترض، عموماً، وربما تشيع الفرضية نفسها حتى بين قليل من الفلاسفة، أنّ الفلسفة أقرب ما يمكن أن يارسه المرء إلى التفكير المحض، الذي ينطوي - مثلاً - على فعل التفكير في التفكير نفسه. وفي المقابل، نجد أن الرياضة تنطوي على إجهاد البدن في شيء أشبه ما يكون بأنقى أشكاله. قد يبدو هذا الشقّ بين العقليّ والبدنيّ عنيفاً أو شديداً أحياناً، ولكن غالباً ما يكون سوء توافق العقل والجسد، الذي حثّ على قدر كبير من التّخمين الفلسفيّ، هو نفسه محرّك الجانب الكوميديّ. إن المسافة البعيدة أحياناً بين الفلسفة الأخلاقية، والقضايا العمليةّ تتجسّد في مسرحيّة توم ستوبارد Tom Stoppard «القافزون» (Jumpers) (1972)، بتمثيل الفلسفة الأخلاقية بلغة الرياضة البدنية، والفجوة بين الطبيعيّ، وما وراء الطبيعيّ هي مصدر الضحك في المشهد المسرحي الهزلي لمجموعة مونتي بايثوني Monty Python الموسيقية الهزلية، الذي يصور مباراة أولمبية نهائية بين فريقَي كرة قدم من الفلاسفة، يمثلون اليونان وألمانيا، ويقود الأخير الكاتبين «نوبي» هيجل 'Nobby' Hegel (يجب أن أذكر هنا أن اللعبة المعروفة للمليارات من البشر باسم «كرة القدم» يُشار إليها في هذا الكتاب باسم «كرة القدم الإنجليزية» المتحفّظ، تمييزاً لها عن تلك اللعبة التي تُمارس ببراعة، ولكن على نحوٍ أضيق أفقاً، في أمريكا الشمالية، وفي مكانٍ أو مكانين آخرين، والتي لا وجود لاسمٍ بديل لها في رأبي).

وفور أن تنطلق الصّافرة، يشرع الفلاسفة في المشي بخطواتٍ واسعةٍ حول الملعب، ولا يلاحظ أحدهم الآخر قطّ، غير أنهم يتأملون ويتجادلون مع أنفسهم، بينما تستقر الكرة في منتصف الملعب دون حراكٍ. وأخيراً، وبعد أن ينزل الإلهام المفاجئ على أرخميدس Archimedes، يشن حكماء اليونان هجمة تحترق صفوف الألمان المتفاخرين، فتنتهي بسقراط Socrates وهو يسدّد الكرة في مرمى الألمان. يخوض الألمان نزاعاً حول صحّة الهدف، بحسب وصف المعلق على المباراة بحماس: «يحتج هيجل بأنّ الواقع مجرد ملحق بدهي للأخلاق الطبيعيّة، أما كانط Kant، فيحتج، استناداً إلى الأمر القطعيّ، بأنّ الواقع موجود أنطولوجياً فقط في الخيال. ويزعم ماركس Marx أن الهجمة كانت تسلاً».

ويتصاعد الصّدام الكوميدي بين كرة القدم، والفلسفة في كتاب «كرة القدم والفلسفة» (Philosophy Football)، لمارك بيريمان Mark Perryman، وتتمته كتاب «كرة القدم الفلسفيّة» (Philosophical Football)، الذي يطرح تبديلاتٍ للمسارات المهنية الفكرية لفلاسفة أمثال كيركغور Kierkegaard، وديدا Derrida (علاوة على «فلاسفة» أقل شهرةً نوعاً ما، مثل دميتري شوستاكوفيتش Dmitri Shostakovich، وبول سيزان Paul Cezanne)، بلغة كرة القدم.¹

ورغم ذلك، كما قد توحى حقيقة أداء المنافسة الفردية السخيفة التي تخيلتها مجموعة مونتي بايثون الكوميديّة في الاستاد الأولمبي، فهناك بعض الصلات ونقاط التماس الغربية بين الرّياضة والفلسفة، ربما لأنّ كليهما تحديداً - إن شئنا الإغراق في الاصطلاحات الفلسفيّة - الآخر المطلق للآخر بوضوح شديد. ولم يكن هذا هو الحال دائماً، فقد شاع الاعتقاد مثلاً أن الرّياضة والفلسفة تضربان بجذورهما في اليونان القديمة، التي ابتكرت المنافسة الرّياضيّة على هيئة الألعاب الأولمبية - التي أقيمت أوّلاً حوالي عام 776 قبل الميلاد، واستمرّت حتى قَمَعها الإمبراطور المسيحي ثيودوسيوس الأوّل Theodosius I سنة 939 ميلادية - والفلسفة المُنهجة.

وحقيقة الأمر أن ثمة قرينين يفصلان بين ابتكار الألعاب الأولمبية،

وبدايات الفلسفة الغربية المتمثلة في التخمينات المتعلقة بالعالم الطبيعي لطاليس الملطيّ Thales of Miletus (حوالي 624-546 ق.م)، وأناكسيماندر Anaximander (حوالي 611-547 ق.م)، وأناكسيمينس Anaximenes (حوالي 585-528 ق.م)، وهرقليطس Heraclitus (حوالي 535-475 ق.م). لكنّ الممارسات الرياضيّة والبحث الفكريّ، على الرّغم من ذلك، لم يبدُ أنّها متعارضان تعارضاً واضحاً في تلك الحقبة، كما أصبح حالهما لاحقاً. ويُشاع أنّ أفلاطون لم يكن شاعراً بارعاً فقط، بل رياضياً بارزاً أيضاً، وأنّ مدرب المصارعة الخاص به غيّر اسمه من أرسطوكليس Aristocles إلى أفلاطون Plato، الذي يعني «عريض المنكبين». وفي كتاب «الخطابة» (Rhetoric)، عرّف أرسطو الجمال بلغة الرياضيّة، إذ قال: «الجمال هو امتلاك جسد على درجة عالية من اللياقة لتحمل، والجلد في مضمار السباق، وفي مسابقات القوّة»، وأكّد أنّ «رياضي المباريات الخماسية هم الأجل على الإطلاق لأنّ الطّبيعة حبّتهم بالقوّة العضلية، والسرعة في آنٍ واحدٍ»². وكانت الأكاديمية التي درّسَ فيها أفلاطون خارج أثينا بستان أشجار زيتون مقدّساً عند الآلهة أثينا، وموقِعاً للألعاب والسّباقات. ويبدو أنّ كثيراً من اجتماعات الأكاديمية كانت تُعقد في صالة الألعاب الرياضيّة في ذلك الموقع. ولقد درّسَ أرسطو، تلميذ أفلاطون، في اللّيسيوم، وهو موقع صالة ألعابٍ أخرى، كما أنّ الاستخدام المتصل للفظتي «Gymnasium» و«Lycée»، كأسماءٍ للمدارس في أوروبا إلى الآن، تُذكّر بأنّ الاختصار «PE» بالنّسبة للإغريق ربما كان مرادفاً للتربية الفلسفيّة (Philosophical Education)، وللتربية البدنيّة (Physical Education) أيضاً. وتقع أحداث حوار «يوثيديموس» Euthydemus، وهو حوار بين سقراط، واثنيّن من الفلاسفة السفسطائيين المخادعين، في غرفة تغيير الملابس بصالة ألعاب اللّيسيوم، ويحوي تعليقاُ ساخراً بشأن حقيقة أنّ السفسطائيين يُشاع أنّهم:

مقاتلون متعدّدو المهارات، لا تقتصر مهاراتهم على القتال البدنيّ، كما

كان حال الشَّقِيقَيْنِ ابْنَيْ إِقْلِيمِ أَكَارِنَانِيَا الْبَارِعَيْنِ فِي الرِّيَاضَةِ الْبَدْنِيَّةِ [كانت رياضة البانكرشن مزيجاً بربرياً من الملاكمة والمصارعة]. وكانت المهارة البدنية العالية في نوع القتال الذي يمكن أن يتغلبوا به على أي إنسان هي أول مؤهلاتهم لا أكثر؛ فهم مقاتلون خبراء في استعمال الدروع، ويمكنهم تدريب غيرهم على استعمالها مقابل رسوم... وقد وضعوا لمساتهم الأخيرة الآن على مهارات رياضة البانكرشن، وأتقنوا الآن الشَّكْلَ الْوَحِيدَ مِنَ الْقِتَالِ الَّذِي أَهْمَلُوهُ، وَأَسْوَأَ لَا يَقْهَرُونَ، وَأَصْبَحُوا جَبَابِرَةً فِي النَّزَالِ اللَّفْظِيِّ، وَتَحْدِيداً فِي تَفْنِيدِ أَيِّ تَصْرِيحٍ، مَهْمَا كَانَ صَحِيحاً أَوْ خَاطِئاً.³

بالطبع، هنا ما يتجاوز التلميح بالسخرية، ولكن بوسعنا - رغم ذلك - قبول رأي المؤلف هارولد تارانت Harold Tarrant، الذي يرى أن «هناك نزوعاً قوياً حقاً في الحقبة الكلاسيكية للفلسفة إلى الثناء على الصحة البدنية، والتَّمارين الضَّرورية للمحافظة عليها، والتشجيع على العناية بها»⁴. ولقد عقد الفيلسوف الخطيب المفوه الأثيني إيسقراط Isocrates (حوالي 436-338 ق.م)، في كتابه المعنون بـ«أنتيدوسيس» (Antidosis)، مقارنةً بين تعليم المبدأ الجديد للفلسفة والتدريب التنافسي للرياضيين الشباب، مؤكداً على أن الفلسفة وألعاب القوى:

فَتَانِ تَوَامَانِ - متوازيان ومتكاملان - يُوَهِّلُ بِوِاسِطَتِهِمَا الْبَارِعُونَ بِأَنَّ تُصْبِحَ عَقُولُهُمْ أَكْثَرَ فِطْنَةً، وَتَمْسِي أَبْدَانَهُمْ أَقْوَى، وَأَكْثَرَ صَلَابَةً، فَلَا يَفْصَلُونَ فَصْلاً قَاطِعاً بَيْنَ نَوْعَيْ التَّرْبِيَةِ، بَلْ يَسْتَغْلُونَ أَسَالِيبَ شَبِيهَةً لِلتَّلْقِينِ، وَالتَّمْرِينِ، وَأَشْكَالاً أُخْرَى لِلانضباط. وعندما يتحملون مسؤولية تلاميذهم، يُملي المدربون البدنيون على أتباعهم الوضعيات التي ابتكرت؛ لأجل المنافسات البدنية، بينما يُفصح مُعَلِّمُو الفِلسَفَةِ عَنْ جَمِيعِ أَشْكَالِ الْخُطَابِ الَّتِي يَعْبُرُ بِهَا الْعَقْلُ عَنْ ذَاتِهِ... وبمراقبتهم،

وتدريبتهم بهذه الطرقة، يتمكّن مدرّبو ألعاب القوى ومعلّمو الفلسفة من الارتقاء بتلاميذهم إلى مرحلة يمسون فيها رجالاً أفضل، وأقوى، من حيث تفكيرهم، أو استخدامهم؛ لأبدانهم.⁵

قليلون هم الذين بوسعهم أن يزعموا هذا الزعم الآن. ولعلّ من بينهم الفيلسوف الفرنسي ميشال سيريس Michel Serres، الذي يهدي كتابه «تنويعاتٌ على الجسد» (*Variations sur le corps*) إلى «مدرّبي صالة الألعاب الرّياضيّة، ومرشدي تسلُّق الجبال، الذين علموني كيف أفكر». ⁶ وهناك أيضاً الفيلسوفة هيدر إل ريد Heather L. Reid التي صرحت، في مقالها المعنونة بـ«سقراط في ملعب البيسبول» (*Socrates at the Ballpark*)، بأن:

التمييز هو الغاية الملائمة، والمطلقة للعبة البيسبول، والفلسفة... فالنّشيطان يبحثان عن المعرفة، ويطحّران الأسئلة، ويتطلّبان الإقرار باحتمالية الخطأ، ويشجّعان على الاختبار المستمرّ الفعّال للذات، وينطويان على التزام بتحدّي الآخرين. علاوةً على ذلك، فهذه العلاقات ليست عارضة، أو مُختلفة وحسب. فلعبة البيسبول منافسة رياضية، وشأنها شأن الفلسفة، نراها موجهة إلى تحقيق غاية الفضيلة، أو التميز البشري.⁷

لم تهتم الفلسفة، ولا الفلاسفة، في الأغلب، منذ الإغريق حتى وقتٍ متأخر، بالشؤون الرّياضيّة إلا قليلاً. ولم تكن الرّياضة شغلاً شاغلاً، أو مُلزماً لكبار فلاسفة التّقليد الغربي، أو حتى أيّ تقليد. وبالطّبع، بين الحين والآخر، نصادف فلاسفةً حدّث أنّهم أبدوا اهتماماً بالرّياضة. فلقد ألف الفيلسوف الإسباني خوسيه أورتيغا غاسيت Ortega Gasset José كتاباً عن الصّيد، وتظهر رياضة التزلّق على الجليد بوضوح، وبوتيرة متكرّرة مؤخراً، في كتاب جان بول سارتر Jean-Paul Sartre «الوجود والعدم» (*Being and Nothingness*)، وكان جاك

دريدا Jacques Derrida حارس مرمى، وراوده في شبابه حلم احتراف كرة القدم، ولو أنه لم يسبق له قط - على حدِّ علمي - أن أشار إلى هذه التجربة، أو استفاد منها في كتاباته.⁸ ولكن، غالباً ما كان يتمثّل الاهتمام الذي أبداه الفلاسفة بالرياضة، على الأرجح، في ظاهرة خاصة، أو عابرة، ليست ذات أهمية فلسفية كبيرة، فلا يتجاوز ذلك الاهتمام الحالة الصحية لكبد الفيلسوف، أو ذوقه فيما يتعلّق بالأوشحة. وتورد السيرة الذاتية التي وضعها بن روجرز Ben Rogers لـ «إيه جي آير» A. J. Ayer، إخلاصه طوال حياته للرياضة، وحقيقة أنه منذ نعومة أظافره «كان بوسعه أن يسرد من الذاكرة قائمة بجميع لاعبي فرق كرة القدم المشاركة في الدوري الإنجليزي بترتيبها بجدول دوري، وأقوى 11 لاعباً في رأيه من مجموع 16 فريق كريكيت محلياً (وهي قائمة ذهنية استبعد فيها عشرات من اللاعبين، وتبلغ إجمالاً 174 لاعباً).⁹

وكان آير أيضاً لاعب كريكيت بارعاً، ومتابعاً مخلصاً لفريق الكريكيت المحلي ميدلسيكس Middlesex، وفريق كرة القدم الذي لم يكن محلياً بالكامل توتنهام هوتسبير Tottenham Hotspur، ولو أنه شدّد على اعتبارية شغفه بتلك الفرق - فقد ألمح بن روجرز إلى «أن ثمة علاقة هنا بإحساسنا الأكبر بطارية جميع التزاماتنا الأخلاقية، وضعف أساسها النهائي».¹⁰

والشيء بالشيء يُذكر، فقد عضَّ الفيلسوف لينكولن أليسون Lincoln Allison أصابع التدم، بسبب تأثيره بالأسلوب الفلسفي لآير، إذ يقول: «بوسعي أن أقرّنه بلاعب كرة القدم جيمي ماكلروي Jimmy McIlroy الذي يلعب مع فريقي بيرنلي وأيرلندا الشمالية. وقد جعلتني مناورات السرعة، واستحواذه بغرور على الكرة، أريد أن أصبح لاعب كرة قدم عبقرياً، عندما كانت مهاراتي تناسب بقدر أكبر لاعب دفاع مشاكس».¹¹

ويقصُّ بن روجرز قصة مواجهة بين آير ومايك تايسون Mike Tyson، الذي كان يفرض نفسه بعضلاته المقتولة على عارضة الأزياء نعومي كامبل Naomi Campbell في إحدى الحفلات. وعندما حثّه آير على الكفِّ عن ذلك، التفت

إليه تايسون، وقال: «ألا تعرف من أنا بحقّ الجحيم؟! أنا بطل العالم في الوزن الثقيل»، فأجابه أير، البالغ من العمر 77 سنة، قائلاً: «وأنا أستاذ المنطق بجامعة ويكهام سابقاً؛ كلانا مشهورٌ في مجاله، وعليه أقترح عليك أن نناقش الأمر بوصفنا رجلين عاقلين».¹²

لكن ركيزة نقاط التماس هذه بين الرياضة والفلسفة هي تحديداً نفحات التعارض الطفيفة الصارخة التي تُحدِثها. فمواجهة أير الطائشة لتايسون ربما لا يُنظر إليها باعتبارها منافسة رياضية، بقدر ما تُعد منافسة بين الرياضة، وضربٍ آخر مختلفٍ تماماً من الألعاب. ومن الصعب مُعارضة رأي بول وايز، الذي أعلنه عام 1969، إذ قال إنّ «فرصة التعامل مع الرياضة من وجهة نظر فلسفية ضيعها اليونانيون، وأتباعهم. فمن عصورهم حتى عصرنا، لم تُحمل الرياضات على حمل الجد بالقدر الكافي، بوصفها مصدرأ، أو لحظات حقائق مهمة، أو مبادئ أولى».¹³

ومن الغريب أنه رغم أن الرياضة كانت شغلاً شاغلاً محورياً فقط لأقلية متمسكة من الفلاسفة، فإنّ رأي وايز تشكّل لحظة أن بدأت فلسفة الرياضة تتكوّن، وتؤكد ذاتها. ولعل هناك اهتماماً محدوداً جداً بالرياضة بين الفلاسفة في التقليد الغربي، أو حتى الشرقي، ولكن منذ سبعينات القرن العشرين، نشأ اهتمام ملحوظ بها يجب أن يُعرف باسم «فلسفة الرياضة»، ولو أن أغلبها ضرب من التطبيق الثانوي لنظريات، وحجج الفلسفة التي ابتدعتها فلاسفة ليسوا مولعين هم أنفسهم بالنظر إلى الرياضة نظرة فلسفية.

ولقد تبع إصدار «دورية فلسفة الرياضة» (Journal of the Philosophy of Sport) (1973)، إصدار دورية «الرياضة، والأخلاق، والفلسفة» (Sport Ethics and Philosophy). ومن بين الكتب العديدة التي صدرت خلال العقود الأربعة الماضية، وتعد في عناوينها بشيء من البحث الفلسفيّ في الرياضة: «فلسفة الرياضة» (The Philosophy of Sport) (1973)، و«الفلسفة الاجتماعية للرياضيين» (Social Philosophy of Athletics) (1979)، و«النساء والفلسفة

والرياضة» (Women, Philosophy and Sport) (1983)، و«الرياضة في سياق فلسفي» (Sport in a Philosophical Context) (1983)، و«نحو فلسفة للرياضة» (Toward a Philosophy of Sport) (1985)، و«فلسفة الرياضة والنشاط البدني» (Philosophy of Sport and Physical Activity) (1988)، و«فلسفة للرياضة» (A Philosophy of Sport) (1990)، و«فلسفة الرياضة» (The Philosophy of Sport) (2007).¹⁴

ولقد شهدت السنوات الأخيرة أيضاً نمواً في عدد الكُتّاب الواعدين بطرح شيء هو أقرب ما يكون للتحليل الفلسفيّ لألعاب، ورياضاتٍ بعينها، بالتزامن مع ظهور كتب مثل «البيسبول والفلسفة» (Baseball and Philosophy) (2004)، و«كرة السلة والفلسفة» (Basketball and Philosophy) (2008)، و«كرة القدم والفلسفة» (Football and Philosophy) (2008).¹⁵

كما لاقت الرياضة أيضاً اهتماماً متواتراً من تخصصاتٍ أكاديميةٍ أخرى، بدا اهتمامها أحياناً فلسفياً أيضاً، بشكل، أو بآخر، حيث نشرت إصدارات من «الدورية الدولية لتاريخ الرياضة» (International Journal of the History of Sport)، و«دورية علم اجتماع الرياضة» (Sociology of Sport Journal)، و«الرياضة في التاريخ» (Sport in History)، و«الرياضة في المجتمع» (Sport in Society)، لثلاثة عقود.

ومن المثير للفضول، ولو أنني أعني حقاً أنه ليس من عجب، أن السبل التي حاول بها الكُتّاب الأكاديميون، أو الفلاسفيّون تسليط الضوء على الرياضة، كانت متوقعة نوعاً ما، من حيث ميلها إلى الإقرار فقط بالقضايا في مجال الرياضة التي تعدّ فلسفية الطابع بالفعل، دون غيرها. ووفقاً لكانط، فمن الممكن النظر إلى تلك القضايا على اعتبار أنها تُناظر مُطلقاً مسائل العقل المحض (تصنيف منطقيّ)، والعقل العملي (الأخلاق والأخلاقيات)، والجماليّات.

واعتقد أنها تتمثل في المداخل الثلاثة السائدة للرياضة: أولها، المدخل الموجّه إلى حدٍّ كبيرٍ بنظرية فيتغنشتاين للألعاب، المتمثلة في أعمال برنارد سويتس

،Bernard Suits وGraham McFee وكففي ومارتن بيرتمان Martin Bertman، وينظر إلى الرّياضة باعتبارها مشكلة تعريف، أو تصنيف، ويهتم عادةً بمشكلات القواعد والأعراف والتقاليد.¹⁶

ويرتبط بهذا المدخل، ولو أنه يسري في مسرى أقل رسميةً بكثير، المحتوى الأدبيّ الكبير الذي تراكم على نحوٍ منتظم منذ سبعينيّات القرن العشرين في التاريخ الرياضي وعلم الاجتماع الرياضي؛ ذلك المحتوى الأدبي الذي ينظر إلى الرّياضة في المقام الأوّل على أنها حقيقة اجتماعية، وتاريخية يجب أن تُفهم استناداً إلى خلفية حقائق أخرى، اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وعرقية، وعسكرية، وتقنية.

والطريقة الثانية التي فهمت بها الرّياضة هي النظر إليها على أنها نطاق للفعل الأخلاقي. وينصبُّ تركيز هذا الفعل على «علة أهمية الرّياضة أخلاقياً»، أو الطرق الخاصّة التي يبدو من خلالها أن الرّياضات، والألعاب تمثل إطاراً لمشكلات العدالة، والإنصاف والحقوق.¹⁷

ولا تنظر طريقة التفكير هذه إلى الرّياضة باعتبارها حقيقة اجتماعية، بل باعتبارها مسرحاً للتدبّر الأخلاقي المشروع،¹⁸ وطريقة للاستشهاد بالقيم والواجبات، والمسؤوليات، والتمحيص فيها، لا سيما في بعض المشكلات الأخلاقية الخاصّة (على سبيل المثال، مشاركة الحيوانات في الرّياضة، أو تطوير أشكالٍ وراثية، وتقنيّة، لتحسين الأداء)، التي تبدو وثيقة الصّلة بالرّياضة.

وأخيراً، من الممكن فهم الرّياضة بلغة الجماليات، أي بلغة أنواع محدّدة من الجمال، أو القيمة بحد ذاتها، التي يجوز الزّعم أنها تميّز النّشاط الرياضي، أو أنواعاً محدّدة من ردود الفعل، كالإعجاب أو الفرح أو خلاف ذلك، التي يُزعم أنّ الرّياضة تستحثها.

ويُعدُّ كتاب «ثناء على الجمال الرياضي» (In Praise of Athletic Beauty) (2006)، لهانز غومبريشت Hans Gumbrecht، مثلاً حديثاً على هذا النوع من التوجه.¹⁹

ولقد أُثير جدلٌ شديدٌ حول ما إذا كان بالإمكان حقاً أن نَعُدَّ الرِّياضة ضرباً من الفنون، حيث ألقى كُتَّاب أمثال ديفيد بيست David Best بظلال الشكِّ على نحوٍ مؤثِّر على النَّظرة الجماليَّة للرِّياضة، ولكن بطريقةٍ استفزَّت بعض الدِّفاعاتِ المقدامة عنها.²⁰

وبطبيعة الحال، هناك جوانبٌ كثيرةٌ ذات أهمية، وقيمة في مجالات العمل الثلاثة المهمَّة هذه، لكنني أعتقد أنه يجب التصريح بأن ما توضَّحه تلك الجوانب، هو حقيقة أنه مهما أُعمِلَ التَّفكير الفلسفيُّ بدأب، أو إخلاص أثره على الرِّياضة، فإنَّ المحصِّلة هي أن الرِّياضة تُعاد صياغتها بلغةٍ فلسفيَّة. وفي النَّهاية، فإنَّ نزعة هذا المنهج، هي للتعامل مع الرِّياضة مجازاً، باعتبارها تمثيلاً، أو تجسيداً للقضايا والإيحاءات الفلسفيَّة الأكثر عموميَّة أو محوريَّة، أو القضايا والإيحاءات الفلسفيَّة على نحوٍ ملحوظ.

وإني أريد لهذا الكتاب أن يفعل شيئاً آخر بالتحليل الفلسفيِّ. وربما لأنني لستُ فيلسوفاً محترفاً، وربما لستُ فيلسوفاً من أي نوع أصلاً، فإنَّ أخطاراً أقل تهتدني، إذ أتأكد من أن عملي فلسفي على نحوٍ ملحوظ، ومحترم من جميع أوجهه. إنَّ غايتي هي الاستفادة من أثر بعض المنظورات، والإجراءات المُستخلصة من أنواع بعينها من الفلسفة، في محاولةٍ للتركيز قدر الإمكان، وعلى نحوٍ مثيرٍ للانتباه، وبأقل قدر ممكن من الفهم المسبق، على ماهية، أو ماهيات الرِّياضة.

وسيقضي ذلك مني ألاَّ أحرص على أن أكون، عن عمد، على يقينٍ مسبقٍ بالطريقة التي تُفهم بها الرِّياضة، سواءً كأيدولوجية، أو كأخلاقيات، أو كفنٍّ. وسيساعدني ذلك على الكتابة، وكأنه بالإمكان إيجاد تفسيرٍ لماهية الرِّياضة بلغتها، مع الأخذ في الاعتبار بعض الأشياء الواضحة جداً في الرِّياضة، التي يصعب أن تتجلى. وظنُّني أنه سيتعيَّن عليَّ غرس توجُّهٍ قد يراه القارئ هزلياً ساذجاً، أي أنه سيتعيَّن عليَّ تعليق كل الأشياء التي أنا على يقينٍ بالفعل من معرفتي إياها، حيال هوية الرِّياضة، والغاية منها، وطرح سؤالٍ بخصوص ماهية هذا النَّشاط

الغريب، وكأني أطرحه لأول مرة، وكأني لم أصادفه في حياتي قط.

ومع ذلك، وبينما أشقُّ طريقي كما هو واضحٌ عبر هذه النظرة الخيالية، سيتعين عليّ أيضاً أن أفترض، على نحوٍ فيه شذوذٌ أحياناً، الوحدة الحتمية لما يُطلق عليه الأمريكيان جمعياً «الرياضيات»، أي سيتعين عليّ افتراض أن هناك شيئاً، إن لم يكن محورياً فهو على الأقل مُلحٌ بغرابة، يسري في جميع حالات الرياضة، رغم حقيقة أنه من الصعب جداً تبيان القواسم المشتركة تحديداً بين رمي الأسهم، والتزلج على الجليد، والتايكوندو، وركوب الخيل والملاكمة، والسباحة الإيقاعية.

إن فلسفة الرياضة، على غرار تلك المطروحة هنا بين دفتي هذا الكتاب، هي محاولةٌ لإيضاح معنى الرياضة - ولو أنّ معنى كلمة «معنى»، في هذا السياق، ليس ما قد يتوقعه القارئ. فأنا لا أهدف عموماً إلى إيضاح ما يجوز أن تمثله الرياضة، أو ترمز إليه؛ إنني أحاول تفسير معنى الرياضة، بمعنى: ما تعترم الرياضة القيام به. وأكادُ أبحث، كما قد يتعجّل المرء، ما يجوز أن يدور في عقل الرياضي (في ذلك العقل الذي لا يمتلكه).

وبهذه الطريقة، فإنني أحاول أن أجد سبيلاً لطرح سؤال حول ماهية الرياضة، وأحاول أن أهضمها كلياً دون أن يستقر رأيي أولاً، على النظر إليها بوصفها شيئاً أكثر ألفة، ومهضوماً فلسفياً. أريد أن استخدم أنواعاً ما من التحليل الفلسفي؛ لرصدٍ قدر من الغرابة المنهجية للرياضة، أكبر مما يتجلى عادةً في «فلسفة الرياضة». إنني أحاول إظهارها ككون موازٍ منسجم على نحوٍ عجيب، فهو ليس مرآة لجناس ناقص لحياة البشر عموماً. ومع ذلك، فهو يتطور تدريجياً، ويصبح أكثر تعريفاً لما يعنيه أن يكون المرء إنساناً.

وحيثما هيمنت على المقاربات الفلسفية للرياضة نقاشاتٌ تدين بالكثير إلى التقليد التحليلي للتعريف المتأني المتشكك، والتمييز بين المعاني والاستنباطات، سأقبل أن يوصف منهجي بـ«فلسفة الظواهر الثقافية»، ما دام أنه فهمٌ أنني لا أعني بذلك مجرد أن أنقل إلى ساحة الظواهر الثقافية المناهج التي وضعها فلاسفة أمثال هوسرل Husserl، وهايدغر Heidegger، وميرلوبونتي Merleau-Ponty،

لموضوعات ظواهرية كلاسيكياً، مثل: فهم الزمن، وطبيعة الوعي بالذات، وتجربة الجسد.

وما أتمنى أن أحققه، ولو بقدر ضئيل، هو الإسهام في إعادة الابتكار المستمر للتقليد الفلسفي لعلم الظواهر، تقليد محاولة فهم الطريقة التي تظهر بها الأشياء، والنحو الذي تُعاش به، وبلغة مُنصرفة تاريخياً، ومناسبة لتفسير الظواهر الخارجية، والجماعية، بدلاً من التجربة الداخلية والفردية، وبدلاً من محاولة تحديد ماهية تلك الظواهر في حقيقة الأمر، ويحدد ذاتها، بشكل قطعي.

وبالتالي، سيكون منهجي للقارئ متخصصاً بشدة، وعموماً في آنٍ واحد. إنني أحاول أن أحافظ على ركيزتي حول مادية الرياضة، والعناصر التي تتكوّن منها؛ الأمر الذي يلزمني، خصوصاً في الفصل الخامس، بمحاولة التفكير بتمعن في الأدوات الرياضية، بكلا المعنيين الشائعين، ألا وهما: الأدوات المحددة التي تستخدمها الرياضات، وتعول عليها خصيصاً (كالمضارب، والكرات، وواقيات قصبه الرجل، وأحذية التزلج، وأعمدة المرمى)؛ والأشياء المحددة التي هي وسائل الرياضة، أي الطرق المحددة التي يمكن للمرء بواسطتها أن يفوز أو يخسر (كتسجيل الأهداف، والسبق، ورفع أثقل الأوزان، والإتيان بالأداء الأكثر أناقة ولياقة، وما إلى ذلك).

إن كلمة «مرمى» المفردة، قد تُقرَّب بين بُعدي هذا الغرض: المرمى كشيء، أو «هيكل مادي» محدد، و«الهدف» باعتباره الغاية العامة من اللعبة. وإنني أركز على هذه الأشكال المحددة للمعدات، للتفكير في أنواع مختلفة من الرياضات، في محاولة لعزل خصائص متكررة بعينها، ربما إذا تجمعت، ألفت معاً شيئاً أشبه بالقواعد النَّحوية لأسماء وأفعال رياضية ما؛ وأعني الأشياء والأفعال التي تتكوّن منها.

لقد كانت هناك محاولات كثيرة لتعريف الرياضة. وكثيراً من تلك المحاولات عزل بشكل مفيد خصائصها المختلفة. ورغم أنه قد يكون من الخطأ محاولة تعريف مبدأ وحيد للرياضة، سأحتفظ في هذا الكتاب بفرضية أن أي رياضة هي

لعبة تنطوي على مجهودٍ بدنيّ.

إن هذا التعريف سيسري في جميع الموضوعات التي أتناولها بالبحث في الفصول التالية، وسيساعد على تحقيق التماسك، وخلق وحدةٍ بينها. ومتطلب المجهود البدنيّ، على العكس من غيره من متطلّبات الرّياضة التي طُرحت بين الحين والآخر، كالحاجة إلى المنافسة، أو استعراض القوّة البدنيّة، يُميز الرّياضات بشكلٍ موثوقٍ عن الألعاب، لأنّ الألعاب، ربما أمكن ممارستها افتراضياً، أو تجريدياً، دون أن تنطوي على أي مجهودٍ بدنيّ مطلقاً. ومبدأ بذل المجهود يعني أكثر من المشاركة البدنيّة وحسب؛ إنّ الرّياضات أساساً ألعاب تُجهّدك.

وما من سمةٍ أساسيّةٍ تُفقد من مباراة الشطرنج التي تُلعب عبر الهاتف، أو بالتراسل النصّيّ الفوريّ، أو حتى بالتراسل بين المشاركين في اللّعبة في بقعتين مختلفتين من العالم (ممارسة كانت شائعة في فترة من الفترات). والرّياضات التي تُمارَس افتراضياً، أي من دون أي مشاركةٍ بدنيّةٍ، تُعدُّ ألعاباً فعلاً إلى هذا الحد. ولهذا السّبب، يجب أن تنطوي الرّياضات دائماً، وأبداً على ظروفٍ ماديّةٍ؛ يجب أن يكون هناك مكان محدد تُمارَس فيه (وهو موضوع الفصل الثاني). ويجب أن يكون لها أيضاً بُعد زمنيّ (وهو موضوع الفصل الثالث)، وبُعدٌ آخر يختص بمشاركة الأبدان الماديّة، ألا وهو أن تلك الأبدان عرضة للزيادة الحتميّة للاعتلاج، حيث إنّ أفق كل أشكال المجهود الرّياضي هو الإرهاق المؤدّي في نهاية المطاف إلى الإنهاك.

وإذا كانت الألعاب تخضع للقانون الأوّل للديناميكا الحراريّة، الذي ينص على أن الطاقة لا تفتنى، ولا تُستحدث من عدم، ومن ثم قد يكون الزمن قابلاً للانعكاس، فإنّ الرّياضات تخضع للقانون الثاني، الذي ينص على أن جميع التّمارين تزيد من الاعتلاج، وأن الزمن قابل للانعكاس؛ إنه يمثل تلك الحالة -وأعني حقيقة أن كل أشكال المجهود تنطوي على كفاح في الظل المتطاوّل للإنهاك- التي تُضفي أسلوباً وهدفاً على أنواع الحركة الماديّة المميّزة للرّياضة (المُزمع نقاشها في الفصل الرابع).

ويطرح نقاشي للأغراض الرياضيّة (في الفصل الخامس) حجةً مفادها أنّ الأغراض المستخدمة في الرياضة هي نفسها تخضع لنوع من التّمرين (تتألف كلمة «exercise»، التي تعني بالعربيّة «التّمرين»، من السّابقة «ex»، بمعنى «خارجٌ مِنْ»، و«arcere»، بمعنى «يربط، أو يُقيّد»؛ ألا وهو إطلاق، أو بسط إمكاناتها.

إنّ أبرز وجهٍ للشّبه بين الرّياضات، والألعاب هي القواعد التي تميزها (وهو موضوع الفصل السادس)، لكنّ طبيعة السّلك الرّياضيّ الميالة إلى التحدّي تعني أنّ على المرء دائماً التّقيّد بالقواعد، واختبارها إلى أقصى حدٍّ ممكن، في الوقت عينه. فالرّياضات ألعابٌ تنطوي على مجهودٍ، وهو ما يوحي بوجود قيودٍ، ومحاولة للتغلب عليها. والجسم هو الشّكل عينه لهذا اللّبس، إذ إنّ الجسم هو ما يقيّدنا، فيقتضي منا أن نحيا حياةً فانيةً في أوقاتٍ، وأماكنٍ، وظروفٍ بعينها، وهو ما يبدو أنه يعطينا في الوقت ذاته فرصة التغلب على تلك الظروف، أو تجاوزها.

ولا يوجد تعريفٌ للرّياضة المعاصرة بوسعه تجاهل عنصر المنافسة الذي لا غنى عنه (وهو ركيزة الفصل الأخير). إنّ الرّياضة تنطوي على نضالٍ، وخصومة. وبقدر ما تتسم الرّياضة بالإلهاء، أو الاسترخاء، أو المرح، فإنّ هذه الآثار هي نتاج تركيز الغاية على الفوز. وبالنّسبة للمفكر الفرنسي روجيه كايوا Roger Caillois، لا يُعدُّ هذا كافياً لتبرير التمايز بين الرّياضات والألعاب، فقد كتب يقول: «لا يهم كثيراً أن بعض الألعاب رياضية الطّابع، وبعضها فكريّة الطّابع، فتوجه اللاعب نحوهما سواء، فهو يحاول أن يقهر خصمه الذي يتعرّض للظروف عينها التي يعيشها».²¹

وأعتقد أنّي يجب أن أخالفه الرأى في هذه المسألة، وذلك لأنه إذا تمايزت الرّياضة عن اللعبة عموماً بشكل أكبر، استناداً إلى فكرة أنها تنطوي على كفاح بدنيّ خاص، فحينئذٍ يمكننا تفسير ذلك بحقيقة أن فكرة التّنافس دائماً ما تُورّطُ الجسد نوعاً ما.

ويرى الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار Gaston Bachelard، متأثراً بمان دي بيران Maine de Biran، أننا يجب ألا نتصور العقل نفسه باعتباره سابقاً بلا مبالاة في حوض من الإحساسات، بل باعتباره ناشئاً بطريقة معينة تتعارض مع العالم الذي ليس موجوداً بالنسبة له أبداً؛ إنه «كوجيتو النضال» (of cogito striving).²²

فالوجود في العالم هو دائماً وجودٌ في مواجهة مع العالم. والجسد هو وَسَطٌ هذا النزاع، وسط النضال ضد غيره من الأجسام البشرية، وغير البشرية، أو النضال ضد الجسد نفسه. وربما أمكننا حتى التهادي أكثر، والقول إنَّ الجسد هو مبدأ المقاومة، فالتجسد يعني المحدودية المكانية، والزمانية، والتقييد بمنظور معين للأشياء، وهو ما يعني أيضاً أن يكون للمرء مكان يود أن يرحل عنه. وإذا كان الجسد، كما زعم سارتر، متقدماً على ذاته، أو إلى جانب ذاته، فذلك، لأنه يناضل ضد ذاته. وبالنسبة لسارتر، ليس بوسعي أن أسمو على جسدي؛ لأنني أنا ذاك الجسد، لكن ذلك يجعل جسدي «مكافئاً للضيق والعسر».²³

وتنطوي جميع الرياضات على نوع من العوائق المعطلة، على هيئة قواعد تقيّد الطرق التي يستطيع المرء أن يحقق بها هدف اللعبة. ولقد حدد برنارد سويتس هذا النوع من التقييد باعتباره سمةً ضروريةً من سمات جميع الرياضات، في تأكيده على أن «ممارسة لعبة ما، هي المحاولة الطوعية، للتغلب على عقبات غير ضرورية».²⁴

ومن بين أقدم الألعاب التي لدينا معرفة بها لعبة الكرة، التي كانت تمارسها الشعوب السابقة لكولومبوس، والتي حظرت قوانينها استخدام أي جزء من جسم الإنسان لتحريك الكرة سوى الوركين، وهناك شكل آخر تبناه شعب المايا لهذه اللعبة، اقتضى من اللاعبين دفع الكرة بصدورهم.²⁵

إن أغراض الرياضة غالباً ما تكون علامات، وسبب تلك المحظورات. والقيود التي تفرضها الأشكال الخاصة من القاذفات، والمقذوفات (projectors and projectiles)، شأنها شأن جميع ظروف الرياضات الأخرى المقيّدة بشدّة،

كالأوقات والأماكن وقواعد السلوك، ليست شروطاً أساسية محضة للممارسة الحرة. فهي كالجسد نفسه ضرورةٌ مُقيّدة، وشكل تمكينيّ للقيّد ضروري بالنسبة لي كي أستطيع تأكيد حريتي. وحرّيتي لا يمكن قط أن تكون مُطلقة غير مشروطة، ولا تُعدّ قط حرية للفعل محضاً، فنوع الحرية الوحيد الممكن بالنسبة لي هو التحرر من أنواع معيّنة من القيود، ما يعني أنها ليست مطلقة قط. وحرّيتي لا يمكن أن تكون بحدّ ذاتها متحرّرة من الشروط.

إن أدوات الرّياضة وسيلة لفرض الإعاقة، وتجاوزها في آنٍ واحدٍ، وهي وسيلة لفرض الإعاقة؛ كي يصبح من الممكن لها جزئياً أن تتجاوز تلك الإعاقة. ولهذا السّبب، لا يوجد فارق حقيقي بين رياضات الأصحاء، ورياضات المُعاقين، ما دامت جميع الرّياضات هي وسيلة إجهادٍ للحرية، بواسطة فرض الإعاقة.

إنّ رياضات المُعاقين تستحق اهتمامنا، ودعمنا، لا لأنها تتيح لنا فرصة أن نكون أسخياء على نحو متواضع باهتمامنا وحسب، أو لأنها تفرض احترامنا لروح النضال التي تمثلها تلك الرّياضات، بل لأنّ الرّياضة ليست مُمكنة من دون فرضية الإعاقة، ما يعني أن رياضات المُعاقين هي نوع الرّياضات الوحيد المتاح فعلياً.

وبالنسبة لسارتر، لا يجوز لنا اختيار الإعاقة المتمثلة في وجودنا المادي، ولكن يجوز لنا - بل ينبغي علينا في حقيقة الأمر - أن نحدد موقفنا من تلك الإعاقة.

وحتى هذه الإعاقة التي أعاني أنا منها، فقد اكتسبها بسبب حقيقة أنني حي؛ وأتجاوزها متجهاً صوب أهدافٍ الخاصّة، وأجعل منها العائق الضّروري لوجودي، ولا يسعني أن أتعرّض للتعثّر دون أن أختار أن أكون معوقاً. وهذا يعني أنني أختار الطّريقة التي أشكّل بها إعاقتي (باعتبارها «غير محتملة»، و«مخزية»، و«واجبة الإخفاء»، و«واجبة الكشف عنها للجميع»، و«موضوعاً للفخر» و«تبريراً لإخفاقاتي»، إلى

آخره). لكن هذا الجسد المستعصي على الفهم هو تحديداً الضّرورة الموجبة لأنّ يكون هناك خيارٌ، والدالة على أنني لا أوجد بكليّتي مرةً واحدةً. ومن هذا المنطق، فإنّ محدوديتي هي شرط حرّيتي.²⁶

إن الجسد الذي يجب أن يتورّط دوماً في الرّياضة ليس مجرد موقع واحد، أو مناسبةً واحدةً، للنّضال بين الآخرين. فالجسد يتورّط في أفكار المقاومة والطموح والتنافس نفسها، وهو يُعطي دعماً، وحافزاً وتعريفاً لكل شكل من أشكال التنافس. وتتطلب الرّياضة تمريناً للجسد؛ لأنّ الجسد في الرّياضة يكون دائماً في صراع مع نفسه، ومتجاوزاً نفسه.

إن الفلسفة ليست تاريخاً، بل هي تسعى - شأنها شأن الرّياضيات التي سعت أحياناً إلى محاكاتها - لأنّ تكون أكثر من تاريخية، ولأنّ تتجاوز الاصطلاح الفكري لزمانها، ومكانها. والتاريخ ينتج آراءً، أما الفلسفة فتسعى وراء الحقيقة. وهناك بالطبع ما يُعرف بفلسفة التاريخ، التي من بين أهم اهتماماتها المعنى المقصود من كوننا مخلوقاتٍ تاريخية أساساً، أي مخلوقاتٍ جوهرها العيش في سياق الزمن، مخلوقاتٍ قادرةٍ على إدراك هذه الحالة. ومع ذلك، لا تستطيع أن تسيطر عليها بالكامل. لكن الفلسفة سعت - في المجمل - إلى بيان الحقيقة العامة المتعلقة بهذه الحالة، كالحقيقة العامة مثلاً المتعلقة بالاضطرار دوماً، لأنّ نَسْغَل لحظة تاريخية، ونتكلم عن تلك اللّحظة التاريخيّة المحدّدة، ما يُحول دون بيان الحقائق العامة، ما يعني دائماً نوعاً ما محاولة تعليق هذه الحالة، أو تنحيها جانباً.

إن حالة الحتمية التاريخية، بمعنى استحالة التّسامي على موقف المرء التاريخي، سمةٌ مشتركةٌ لجميع الفترات والظروف التاريخية. ومن ثمّ، فلا يجوز اعتبارها بعدد ذاتها تاريخية بشكل محض. فتفسير الظروف المرتبطة بتلك الفترة الخاصّة شيءٌ تاريخيٌّ، وتفسير القوّة العامّة لهذه الخصوصيّة شيءٌ فلسفيٌّ. والفلسفة يجب أن يكون لها دائماً طموحاتٌ أولمبيةٌ، لكننا سنكون بحاجة - كاستهلال للتساؤلات المزمع الإجابة عنها لاحقاً في هذا الكتاب - إلى فهم الصّفة التاريخيّة

للرياضة: لماذا ينبغي لمثل هذا النشاط غير الضروري أن يصبح ضرورةً مُميّزةً للبشر؟ وما الذي يجعل الرياضة طبيعيّة، أو يجعلها - على الأقل - جزءاً من «طبيعتنا»؟ إنْ بدت هذه الأسئلة فلسفيّة، فهي أسئلةٌ ربما يكون من الأفضل تناولها والتعاطي معها من خلال تدبّر تاريخ الرياضة.

الفصل الأول

التاريخ

اللَّهُو

لماذا نلعب؟ لأسبابٍ عدّة: للتدريب، أو التسلية، واللَّهُو وتمضية الوقت، أو حتى للتطهر من هوس ما، وأحياناً يُقال لنا إننا نلعب لتمتّع وحسب. وكلمة الرِّياضة في الإنجليزِيَّة مشتقة من كلمة «اللَّهُو»، المكونة هي نفسها من: «بعيداً» أو «منفرداً»، وكلمة «portare» وتعني «يحمل». ويوحى ذلك بأنَّ الرِّياضة وسيلةٌ يُحمل بها المرء بعيداً عن الواجبات، والغايات الجادة؛ وهو الرأي الذي تعززه وثيقة الصلة بين الرِّياضة، واللَّهُو، ما دام الأخير يعني حرفياً: «ينصرف/ يزيغ عن». والمعنى الجوهرى للهو والتسلية ضمني في البادئة «dis» (في كلمة: disporting)، المشتقة من الإغريقيَّة «dis» بمعنى «مرتين»، المشتقة بدورها من «duo» بمعنى «اثنين»؛ وبذلك يكون المعنى الأساسي: «في اثنين».

ولعلَّ السَّبب الذي يفسر إلقاء ظلال الشكِّ على الرِّياضة خلال فتراتٍ عدّة، هو أنها - على النقيض من كونها تكفل للمرء ضرباً من «الترفيه»، ومن ثم فهي تكوينية - تجذب الإنسان بعيداً عما يشغله وتُبعده وتمزقه. إنَّ الرِّياضات إشكالية، ومربية، بل هي كما سيتجلى لنا قريباً شيطانية الطابع. وحيثما اعتمدت حياة الجسد الفردي أو الكيان الجمعي على تجانسه أو تماسكه المستمر، فقد عدَّت الرِّياضة أشكالَ الفهم الأولى لها، الحاجة الملحة للانتشار، والامتداد؛ الأمر الذي يبدو مرتبطاً بالانحلال الذي هو الموت، ويفضي إليه في نهاية المطاف. وتحدث ترجمة فليمون هولاند Philémon Holland لكتاب «بريطانيا» (Britain) (1610)

عن نهر «إكس» الذي «يكبر، ويلهي نفسه بالتمدّد إلى العديد من الجداول» إذا صحَّ التعبير.¹ ولعلَّ الاصطلاح الإنجليزي «sport away» يوحي بسلوكٍ خاملٍ، يهدر الوقت، ويبدو أنه يردد صدى البادئة «dis» التي تفتت في كلمة الرِّياضة، ويضعفه.

وثمة قصة خطرت ببالي، قصَّها عليّ صديقي جاك نيكولاس Jack Nicholas، وبعدها قصَّها الواحد منا على الآخر، حينما كُنَّا بالجامعة معاً: كان هناك صديقان يتدربان على لعبة كرة القاعدة، وكان أحدهما يضرب الكرة بمضرب الكريكت فيتلقاها الثاني. ولكن، لم يكن لديها كرة، فاستعملا تفاحةً. وفي نهاية المطاف، سُطرت التفاحة حتماً إلى نصفين من الضرب، ولكن لاقط الكرة الذي لم يكن لديه وقت، أو لم يُعطِ نفسه وقتاً كافياً لتدبّر المسألة، انطلق مسرعاً جيئةً وذهاباً، ومد ذراعيه على نحوٍ مُتصالب، ونجح في الإمساك بشطريّ التفاحة، ولو أنه نجح أيضاً في خلع كَفَّيه! والتشيتت في هذا المشهد، واقع حربي، ما دام التشيتت يعني حرفياً الانفصال والانفكاك. إنَّ الخطر الكامن في الرِّياضات، هو أنها لن تَرزقي إلى ما يتجاوز تشيتت، وبعثرة الإرادة، والغاية البشريتين المُركزتين. لكن عَظَمَة هذه القصة تكمن على أية حال في أن اللاعب أمسك بشطريّ التفاحة؛ والرِّياضة محاولةٌ للتشيتت، والاقتناس في آنٍ واحد، فالرِّياضة تُفَرِّق، وتفصم وتلمُّ السَّمَل.

وحقيقة الأمر أن الرِّياضة الحديثة كانت شيئاً يتجاوز اللُّهُو المحض لفترةٍ من الوقت. وعلى المرء أن يلاحظ أيضاً في الاستخدامات الأولى لكلمة «رياضة» نزعةً انعكاسيةً، أو ارتداداً للمرء على نفسه. وثمة جانب آخر للشكِّ الذي يكتنف متعة الرِّياضة، وهو أن المرء يُشَتَّت نفسه. ولعلَّ المعنى الكامل هو أن المرء يسحب، أو يبعد نفسه عن الانشغالات الجادّة؛ كي يُقدِّم لنفسه محض مُتعة. ويستدعي كاتب ينتمي إلى عام 1691 أرواحاً عابثةً في أثناء «تسلية أنفسهم بلا سيد أمر في بحر مترامي الأطراف من المجون»² وفي هذه الاستخدامات المبكرة لفكرة الرِّياضة، نلمس إحساساً قوياً بالتَّضاد بين الغاية البشريّة، والغاية الإلهية،

وعبث الطَّبيعة. فمن الطبيعي أن نلهو؛ لأنَّ جوهر الطَّبيعة هو نفسه العبث، بمعنى التشعب والتَّكاثر، والتحوُّل إلى التنوع. إنَّ فكرة «فلتة من فلتات الطَّبيعة»، بمعنى التحوُّل العارض أو البدهي، تنبع من هذه العلاقة بين الرِّياضة، والانتشار غير المُوَجَّه. والأشياء التي يُقال عادة إنها تُسَلِّي أو تُجْرِف أو تنجرف هي طبيعيَّة لا بشرية، وإنَّ كانت بشرية فهي مُحَاكية لهذه الكيانات الطبيعيَّة. وقد قال شكسبير على لسان شخصيته أنتيفولوس Antipholis (كوميديا الأخطاء «Comedy of Errors»، الفصل الثالث، المشهد الثاني، البيت 30): «عندما تشرق الشَّمس، دع البعوض الأحمق يعبث». وكثيراً ما يشير العبث في هذا السِّياق إلى العبث الجنسي الذي إذ ينفصل عن واجبات التَّكاثر، يجوز أن يُعتبر عشوائياً وتكاثرياً في آنٍ واحد. ويسأل مُنشد الأنشودة الشَّعبية الإنجليزيَّة «الأرنب البري الأسود البهيج» (The Bonny Black Hare)، التي تَعْتَبِرُ صيد الأرنب البري ضرباً من المداعبة الجنسيَّة، شريكه المُتحمِّس: «هل اكتفيت ببندقيتي الرِّياضيَّة القديمة؟». واللَّهو بهذا المعنى عادةً لا يكون له موضوعٌ، أو خصمٌ، رغم أن هناك استخدامات للكلمة يُزعم فيها أن الظواهر الطبيعيَّة، خصوصاً العشوائيَّة منها، أو العنيفة كتحرَّكات الرِّياح، والأمواج، «تلهو» بشيءٍ هو غرضها، أو ألعوبتها؛ يصف الواعظ ثوماس آدمز Thomas Adams، المنتمي إلى القرن السَّابع عشر، الثرى بـ«ألعوبة الرِّيح ومملوك الكنسة»³.

ومن الممكن اعتبار اللَّهو ليس طبيعيّاً فقط، بل شيطانياً أيضاً. فقد دان آدمز المحامين، واصفاً إياهم بـ«التافهين والشَّياطين المثيرين للمشكلات، والفانين الذين يصرِّفهم الشَّيطان على سبيل اللَّهو»⁴. ولقد كان الشَّيطان مرتبطاً بالرِّياضات، والألعاب خلال القرن السَّابع عشر، لا بسبب الرِّفِّض العامِّ للمتعة، ولكن لأنَّ الرِّياضة تحديداً كانت توحى بالفعل الحامل غير المُجدي وغير الجاد أساساً، وأعني الفعل الذي لا طائل من وراءه، أو لا غاية له سوى الترويح لنفسه. ولم تكن الرِّياضة آثمَّة، لأنها عديمة الجدوى وحسب، فالذَّنب والشَّرُّ كانا ضرباً من العبث نظراً لتفاهتها الجوهرية، وافتقارهما إلى الجد.

ووصف الشيطان بالرياضي؛ لأنه كان مخادعاً. فكلمة «devil» مشتقة من كلمة «diabolos»، التي تعني حرفياً «يلقي شيئاً ما عبر المكان»، المكونة من البادئة «dia» بمعنى «عبر» و«من خلال»، و«bollein» بمعنى «يلقي». ويلقي الشيطان كرات لولبية، فهو لاعب بولينغ يتعمد رمي الكرات باتجاه خياطتها (كي تتحرك حركة لولبية عمداً). ولقد روج وهم الشر (فقد زعم أن الشيطان في واقع الأمر ليس له سلطان بخلاف ما أذن الله به له)، ومن ثم شر الوهم الأعظم.

ويربط آدمز بين هذه الأفكار كلها في خطبة أطلق عليها اسم «الأحمق ورياضته»: «الأحمق هو الإنسان الخبيث، ورياضته التي هي اللهو أو الشرثرة خطيئة. والسخرية، هي الوسط، أو الصلة التي تصل بين الأحمق، والخطيئة؛ وهكذا يُسعد حاله. وهما يلتقيان في السخرية. والأحمق، يسخر من الخطيئة»⁵. إن أخطر خطيئة على الإطلاق هي عدم التعاطي مع الخطيئة بجديّة، والعبث بها، والتعامل معها وكأنها ألعوبة؛ وحقيقة الأمر أن هذا ربما كان خطيئة بحد ذاته. ويكون ذنب الأحمق أعظم ما يكون عندما يستهزئ من فكرة الخطيئة نفسها؛ إنَّ الحمق، والخطيئة، والسخرية تتراقص كلها معاً في دوامة باسمه.

والرياضة الطائشة لا تخلو من القسوة. ويؤكد آدمز حقيقة أن الشيطان سيزرع دائماً بذور التنافس، والتنازع العنيف بين أتباعه:

قد يكون هناك شقاق بين الأشرار، والشيطان، هو الذي يخلق هذا الشقاق، فهو يخلق نزاعاً بين أتباعه ويشعله كالجمر ليسري عن نفسه ويتسلى. وعلى عماد تلك النزاعات، شن تلك الحروب الوثنية العظيمة التي ذهبت ضحيتها ملايين الأرواح، وهبطت إلى مملكته الدنيا. وعلى ذلك، يزج بالوحشي في مواجهة نظيره الوحشي، وبعدها يضحك ملء شذقيه على دمائها المراقه هدرأً.⁶

وفي هذا السياق، نرى أن الشيطان يُهاثل مجدداً الطبيعة التي يمكن الظن

بالقدر ذاته، أنها تراقب بلا مبالاة أو باستمتاع المعاناة التي يجلبها نزاع البشر. ومن ثم، فقوام اللّهُو ليس الشّطط، بل متعة النظر إلى تلك المشاهد. وهذا عنف كريبه خاطئ؛ لأنه لا مقصد له سوى الإلهاء، والتّسلية، والاستمتاع العبي والأمق بالفوضى المحضة. وكما يقول آدامز في عظته، مشيراً بينه وبين نفسه إلى سفر «الأمثال» 18, 26: «عندما يلهون، فإنهم يوقعون الألم»، «إنه يلقي بالجرم، والأسهم، والموت، ويقول: ألسن أنعم بلهوي؟ وكما يقول سليمان، رحمتهم نفسها قاسية: وكذلك فإنّ هزلم قاتل للجد»⁷. ومقابل ذلك، هناك الغاية المتجلية، والمستدامة بوضوح للحياة المقدسة في صراعها ضدّ الخطيئة، أي ضدّ الهزل. ويقارن آدمز بين هذا العبث-العنف والغاية القتالية الثابتة الحازمة للمسيحي الواق بنفسه في معركته ضد الخطيئة والعالم والشيطان:

إنّ كل مسيحيّ مقاتل عتيد متأهب لهذه الحرب؛ لا لشهوة الدماء المراقبة ولا للهو، فقد درج النبلاء السباب على أن يشهدوا الحروب، لكن عهدنا يسري منذ التعميد، وينص على أن كل رجل يضطلع تحت راية المسيح بمحاربة الخطيئة، والعالم والشيطان، وأن يستمر في أن يكون مقاتلاً وخادماً مخلصاً حتى نهاية حياته.⁸

إنّ المشكلة التي تؤرق آدامز، رغم أنها السمة عينها التي تميّز لغته المحكّمة التي تجعل أعماله جديرة بالمطالعة حتى يومنا هذا، هي أنه يقع فريسة عند كل منعطفٍ لرغبته في إنعاش رسالته الدينية الشرسة المتوعّدة، وجعلها مفعمة بالحياة بتلاعباتٍ لفظيةٍ عابثةٍ - ومن الأمثلة على ذلك التلاعب اللفظي الذكي العابت على نحوٍ مميّز، الذي خلغ شيئاً من المواربة على «الدماء المراقبة»، و«اللّهو»، في الاقتباس أعلاه.

وخلال القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر، ولفترة من الوقت كما هو واضح، تبدل معنى الرّياضة كلياً في إنجلترا تقريباً، وأمست تشير إلى مساعٍ محدّدة تنطوي

على أشكال للتنافس البدني الذي تحكمه القواعد. وهذا المعنى للرياضة، والقيم التي أصبحت مرتبطة به، استغرق وقتاً كي ينتشر في بقية أرجاء أوروبا. وبحلول عام 1844، وتعني كلمة «رياضة» في قاموس ألماني ذلك التصرف لعدم وجود أي كلمة ألمانية تشير إلى هذا النشاط، فقد كان من الأهمية بمكان اقتباسها من الإنجليزية.⁹ وينظر هذان النوعان للرياضة، وأعني اللّهُو، والتنافس المحكوم بالقواعد، والقوانين، بوجه عام، ما يصفه روجيه كايوا (Roger Callais) باسم «paidia» و«ludus»، حيث تشير الكلمة الأولى إلى الحرية الأساسية لغريزة اللّهُو، كما تتجلى في الأنشطة التي تنطوي على الارتجال، والتمتع بأشكالٍ عديدةٍ من الهرج، والمرج، والجيشان، والحركة العشوائية غير المتوقعة، وتشير الثانية (ludus) إلى استحداث قوانين فيما ندعوه باسم الرياضات المنظمة.¹⁰ لكن كايوا يقدم لنا تصنيفاً يسري على نطاق الألعاب، وأشكال التسلية، واللّهُو البشرية بأسره، بما في ذلك، وهو الأمر الغريب نوعاً ما، نطاق ألعاب المحاكاة، وألعاب التظاهر بأداء أدوارٍ أخرى التي تمثل بأشكالها الرسمية المسرح والأداء المسرحي. وفي سياق الأفق العام الذي يطرحة مصطلحا «paidia» و«ludus»، ونزوع الأول إلى التطور، والتحوّل إلى الثاني، يُميز كايوا بين نوعين محددين من الألعاب، يجوز أنهما يناظران التضاد بين اللّهُو، والرياضات المنظمة. فهناك لعبة «ilinx» التي تصف أنواع الألعاب التي تُعد فيها مُتَع الدوار، وفقدان الاتجاه ذات أهمية عظيمة، وتتكوّن من «محاولةٍ لهدم استقرار الإدراك لحظياً، وإفشاء ضرب من الذعر الحسي على العقل الصافي التفكير». ¹¹ وهناك لعبة «agôn» التي وُصِفَت بأنها «قتالٌ تتحقق فيه المساواة في الفرص على نحوٍ مُصطنع، بحيث يواجه الخصمان بعضهم بعضاً في ظروفٍ مثالية، ويقبل إعطاء قيمةٍ محدّدة، ولا جدال فيها لانتصار المنتصر». ¹²

وحتى لو كانت ممارسة التفكير الاستدلالي الذي نصفه بالفلسفيّ تبدو أنها نشأت في المكان، والزّمان عينهما اللذين نشأت فيهما الرياضات المنظمة، فهناك أسبابٌ وجيهةٌ للنظر إلى الرياضة المنظمة على اعتبار أنها مرتبطة بتطوير

فئاتٍ من المجتمعات ندعوها الحديثة، أي مجتمعاتٌ أمست واعيةٌ جداً بذاتها، وموجهةٌ لذاتها على نحوٍ عقلاي. إنَّ تطور الرياضة، في انتقالها من اللُّهُو الحر المحكوم بمبادئ اللُّهُو النابض بالحياة، الممثل في لعبة «ilinx»، إلى المنافسات الرسمية للرياضات المنظمة، الممثلة في لعبة «agôn»، يجوز أن يُنظر إليه كجزء من هذه العمليّة. فالرياضة شيءٌ مختلفٌ تماماً عن «اللُّهُو» الحر الطائش، وهكذا كانت لفترة من الوقت. وربما يجوز أن نرى تطوراً ثابتاً يتساق مع التحوّل من اللُّهُو الحر الطائش إلى الرياضة المنظمة، ومن لعبة «ilinx» إلى لعبة «agôn»، ومن الصراعات العشوائيّة للشجارات الصّاخبة إلى الاشتباكات الدّامية للعبة كرة القدم في العصور الوسطى، التي كانت تمتدُّ ليوم بطوله، ويهيم فيها اللاعبون على وجوههم تكاد لا تحكمهم قوانين، وصولاً إلى المواجهات الرسمية الطّابع، إنَّ لم تكن أقلَّ اشتباكاً، للاعبين كرة القدم الأمريكيّة، التي يتداخل فيها العنف والطّابع الفني.

الحيوان غير الضّروريّ

تعرّف المجتمعات الحديثة نفسها بلغة الشُّقّة التي تصنعها (على نحوٍ مُخادع للذات، كما اعتقد البعض) بين الحالة الطبيعيّة التي تتسم بالصراع ضد الضّرورة والحالة الثقافيّة التي يتمكّن فيها البشر ويطلب إليهم في آنٍ واحدٍ أن يختاروا تواريخهم الخاصّة. وحرّيّة الاختيار هذه نعمة، ونقمة في الوقت ذاته، فالإنسان حرٌّ في أن يختار، وليس حرّاً في ألاّ يختار لأنه - هكذا يطيب له أن يقنع نفسه - المخلوق غير الضّروري. وهذا لا يعني أنه لا ضرورةٌ ملحّة لوجوده، لأنّ ذلك ينطبق على بقية الحيوانات كافة، وربما أيضاً على جميع أشكال الوجود. وحتى لو كانت هناك حاجة تقتضي وجود كائن من نوع ما، فما من حاجةٍ قط لأنّ يكون أي كائن بعينه الكائن الذي يتخذ شكله تحديداً دون غيره. لم يكن عليّ أن أوجد؛ وإذا كان لا بد من وجود كائن، فليست هناك حاجةٌ لأنّ يكون أنا هو ذاك الكائن؛ هكذا كانت طبيعة الأشياء أنّ ذاك الكائن لم يكن أنا. لكنّ الإنسان، هكذا يطيب

له أن يُحدّث نفسه، هو المخلوق الذي صنع ضرورة من انعدام ضرورته، وهو المخلوق الذي تُحدّده إمكانية القبول الواعي المتعمد لضرورة انعدام ضروريته. وكالعادة، يُطمئن الإنسان نفسه بتمييزه من هذا الجانب، وكذا في العديد من الجوانب الأخرى، بالزعم أنه يتميز عن بقية الحيوانات كلّها من هذه الزاوية. والحيوانات أيضاً غير ضرورية، لكنها لا تتشكّل بطريقة تجعل من عدم ضرورتها شرطاً ضرورياً لوجودها. ويمكن أن نقول جوازاً، إنها لا تربطها علاقة بانعدام ضرورتها. والإنسان يتشكّل في حقيقة الأمر من السّؤال الذي يطرحه على نفسه بخصوص وجوده، حيث يُخلق ويُثبت وجوده فيما يدعوه الفيلسوف جورجيو أغامبين Giorgio Agamben «الآلة الأنثروبولوجية» لاستقصاء الذات هذا.¹³ ورغم أن الوجود الكلي للإنسان، يثير السّؤال التالي: «ما نوع الوجود الذي يجوز أن يكون لي؟»، ويدور في فلكه، نزع الفلاسفة إلى العثور على تعبير قويّ مُحدّد لاستقصاء الذات في ممارسة أنواع مميزة من الأعمال غير الضّرورية، كالفنّ، والرياضة وتعلم الأسلوب الراقي. وعادة ما يُقال إنّ ميدان الجماليّات، يتشكّل باعتباره تلك الضّرورة المتناقضة لما لا تستدعيه الحاجة، وتلك الاعتباطية المحورية لوجودنا، وضَمَّ البعض الرّياضات، والألعاب إلى تلك الفئة. وكتب جان بول سارتر Jean-Paul Sartre أنّ غاية الممثل، أو الرياضي لا تكمن في أن يَمْلِك نفسه كموضوع، بل «أن يرقى بنفسه؛ لينال مكانة كائن بعينه؛ وأعني تحديداً الكائن موضوع نقاش وجوده الذاتي». ¹⁴ إنّ الخصومة، أو الإحساس البشع بالاحتكاك العنيف نوعاً ما الذي ينطوي عليه تماسّ الفلسفة مع الرّياضة، يخفي علاقة أعمق بين الاثنتين. فالفلسفة، شأنها شأن الرّياضة، تتوطن في اللاضرورة، وتمثلها التمثيل الأفضل، بل وحتى في الاعتباطية، حتى لو كانت مهمتها، كالرّياضة، الكشف عن الشّروط الضّرورية للأشياء. وعندما تبحث الفلسفة في الرّياضة، فلعلها نوعاً ما تدرس مرآة لها، وشكلاً منافساً من أشكال التّلاعب بالضرورة.

إن ممارسة البشر لصيد الحيوانات يلقي بظلاله على تلك الموضوعات المتعلقة

بالضّروري، وغير الضّروري. فقد تحدث فيليب ستابز Philip Stubbes عن كثير من المتشدّدين في إدانته لجميع أشكال الرّياضة، والترّفيه، بما في ذلك الصّيد، وفي نقاشه الذي ميّز بوضوح، وجلاءٍ بين ضرورة قتل الحيوانات، ومكافأة الصّيد:

إذا ما حملتنا الضّرورة، أو الرّغبة في الحصول على اللّحوم، على السّعي إلى قتل الحيوانات، فمن الجائز أن نستخدمها دون أن تفرقنا مهابة الربّ تقدّس اسمه. ولكن، إنّ شئنا الترويح عن أنفسنا وإشباع شهوة المتعة العابرة لدينا، فليس من الحكمة أن نصيها، أو نلحق بها أي ضرر. أهو مسيحي حقّ، أم مسيحي زائف، ذاك الذي يجد بهجة في سفك الدّماء؟!¹⁵

ولم يُناع ستابز ممارسة الصّيد لأغراض الترفيه، لكنه أصيب بالهلع بسبب:

الإسراف فيه كلّ يوم، وكل ساعة، وكل أسبوع، وكل عام، وطوال الوقت دون هودة أو انقطاع. وفي خضم مثل هذا البذخ البهيج، نرى أن البعض ينفق أموالاً طائلة، على الصّقور، والكلاب، وضرب من الرّجال الأقوياء الكسالي؛ ليتبعوهم أثناء صيدهم، في عام واحد تفوق ما ينفقونه على فقراء المسيحيين في أعوام، وربما في حياتهم كلها.¹⁶

ويردّد صدى مسألة الضّرورة هذه في نقاشات التشريعات البريطانية الحديثة المتعلقة بالرّياضات الدّموية. فقد كانت غاية قانون الصّيد برفقة الكلاب، الذي أمسى سارياً عام 2005، وحظر صيد الثّعالب في بريطانيا أساساً، تجريم ممارسة القسوة بحق الحيوانات التي عادةً ما كانت تُعرف بـ«المعانة غير الضّرورية». وكما قالت إيما جريفين Emma Griffin، فإنّ تركيز هذا القانون، شأنه شأن الجهود السّابقة له السّاعية لحظر صيد الحيوانات، والتخفيف من وطأته، ليس على معانة الحيوانات، أو رفاهتها من هذا المنطلق، وذلك لأنه لو كان الحال كذلك، لكان

هناك مجالات كثيرة أخرى تُعد فيها المعاناة التي تُكابدها الحيوانات أشد عنفاً وتنظيماً بكثير، ومن ثمّ تمثل تلك المجالات أهدافاً أحق، وأجدر بالتشريعات بكثير. ولكن التركيز على الإخلال الأخلاقي، المتمثل في الاستمتاع بمعاناة الحيوانات، أو اتخاذها مطية لممارسة الرياضة. إنّ حاجة البشر لقتل الحيوانات مقبولة، لكنّ الخط الذي لا يجوز تجاوزه، هو الفاصل بين ذلك و«استحداث رياضة لقتل الحيوانات». ¹⁷ ويبدو أن هذا هو الذي يجعل المعاناة غير ضرورية، ومن ثمّ فهي مُسيئة - ولو أن ذلك يركز على الفرضية المزعجة التي مفادها أن الأشكال الأخرى للمعاناة هي في حقيقة الأمر ضرورية ومبررة. ولكن، ضرورة بحسب مَنْ؟ ومطلوبة مَنْ؟ يحضرنى اكتشاف شخصية بيلاك شواه Belacqua Shuah المروّع في رواية صامويل بيكيت Samuel Beckett «دانتي وسرطان البحر» Dante and the Lobster، لأنّ سرطانات البحر تُغلى حية: «كانت تُلقى، وهي على قيد الحياة في الماء المغلي. رغماً عن إرادتها». ¹⁸

استُبعدت الحيوانات جانباً من الرياضة، كجزء من العمليّة التي أمست بواسطتها الرياضة شيئاً فشيئاً وسيلة تميز الطريفة التي يتمايز بها الإنسان عن الطبيعة، أي إقراره الضمني بإرادته باعتباره الحيوان غير الضروري. من ناحية، فإنّ الغاية من ذلك حماية الحيوانات من الإذلال، والإهانة المصاحبين لمعاملتها كألعوبة. ولكن من المنطلق ذاته، فهذه الخطوة تعزل الحيوانات عن ميدان الألعاب، وتنحيتها جانباً عن الميزة الأنثروبولوجية لانعدام الضرورة، لأنّ هذه الميزة مُدخّرة للحيوان الذي يعطي نفسه الحق الفريد بأنّ يضع نفسه في موضع لعب وهو (ولهذا السبب، فإنّه يحرم نفسه على نحو متشدد من الانغماس في التلاعب بطعامه). وتُعرف القسوة تجاه الحيوانات أيضاً بين الحين، والآخر باسم «سوء المعاملة». ولكن الإساءة إلى الحيوان لا تعني استعماله على النحو الخاطيء، أو للأغراض الخاطئة، بل هو الإقدام على شيء يتجاوز استعماله، بما يوحي كأساس مُتعارف عليه، بأنّ الاستخدام البشري هو ما خلقت الحيوانات لأجله أساساً.

ومن بين العقبات غير المقبولة أمام طريقة التفكير هذه حقيقة أن الحيوانات ليست في الواقع مُستثناة من نطاق، أو إمكانية اللّعب. ومن بين أشهر نظريات اللّعب، وأكثرها أثراً، التي ظهرت لأول مرة في نهاية القرن التاسع عشر في كتاب وضعه كارل جروس Karl Groos (1898)، اعتبرها وسيلة يمكن بها للحيوان أن يتدرب، أو يطور مهاراته في ظروف مُختلفة ستكون ضرورية لإمداده بأسباب الحياة.¹⁹ ويجوز أن ينتهي هذا السلوك العايب لدى الحيوانات عند ممارسة الألعاب التي يُعتقد أنها خاصة بالبشر. وقد يكون العبث كامناً في طبيعة حيوانات بعينها؛ لكن طبع الإنسان وحده، يميل عليه رغبته في العبث بطبيعته، وأن يجعل طبيعته رهناً لعبته. ورغم ذلك، فقد كان هناك بعض الأشخاص الذين هم أقل يقيناً بهذا التمايز الحاسم، مثل ميشيل دي مونتين Michel de Montaigne، الذي اشتهر بسؤاله نفسه في حاشية كتابه «معدرة إلى ريموند سيوند» (Apology to Raymond Sebond) (1588): «عندما ألهو مع هرتي، كيف لي أن أجزم بأنها ليست هي التي تلهو بي، وليس العكس؟»²⁰

إن اصطلاح «الرّياضة الدّموية»، الذي يرجع أول استعمال تاريخي له إلى عام 1895، لا يشير - كما نعرف - إلى رياضة يجوز أن تُراق الدّماء خلالها، وإلا لكانت كرة القدم والرجبي، وحتى لعبة تنس الطاولة التي أصابني منها ضربة بشعة من حافة الطاولة، يمكن أن تُعدّ رياضات دّمويّة، بل هو يشير إلى رياضة، الغاية فيها إراقة الدّماء، أو إلحاق الأذى عموماً فيها بكائنات حيّة. وفي هذه الحالة، يكون الاصطلاح مجازاً مُرسلاً (ولهذا السّبب يمكن الزّعم أحياناً أن الملاكمة تُعدّ رياضة دّمويّة لأننا نجد في هذه الرّياضة تحديداً أن إلحاق الأذى هو الغاية المنشودة، لا المحصّلة العارضة). والمهمُّ هنا أن اصطلاح «رياضة دّمويّة» يبدو أنه يجوي لفظتين نقيضتين؛ ما دام الاستمتاع بالمعاناة أصبح يبدو التّقويض التام للرّياضة. ورغم ذلك، فتلك هي محصّلة عملية طويلة جداً أصبحت فيها فكرة الرّياضة، وممارستها على مهل مُنفصمة عن علاقتها بالأفعال العدائية، أو القاسية. ومنذ بداية استعمالها في اللّغة الإنجليزيّة، كان معنى كلمة «رياضة»:

«تسليية النفس»، و«التسخيرية»، أو «العبث» من شيءٍ آخر بخلاف الذات. وتُجسّد الكلمة تضارباً، فالتسليي بإلحاق الأذى فضيحةٌ. ومع ذلك، فقد ارتبطت الرّياضة لعدة قرون مع تلك العمليّة تحديداً. يقول غلوستر شاكيّاً في مسرحيّة شكسبير «الملك لير»: «نحن بالنّسبةٍ للآلهة كالذّباب للصّبيّة العابثين؛ يقتلوننا على سبيل العبث». (الملك لير، الفصل الرابع، المشهد الأول، البيتان 36-37).

ولطالما حملت فكرة الرّياضة في طياتها عنصراً من عناصر الازدواج، والمحاكاة، وشيئاً من الانفصام الداخلي عن الواقع. ولكي يكفل الصّيد التّسليية والترفيه، فمن الضّروري أن ينطوي على نوع من الغموض المطوّل، وإطالةٍ عابثةٍ خارج نطاق الممكن. وقد لاحظ كثيرون أوجه الشبه بين الصّيد والمداعبة الجنسيّة في هذا الصدد. فقد صرح أحد الكُتّاب الرومانسيين خلال الفترة المتأخّرة من القرن السّادس عشر: «يمكنني تشبيه العشاق عن جدارة بالصّائدين الذين يروق لهم اللّهُوُ والعبثُ أكثر من اصطيد الطّريدة نفسها، أو بالذي يطيب له الذهاب لصيد الأسماك، ورغم ذلك لا يصطاد إلا ضفدعاً».²¹ وحقيقة الأمر أنه يجوز لنا القول إنّ تحول الإحساس نفسه، أو انصرافه، أو شدوذه الذي ينطوي عليه استمداد المتعة من الألم يكمن في جوهر العبث واللّهُو. ورغم أن الحيوان يبدو ظاهرياً عاجزاً عن المشاركة في هذه العمليّة، فقد كان لا غنى عنه مع ذلك لها، وتحديدأ لأنّ معاناته هي ما تقتضيه الحاجة.

ولكي نفهم ذلك، ينبغي أن نلاحظ تناقضاً جوهرياً تنطوي عليه رياضة الصّيد. لقد صوّر المدافعون عن رياضة الصّيد، وأنصارها لعقود تلك الرّياضة على أنها بدهيّة للإنسان، أو علامة على التواصل بين الإنسان والطّبيعة. وحتى مونتين (Montaigne)، الذي هالته بشدّة القسوة تجاه الحيوانات، قال: «إننا نخرج لصيد الحيوانات بينما تخرج الأسود والنمور لصيد البشر، فكل وحش يمارس رياضة شبيهة ضد الآخر: الكلاب ضد الأرانب البرية، وسمك الكراكي ضد سمك التنش، وطيور السنونو ضد الجندب، والصّقور ضد طيور الشحرور والقُبْرَة» - مع أنه ينبغي لنا أن نلاحظ أن الترجمة الإنجليزيّة التي اقتبسها هنا

تبالغ في المسألة نوعاً ما، لأنّ مونتين لم يكتب تحديداً عن الحيوانات التي تمارس الرياضة، بل «التي يبذل كل منها أقصى ما في وسعه ضد الآخر».²² ولكن رياضة الصّيد تنطوي على مزيج معقد من الطّبيعي وما يجوز تسميته بـ«ما وراء الطّبيعي»؛ وأعني الطّبيعيّ الذي يُزاح بأدنى قدر ممكن إلى نطاق «الطّبيعيّ». ولعلنا نستشف ذلك في اصطلاح «فلتة من فلتات الطّبيعة»، وهو ترجمة عن اللاتينية *lusus naturae* تعني: محل سخريّة، أو شخصاً غريب الخلقّة، الذي درج استخدامه في أوائل القرن السّابع عشر للإشارة إلى الشذوذ، أو الحيود العارض عن قانون الطّبيعة، أو لعبة تلعبها الطّبيعة مع نفسها، إذا جاز التعبير (أشارت كلمة «freak» أساساً إلى نزوة أو خدعة لا تشوّه خلقي) - ويقترح قاموس أكسفورد للغة الإنجليزيّة أن هذه الكلمة ربما تجانس الكلمة الإنجليزيّة القديمة *frician*، بمعنى «يرقص»).

وهناك تناقض جوهري في فعل الصّيد. فهدفه الأساسي هو ما يَعد به من إخضاع الطّبيعة، وإثبات ترويضها. وعليه، فهو لا ينطوي وحسب على فعل - وأريد فعل مطاردة الحيوان وقتله - بل على أداء أيضاً، أي إنفاذ لمعنى الفعل. فالصّيد شكل من أشكال الفعل، وفي الوقت عينه هو شيء يُمثّل على أرض الواقع. وكما لاحظ مات كارتميل Matt Cartmill، فإنّ معنى الصّيد هو أنه «مواجهةٌ مُسلحةٌ بين الطّبيعة البشريّة، والهمجيّة، بين الثّقافة، والطّبيعة».²³ ففي عملية الصّيد، يعد الإنسان نفسه استثناءً فعلاً عن الطّبيعة. ولكن الصياد ليس ببساطة، أو على نحو مباشر، خارج الطّبيعة، أو على الجانب الآخر منها. وذلك لأنّ ما يُميز الصّيد هو أن المرء يصيد الطّبيعة بالاستعانة بالطّبيعة، وتحديدًا باستخدام عناصر مساعدة كالكلاب، والصّقور، والحياد، ولكنه أيضاً يستعين أحياناً بحيوانات غير متوقّعة، مثل الفهد الصياد.²⁴ والحيوان بضرورة الحال مشاركٌ في عملية الصّيد، وكذلك خصم فيها. وليس ذلك وحسب، بل إنّ الخرافة والرّمزية اللّتين يزخر بهما الصّيد تمثلان الحيوان الطّريد، وكأنه مرآة، أو الوجه الآخر للصياد.

لقد استخدمت الحيوانات الخاضعة لرياضة الصَّيد في غابةٍ من الرموز. وأهم سمة من سمات هذه الرمزية هي القابلية للانعكاس والتكرير. وكل عملية صيدٍ فردية، رغم أن خطَّ سيرها دائماً ما يكون غير متوقع بشكل مقبول، قابلةً للتكرار على نحوٍ موثوق أيضاً، من حيث نتائجها الحتمية، ألا وهي مقتل الحيوان. فكل وعل ذبيح هو ذاته وبحد ذاته، وصورة الوعل الذي يجسده في آنٍ واحدٍ. والواقع أن ثمة جزءاً محورياً من الأساطير المرتبطة بالوعل، وهو الاعتقاد بطول عمره غير العادي، بل حتى قوته السحرية على التجديد الذاتي. وهناك قصة لأيل قُتل في غابة ويندسور، في القرن الخامس عشر، ووجد أنه يرتدي طوقاً مكتوباً عليه «يوليوس قيصر، عندما كنت في ريعان الشباب / وضع هذا الطوق حول رقبتى».²⁵ وفي هذا السياق، ينفرط عقد الموت بفعل النظام الرمزي: والواقع، يجوز أن يزعم المرء أن الموت بقدر ما هو الآخر، أو خارج النظام الرمزي، فهو ما يهدف الصَّيد رمزياً إلى تحويله وتحبيده.

وهذه ليست قابلية الانعكاس الوحيدة الواضحة في رياضة الصَّيد، فقد أنتجت رياضة الصَّيد في القرن السابع عشر عدداً زاخراً من الاصطلاحات الفنية، والشعائرية التي قد يساء فهمها على المسؤولية الاجتماعية لمن يسيء فهمها. والطبيعة تُرصد، وتتشعب بفعل طقوس العريضة الماجنة، والمفرطة من التخصيص والتمييز، التي تشبه في شكلها التشعب الشجري للقرون التي كانت بحد ذاتها من بين خصائص الأيل الخاضع لتلك التسمية الدقيقة للأجزاء. كانت كل مرحلة من مراحل الفعل مُصممةً بعناية، بحيث تجعل الصَّيد مُلتقى ما هو موثوق وغير متوقع، والضَّروري، والعارض. كانت القيم ثابتة، ومع ذلك غير قابلة للانعكاس. ومثال ذلك الاهتمام الشعائري بروث الأيل الذي استظهره مقتنفو الآثار الخبراء بعناية المنجمين الذين يبنون تنبؤاتهم على أحشاء الأضاحي. ويقدم لنا جورج جاسكوين George Gascoigne صورة دقيقة لمجموعة مختارة من روث الأيائل - أو دخانها كما كانت تُعرف في الماضي - حيث كانت تُقدَّم بكل إجلال إلى الملكة إليزابيث الصغيرة (التي لا تفتأ تحافظ على رياضة الصَّيد

طوال حياتها، حيث كانت متأهبة دوماً لقضاء اليوم كله على صهوة الجياد في أواخر الستينات من عمرها): «إذا ميّزت دخانه عند كل نقطة / ستجدينه طويلاً ومستديراً وزلقاً / ومعقوداً ورائعاً دون بروزاتٍ أو نتوءاتٍ / وتبدو عليه الرطوبة والتداوة برهاناً على ما يعتمل بداخله»²⁶ ويبدو الروث والسيات الحيوانية، والعائلة الملكية في هذا السياق قابلة للانعكاس على نحوٍ مثالي، ومنسجمة على نحوٍ ملائم. وما ينطبق على روث الحيوان، ينطبق كذلك على جثمانه فور أن يُقتل. ولقد دعت رموز رياضة الصّيد إلى شعيرة تفكيكية دقيقة مضنية، حيث يتمايز وضع الشرائع وترتيب، وتمزيق الأوصال، وتوزيع الأقسام المختلفة للجنة تمايزاً شديداً.²⁷ ولعل السّبب الظاهريّ، أو العام لهذه الشعيرة، هو إبداء الإجلال الواجب لجثمان خصم نبيل، ولكن يبدو أن تلك الشعيرة مُصمّمة أيضاً للحيلولة دون أن ينفلت جثمان الحيوان القتل من سياق الدلالة، وينتقل إلى حالة الفائض غير المتمايز، أو المادة المحضة. إنّ الكم الكبير من الكتابات الأدبية المكرسة لتناول رياضة الصّيد حرصت على تصويرها على أنها ضرب من الشُّعر، بقدر ما هي ضرب من الافتراس، ومادة لصناعة الكلمة بقدر ما هي براعة في اختراق الغابات، وإتقان دروبها.

ولا ينبغي علينا نسيان الصلة القوية الرّاسخة بين الرياضات الدّموية، والطبقة الأرستقراطية. وتشير الطبقة الأرستقراطية في هذا السياق إلى ما يتجاوز المصائر المتقلبة لطبقة بعينها. وذلك لأننا نستطيع أن نلمس في الرياضات الدّموية رغبةً لما عرّفه الفلاسفة ابتداءً من نيتشه، على أنه سيادةٌ مطلقةٌ تمتد إلى ما يتعالى على السُّلطة السياسيّة الفعلية. فالإرادة السيادية تأمل في أن تتسامى على الطّبيعة، بما في ذلك - خاصةً - طبيعتها الخاصّة. إنّ هذه الآليّة هي التي تفسر المزيج الحميم على نحوٍ عجيب للتماثل، والخصومة في رياضة الصّيد، وما تدعوه دونا لاندرى Donna Landry باتفاق الجميع «فقدان تعريف التمايز البشري في أثناء المطاردة».²⁸ فالحيوان يجب أن يكون الذات «الطبيعيّة» للصيد نفسه التي تُعرّض للخطر. والحيوان هو الحامل الخارجي لصراع الروح الداخلي هذا. علاوة على

ذلك، فالسيادة تعني القدرة على استدعاء الرمز، وإنجاز انعكاسات المعنى المميّزة لرياضة الصّيد. ويؤكد الصياد نبله، أي تمايزه واستقلاله المطلقين، عبر بديل الحيوان، وعبر حقيقة أن الحيوان يمكن أن يعني أي شيء. ويعتمد تعدد التحور الشكلي لذكر الأيل والأرنب البري، والثعلب على قدرة شريكه البشري، في العمليّة الجارية بينهما، على تفعيل معنى كل شيء في تلك العمليّة على أرض الواقع. ولكن قوة إحداث الانعكاس ليست قابلة للانعكاس جوهرياً، فالرياضة هي ضرب من التلاعب بالحياة - تلاعب بقوى الحياة التي ربما بدا أنها تجعلك العوبتها.

وقد لاحظ الكُتّاب الذين خاضوا في مجال الرّياضة عن حق طبيعتها «المقدسة»، معتمدين في ذلك على لغة الجسد، والتلاعب بالمغزى الذي لا يُفرض أساساً عبر الرمزية التجريدية، بل من خلال قوى، وأشكال الأجسام أثناء حركتها وكما تشير كلمة «مقدسة» فإنها تركز على التضحية. وفي نهاية المطاف، فإنّ بشاعة الصّيد لا تعتمد على تهمة القسوة، ومع أنه يجوز فعلاً أن تنطوي على ألم، ووجع هائلين للثعلب، أو الأرنب البري. والواقع أن الحيوان لا يُقتل عبر رياضة الصّيد بقدر ما يُمنح موته ويُجرم منه في آنٍ واحد؛ والواقع أن ألمه، وموته هما محل عبث في هذا السّياق، أي أنّها أقصيا إلى المعنى، وإلى العبث، وإلى الأداء الرياضي. وما أمسى مثيراً للغثيان هو أننا، كالكركدن الأسود لتيد هيز في القصيدة المسماة بالاسم نفسه، نجد أن الحيوان الطريد «سقط بطريقة ما في سلسلة أو هام الإنسان، وليس بوسعه الخروج منها».²⁹

وعلى ذلك، فإنّ السّمة الأكثر سوءاً للصّيد هي مكانته كمشهد، أو منظر. والحيوان الطريد يُصوّر على أنه طرف فاعل عن طيب خاطر على خشبة مسرح يجبه. يكفل الحيوان للإنسان هواً عندما يُقاتل ويصارع، ومن ثمّ فإنّه يُرجى ويُتوّع ما يُشعر الإنسان مع ذلك أنه المحصّلة الحتميّة لرياضة الصّيد. وفي هذا السّياق، نرى الحيوان ينضم إلى البشر الذين يعبثون به، بإخضاع طبيعته الخاصّة وجعلها موضوعاً للعبث، ودخوله نطاق اللاضروي بدلاً من الضّروريّ.

والقسوة والعنف اللذان يُمارسان بحق حيوانات الصَّيد هما محاكاة لحقيقة أنها تقدم للصيد رياضة بالمجان - وأعني العبت بالتظاهر بحريتها. إنَّ الحيوانات خصوم في اللُّهُو؛ وينبع عذاب الحيوان في الصَّيد من المعاناة الزَّائفة التي يُحمل الحيوان على تقديمها في الظاهر، والسخرية القاسية من استعباده النَّاجمة عن تلك المعاناة. والواقع أن رياضة الصَّيد هي رياضةٌ تعول على المشهد الذي يسمح للإنسان بالتلذذ بالمنافسة الخياليَّة على النحو نفسه، بحسب بلينيوس Pliny، الذي تشاهد به الطَّبيعة، وتلذذ بالعبت الدموي للعداء البشري. وتطرح ترجمة فليمون هولاند Philémon Holland، عام 1601، لكتاب «التَّاريخ الطَّبيعيّ» *Natural History* لبلينيوس، السُّؤال التالي حول المنافسة العنيفة المفترضة بين الأفيال والتنانين: «أي سبب يمكن أن يدعيه الإنسان لتفسير هذه الحرب الشعواء المَهْلِكَة بينهما، لو لم يكن طبيعة العبت نفسها، والمتعة التي يستقيها من وضع هذين الخصمين العتيدين المتكافئين في جميع الأوجه في مواجهة ضد بعضها البعض؟»³⁰

وبهذه الطَّريقة، يصبح استعراض الفعل الوحشي، هو وحشية استعراضه ذاتها. ويفكر المرء في قصة المسرح الألماني في القرن التَّاسع عشر، الذي تضمن التقنين المتشدد له حظر جميع ألوان الارتجال أو الفعل غير المنصوص عليه سلفاً. وفي ليلة من الليالي، كان هناك ممثل يؤدي فقرة مستعينا بجوادٍ حيٍّ أُخرج على حين غرة كتلة كبيرة من الروث اللزج على خشبة المسرح. فقال الممثل مُتَجَبِّاً: «ما الذي تفعله؟ ألاَّ تعلم أن الارتجال، محظور علينا؟» إنَّ الارتجال مستحيل على الحيوان الطريد استحالته على الحيوان المؤدِّي لل فقرات الترفيهية، وذلك لأنَّ كل التفاتة منه منصوِّص عليها مسبقاً بمعرفة مسرح قسوة الصَّيد - ولو أن هذا الاصطلاح هنا له معنى مُعاكس تماماً للذي يرومه الشاعر الفرنسي أنطونين أرتو Antonin Artaud الذي ابتدع العبارة أصلاً،³¹ من ناحية أن التكلف هنا لا يُصبح أكثر واقعية وفورية بواسطة عواطف الجسد، بل يمحو معاناة الحيوان، حتى وهو يُصر عليها.

ظَلَّت كلمة «رياضة» حتى نهاية القرن التَّاسع عشر تشير إلى أشكالٍ عدَّةٍ

من الصَّيْد، وسباقات الجياد (رياضة الملوك)، وسباقات الكلاب التي كانت مُعادلات مُشاهديها. وتؤكد صحيفة «سبورتنج لايف» «Sporting Life»، التي بدأ إصدارها عام 1859، هذا الاستخدام. وتوضَّح البداية الحزينة لمقالة استعراضية عام 1899 لموسوعة الرِّياضة (The Encyclopedia of Sport)، حررها إيرل سافولك وبيركشاير، أن التماثل بين الرِّياضة، والصَّيد كان قوياً جداً، وبدأ يذوي في الوقت عينه في نهاية القرن التاسع عشر: «في انتشار الحضارة هلاك للرِّياضة البربرية. فقد طفقت بعثات الاحتلال، والغزوات، وعمليات ضم الأراضي، ومناطق النفوذ، بالتزامن مع وصول الأسلحة النارية إلى مرحلة الكمال، تبيد الحيوانات البرية، أو تطاردها من مكانها السحيقة، وتضطرها إلى ملاجئ أقل في إمكانية الوصول إليها».³² ويفسر ذلك الكتب العديدة الصَّادرة في أواخر القرن التاسع عشر، بما لها من عناوين قد تبدو مُستبعدة، مثل «الرِّياضة في أرض الصومال» (Sport in Somaliland) و«الرِّياضة في شبه جزيرة القرم» (Sport in the Crimea) و«الرِّياضة في سهول التبت» (Sport on the Tibetan Steppes)، ولا يُعد أي منها دراسة عرقية للألعاب، والهوايات المحلية؛ وبالمثل نجد أن ثمة مقالة نُشرت عام 1893 حول «الرِّياضة في الثلوج»، واتضح أنها تتناول صيد الدببة في روسيا.³³

ومن الممكن أن نحتج بأن التمدن المستمر للسكان، علاوة على النظرة إلى الطَّبِيعَة والحيوانات التي كانت أكثر انفصاماً ونفعيةً من ذي قبل بكثير، مسؤولان نوعاً ما عن التآفف المتزايد من الصَّيد من أوائل القرن التاسع عشر فصاعداً، الأمر الذي تبلور في بريطانيا، وتحور إلى معارضة الأغلبية في السَّنوات الأخيرة. ومن بين آثار التمدن الأخرى نمو الرِّياضات المنظمة الحاشدة جماهيرها، التي تشارك فيها الحيوانات بقدر أقل شيئاً فشيئاً. وبوسعنا تأريخ التغير الطارئ على كلمة «رياضة» إلى فترة قصيرة جداً، تبدأ من نهاية القرن التاسع عشر، وهي تحديداً الفترة التي بدأت فيها الجماعات الإنسانية والجماعات المناهضة لتشريح الحيوانات الحية تمارس أقوى أثر لها على الإطلاق. وفي أوائل تسعينيات القرن

التاسع عشر، كانت كلمة «رياضة» تعني عادةً الصَّيد. وبحلول العقد الثاني من القرن العشرين، كان من الأرجح أن تشير كلمة «رياضة» إلى الألعاب الجماعية المنظمة بين البشر. ويعكس هذا التغيُّر الذي حدث في الاتجاه المعاكس بين منتصف القرن السابع عشر، ومنتصف القرن التاسع عشر، وبموجبه أمست الرِّياضات الريفية تُعرف باسم «الألعاب»، وباتت الرِّياضة تشير إلى الصَّيد على نحوٍ أكثر خصوصية من ذي قبل.³⁴ وقد نشأ التغيُّر في معنى كلمة «رياضة»، بحيث أضحت تشير إلى الممارسات الترفيهية التنافسية المنظمة بين البشر، عن النمو الثابت خلال القرن العشرين للرياضات التي يُستغنى فيها عن سباق تتابع الحيوانات، فيما خلا اشتراكها أحياناً كشركاء أو مشاركين، كما في الرِّياضات الأرستقراطية القديمة مثل رياضة البولو. وما زالت الرِّياضة وسيلة لإضفاء صفة رسمية على إحساس الإنسان بطبيعته غير الطبيعية، وجعلها مفهومةً مُستساغة، لكن الحلم المسيطر بالتماثل بين الإنسان والحيوان أفسح الطريق إلى الإدراك الكئيب بالصدع المعرفي بينهما، الذي يعني نوعاً ما الصدع بين الإنسان وذاته. في الرِّياضة الحديثة، يجب على الإنسان أن يكون الشخص المقابل له، فيُحال إلى ذاته بفعل الأشياء، لا بفعل الكائنات الأخرى.

تحديث الرِّياضة

منذ سبعينيات القرن العشرين، عندما شرع المؤرخون، والعلماء في الالتفات جدياً إلى تطور الرِّياضة ومكانتها في الحياة الثقافية، والسَّياسية، أمسى واضحاً أن الرِّياضة ذات الجماهير الغفيرة كانت واحدة من أبرز سمات الحدائثة المدنية، وأكثرها تحديداً لها. ولم تشهد الرِّياضة مجرد تحديث في القرن العشرين، فما نعنيه الآن بالرِّياضة، نوعاً ما، ما هو إلا اختراع خاص بالقرن العشرين. وبالعكس، نجد أن الرِّياضة كانت واحدة من أكثر الطرائق المميّزة التي تمخضت عنها حدائثة القرن العشرين. ولقد التفت الفلاسفة أيضاً، خصوصاً المهتمين منهم بتطوير الأشكال الحديثة للحياة الاجتماعية، والاقتصادية، على نحوٍ متزايد، ومطرد إلى

الرَّيَاضَةُ خِلالَ القَرْنِ العَشرِينِ، وَهِيَ الفَترَةُ الَّتِي اتَّخَذتْ فِيهَا الرَّيَاضَةُ أَشْكالَها الحَدِيثَةَ المُنظَّمَةَ. وَالسُّؤالُ الَّذِي طَرَحَهُ كَثِيرٌ مِنَ هَؤُلاءِ الفِلاسِفةِ، هُوَ ما إِذا كانَ المُنطِقُ يُلْزِمُ النَظْرَ إِلى الرَّيَاضَةِ باعْتِبارِها مُعَارِضَةً لِلمُجْتَمَعِ الجِماهيرِيِّ المَدنيِّ الأَلِيِّ المُنظَّمِ الَّذِي شاعَ خِلالَ القَرْنِ العَشرِينِ، أَم مُعْبَرَةٌ عَنه. وَكثيرٌ مِنَ الكُتَّابِ المَحافظِينَ الفاشِيينَ أَنصارَ النَظْريَةِ العَضُويَّةِ، الَّذينَ تَميَّزتْ عِندَهُم الرَّيَاضَةُ بِالعَظَمَةِ وَالخافِزِ وَالدِينامِيكيةِ، رَأوا فِيها احتِجاجاً ناقِماً عَلى المِكنةِ. وَمِن بَينِ أَكثَرِ هَؤُلاءِ تَشَدُّداً خوسِيهَ أورتيجا إي جاسيت José Ortega y Gasset، الَّذِي يَؤكِّدُ فِي كِتابِهِ «تَأملاتٌ حَولَ الصَّيْدِ» *Meditations on Hunting*، الَّذِي نُشِرَ لأوَّلَ مَرَّةٍ عَامَ 1934، التَّساميَ الأرسِطَراطيَّ لَعالمِ الضَّرورةِ المَجمِعيَّةِ، أَو الاحتِثارَ المَوجَّهَ لَه.³⁵ وَفِي مَقالَةٍ لاحِقَةٍ نُشِرتْ عَامَ 1940، قَدِمَ جاسيتُ إِعادَةَ عَرضِ اللتعارُضِ بَينَ الرَّيَاضَةِ وَالعَقْلانِيَّةِ، عَلى هِئِةِ تَفكُرٍ عَجيبِ فِي أَصولِ الدُولَةِ نَفسِها. إِنَّ المَبْدَأَ الأَساسِيَّ الَّذِي يُحَرِّكُ مَقالَةَ جاسيتِ هُوَ عَدمُ قابِلِيَّةِ اختِزالِ الحِياةِ فِي المَنفَعَةِ. وَحِثِما جَلَبتِ الاعْتِباراتِ النَفعِيَّةِ التَكييفَ، وَالتَّلَاقِيَّ بَينَ الوَسائِلِ وَالغاياتِ، تَتكوَّنُ الحِياةُ جَوهَرياً بِإِفراطِ: «إِنَّ أَوَّلَ نِشاطِ حِياتِي أَصيلٌ دائِماً ما يَكونُ عَفَويّاً فِياضاً مُتَدَفِّقاً... وَفِي البِدايَةِ يَكونُ هَناكَ حَراكٌ، وَحماسَةٌ لا مَنفَعَةٌ». ³⁶ وَيرِبطُ جاسيتُ بَينَ الغَريزَةِ الرَّيَاضِيَّةِ، وَالإِفراطِ البَهِيجِ، لا الكَدَ وَالعَمَلَ: «يَبدو النِّشاطُ الرِّياضيُّ بِالنِّسبَةِ لَنا أَهمَّ جِزءٍ فِي حِياتِنا، وَأَكثرَها إِبداعاً وَتساميًّا وَجَدِيداً، بَينَما يَأتِي العَمَلُ فِي المَرتَبَةِ الثانِيَّةِ، حِثِثِ إِنَّه نِشاطٌ ثانَوِيٌّ طائِشٌ. لا، بَلِ وَالأَهمُّ أَنَّ الحِياةَ تَكمُنُ فِي الرَّيَاضَةِ حَصرًا؛ وَأَما ما سِواها، فَهُوَ آليٌّ نَسبيًّا، وَوِظيفيٌّ مُحضٌ». ³⁷

وَيَقترحُ جاسيتُ فِي مَقالَتِهِ المثيرَةِ تَغييراً عَلى رِوايةِ فِرويدِ فِي كِتابِهِ «الطَّوطُمُ وَالْحِرامُ» (*Totem and Taboo*) لاسْتِهلالِ الشُّعورِ بِالذَّنْبِ العِصابِيِّ فِي جَريمَةِ قَتْلِ البَطْرِيرِكِ فِي الحِشْدِ البِدايِيِّ؛ وَيرتَكِزُ جاسيتُ عَلى النِزَعَةِ الشَّهوانِيَّةِ الَّتِي تَسوقُ الذَكَورَ الشُّبابِ فِي الحِشْدِ إِلى البِداءِ فِي اشْتِهاهِ إِناثِ الحِشودِ الأَجْنيبَةِ. وَبِما أَنَّ هَذِهِ الحِشودَ الأَخرى مِنَ المَسْتَبَعَدِ أَنَّ تَتَخَلَّى عَن نِسائِها لِيعْتَصِبْنَ دُونَها، فَمِنَ الضَّرورِيِّ أَنَّ يَجمَعُ هَؤُلاءِ الشُّبابِ المَراهِقونَ الشَّهوانيونَ، وَأَنَّ

ينصاعوا إلى التخطيط، والانضباط كي يحققوا هدفهم. وبالنسبة لجاسيت، فإنَّ هذه البنى الجمعية، المادية منها، والمؤسسية أيضاً، هي التي تُشكل بداية الدولة: لم يكن المنزل الأوّل الذي أنشأه الإنسان بيتاً للعائلة، وهو ما ليس له وجود إلى الآن، بل متدى ترفيهي للرجال الشّباب؛ هنا يعدون العدة لمغامراتهم، ويؤدون طقوسهم؛ وهنا ينغمسون في الإنشاد والغناء والسكر، والولائم الجنونية. وسواء اتّفقنا أم اختلفنا، فالنوادي أقدم من العائلة، والمتدى الترفيهي أقدم من الموقد المنزلي.³⁸

ومن ذلك، يستطيع جاسيت أن يخلص إلى التالي: «لم يكن العالم أو المفكر أو القديس، إنَّ شئنا الدقة، أو رجل الأعمال، هو الذي أسس العمليّة السياسيّة العظيمة، بل الشّباب المنشغل بالنساء المصّر على القتال - الشّباب العاشق المحارب الرّياضي».³⁹

ولم يرَ الآخرون في الرّياضة مجرّد حافز عام مناقض للنفع، أو مضاف له، بل ردة فعل محدّدة للنفعيّة المتشنجة التي ميّزت العالم الحديث. ولعلنا نلمس بدايات هذا المسار الفكري في كتاب هيجل «فلسفة التّاريخ» *Philosophy of History* الذي احتج بأن:

الرّياضة نفسها مُعارضة للعمل الجاد، والتبعية والعوز. فلم تكن هذه المصارعة والعدو والخصومة مسألة جديدة، فلا يوصى بأي التزام تجاه الدفاع ولا ضرورة للقتال. إنَّ الانشغال الجاد هو العمل الذي له مرجعية تربطه بعوز ما. أنا أو الطّبيعة يجب أن نخضع؛ فإذا كان للفرد أن يستمر ويصمد، فيجب على الآخر أن يسقط. ولكن، على التّقيض من هذا النوع من الجدية، نجد أن الرّياضة تقدم الجدية الأعلى درجة، لأنَّ الطّبيعة في الرّياضة تتشكّل وتحوّل إلى روح. ورغم أنه في هذه المنافسات لم يرتق الفرد إلى أعلى درجات الفكر الجاد، فهو في ممارسته لقواه البدنيّة يُثبت

حريته؛ أي أنه حَوَّلَ جسده إلى عضو روحاني.⁴⁰

وفي ألمانيا، أكثر من أي مكان آخر، بحسب قول جون هوبرمان John Hoberman، أن الرِّياضة نشأت كشيء لا يقل عن أسلوب جديد وجدت فيه مجموعة متنوعة أيديولوجياً من الأمزجة مسألة ذات أهمية اجتماعية، وفي حالات ليست بالقليلة مكاناً للقيم في عالم متعطش لها.⁴¹ وكتب هاينز ريسه Heinz Risse في كتابه «علم اجتماع الرِّياضة» (Soziologie des Sports)، الصادر عام 1921، أن «الإنسان المميكن ليس لديه أي هيئة أخرى يمكنه من خلالها إظهار إرادته في الحياة اليومية سوى في مجال الثقافة البدنية». ولقد وجد في عداء الماراثون:

تعبيراً غريباً عن شعورنا العالمي الكامل، يريد أن يهيمن على كل شيء في الزَّمن السابق، واللاحق، الذي ليس له حدود، ودائماً ما يكافح لتجاوز ذاته. ودائماً ما نجد أنفسنا رجالاً ونساءً أول أمس وبعد غد. ونقف دائماً زمانياً، ومكانياً بقدم واحدة في الماوراء. والرِّياضة منسجمةٌ انسجاماً تاماً مع هذا الشعور العالمي.⁴²

ولقد ذكر كارل جاسبرز Karl Jaspers، عام 1931، في كتابه «الموقف الفكري من الحاضر» (Die Geistige Situation der Gegenwart) (تُرجم إلى الإنجليزية على النحو التالي: «الإنسان في العصر الحديث»)، أن «الرِّياضة ليست قاصرة على اللُّعب وتسجيل النقاط فقط، بل هي ضرب من التحليق والانتعاش».⁴⁴ وانطلاقاً من هذا المفهوم، فهي «تحدٍ للحاضر الجامد. إنَّ الجسد البشري يُطالب بحقوقه الخاصّة في عصر تبيد فيه الآلة بلا شفقة وبلا رحمة إنساناً تلو الآخر».⁴⁵ وبالمثل، نجد أن المؤرخ الهولندي يوهان هويزينجا Johan Huizinga يرى أن الرِّياضة مُحركةٌ للطاقت الوجدانية، لولا الرِّياضة التي كانت عرضةً لخطر الأشكال المفروضة للعب والترفيه: «لم تُثور ثائرة الجماهير إذ يُتبعون مباراة كرة قدم؟ إنَّ حدة اللُّعب هذه والاستغراق فيه ليس لها تفسير في التحليل البيولوجي. ومع ذلك، ففي هذه الحدة والاستغراق وقوة الإصابة بالجنون يكمن الجوهر الأساسي والسُّمة البدائيّة للُّعب».⁴⁶

ولكن، كان هناك تيار فكري آخر يرتبط كثيراً بالنقد الماركسي واليساري للثقافة، لم يرَ في الثقافة التوكيد الوجداني للحياة أو الحافز أو الروح، بل رأى فيها تعويضاً زائفاً واهناً عن المتع الأصيل للحياة البدنية. ومن ثم، فقد عد ذلك التيار الفكري الرياضي وسيلة لتوسعة نطاق ميكنة الإنسان. وقد لخص لويس ممفورد Lewis Mumford هذا الخط النقدي، إذ كتب عام 1933 أن «الرياضة التي ربما بدأت أصلاً كردة فعل عفوية ضد عصر الآلة، أمست واحدة من الواجبات الجماهيرية لعصر الآلة».⁴⁷ واعتقد روبرت موزيل Robert Musil، الذي يُعد رياضياً سابقاً، أن تبعية الفن للرياضة، في هوس الفن بأجساد الرياضيين، «انتصاراً عظيماً بلا شك للرياضة على الروح».⁴⁸

ويمكن العثور على الشكل الأكثر تطوراً لهذا النقد في أعمال تيودور أدورنو T. W. Adorno. ففي كتابه «جدلية التنوير» (The Dialectic of Enlightenment)، يرى أدورنو وهوركهايمر الرياضة جزءاً من أداة العقلانية التي يقارناتها بالمواد الإباحية:

إن ما وضعه كانط أساسه على نحو مُتعالٍ، ألا وهو العلاقة بين المعرفة والتخطيط التي دمغت طابع الضرورة الحتمية على كل جانب من جوانب الوجود البرجوازي الذي كان مُسوغاً، حتى في كل مُتَنَفِّس، أدركه ساد (Sade) تجريبياً منذ أكثر من قرن مضى قبل ابتكار الرياضة. وفِرَق الرياضة الحديثة المنضبط تفاعلها انضباطاً دقيقاً جداً، لدرجة أنه ما من عضو من أعضاء الفريق يساوره أي شك حيال دوره، التي توفر احتياطياً لكل لاعب، لها نظيرها المائل في الفِرَق الجنسية لجوليت، التي تستغل كل لحظة الاستغلال الأمثل، ولا تتجاهل أي فرجة في جسم الإنسان، وتوظف جميع الوظائف البشرية. إنَّ الفعل المكثف الهادف يهيمن في الرياضة، كما في جميع فروع الثقافة الجماهيرية، بينما لا يستطيع المشاهد غير المدرب على النحو الكافي، التفريق بين التوافق، أو معنى

التنوعات بواسطة القواعد المحددة على نحوٍ اعتباطي.⁴⁹

وفي مواضعٍ أخرى، يربط أدورنو بين الموسيقى التقلّيدية، والموسيقى الشعبية:

يبدو أنها تُعيد بشكلٍ خيالي للجسد بعض الوظائف التي حرّمته الآلات منها في واقع الأمر - نوع من التعويض عن الحركة البدنية الذي تُستفد فيه الطاقات الحركية الحرة على نحو مؤلم للشباب تحديداً. وفي هذا الصدد، نجد أن وظيفة الموسيقى حالياً ليست مختلفة جداً عن الوظيفة الجلّية، التي رغم ذلك لا تقل غموضاً، عن وظيفة الرياضات. وفي الواقع أن نوع المستمع إلى الموسيقى المتمتع بخبرة بمستوى الأداء القابل للقياس بدنياً يُقارب نوع عشاق الرياضات. وقد تتمخض الدراسات المكثفة عن عشاق كرة القدم، ومدمني الموسيقى عن أوجه شبه مذهلة.⁵⁰

واتفق أدورنو مع رأي ثورستين فيبلين Thorstein Veblen بشأن الرياضة، باعتبارها «ليست أثراً قديماً لشكل سابق من أشكال المجتمع، بقدر ما هي ربما تعديل مبدئي لشكله الجديد المنذر بالخطر». ⁵¹ ويرجع ذلك تحديداً إلى أن الرياضة تُنظم وتضفي طابعاً صناعياً على المتع البدنية الحرة التي يبدو أنها تقدمها:

«ربما قال المرء إنّ الرياضات الحديثة تسعى إلى إعادة بعض وظائف الجسد التي حرّمته منها الآلة. لكن تلك الرياضات تمضي في سعيها هذا فقط لتدريب البشر بقدر أكبر وبلا هوادة على خدمة الآلة. وعليه، فإنّ الرياضات تنتمي إلى عالم حجب الحريات، بغض النظر عن مكان تنظيمها». ⁵²

إن أدورنو على حق بلا شك، إذ يرى الرياضة جزءاً من العالم الحديث، أو أنها مُحاصرة بين الحديث، والعتيق. وخلال القرن العشرين، أُمست فكرة الرياضة عينها موضوعاً لبعض آثار التمييع المشهورة للحداثة، حيث إنه خلال السّنوات

الأولى للقرن العشرين، بدأت الرياضة تصبح أكثر تنظيمًا شيئاً فشيئاً، وأكثر مهنية وتجارية. ولم تعد الرياضة مسعى ريفياً أرستقراطياً، بل مسعى مدنياً خاصاً بالطبقة العاملة. وتمس افتتاحية قصيدة فيليب لاركن «MCMXIV» Philip Larkin شيئاً من هذه المكانة الجديدة للرياضة، كوسيلة ترفيه جماهيرية:

تلك الصفوف الطويلة غير المنتظمة
التي تقف صابرةً
وكأنها ممتدة خارج
ملعب ذي أوفال للكريكيت أو استاد فيلا بارك،
وقمم القبعات، والشمس
التي تعكس ضوءها على وجوه عتيقة ذات شوارب
تبتسم، وكان الحدث كله مسرحيةً أو جست بانك هوليداي لارك.⁵³

لكن الصفوف لم تصطف لمباراة لعبة الكريكيت بين فريقي دولتين، أو نهائي بطولة كأس، بل للمشاركة تطوعاً في ذاك الشكل الآخر للنشاط الجماهيري الحديث، ذاك النشاط الذي أعاره الحداثيون المزيد من الاهتمام والانتباه: الألعاب وهو الحرب.

وتقدّم مقالةً خطها هـ. جريفز H. Graves، عام 1900، بعنوان «فلسفة الرياضة» (A Philosophy of Sport)، دليلاً على الاضطراب الطفيف الذي شاب أشكال فهم الرياضة آنذاك. وتبدأ المقالة بملاحظة أن «هناك كلمات قليلة في اللغة الإنجليزية تتمتع بتعددية المعاني المتشعبة». وبالتطلع إلى الرأي التنويري الذي يعد به «د. موراي... إذ يتبع حرف الـ S، ووصولاً إلى العصور اللاحقة»،⁵⁴ وإذ يُقر بأن «بعض الرياضيين القدماء يبدوون نزاعين لقصر كلمة رياضة على أنشطة ترفيهية غير تنافسية، تنطوي مثلاً على القتل، وبذا يحصرّون الكلمة في الصّيد والرماية وصيد الأسماك، وما إلى ذلك» (878)، فهو يستخلص رغم

ذلك ثلاثة معانٍ عامة في المعاجم التي رجع إليها؛ ألا وهي الهوايات البسيطة، ومطاردة الحيوانات، والمقامرة: «انطلاقاً من الفكرة البسيطة التي مفادها أن الرياضة وسيلة للتسلية، نخلص إلى الاستخدامات المتخصصة على نحوٍ مثير للفضول للكلمة التي تربطها من ناحيةٍ إلى مساعي القتل، ومن ناحيةٍ أخرى إلى الألعاب التي تنطوي على المجازفة المالية» (878). وفيما يلي، يبذل جريفز مجهوداً مقصوداً للدفاع عن فكرة أن الرياضة هواية تنافسية يمارسها الإنسان لذاتها، خصوصاً فكرة أن الرياضات «يجب أن تُمارَس محضاً لأغراض الترفيه، تمييزاً لها عن العمل» (879). إنَّ التهديد الذي يتعرَّض له هذا التعريف للرياضة لا ينبع فقط من فئات الصائدين، بل من التوتر الذي ينجم عن تعريف الرياضة بشكلها الحدائي، ألا وهو «الرياضة من أجل الرياضة»، والقوى الاقتصادية والاجتماعية التي بدأت تُركِّز عليه. ويصر جريفز على أن الرياضة يجب أن تكون هواية: «فبقدر ما يتتبع المرء أي مسعى كوسيلة لكسب العيش، لا يُعد ذلك المسعى رياضة، بل يصبح مسألة تتعلق بالعمل لا أكثر. وما من سبب يدعو إلى ممارسة الرياضة إلا لغاية إمتاع المشاركين فيها، والرياضي حريص على ممارسة الرياضة، لا لسبب إلا للاستمتاع بهذه المتعة» (880).

إن التطور الأبرز هنا في هذا السياق هو المشاهدة الجماهيرية، وذلك لأنَّ تلك المشاهدة هي التي تحيل الاستغراق التشاركي في اللعبة إلى شيء وسيط. ويرجع ذلك نوعاً ما إلى أن المشاهدة الجماهيرية تفتح الباب أمام كسب العيش من الرياضة: «وما أن تُنقل إلى الرياضة فكرة أن قوت الإنسان يعتمد عليها، تنتهي حلاوة الرياضة كوسيلة ترفيهية، وننقل إليها مرارة صراع العالم على البقاء» (883). إنَّ مشاركة المشاهد تشجع على المقامرة بالطبع، ولو أن جريفز أقل اهتماماً بهذا الجانب ما دامت المراهنة، كما ذكر في بداية مقالته، أمست مرتبطةً على نحوٍ لا انفكاك منه بـ «حياة الرياضة» خلال القرن الماضي، وربما حتى من قبله. وعليه، لم يكن هناك خطأ في المراهنة «شريطة أن يتولى أمرها نبلاء أو، لأغراض الرياضة، ما يعده الرياضيون رياضة» (888). ولكنَّ التهديد الحقيقي للأنموذج

هناك شعور قوي يشيع بين عشاق الرّياضة الأعمق تفكيراً ومراعاة للآخرين بأنّ المنافسة في عصرنا الحالي مبالغ فيها، وأن الرّغبة في التميز الفردي مبالغ فيها جداً، الأمر الذي يضر بالرّياضة، وأن التنظيم المعقد الصّوري بسبب ذلك يعمل عمل الجاثوم، وإذ تطغى عليه طبيعة الأعمال، فهو يسلب الرّياضة سماتها الطبيعيّة كوسيلة للترفيه والتّسلية. (890)

ويربط جريفز ما يُطلق عليه على نحو غريب «منظومة لعب امتحان درجة الشرف في كامبردج، ومنظومة تصنيف الأندية والمنافسين بعناية، وبالترتيب بحسب الجدارة» (891) بخلق:

فئة فضوليّة من المشاهدين - رجال غالباً ما يكونون عاجزين عن تقدير جماليات اللّعبة الرّاقية، ومع ذلك يلهمهم الحماس الأكثر وحشية لانتصار الطّرف الذي «يشجعونه»؛ رجال لا يعرفون شيئاً عن الرّياضة، فيما خلا منهجية حساب نقاط جدول البطولة، وهم على أهبة الاستعداد لإثارة حفيظة فريق مُعادٍ، إذا ما هزم فريقهم المفضل. (891-2)

وهناك رياضةٌ واحدةٌ بالتّحديد ينصب تركيزها على تلك المسائل، وهي الرّياضة التي أمست الأكثر تنظيمياً على الإطلاق، ألا وهي كرة القدم الإنجليزيّة، أو كرة القدم ذات الكرة المستديرة. فقد أعلن جريفز عن تباين اجتماعي - اقتصادي سيسري لاحقاً في علم الاجتماع الشعبيّ للرّياضة البريطانيّة، ألا وهو التباين بين رياضة الرّكبي الأرسقراطية في المدارس الحكوميّة من ناحية، ورياضة كرة القدم بين أبناء الطبقة العاملة من ناحية أخرى:

يتفق أغلب الناس على أن روح الرّياضة الحقّة موجودة بين أنصار اتحاد لعبة الركبي أكثر مما هو عليه بين أنصار اتحاد كرة القدم، أو لعلها أقوى بين أنصار الاتحاد الشمالي [أندية الدرجة الأولى التي انفصلت عن اتحاد الركبي، وكرة القدم عام 1895]، أو بطولات الدوري الإنجليزي. وهناك طابع وحشي تتسم به المنافسة التي تنتهي باستبعاد أسماء عظيمة، وتاريخية من صفوف كرة القدم «الممتازة». (891)

إن نمو قاعدة المشاهدين جعل الرّياضات الحديثة مُمكنة وكذلك، كما بدا لكثيرين، هدد وجود الرّياضة بمعناها هذا بشكل قاتل. لقد أُصيب المعلقون على بطولة الألعاب الأولمبية الحديثة الأولى في أثينا، التي أُقيمت عام 1892، بالارتباك، وشعروا بالمهانة بسبب التأييد المزعج الصاحب للجمهور الأمريكي، الذي ازدادت أعداده بسبب البحارة الذين وفدوا من الشاطئ من السفينة «سان فرانسيسكو».⁵⁵

وبينما أمست أكثر شهرة، تعرضت الرّياضات على نحو أكثر بكثير من ذي قبل للترميز بدقّة أكبر، وتفصيل أعمق. وكما رأينا من قبل، فإنّ أكثر تحوّل مُثبت جلبه هذا الترميز هو استبعاد الحيوانات، أو استبعاد الحيوانات كأدوات أو ضحايا من الرّياضة، والتركيز الحصري غالباً على المنافسات فيما بين البشر، حتى لو استُعين بالحيوانات بين الفينة، والأخرى كأدوات مساعدة، كما في الرّياضات المتبقية مثل القفز الاستعراضي أو ترويض الخيل لأغراض القفز. كان هذا أهم جزء في العمليّة التي بدأت بها الرّياضة تدنو من حالة اللّعب الخالص، وأعني الرّياضة لأجل الرّياضة. ويجوز اعتبار البشر في هذا السّياق ضمن الحيوانات، ما دام ما يميز الحيوان هو أنه أداة، أو وسيلة لا أكثر. وما أن يكف المرء عن استهداف قتل غريمه، أو تدميره بدنياً، يجوز حينئذٍ الرّغم باستبعاد الإنسان في حلته الحيوانية، أو اختزال الإنسان في صورة الحيوان المحض من الرّياضة. وخلال القرن العشرين، كان من الممكن ألاّ تتجاوز الرّياضة، شأنها شأن الفن،

كونها رياضة فقط، لو كانت غير واقعية، أو واقعية وغير واقعية في آن واحد. وبتعبير آخر، خضعت الرياضة إلى شيء هو أشبه بتحوّلها الحدائبي، والرياضة كما ندرکہا هي إلى حد كبير إرث تلك الحدائبة. والواقع أنه ربما أن أحد أسباب عدم اهتمام الحدائبيين الجمالين بالرياضة هو أنها، على العكس من غيرها من أشكال الترفيه الجماليري، لا يمكن تمثيلها ببساطة كجزء من بشاعة وتفاهة الحياة الحديثة ونزعتها التجارية. وخلاصة القول: إن الرياضة مثلت شكلاً جمالياً منافساً للفن، أو لكانت فعلت ذلك لو خطر للحدائبيين أن يمنحوها ما لها من حقوق. ويمكن النظر إلى الرياضة نوعاً ما باعتبارها شكلاً محرفاً، أو مرآة مشوّهة للحدائبة.

وفي ضوء ذلك، ليس من عجب قط أن هناك كتاباً رواداً معينين كان ينبغي أن يرجعوا بالزمن، وينظروا إلى الأشكال الأولى للرياضات الدموية، لا كممارسة بشعة، أو مبتذلة، بل كصورة ذاتية محببة للفنان المتحرر على نحو جريء. كان من الممكن أن يصبح الثناء على صيد الحيوانات دليلاً للحدائبي على مُعاداة الحدائبة، كما في قصيدة «دوامتنا» (Our Vortex) لويندهام لويس Wyndham Lewis، المنشورة في العدد الأول لمجلة بلاست (!Blast) عام 1914، التي تربط على نحو عجيب بين المطاردة وجانب جمالي للآلة: «إننا فخورون ومهذبون ومفترسون نصطاد الآلات التي هي لعبتنا المفضلة ونخترعها ثم نطاردها».⁵⁶ ويرتبط بالحظوة التي تُمنح للمطاردة افتنان مجموعة من الكُتاب والفنانين الحدائبيين المختلفين، بمن فيهم هيمنجواي، وبيكاسو، ودالي، وباطاي، وليريس، برياضة مصارعة الثيران المزعومة (يمكنك، عزيزي القارئ، أن تستشف من مؤهلاتي العالية كم أنني مخلص تمام الإخلاص للفرضية الحدائبية، التي مفادها أن استخدام، أو سوء استخدام الحيوانات يُبطل أي زعم بأنّ النشاط موضوع النقاش يمكن اعتباره لوناً من ألوان الرياضة). وفي عالم عرفت فيه الرياضات التنافسية بالحدائبة الديمقراطية، بدا أن مصارعة الثيران تقدم للكُتاب الحدائبيين انسجاماً مع القيم الأرستقراطية. وحيثما أمست الرياضات مجرد ألعاب، يمكن تمثيل مصارعة الثيران بالدراما التراجيدية. وهذه هي الاصطلاحات التي يقدم بها ميشيل

ليريس Michel Leiris دفاعه عن «مصارعة الثيران»، التي يقول عنها إنها:

شيء يتجاوز الرياضة، نظراً للعنصر التراجيدي الكامن فيها - بل جرعة التراجيديا فيها مضاعفة ما دامت تطوي على موت، وموت ينطوي على خطر مُحدق بحياة المُحتفل... يمكن اعتبار مصارعة الثيران رياضة يُعززها فن نجد فيه الجانب التراجيدي، إذا جاز التعبير، مؤثراً بشكلٍ خاص.⁵⁷

ومن ناحية، يعتبر ليريس الرياضة فناً منقوصاً، وليس كافياً. ومن ناحية أخرى، فهو يعتبرها جماليةً أكثر من اللازم، بمعنى أنها ليست واقعيةً بالقدر الكافي ما دامت لا تهدد بخطر الموت، أو الإصابة، ولا تصطدم بالشذوذ والعنف. والغاية ليست «استبعاد الموت، أو التسرُّ عليه وراء بنية من المثالية الترمدية التي لا يعرفها أحد»، بل «دمج الموت في الحياة، وجعله حسياً شائقاً بطريقة ما». ⁵⁸ إنَّ الرياضة البحتة معزولة بفعل إطارها من القواعد عن واقع الموت والمعاناة، بينما تقدم مصارعة الثيران انبثاقاً شعائرياً لهذا الإطار:

ومهما كانت الأخطار، والتَّحديات التي توحى بها الرياضة، فما من رياضة ستتجاوز الحد الذي يفصل بين المُدنس والمقدس، لأنه ليس ثمة رياضة تُصوِّر في جوهرها على أنها هلاك، أو استدعاء جريء للهلاك. ففي الرياضة، كل شيء رصين، وكل شيء واضح، وصریح؛ ويتجلى الشذوذ فقط في الشَّكل الدنيء للغش والاعوجاج في القناع البدائي للمخاطرة البدئية، وهي المخاطرة التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار، والتعامل معها بجديّة، غير أنها ليست أساساً للنشاط ذاته، وحالته. فلن يرى المُلاكم قط (مهما كانت معركته عنيفة وملاحمه، وسيمة رسمياً) جيئنه متوجاً بغيمة عاصفة بدلاً من إكليل أكاديمي من الزهور. ولن يدنو سَبَّاح قط (مهما

كان منسجماً مع العالم المُختَزَل في الموجة التي يتحرَّك فيها، ومهما كان الخطر الذي تُمكنه مهارته من تفاديه محققاً به) من النقطة الحرجة التي يبلغها مصارع الثيران، أو الشاعر، أو العاشق الذي تركز حركته كلها على الخطأ الطفيف التراجيدي الذي يتجلى بواسطته الجزء غير المُكتمل (واللانهاشي حرفياً) لطبيعتنا. البهلوان وحده، لاسيما البهلوان الذي يُمارس حركات في الهواء، ويتحرك في الفراغ، ويبدو جسده مُجرداً من بيئته، أو على الأقل نراه مُعلقاً فقط بخيط رفيع - أحياناً ما يعبر عن دواره المقدس، بقدر ما يطرح عمله نفسه كتعاقب للمهارات الفائقة للطبيعة التي تسري بالتوازي مع سلسلة من الاستفزات.⁵⁹

ومن المغربي أن نرى في هذا التهافت على كل ما هو نشواني، وهو الأمر الذي يتجلى جداً لدى آخرين ممن كانوا، شأنهم شأن ليريس، مرتبطين بكلية علم الاجتماع، أمثال جورج باطاي، وروجه كايوا، لونا من المحاور، أو التقاطع الثقافي-السياسي. ومن الآن فصاعداً، سيكون إعلاء، وتمجيد القوّة، والحافز، والحدة كابوساً، لا لليمين الفاشي، بل لليسار المتحرر، مع أن الاهتمام بالرياضة الصريح الذي تنادي به حركتنا المستقبلية، والفاشية سيندمج، وينضبط في نظرية الطاقة الشهبانية، والمعرفية للفلاسفة ليوتار، ودريدا، ودولوز.

ولعل أفضل دليل على اللامبالاة التعريفية تجاه الرياضة في الحداثة هو حقيقة أن الرياضة عززت مؤخراً العديد من أشكال ما بعد الحداثة وتعريفاتها. وأحياناً ما تتمايز الفنون الحداثيّة، وما بعد الحداثيّة، انطلاقاً من تركيز الأولى على اللّعب والثانية على الرياضة. ويبدو فلاديمير نابوكوف Vladimir Nabokov، الذي كان مهتماً اهتماماً خاصاً بتسلُّق الجبال، حدثياً من حيث الأشكال المعقدة للانفعال في أعماله، وبنيتها. والاهتمام الصريح لدون ديليلو Don DeLillo بكرة القدم (الأمريكية)، في روايته «منطقة التسجيل» (Endzone)، والبيسبول (في روايته «العالم السفلي»، أو Underworld)، أو ولع بيتر هاندكه Peter Handke بكرة القدم

الإنجليزية، في روايته «خوف حارس المرمى من ضربة الجزاء» (Goalkeeper's Fear of the Penalty Kick)، يبدو أشبه بطعنة سريعة ما بعد حداثة لهذا النوع من الرياضة الحديثة. ويتضمن بيان كلايس، أولدنبورغ Claes Oldenburg، الصادر عام 1970، ومفاده «أنا أؤيد فناً» في فهرسه التوكيدات المضادة للجماليات، و«أنا أؤيد الفن الذي يلتف وينخر كالمصارع»، و«أنا أؤيد فن الإبحار يوم الأحد»⁶⁰ وتبدو الروايات الأمريكية الخيالية فترة ما بعد الحرب تحديداً محتفية بالأفكار أو الأشكال الرياضية؛ كما في أعمال أبدايك Updike، وميلر Mailer، وروث Roth ومالامود Malamud وفورد Ford على سبيل المثال.

وقد بدأ نقاد أمثال رولاند بارت Roland Barthes يولون اهتماماً جاداً لرياضات، كالمصارعة، وركوب الدراجات، في كتابيه «أساطير» (Mythologies) و«ما الرياضة؟» (What is Sport?) (2007)، وهو النص الذي كلفته هيئة الإذاعة الكندية لفيلم تسجيلي لهوبرت أكوين Hurbert Aquin بكتابته عام 1960. ولقد كان لإيلاء الرياضة هذا الاهتمام الحقيقي جزء محوري من الإزعاج الذي تسبب فيه النقد البانورامي لبارت (Barthes) لبعض الكتاب. ولقد اشتكى ألين فينكيلكراوت Alain Finkelkraut عام 1987 من أن:

شكسبير يجب ألا يُهان، وحسب، بل يجب أيضاً تكريم الإسكافي وإجلاله. فالأمر لا يقتصر على إزالة الغموض من الثقافة العالية، وإنزالها فهو غير مأسوفٍ عليها إلى مستوى اللفتات اليومية العادية التي يؤديها عامة الناس بعيداً عن الأنظار: إن الرياضة، والموضة، والترفيه الآن تدعي أحقيتها جميعاً في مكانة ثقافية عالية.⁶¹

ويجوز أن نقترح أن الرياضة للحداثة كالألعاب لما بعد للحداثة. وربما كان هذا أثر إلغاء التمايز بين المجالات الذي يُزعم أنه يميّز حركة ما بعد الحداثة، ولو أن المعادلة يمكن أيضاً أن تسري بالعكس، فكما يمكن أن تكتسب ما بعد

الحدائثة ضرباً من التميز التعريفي الذاتي بتفضيلها للرياضة، فمن الممكن أن تكتسب الرياضة، أو على الأقل الكتابة عن الرياضة، هبة فلسفية إضافية بميلها إلى ما بعد الحدائثة.

تسليمُ العالم إلى الرجالِ

لقد انصب تركيز التأملات الحدائثة حول الرياضة، سواء ارتبطت بجماليات القوة، أو جماليات التألق، وسواء كانت مُسيرة بالطاقة، أو بالشكل، على خيال الجماهير. وكما لاحظت سوزان سونتاغ Susan Sontag، يؤكد الخيال الفاشي على صَهر الجماهير، وإخضاعها لإرادة القائد أو للفكرة البديعة. وتشير سونتاغ إلى استخدام فيلم «انتصار الإرادة» (Triumph of the Will)، للمخرجة ليني ريفنشتال Leni Riefenstahl..

للقطاتِ واسعة، تشملُ أعداداً غفيرةً من الممثلين، بالتبادل مع لقطات مُقربة تعزل شغفاً واحداً، وخضوعاً واحداً مثالياً؛ أشخاص عاديون في حُللاتٍ رسميّة، يتجمعون، ويتفرقون، وكأنهم يمثلون الرقصة المثالية تعبيراً عن طاعتهم وولائهم. وفي فيلم «أوليمبيا» (Olympia)، وهو أكثر أفلامها ثراءً من الناحية التصويرية... يسعى شخص منهنك، يرتدي ثياباً خفيفة، تلو الآخر وراء نشوة النصر، مدفوعاً بهتاف جموع المواطنين الجالسين في المدرجات، والمشهد كله تحت نظرة المشاهد الثاقبة، هتلر، الذي يُمجّد هذه الجهود الحثيثة.⁶²

إن العروض الرياضية تسمح بلم شمل الجماهير، أو فرض الانضباط عليها:

إن أداء الحركة بأنماطٍ مُهيبة متصلةٍ عنصر آخر مشترك، لأنّ هذا التحرك الراقص هو تدريب لوحدّة الدولة نفسها. حيث يطلب من الجماهير

أن تتخذ شكلاً، وأن تكون تصميماً محددًا. وعليه، فإن الاستعراضات الرياضية الجماهيرية، الاستعراضات الجسدية المصممة كالرقصات، هي نشاط له قيمته في جميع الدول الاستبدادية؛ وفن لاعب الجُمباز المشهور جداً حالياً في أوروبا الشرقية يستدعي أيضاً الخصائص المتكررة للجمايلات الفاشية: الاحتفاظ بالقوة أو حصرها، والدقة العسكرية.⁶³

ولقد رأى كثير من الحداثيين في الرياضة بالضبط خضوع الأفراد إلى الجماهير غير المتميزة - الممثلة في النادي، والقبيلة، والطبقة الاجتماعية، والمجتمع - ونفروا من ذلك الخضوع. وفي كلتي الحالتين، يبدو أنه ما من سبيل لتصور الجموع إلا بلغة الانفصال الصارم بين الفرد المتميز والجموع غير المتميزة.

ما الذي حدث للرياضة خلال السنوات التالية للحرب العالمية الثانية؟ من عدة أوجه، يبدو استخدام الرياضة لتطبيق الانضباط الجماهيري، عبر إبهار المشهد، مستمراً بلا انقطاع. ولكن الواقع أن الرياضة شهدت تحولاً دقيقاً، فقد بدأت تتيح وسيلة لتصور لوناً جديداً من تخيل الجماهير، لوناً مختلفاً لأنه هو الآخر تخيل جمعي.

لقد اعتبر الناقد الفيلسوف الفرنسي بارت الرياضة ميداناً للأسطورة، خصوصاً أسطورة الحياة في مقابل المادة:

ما الرياضة؟ الرياضة تجيب عن هذا السؤال بسؤال آخر: من الأفضل؟ لكن الرياضة تخلع معنى جديداً على مسألة النزالات العتيقة، فتمتيز الإنسان منشوداً هنا فقط من حيث علاقته بالأشياء. من أفضل إنسان يستطيع التغلب على مقاومة الأشياء وجهود الطبيعة؟ من أفضل شخص يدير العالم؟ من أفضل شخص يمنح العالم للبشر... لكل البشر؟ هذا هو ما تفصح عنه الرياضة.⁶⁴

إن ما يدهشني إلى حدّ الصدمة في كلماتِ بارت ليس الصنّاعة الأسطوريّة للإنسان، بقدر ما يدهلني منح العالم لكل البشر. ويبدو أن لدى والتر بنجامين حدساً شبيهاً نوعاً ما، في مقاله التي كتبها تحت عنوان «العمل الفني في عصر الاستنساخ الميكانيكي» (The Work of Art in the Age of Mechanical Reproduction)، التي ظهرت أول مرة عام 1936، وهو العام عينه الذي أُقيمت فيه دورة الألعاب الأولمبية في ميونيخ، حيث قال إنه «في المواقب الاستعراضية الكبرى والمسيرات العملاقة، وفي الفعاليات الرّياضيّة، وفي الحروب؛ وهي الأحداث التي تلتقطها في أيامنا هذه عدسات الكاميرا، والتسجيلات الصوتية، تواجه الجموع بعضها بعضاً وجهاً لوجه».⁶⁵ وفي مقالة مدروسة، يستهلها ألان ميك Alan Meek ببيان أن جاك لاكان Jacques Lacan كان من بين المشاهدين في الألعاب الأولمبية بميونيخ، وأنه ذكر في مقاله حول مرحلة المرأة أن «تَشكّل الأنا يُرمز إليه في الأحلام بقلعة، أو بملعب»، تحدّث ميك عن دور وسائل الإعلام في إنتاج نسخ جديدة من «الموضوع الفاشستي».⁶⁶

لكنني لم أقتنع بأنّ هذا هو إلى الآن أثر الأشكال المعقدة التي تستخدم فيها الرّياضة. إن سبل المشاركة في الرّياضة أمست أكثر عدداً وأكثر تنوعاً وتشعباً - وأعني المشاركة لاعباً ومديراً وإدارياً ومستثمراً ومشجعاً ومشاهداً ومتفرجاً ومُعلّقاً، وأكاديمياً - شأنها شأن الرّياضات نفسها التي تضاعفت أعدادها، والطرائق التي أمست بها الرّياضة هادفة، أو الطرائق التي تخلع فيها على غيرها من الأشياء قيمةً وهدفاً. ولذا، فقد أُزيل عن الرّياضة تدريجياً الاستقطاب والتخصّص، وأضحت تمثل بقدر أقلّ تدريجياً تحجراً، أو مستودعاً للقيمة أو المغزى، أو لوناً بعينه من الركائز أو اللحظات التي تتمحور حولها الأشياء، أو تُمارَس حولها السُلطة الثقافية. ويجوز للمرء أن يصف الرّياضة بأنها شيء أشبه بما قاله فريدريك جيمسون Fredric Jameson عن نطاق الثقافة بعد الحرب العالميّة الثانية، ألاّ وهو أنها خضعت لتوسع مهول، لدرجة أن كل شيء أصبح يبدو «ثقافياً» نوعاً ما. ولقد تشعبت الرّياضة، وتفرعت بشكل مُكافئ، لدرجة أنه إذا

أمسى كل شيء ثقافياً، فإن كل شيءٍ في تلك الثقافة ينزِع إلى حالة النشاط الرياضي. واقترب المعنيان الخاصان بالأداء - وهما الإنجاز والحدّاع - من بعضهما بعضاً. ولعلّ أهمّ سمةٍ للرياضة في العالم الحديث لا تتمثّل في كونها تُجسّد هذا الجانب، أو ذاك للحدائثي، ولا كونها مُنقّحة، أو ناقلةً لهذه المجموعة، أو تلك من القيم، بل هي أنها ستصبح أول قوّة من قوى العولمة الكبرى. ولقد زُعم بين الحين والآخر أن الرياضة، شأنها شأن بعض أشكال فن الرواية أو الفنون الأدائية، وسيلة لصناعة العالم، وأن الرياضات المختلفة «قادرةٌ على خلقِ عوالم جديدة وأصيلة».⁶⁷ ولكنّ الرياضة تعملُ على نطاق «العالم»، فهي ليست ظاهرة عالمية وحسب بمحض الصدفة، بل هي وسيلة لابتكار العالم، وخلقهِ، وإحداثهِ كعالمٍ. إنّ أبطال العالم يجعلون العالم بطلاً، ومعركة، ومجالاً للصمود والبقاء. إنّ الرياضة أداة لتحويل النطاقات، والأزمان، والقيم (ولذلك من الممكن أن تكون الرياضة أيضاً «معسكراً»). الرياضة هي الانتصار والكارثة؛ كل شيء، ولا شيء؛ مهمة وغير مهمة. الرياضة هي بديهة أمست طبيعياً تماماً بالنسبة لنا، وهي غير ضرورية ولا غنى عنها للانحراف عن الطّبيعة التي لا يفتأ البشر يشكلون أنفسهم على هيئتها.

الفصل الثاني

الفضاء

فضاء اللعب واللعب في الفضاء

من الممكن أن تُمارس الرِّياضة في أي مكان؛ في المضامير والميادين والمساح، وفي الملاعب على اختلاف ألوانها وأنواعها. ولكن مكان ممارسة الرِّياضة العصرية أصبح على نحو متزايد في أماكن محدّدة، وأعني النوع الخاص للبقعة المغلقة أو الفضاء المنعزل المُتمثّل بالاستاد. وتوحي مثل هذه البنى بعلاقة تاريخية مع ممارسات الرِّياضة في الحضارات القديمة، كالحضارة اليونانية، أو المكسيكية، الأمر الذي يمكن أن يقوِّض إدراكنا للطبيعة الحديثة بشكل واضح للرِّياضات المنظمة. وقد يقارن المرء بين الرِّياضة من هذا الجانب والموسيقى، وذلك لأنّ الاثنين نزعا إلى الانتقال من الفضاءات الخارجية غير المحدّدة بقيود إلى الفضاءات الداخلية المغلقة. وكل الموسيقى الحديثة في هذا الصدد هي موسيقى تعزفها فرق صغيرة مُصممة بحيث يتردد صداها داخل أماكن مغلقة ومساحات داخلية، بدلاً من أن تنتشر في الفضاء. والرِّياضة أيضاً تُمارس في المقام الأوّل داخل فضاءات أو هياكل مُغلقة. ومع ذلك، فثمة شيء حدث لتلك الفضاءات المغلقة، مما جعلها مُغلقة ومُتوسعة في آنٍ واحد، وقادرة - بسبب الأشكال المحدّدة لتركيزها المكاني - على الانتشار إلى أي مكان بالخارج. ولقد استطاعت الرِّياضة، بعد أن أمست مُحاصرة، الاقتراب من كُلية الوجود. فليس من قبيل المصادفة أن الأداء الموسيقي غالباً ما يُؤدّى في الأماكن عينها التي تسمح بالاندماج، والوفاق بين المحلي والعالمي في عالم الرِّياضة.

وسيبحث هذا الفصل العلاقات التي تربط بين الشكل المعماري للعب والعبث، والرياضة وفضاءاتها. وسأطرح الأسئلة التالية: ما فضاء اللّعب؟ وما الذي يجوز أن يمثل الأراضي المكانيّة للّعب؟ وهل بوسع المرء الزّعم أنه عند تخصيص مكان للعب، لا بد أن يكون للمكان ذاته دور في اللعب؟

هناك بيتان معماريتان للرياضة: واحدة تمثل الشّكل الذي نألفه جميعاً جداً؛ الشّكل الدائري الصاعد الفضفاض للاستاد الكلاسيكيّ للرياضات، وصفوف مقاعده التي تطوق فضاء التنافس المميز أدناها. ومن الخارج، تخلق تلك الصّروح على نحوٍ روتيني لوناً من التوافق بين التكنولوجيا المتطورة والتكنولوجيا شديدة البروز وانسيابية، وروعة التشكيلات «الطبيعيّة»، وحواراً مألوفاً بين العوارض والانحرافات التي تُحاكي خاصيّة الرّياضة كشكلٍ صناعيٍّ من أشكال الترفيه. وفي حين أن الملاعب من المفترض أن تقدّم المزيد والمزيد من الوظائف - كالمطاعم وأماكن الإقامة، والمنشآت المكتبية، وأجهزة الاتصالات، والمعاملات - أمسى الاستاد مساحةً للعب المهندسين المعماريين والجهات المدنية.

ولكنّ المساحة التي يُشكّلها الاستاد الماديّ هي في نهاية المطاف ملحقةٌ بمساحةٍ أخرى؛ مساحةٌ يحويها الاستاد بموجب تعريفه، ولا بد أن يتحد بها بضرورة الحال، لكنها مساحة لا بد أيضاً ألاّ ينفصل عنها مادياً وحسب، بل ووجودياً أيضاً، ألاّ وهي المساحة التي تُمارس فيها اللعبة ذاتها. ودور الاستاد يكمن في السماح بالوصول إلى تلك المساحة، والسيطرة على وصول الناس إليها، وأن يفتح هذه المساحة أمام أعين المشاهدين، وأن يركز عليها، ويُحسنها ويضاعفها، مع الوقوف في الوقت عينه على مسافة منها، خصوصاً بالحيلولة دون انتهاكها. إنّ الاستاد يفتح المساحة للعب، ويضرب سياجاً حولها في آنٍ واحد؛ فيكشفها ويغلقها في الوقت عينه.

فمن ناحية إذن، هناك ما أود أن أطلق عليه اسم «مساحات اللّعب» - الملاعب والحلبات والأراضي التي تُمارس فيها الرّياضات. ومن ناحيةٍ أخرى، هناك «حراك المساحة» الذي ينشأ داخل مساحة اللّعب. لنرى ما إذا كان بوسعنا

فهم بعض التّحركات السّارية بين الاثنين. وهناك حلّبات أخرى مثيلة، حيث المساحة تُنشأ كي يصبح في الإمكان تشكيل المساحة بعدّة طرق - على هيئة قاعات محاكم أو دور سينما أو قاعات للرّقص أو معارض فنية أو مسارح - ولكن، ربما كما توحى أهمية مناقشات كلمة «حلبة» نفسها، المساحات المخصصة رسمياً للعب بمعناه هذا قد تكون لها أهمية وسلطة خاصتان. والواقع، كما سيتجلى لنا لاحقاً، أنّ تلك المساحات ربّما بدأت تتعدى على أي مساحة، مهما كانت متبقية ولم يُستفد منها.

يستخدم موريس ميرلو بونتي Maurice Merleau-Ponty علامات رقعة ملعب كرة القدم ليضرب مثالاً على الطّريقة التي تثبت أن ميدان اللّعب لا يُعد مجرد شيء «يمكن أن يخلق تعددية للرؤى المنظورية، ويظل مرادفاً لذاته تحت مظلة تحولاته الواضحة». وبدلاً من ذلك، فهو ينجذب إلى حراك المساحة الذي يتضمّن النوايا الجسديّة للأعين، بينما تنتشر تلك النوايا وتتوجّه بفعل المساحة التي تُفعل فيها. وعليه، فإنّ ملعب كرة القدم بالنّسبة لميرلو بونتي:

تنتشر فيه خطوط القوى («خطوط الياردة»؛ تلك التي تحدّد «منطقة الجزء») وتمثّل على هيئة قطاعاتٍ (على سبيل المثال، «الثغرات» بين الخصوم)، تستدعي لوناً معيناً من الفعل، وتحفز الأفعال وتوجهها، وكأنّ اللاعب ليس على وعي بها. إنّ الملعب نفسه ليس ممنوحاً له، بل هو موجود كشرط كامن لنواياه العمليّة؛ وينسجم اللاعب معه ويشعر باتجاه «الرمي» مثلاً على الفور، كما يشعر بالمستويات الرأسية والأفقية لجسده.¹

وبالنّسبة لميرلو بونتي، فإنّ الملعب ليس سابقاً أبداً، أو منفصلاً قط عن الطّريقة التي، بحسب التعبير الدّارج، «يلعب بها»، أو مُعدّلاً وفقاً للّعب الجاري عليه:

لا يكفي الزعم أن الوعي يسكن هذا المحيط. في هذه اللحظة، الوعي لا يتجاوز كونه جدلياً للبيئة والفعل. وكل مجهود يبذله اللاعب يُعدّل صفة الملعب، ويعيد تأسيس خطوط القوى بداخله التي يتكشف الفعل بدوره فيها ويتحقّق، فيعيد تغيير الميدان الظواهري.²

بالنسبة ليرلو بونتي، فإنّ هذه الظروف ليست في الواقع خاصةً بملعب كرة القدم، أو أي حلبة رياضية أخرى، لكنها تساعد على بيان استحالة انفصام البيئة والفعل في أي مساحة، أيّاً كانت. لكنّ التوافق المحدّد لمجاز ملعب كرة القدم يوحي بأنه تحت هذه الظروف الرياضيّة، فإنّ التمايز الاعتيادي بين المساحة كشيء محض أو بيئة بعينها وحسب من ناحية، والمساحة الدينامية التي تتشكّل وتتحور تأثراً بالفعل، أضعف بكثير مما هو عليه في ظل ظروفٍ أخرى.

قرارات

إنّ مساحة اللّعب مُراقبةً بعنايةٍ حتّى أصغر مليمتر فيها. وذلك لأنه لا يجوز أن تكون هناك مساحةٌ وسيطةٌ، ولا يجوز أن تكون هناك مساحةٌ بين المساحة الدنيوية ومساحة اللّعب. فإما أن تتجاوز الكرة بالكامل الخط، ويُحتسب الهدف، وإما ألا تتجاوزه، ويستمر اللّعب من حيث توقف. وإذا تماس رباط حذاء من قدم لاعب الكريكت مع الحبل الفاصل، عندما يقدم على الإمساك بالكرة من عل، تُحتسب أربعة أهداف؛ وإلا يُطرد ضارب الكرة. وإذا اعتُبر أنّ الكرة مسّت الخط - وهو ما يُستدل عليه بنفث الجير أو بجهاز استشعار آلي - فربما عُدّ اللاعب بطلاً جديداً؛ وإذا لم تمسه الكرة، فيُحتمل أن فرصة اللاعب قد أهدرت للأبد. ومن هذا المنطلق على الأقل، في ظل كراهته الشديدة للوسطية، وعدم تحمله لأي طرفٍ ثالثٍ، يبدو أنه لا مجال للعبث في مساحة اللّعب.

إن هذه القرارات المتعلقة بالحدود لا تُفَعّل فقط على الحدود القصوى للملعب. وثمة وقفاتٌ شبيهةٌ تشقُّ طريقها عبر اللّعب نفسه، حيث يكتسب

اللَّعب ملمساً بفعل التبديل بين حالتي اللَّعب، وإيقاف اللَّعب، ووقت اللَّعب، ووقت الاستراحة. وعليه، فإنَّ مساحة اللَّعب ليست مكانية بشكل محض، بل هي المكان الذي يتحدد على أساسه زمان اللَّعب ومكانه. ومن الممكن أن يكون هناك نقاش متجدد لا ينتهي لحالة تقدّم القدم عن المضرب في لعبة الكريكت، أو قرار ضربة الجزاء، بين المشاهدين في مقاعدهم، وبين أجيالهم اللاحقة، ولكن يستحيل أن يكون هناك عقلان ولا لبس، ولا اتفاق على الاختلاف، ولا خيال يبطل ويحافظ على الأطروحة ونقيض الأطروحة في تألّف جديد في ميدان اللعب. وحتى عندما تكون عملية الوصول إلى القرار مطوّلة، فربما أنها تُجرى على نحو متزايد بمشاركة مسؤولين من خارج الملعب، لديهم القدرة على مشاهدة اللقطات المُعادة، فإنَّ هذا يهدف إلى تأكيد حقيقة وحيدة لا ريب فيها بشأن كيفية حدوث الأمور. فاللَّعب يستحث صنع القرارات ويُعجّله في كل لحظة، حيث إنه يشقّ طرقاً تُحاكي وتؤكد السابق والمطلق بناءً على مساحة اللعب، كمساحة لصناعة القرار - وهي الكلمة المشتقّة من كلمة «caedere»، بمعنى «يقطع»، ما يستدعي مجموعة كبيرة من الكلمات الحاسمة بالقدر عينه في الإنجليزيتة، بما في ذلك «مقص» و«استئصال»، و«الختان»، والكلمة التي غدت مهجورة مع الأسف «نخر»، مما يوفر مساراً إلى كثير من الكلمات التي تربط بين «صنع القرار» و«القطع» أو «البتر» - قتل الغير، والانتحار، والقتل الجماعي، وما إلى ذلك. وذلك لأنَّ اللَّعب ينطوي على شيء من الهلاك. يصنع الأستاذ الفرجة والدخول دون وصول إلى هذه المساحة الاعتبارية المطلقة من الأحكام التي لا رجعة فيها. وعندما نقول «في اللعب»، فمرادنا أنه «في الأزمات».

ولكن لهذا السبب تحديداً، نجد أن أزمة اللَّعب تسري في هدوء وبلا ضجيج في قلب هذا الفضاء، وأنه في فضاء اللعب، نجد أن الفضاء ليس معلوماً ولا محددًا، بل إنه في حالة تبدل في المطلق، أي أنه موضوع جدل مستمر. ورغم أن للفريق مناطقها الخاصّة ونطاقاتها التهايتيّة الخاصّة، فإن خلاصة كل لعبة أن هذه

الأرض موضع شكٍّ ومحلُّ جدلٍ ونقاشٍ، وهي غير دائمة. إنَّ فضاء اللَّعب مُتَّج متحور للعب ذاته. ففي لعبة الرِّجبي على سبيل المثال، تنزاح مساحتا لعب الفريقين جيئةً وذهاباً كمكوك المغزل، بحسب ما يُحدده «خط الفوز»، أو القدم الأمامية للفريق المهاجم. وفي الحالات القصوى، ربما تتقلَّص منطقة الفريق المدافع وصولاً إلى بقعة دقيقة من الملعب لا يتجاوز طولها 50 ياردة وعرضها قدماً واحدة. وتنوع صعوبة تفسير قواعد التسلل في لعبة الرجبي، وعلى نحوٍ أخص في كرة القدم، من حقيقة أنه يقتضي فقط تلك القفزة الأينشتاينية (نسبةً إلى أينشتاين) من الفضاء المطلق إلى الفضاء النسبي.

وبتفكيرنا في فضاء اللعب، يتعيَّن علينا مراراً وتكراراً التكيف مع التغيير التالي: فضاء اللَّعب ينشأ بفعل اتخاذ قرار محض، بالقرار البسيط الذي يفيد بتمييز مساحة يلزم فيها اتخاذ قرار بشأن الأمر. وفي فضاء اللَّعب هذا، نجد أن الفضاء فاعل بشكل حاسم، وبطريقةٍ لا محلَّ لها في الفضاءات المميزة على النَّحو عينه. ومع ذلك، فإنَّ فعالية الفضاء ليست دائماً قاصرة على فضاء اللعب. وسيثبت الفضاء أنه سيكون دائماً فاعلاً، لا داخل الفضاءات المحددة للعب وحسب، بل وأيضاً بين تلك الفضاءات وغيرها من الفضاءات التي تتاخها وتديرها وتُعنى بها. وحيثما كان هناك فضاء للعب، لاحت الفرصة لتفاعل الفضاء داخله للتوسُّع فيما وراء هذا التقسيم التأسيسي وعبره. إنَّ ركل الكرة خارج منطقة اللَّعب «في مرمى» اللَّاعبين مُشتق من قاعدة خاصة بكرة القدم في القرن التاسع عشر، مفادها أنه عندما تخرج الكرة من ميدان اللعب، فإنَّ حيازتها تؤوّل للفريق الذي يلمسها أولاً خارج الملعب. إنَّ فضاء اللَّعب شبه مُوصَّل، وصندوق أسود مُغلق من أحد جانبيه، مفتوح من الجانب الآخر.

وهذا التعقيد تنحلُّ عقده في عددٍ من الأبعاد المختلفة التي أُميز منها أربعة: الباطن، والتوجه، والارتفاع، والقُرب.

رأساً على عقب

إنَّ الباطن والظاهر متفاعلان تحديداً في الحلبة الرياضيّة. والحلبة نفسها محيطةُ وبيئة ومكان وموطن محلي وسياج يُضرب حول الملعب. وهو الدّاخل الذي بداخله تجري مجريات الفعل الرياضي. وإذا كان المكان المفتوح ضرورياً لأي نوع من الرّياضة، فإنّ تطويق هذا المكان المفتوح أيضاً ضروري. إنَّ اللّعب بحاجة إلى فضاء يُمارس فيه، ولكن الأهم من ذلك بكثير أنّ اللّعب كاره للخلاء. والفضاء المُسيج للعب هو نفسه كثيف، وهو باطن يتعلّق بالمُعانقة العازلة لما يحيط به. وعندما تُغادر الكرة فضاء اللّعب، يُقال إنها «خرجت»، والمشاهدون في الاستاد المُحيط بالملعب يُعدون خارجاً غامضاً لما يعتبرونه داخلهم.

ومع ذلك، يبدو العكس أيضاً صحيحاً: تجري مجريات اللعبة في نطاق مفتوح، عادةً ما يكون غير محمي، عُرضة للتقلبات الجوية من أمطار ورياح وشمس، بالمقارنة بالمشاهدين الذين يُتاح لهم عادةً وصولاً مباشراً للمنشآت المميّزة للدّاخل؛ كالمراحيض والكهرباء وخدمات توريد الأغذية الجاهزة وخدمات الاتصالات وما إلى ذلك. وعليه، فإنّ الفِرَق «تخرج» والفعاليّات تجري «بالخارج في الملعب». إنَّ أكثر سمات الاستاد أهمية هي حقيقة أنه لا يملك باطناً حقاً. فعندما يدخل المرء الاستاد، يجد جوهره الباطن فُرجة وواجهة وامتداداً. وللستاد خارجان؛ الخارج الذي يطوقه ويحيط به، والامتداد المفتوح الذي يطوقه هو، ولذلك فهو يفتح عليه. إنَّ ميدان اللّعب، والاستاد الذي يحيط به هما داخل وخارج بعضهما بعضاً في آنٍ واحد. وتقع البقاع الداخليّة لحلبة الرّياضات بين الخارج، والوسط المُفَرَّغ، في منطقة مُدججة أو مُلحقة، وهي القشرة التي تفصل خارج الاستاد عن الملعب أو الأرض التي تمثل الخارج في جوهره. وهناك نزوع للنظر في الملعب المغلق للرّياضات العصرية باعتباره جزءاً من خلق مشهد سلبي من الفعل التشاركي. ووفقاً لوجهة النظر هذه، فإنّ النّشاط الرّياضي الذي استنفد في السابق، أو انتشر في مساحةٍ مفتوحةٍ، فشغل مربع سوق بالكامل، أو حتّى قرى بأكملها، ينقسم بين اللّاعين، والمشاهدين؛ الأمر

الذي يحيل النشاط برمته إلى لون من ألوان الاستعراض، بدلاً من كونه شجاراً أو نضالاً مختلطاً، أو متشابكاً. وكما رأينا في الفصل الأول، فإنَّ السِّمة الثانوية المهمة لاقتصاد الرِّياضة المقيّد هو التركيز الكلي الوحيد على الفعل البشري - بالنسبة للعصور الوسطى، لم يكن في الإمكان التفكير في الرِّياضة دون مشاركة الحيوانات كفريسة أو شريكة في القنص، والصَّيد بالباز وما إلى ذلك.

إنَّ تنحية المشاهدين جانباً من الفعل يرادف عزل فضاءات الرِّياضة؛ الأمر الذي يعزله عن فضاءات الحياة، والعمل التقليدي. وإذا صحَّ أن الرِّياضة بطريقة ما تبدو أكثر انتشاراً مما كانت عليه في السابق - حيث بات مشهد العدائين في شوارع المدن الكبرى كلها تقريباً مألوفاً (حتى في مدن مثل طوكيو، وأمستردام التي تستدعي أعظم قوى اليقظة والتحمل)، وانتشار الرِّياضة في وسائل الإعلام المطبوعة والإلكترونية - فهي أيضاً تبدو أكثر انعزالاً أو انقساماً مما كانت عليه في الحقب الماضية، حيث أمست المنشآت الرِّياضية «عوالم اصطناعية»³ بقدر أكبر تدريجياً. ولا شك أن ثمة عاملاً مهماً في تسييح الرِّياضات؛ ألا وهو إمكانية فرض رسم على الدخول، لكن صبغ التجربة بصبغة تجارية الذي رافق التسييح شجع أيضاً على توسعة مساحة المشاهدة، وصولاً إلى مواقع أخرى.

إنَّ الفصل بين المشجعين والمشاهدين غالباً ما يُعتبر مرادفاً للأماكن المسيّجة الكبيرة - للأطفال الرضع وللمجانين والمرضى والمجرمين والحيوانات - التي أعادت، بحسب أنصار فوكو، ترتيب الصَّخب الشَّديد للعالم ما قبل الحدائي. ولقد حاول جون بيل John Bale أن يطرح دليلاً بديلاً، حيث أوضح أنه لكلِّ رياضةٍ أمسى فيها المشاهدون أكثر ملازمةً لأماكنهم، وأقلَّ حركة، ربما كانت هناك رياضةٍ أخرى - ومثال على ذلك الكريكت والتنس - أصبح فيها المشاهدون أكثر صخباً وتأكيداً لذواتهم.⁴ ومع ذلك، فإنَّ درجة الانخراط الواضح بين اللَّاعبين والمشاهدين هي مجرد عارض ثانوي، وذلك لأنَّ أي لعبة في واقع الأمر تُمارس على مرأى، ومسمع من جمهور من المشاهدين، دائماً ما تُشبع اللعبة برمتها بحالة كونها «لأجل» المشاهدين. إنَّ الفتيان الذين يكتسبون مهارات التعليق

على اللعبة حتى أثناء ممارستهم لها يُبدون فهماً بديهياً لهذا التشابك بين اللاعب والمشاهد. وعلى نحو مُتزايدٍ، يُلزم البث التلفزيوني، والإذاعي في عصرنا هذا اللاعبين بالتعليق على الأحداث، وفي بعض الألعاب يُطلب إليهم ذلك فعلياً أثناء المباراة. واللعب في وقتنا هذا يلزم اللاعب بأن يكون داخل اللعبة وخارجها في آنٍ واحدٍ؛ أن يكون لاعباً ومشاهداً في الوقت عينه. ولذا، بدأ فضاء اللعب في تفعيل الفضاء الكائن بينه، وبين الفضاء الخارج عنه.

التوجُّه

إنَّ فضاء الاستاد مسرحيَّ الطابع، من حيث أنه حربيٌّ ومثالي، ومحدد وعام، ومن حيث كونه هذا المكان، هنا والآن، وأي مكان أياً كان. ويجوز أن نزعم إذ نصف الرِّياضة الحديثة، كما قال جون دون John Donne متحدثاً عن الحب، أنها «تصنع من الحيز الواحد الصَّغير كل مكان».⁵ هناك دائماً ضرب من ميزة اللعب على أرض الوطن في أي استاد (ولو أن كثيراً من الاستادات ليست في واقع الأمر مملوكة لأي فرق، ولا حتى رياضات بعينها، ولا تشغلها أي فرق أو رياضات محدّدة). ولكن ميدان اللعب الفعلي هو في الواقع التخصيص التناقضي لمجموعة عامة من العلاقات - بين خط الإرسال والشبكة والزوايا وخطوط التماس، وقائمتي المرمى ونقاط ضربات الجزاء - التي تضمن تخطيطاً هو في جوهره متطابق بالضبط، سواء اصطفت الفرق في برايتون أو في بكين. وهذا أول تقاطع من بين تقاطعات كثيرة تُميّز الاستاد - تقاطعات بين المكان والفضاء، وبين «هنا» وأي مكان آخر. ويعوّل الفضاء الرياضي على اختراع الهندسة الذي يُقال إنه يرجع إلى اكتشاف طاليس الملطي Thales of Miletus مبدأ التكافؤ الذي سمح للمرء بقياس ارتفاع هرم بمقارنة ظلّه لظل رجل معلوم الطول. ويعني «علم الهندسة» حرفياً قياس الأرض، لكن فضاء الرِّياضة يعتمد على مكافئات مجردة تجعل من كل رقعة، أو ملعبٍ دنيوياً ومثالياً في آنٍ واحدٍ. وتتطور الحلقات الرِّياضية على هيئة تدوير لمربعات، وتمهيد لزوايا، وتطويق

للحواف. إنَّ المستطيل المرن «للحلبة» التناقضية في لعبة الملاكمة هو الاستثناء الواضح لهذه النزعة. ومصارعات الثيران في جنوب إسبانيا جرت أحداثها أصلاً في مربع مركزي، تطلَّ عليه من أربعة جوانب بنايات شاهقة، حيث اصطفَّ المشاهدون في التوافذ والشرفات. وبينما نُقلت مصارعات الثيران إلى حلبة رملية، أمست أرض المعركة مستديرةً، حيث اصطففت المقاعد حولها عن قرب من بعضها بعضاً. ويتجلى في استادات كرة القدم الإنجليزية التطور ذاته. فالنادي متدني المرتبة، الذي لا ينتمي إلى بطولة الدوري، سيحظى بمدرجات محدودة عادةً، إما إلى يمين أو إلى يسار الملعب. وبينما يرتقي النادي الدرجات العلا، يجوز إضافة مدرجات له في أحد الطرفين، وتدرجياً تمتلئ المساحات المحدودة عند الزوايا، وتمتدُّ إلى الداخل. وأخيراً، تطمح الأندية صاحبة الإنجازات الأكبر إلى استاد متعدّد الأغراض، يُحاط فيه الملعب بحلقة لا تنفصم، مما يُعظّم من عدد المقاعد، وقدرة المشاهدين على رؤية الملعب بالداخل، مع عزله من الخارج. وتترع الاستادات الرياضيّة، بتعبير آخر، إلى خلق بيئات مُغلقة أو منظوية على ذاتها، في محاكاة لتكييف الهواء الشامل الذي يُميز، بحسب بيتر سلوترجيك Peter Sloterdijk، المساحات الحديثة.⁶ وبينما يتطور الشّكل، نراه يميل إلى الشّكل القبائي أو الكروي، الذي لا توجد فيه أولوية لمنظور على آخر، ويفسح فيه التوجه المجال لكلية وجود المنظور، ويتبدّد فيه الغموض بمظهر بهي. ويمتد تعالي المكان هذا بمساعدة الشاشات الكبرى إلى تجاوز المسافات. فالقبة تدعمها التحسينات التكنولوجيّة التي تضمن أن جميع المشاهدين يتمتعون بإمكانية الوصول إلى المنظر الموثوق الذي تكفله كاميرات الفيديو. والوعد الذي تعد به القبة هو أن المرء بوسعه أن يكون في كل مكان في آنٍ واحدٍ. وإنفاذه الشعائري يتمثّل في الموجة المكسيكية التي تُؤدّي تاريخياً كاحتجاج ساخر على المباراة المملة الباعثة على الضجر، لكنها أيضاً تأكيدٌ مثالي لتميز الحشود مع الأشكال الدوّارة بشكل نشط للاستاد وتحركاته.

إن الاستادات جميعها مُصمّمة بحيث تبدو كونيّة، أو على الأقل فضائية. فهي

توحي بالدوائر والمدارات ومناطق البروج، بدلاً من طوبولوجيا المواقع. ويُحاكي شكل الاستاد في مضمار الخضم الذي يُضاعف الشَّكل السياحيّ للاستاد، ومع ذلك فهو جزء من فضاء اللعب. وبحسب جون بيل John Bale، فإنَّ مضمار الخضم يساعد على التأكيد على الاستاد باعتباره «لا مكان» أو «مسطحاً لا مكان له»⁷. إنَّ مضمار الخضم المُسيَّج والمُسَطَّح تماماً والمُدْرَج تدريجياً دقيقاً هو نقطة النِّهاية للتطور «من المكان غير المُخصَّص وغير المُقسَّم وغير المحدَّد مكانياً إلى أن يصبح قريب الشبه من المستوى المُتخصَّص»⁸. ولهذا السَّبب، بحسب قول بيل، نجد أن الألعاب الرِّياضيَّة المضمارية «واحدةً من أكثر الرِّياضات عديمة المكان، ولا توجد ضغوط شديدة جداً في جوانب أخرى من الحياة إلا قليلاً تُمارس على مكان واحد كي يكون مطابقاً - مطابقاً بالكامل - لأي مكان آخر من نوعه»⁹. إنَّ الحلقة المُغلقة لمضمار الخضم تُلخص التزعة إلى اللامكانية في الاستادات الحديثة بشكل عام أكثر، مما يؤكد رأي بيل القائل إنَّ «مشهد الرِّياضات الحديثة يمكن وصفه بالميل إلى (اللامكانية)، بالمعنى الجغرافي للأماكن التي تبدو شبيهة، وتضفي على المرء مشاعر شبيهة بها لها من (قيم مفروضة وموحدة)»¹⁰.

إن هذا التجاوز المُتعالى للمتطلب الظاهراتي للمنظور الموجه يجب أن يمحو أو يتجاوز الآثار العتيقة أو الباقية للتوجيه. ولقد أمسى ذلك واضحاً بقوة لمشجعي فريق أرسنال لكرة القدم، عندما انتقلوا من استادهم التَّقليدي رباعي الأقسام إلى الاستاد الإماراتي الجديد عام 2006. فالشَّعارات التنافسية، والرَّدود عليها، التي جرى العرف على أن يتبادلها مشجعو المدرجات الشَّمالية والجنوبية والشرقية، والغربية في استاد أرسنال، فجأة لم يكن لها مكان في استاد لم يكن يحتوي على فواصل بين المقاعد. ومن المستبعد إطلاقاً أن يدين المرء بالولاء تجاه روح مكان المربع البرتقالي كما دان بالولاء للمدرجات الشَّمالية، أو مدرجات سبيون كوب باستاد أنفيلد، أو مدرجات شيد باستاد تشيلسي.

ولكن بمرور الزمن، يجوز أن تنتكس الاستادات مجدداً إلى فكرة الاتجاهات، وتصبح عرضة مرة أخرى إلى المقاومة التجريبية للقيد باللوائح، والاتجاه،

والتجانب المكاني. ويصبح الفضاء الموحد للاستاد مشوه الشكل، بينما يتشوه شكل الفضاء المفتوح للوعي الحسي لدى القزم متضخم الأطراف، بشفتيه العملاقتين المتفخنتين ويديه اللتين تشبهان أيدي المهرجين. ويصبح التوزيع المتناسق لدرجة الحرارة مشهداً للرصد الجوي تتناثر فيه بقاع الانتباه والحميمية الساخنة عبر مناطق اللامبالاة أو التخلي.

وبالطبع، فإنَّ أعظم عقبة على الإطلاق في الاستاد هي اللعبة ذاتها التي لا غنى فيها عن الخصومة بين الجانبين، ولا اختزال لها. ولكنها خصومة تهدف إلى إعادة إنتاج وحدة اللون الأبيض للاستاد، لا بتجريد الفضاء بل بإشباعه بالحركة.

وفي بداية اللعبة، نجد اللون الأخضر النَّاصع الرّطب هندسي الشكل للملعب وشبكة الوكت (الأبواب الصغيرة) والساحة. وهو يمثل الإمكانية؛ بل هو الإمكانية ذاتها، كالكتبان الرّملية التي صنعتها الرّياح، أو الشاهد الأبيض لحقل من الثلج الأبيض. وخطوطه الليزرية تخالف قوانين إقليدس، فهي مجردة ومطلقة وغير دنيوية، وكأنها خطوط من نور أو نقوش مضيئة لفكرة الخطوط. وعندما تزدوج الخطوط الفعلية مع الخطوط الإلكترونية التي تُمكن المرء من تحديد ما إذا تجاوز خط أم لا تحديداً مطلقاً، كما في منظومة عين الصقر المستخدمة في التنس والكريكت وغيرها من الرّياضات، يتحرك الخط أبعد حتى باتجاه حالة الهندسة المطلقة إلكترونياً. وأي شيء يمكن أن يحدث في مثل هذا الفضاء. إنَّ شكل الاستاد يُحاكي ويُجسد هذا الكمون في الإمكانية. فعندما نقول إننا «نرسم خطأ في الرمل»، فإننا نعني أننا نُجمل فعل ترسيخ مبدأ أولي؛ شيء مطلق وناشئ يحكم التمايز بين هذا وذاك، والآن ولاحقاً. ولكن المبدأ الأولي الحقيقي، والبناء الهندسي الحقيقي، هو حالة الانفتاح المطلق التي تسمح برسم أي وكل خط، وتمييز أي عرض، وأي اتجاه، ولكن قبل ظهور أي خط، وأي اتجاه فعلياً.

ولحظة أن يبدأ اللعب، فإنَّ هذه المثالية، وهذا الخواء الحافل بالمعاني، سيؤولان

إلى الدمار بلا رجعة. ومع أول لحظة للعب، يختل توازن الإمكانية بفعل الخيار أو الخطر: هل سأركل الكرة ركلة طويلة أم قصيرة؟ هل سأرسل ضربة الإرسال بزاوية عريضة أم بزاوية حادة؟ هل سأضرب الكرة ضربة مفاجئة، أم سريعة، أم قوية؟ هل سألقي بالكرة لأعلى أم أحاول أن أضرب الكرة بشكل ارتدادي؟ وهل أنا حر بالكامل في فضاء اللّعب؟ أي هل أنا مقيد تقييداً مطلقاً، بحيث لا أستطيع أن أتحرّك قيد أنملة لاستفتاح تفاعل فضاء اللّعب؟ إنّ الخيار الوحيد غير المتاح هو خيار البقاء في حالة القدرة على اختيار أي شيء. وبينما تتطور أحداث المباراة، فإنها تترك آثارها على الملعب التي تثير نائرة المسؤولين عن بستنة الملعب في شتى أرجاء العالم. سيصبح الفضاء المفتوح مسوّى بالأرض بفعل اللّعب، زاحراً بالحفر في بقاع مُعينة، كمنطقة الرمي، أو خط الإرسال، ولم تمسه قدم نسبياً في بقاع أخرى. إنّ الطيف الخارق للطبيعة سيتحلّل، ويتحوّل إلى رسوم مشوّهة للتلاقّي على سبيل المصادفة، والحوادث الناتجة عنه.

لم يعد الفضاء الآن طوبوغرافياً (متعلقاً بالملاح العائمة لسطح الأرض)، بل طوبولوجياً (متعلقاً بالخصائص الهندسية التي لا تتأثر بتحويل الشكل). فهو يُطوى ويُعاد طيه، وتخضع مسافته الثابتة إلى التمدد والالتواء والميل والانقباض. لكنّ هذا يخلق حينئذٍ إمكانية المرور إلى ما وراء الاتجاه. ويمكننا أن نفهم ذلك بلغة التمايز الذي يحدده ميشال سيريس Michel Serres بين «السينوغرافيا» (تصميم أماكن التصوير السينمائي) و«دراسة الأيقونات». ففي السينوغرافيا، ينقسم الفضاء، ويُوزّع توزيعاً تفاضلياً. والفضاء في هذه الحالة فارق، حيث يسمح بـ«الانتقال إلى» و«هناك»، وهناك وهنا، جاصراً المرء في مكانه، وفي فترات فاصلة ومسافات ثابتة. أما دراسة الأيقونات، فهي تخطيط، لا للفضاءات بل للممرات، ومخططات الرّحلات والاجتيازات والانتكاسات التي تكون كلها متناظرة نوعاً ما، أو مُحتلة التوازن، أو كالأرض في قصيدة جون ميلتون «الفردوس المفقود» التي «تحرّكت على نحو عكسي بانحرافات مُتجانبة»¹¹ بالنسبة لسيريس، تقترّب دراسة الأيقونات من «مجموعة اللّمحات المحتملة،

ومجمل الأفاق... إنها السلسلة الكاملة لتحويلات بروتيوس إله البحر، بل هي بروتيوس نفسه».¹² إنَّ دراسة الأيقونات هي مجموع جميع التحركات الفعلية والممكنة، وكلية بيضاء، لا لأنها خاوية، ومن ثم مفتوحة أمام أي إمكانية، بل لأنها ضوضاء بيضاء، ونَسْخُ لأعمال فنية نحاسية على الورق، بالمقارنة بالمخطط التفصيلي، وطيف يتألف من جميع الألوان، وخارطة تُمحي ويُعاد رسمها في عاصفة الاتجاهات المدونة في عُجالة.

إن عملية تغيير جانبي الملعب لضمان تعرُّض الفريقين لمزايا وعيوب أي تغيير في الملعب، أو غير ذلك من عناصر اختلال التوازن، تنتمي إلى منطق دراسة الأيقونات، وذلك لأنها تخلق لوناً من المساواة، لا بمحو الفضاء بل بالنسخ فوقه بأقصى قدر ممكن، وخلق ترادفاً بين منطق «لا كذا... ولا ذاك» و«كل من كذا وكذا». إنَّ نزوع الرياضات التي تُمارس في حلبات «الجيل الرابع»، والاستادات التي وصفها رود شيرد Rod Sheard، المهندس لدى شركة التصميم الهندسية المعمارية العملاقة HOK Sport،¹³ أي التي تُمارس وسط شبكات الاتصالات التي توحى بها تلك الهياكل وتوجبها، يميل أكثر باتجاه هذا التكامل، مثلاً بواسطة إعادة مشاهد المباراة، الذي يغطي اللحظات الفريدة، فيجمع زوايا مختلفة، أو بواسطة البيانات التي تُتم أحداث هذه المباراة بعينها مع غيرها من أحداث في أماكن أخرى أو في الماضي. وعليه، فهناك ثلاث مراحل للاتجاه. قبل أن تبدأ المباراة، نجد أن الاستاد فضاء للعب المحض عديم الاتجاهات. وتفرض بداية المباراة النزوع تدريجياً إلى الاتجاه. ولكن، حينئذٍ يبدأ تفاعل فضاء اللُّعب بجهد جهيد في خلق الانتكاس إلى حالة اللاتجاه.

ولمَّا يُجرم الجمهور من الوصول إلى فضاء اللعب، فهو يشارك في تفاعل الفضاء، من خلال الصَّوت إلى حدٍّ كبير. وهناك بالطبع عامل الموقع والتجانب في الغناء والإنشاد من قِبَل الحشود؛ والغاية منها توسعة فضاء اللعب، والارتقاء بحظوظ طرف أو آخر من طرفي المباراة. ولكن، كاللعبة التي تُمارس في الملعب، تُمارس لعبة الصَّوت، في محاولة لتدمير الفضاء نفسه الذي تحدث فيه

اللّعبة. ويهدف الحشد إلى التشبّع، ويُضخّم شكل الاستاد نزوع الصوت إلى الانتقال في جميع الاتجاهات، الأمر الذي يجد من حدّة الصّوت، ويُعظّم قوى توسعه وانتشاره. وإذا يعمل الاستاد في آنٍ واحدٍ عمل مضخّم الصوت والأذن التي تناسبه، فإنّه يُعتبر أداة سمعية تلقائية. إنّ الاستاد يُطيل الصوت ويُسرّع من وتيرته، فيشجّع طموح جعل الصّوت ضرباً من البنية الهندسيّة أو الكتلة الملموسة بحد ذاته، وإحداث ضجيج لسحق الفريق الخصم. والنّصر الذي يهدف إليه الاتجاه - طرف مقابل طرف آخر - ليس نصر طرف على آخر؛ بل هو محو للتجانب بحد ذاته، وتأكيد للوحدة الجمعية. ويشبه هذا الحياد أو «اللاتحيز لطرف» حياد افتتاحية المباراة، اللهم إلا أنه وحدة لا للخواء بل للاستيعاب. وبحسب ما جاء على لسان سيريس:

إنّ سبب الخصومة وغايتها هما شغل المكان؛ والضّوضاء تشغل المكان. والهدف كله هو حيازة المكان أو شغله، أو السيطرة عليه... ضوضاء في مقابل ضوضاء، وضوضاء في مقابل سلاح. فالضوضاء سلاح يستغني في بعض الأحيان عن الأسلحة... والضّوضاء تشغل المكان بأسرع من أي سلاحٍ مهما كان.¹⁴

وكما في الملعب، فإنّ تفاعل الفضاء الجمهوري يتشكل من الرّغبة في وضع نهاية للعب، وفضاء النزاع الجمهوري يُحفظ، ويتجدد بفعل الجهود المضادة للمشجعين المنافسين بغية محو الفضاء بإتخامه بالصوت.

فوق وتحت

لعلّ أهمّ لحظةٍ على الإطلاق من لحظات التوجه هي العلاقة بالجاذبية. فهناك طموح محدد للارتقاء في جميع الألعاب. فالكأس تعلق فوق رأس اللاعب الفائز، بينما يقيس الفريق الخاسر أطوال هزيمته على أرض الملعب. وعادةً ما ترتفع

الاستادات بحدة فوق مستوى الملعب، فتراجع بزواوية حادة قدر الإمكان، بحسب الضرورة، لتحسين رؤية الجماهير، وراحتهم. وفي الاستاد، لا ينظر المرء أساساً إلى المباراة، بل يتطلع إليها من عل. ولكن، هناك منطقة عالية لا يشغلها المتفرجون، ألا وهي المنطقة غير المحددة للعب أعلى الملعب. وهذا البُعد يختلف عن بقية أبعاد اللّعب، حيث إنه غير مرئي ولا متناه. فلا يوجد عادةً حد نظري لهذه المنطقة. ومن الممكن أن تُضرب الكرة أو تُركل لأعلى مستوى في استطاعة اللاعب، وستظل في نطاق اللّعب على أي حال. ومنذ سنوات قلائل، استُخدمت لأول مرة الكاميرا الهوائية لتغطية مباريات الرجبي الدولية في استاد فرنسا، بالعاصمة باريس. وكانت الكاميرا تتحرك بطول حبل مُعلق على الملعب طولياً من زاوية إلى أخرى. ويبدو أن الفكرة هُجرت، لا لأنّ التغطية الواطئة، بحسب ما يظن المرء، التي وفرتها الكاميرا تفتقر فقط إلى كل الحيوية، ولكن أيضاً لأنّ الكاميرا في ذلك المكان الخالي المتعذر الاحتفاظ به ظاهرياً أعلى الملعب كان في واقع الأمر انتهاكاً للمحدود، لكنها تضمنت بُعد الهواء العلوي. فقد كانت متطفلة ومُتجاوزة بالمعنى الحرّفي، بتخطيها للخط، شأنها شأن أي كاميرا في الملعب. وثمة إحساس مثير بالتوغّل يرتبط بالأسقف والعوارض وأعمدة الإنارة لبعض ملاعب التنس المغلقة.

وهناك كثير من العناصر التي تقاوم العلو في الاستاد. فقد استغلت المدرجات الإغريقية غالباً المنحدرات أو الميول الطبيعية، ونُحِتَت في جانب التلال. إنّ حقيقة الاصطلاح «شرفات»، قبل كارثة استاد هيلزبره Hillsborough التي وقعت عام 1989، وهو المجاز المرسل المفضل لاستاد كرة القدم الإنجليزية نفسه، توحي بأنّ المكان حُفِرَ في الأرض بدلاً من أن يُقام عليها. إنّ الاستاد دائماً ما يكون نوعاً من الحفر أو المنحدرات المُجوفة أو المُقعرة. ورغم أن كثيراً من الاستادات تعلو لارتفاع شاهق، فإنّ أثر المنظور المرتفع يوحي بالنظر إلى أسفل في الأرض، بدلاً من النظر إلى أسفل على الأرض، بالضبط كما الحال عند النظر من بناية شاهقة. إنّ عادة تصوير الاستادات بتقنية الأفلام، أو تصويرها فوتوغرافياً من

عل، يدعم هذا الإحساس الذي يجعل المرء يُخيل له أنها أشبه بالفوهات البركانية التي تُتَنَفَّس عن قوى جوفية، لا بروزات.

وثمة دليل على أن ما يدعوه ديفيد لارمور David Larmour «المكان الاحتضاري» للأحداث المسرحية، والرياضية الإغريقية غالباً ما كان متزامناً مع مرور الشمس في السماء،¹⁵ وهي الممارسة التي تستدعيها مباريات الكريكت المقامة أول الليل، التي ابتكرها ودشنها كيري بيكر Kerry Packer إمبراطور الآلة الإعلامية الأسترالي عام 1978، في ملعب سيدني للكريكت. وتبدأ تلك المباريات في أول الليل، وتنتهي تحت الأضواء الغامرة. وهذا «توجيه» بالمعنى الحرفي، يستهله شروق الشمس من المشرق، لكن المرور الجانبي للشمس ينطوي أيضاً على غوص في المغرب. ومن بين آثار الدائرة المغلقة للاستاد التخفيف من الآثار السلبية للشمس المنخفضة، ولو أنه يظل عاملاً في ملاعب الكريكت والتنس كافيًا ليعمل عمل موزع المزايا. فرغم كل حلقاته وتوافقاته الفوقية، نجد أن الاستاد يرتبط بصلات أقوى بالمضيق أو الهوة أو المقلع، وغير ذلك من أماكن التنقيب تحت الأرضية، من صلاته بالسموات. وعليه، كان تفضيل شكل قوس قزح أو الشكل القوسي في التصميم الهندسي للاستاد، الذي يبدو أنه يرمز إلى المقطع المكافئ الشبيه للصاروخ من أعلى، والعصا أسفل جميع الطموحات الرياضية.

ورغم أن الحشود تتمتع بلون من الميزة المنظورية، من حيث نظرها إلى أسفل على الملعب - وذلك لأنَّ المقاعد الكائنة على مستوى الأرض نادراً ما تكفل منظوراً حيويًا أو مطلعاً على المباراة - فهي في واقع الأمر راسخة في ارتفاعها الذي يمثل استبعاداً جوهرياً من ميدان اللعب. ورغم أن اللاعبين يُحتمل أن يرتقوا حيث تجتمع الحشود في نهاية المباراة، لاسيما في ملعب ويمبلي القديم، عندما اضطر اللاعبون إلى الصعود لمسافة طويلة وصولاً إلى المنصة الملكية - وهو التقليد الذي حاكاه بات كاش Pat Cash الذي صعد متجاوزاً الجمهور لإلقاء التحية على خليلته، بعد فوزه بلقب بطولة ويمبلدون Wimbledon - فإنَّ

نطاق اللّاعين أو الرياضيين هو العالم السفلي. فهم يخرجون مما يُطلق عليه عادة اسم «النفق»، وكأنهم يخرجون من تحت الأرض، والفريق الإداري يمضي فترة المباراة في «مخبا اللّاعين»، كالغيلان أو غيرها من الكائنات البدائية النّاقبة.

ويؤكّد إلقاء مواد خفيفة الوزن، كالبالونات، والأعلام الرّفيعّة الحفّاقة على الملعب، وتمهّديها الوئيد، وصولاً إلى الأرض، أيضاً شدّة قوة الجاذبية الذي لا مناص منه، والذي يتعرّض إليه الاستاد دائماً وأبداً. وتوحي الأضواء الغامرة التي تميل على الملعب بأنّ الأضواء حتى تسلط في الاستاد من الهواء. وكلمة «مضمار» (arena) عينها تعني ببساطة «الرمال».

وعلى العكس من العشب الذي يكون له قوام خشن رغم نفاذيته، ومن ثم حصانته نسبياً، كانت الرمال تُفرش في حلبات المصارعة القديمة كي توفر تصريفاً في المقام الأوّل للدماء وغيرها من المكونات الجسمانية. وحقيقة الأمر أن التصريف الجيد ما زال مُبتغى أفضل أنواع الملاعب العشبية. وما بقي من دماء تلتخ السطح، يمكن إزالتها ببساطة بإهالة الرمال عليها، وبذلك تُطمّر البقايا الأخيرة للوحش الذبيح، أو المنافس الجريح.

وحقيقة أن أغلب الاستادات المفتوحة من عل على السّماء تؤكّد نزعة انخفاض الصحن الذي يمكن أن يبدو أشبه بمغسلة أو بالوعة، وما يستحضره ضمناً من التخلص من الفضلات في حركة دوامية. وفي أيام شرفات ملاعب كرة القدم الإنجليزيّة المُكدّسة والمترابّسة عن كُتب، حيث كان المرء دوماً عرضة لخطر ثقل الحشود من ورائه، ومن فوقه، جرت العادة على أن تكون هناك إشارة حرفية لذلك في نهاية مدرجات «سيون كوب» لاستاد أنفيلد الخاص بنادي ليفربول.

وبما أن شق المرء طريقه بعنف عبر الحشود، وصولاً إلى الحّمّات خلال المباراة أو حتى في أثناء الاستراحة ما بين الشوطين، مسألة عويصة، كان كثيرون يفرغون مثنائهم التي تضخمت من فرط ما احتسوا من خور بعد الغداء بأن يصنعوا شكلاً مخروطياً بنسخهم من صحيفة «ليفربول إيكو» (Liverpool)

(Echo)، ويستخدمونها كالأفخاع. وكلما كانت الشرفات أكثر انخفاضاً، كان من الأهم أن يرتدي المرء حذاءً مطاطياً فوقياً، أو حذاءً مطاطياً طويل العنق، لتفادي السيل.

في قلب الأحداث

تطل علينا الاستادات بإختلالاتٍ غريبةٍ غير متوازنة. ففي غالبيتها، نجد أن اللاعبين وأحداث المباراة الناجمة عن تحركاتهم تبدو مرئية بقدر أكثر وضوحاً وحيوية، وتبدو أقرب مما هي في واقع الأمر، وكأن فضاء اللعب يعمل كالعدسات المكبرة. فاللاعب الموجود في الملعب على مسافة مائة ياردة، يبدو أوضح ومحدد المعالم بقدر أكبر من أحد المشجعين الذي يبعد عنه صفيْن لأسفل.

وثمة فترة كان فيها القُرب من الأحداث عاملاً فاصلاً. وعليه، فما من أحد نظرياً كان من الممكن أن يشغل مكاناً أفضل لإطلاق الأحكام من الحكم الذي يكون في قلب الأحداث. ولكن دعم الرؤية البشرية بأجهزة استشعار تلقائية، وإمكانات إعادة الأحداث، بصدد تغيير كل ذلك. ففي أيامنا هذه، عندما تساورنا الشكوك حيال ما إذا كانت محاولة ما سُدِّدَت فعلاً في مباراة دولية للرجبي، ربّما نسمع المعلقين يقولون «سيتعيّن علينا الرجوع لسلطة أعلى للحصول على قرار في هذا الصدد»، مما يعني أن الحكم على وشك استشارة مسؤول خارجي يملك إمكانية الوصول إلى إعادة الأحداث المزودة من عدد من المنظورات المختلفة. وسيكون في استطاعة هذا المسؤول الرابع الجلوس أمام شاشاته على خطّ التماس، أو حتى تحت الملعب - إذا ما دققنا النظر في المسألة، فربما يكون فعلاً تحت الملعب، ما دام أن القصد أن يكون مكانه سرّياً بالكامل. وعندما يخاطبه الحكم بواسطة سماعته اللاسلكية، فهو لا يتطلع إلى أي اتجاه بعينه، وكان ذلك يشير إلى أن المسؤول الرابع في حقيقة الأمر لا يسكن الفضاء المنظور للحلبة مطلقاً. وربّما استقر حتى في مكان انتظار السيارات،

لأنه في هذه المرحلة ثمة أحدهم يسكن الطرف الآخر من العالم، ويطلع على إعادة الأحداث التي يختص بها مشاهدو التلفزيون، سيشاهد ويعلم أكثر وأسرع من اللاعبين والحكم أنفسهم. وميزة القرب هنا تفسح المجال لنشوة شمولية النظرة.

أشياء لها مغزى عالمي

كان بيتر سلوترجيك Peter Sloterdijk يرى أن النطاق المكاني للعالم المعاصر يجب أن يفهم على أنه تضاعف وتنوع للصور الموحدة للكون الكبير الذي كان له نطاق ومغزى بالنسبة للعصور الماضية. ويُفسر سلوترجيك، في عمله الذي يتألف من ثلاثة مجلدات، تحت عنوان «نطاقات» (Sphären)، التاريخ البشري - الفلسفي والديني والفني والسياسي - باعتباره تفصيلاً للألوان المختلفة لنطاقات أو فضاءات الانطواء، وتتعبق المجلدات الثلاثة الحركة باتجاه التكتلات العالمية، ثم بعيداً عنها، وهو ما يتركنا في حالة متعددة النطاقات، يصفها سلوترجيك بـ «تجمع التجمعات، وزيد شبه معتم من لبنات الحيز الصانعة للعالم».¹⁶

ويبدو الاستاد تحدياً منطوياً على مفارقة تاريخية لهذه الحركة العالمية، بعيداً عن التركيز والحضور والتمركز. فقد أمسى الاستاد الشكل الأكثر تمثيلاً للنصب التذكاري العلماني، وفضاءً لانعكاسية اللعب تعرض فيه المدن والأمم والثقافات نفسها للصوره وتجذب نفسها للبؤرة. والحلبات عوالم مصغرة ومكبّرة وأحادية ومَلَكِيَّة، وهي تُغذي اشتهاه المطلق، وتجعل المرء يهفو له. الاستاد أشبه بسُرَّة مُتخيلة تدعي أنها مركز العالم. ولعل هذا سبب آخر يعلل كون الاستاد دائماً ما يوحى بانخساف في الأرض، فقد كانت السُرَّة مركز العالم لأنها تمددت إلى قلبه. وأشهر حجر سُري في العالم القديم مَيَّرَ مكان العرافة في معبد ديلفي Delphi، حيث التقى صقران أطلقهما زيوس ليحلقا حول العالم، وحيث فهر أبولو Apollo بايثو Pytho، الثعبان الأرضي، وحيث ألهمت كاهنة بايثو، بحسب أسطورة لاحقة، التنبؤ بفعل الأبخرة السامة المتصاعدة من داخل الأرض. إنَّ المظهر

الجانبي المتباهي للاستاد يجعلنا لا نرتاح له بشكل مفهوم. فهناك شيءٌ خطرٌ واستعلائيٌّ وبربري في محاولة جمع شتات العالم كله في مكان واحد، وهو يشبه إلى حد بعيد معسكرات الاعتقال - فما المعسكر على أي حال سوى مجموعة من الأبطال الذين يهيمنون على ميدان الدورة الرياضية، أو ميدان المعركة. إنَّ جميع الاستادات أماكن خطيرة، الخروج منها أصعب، مهما كانت إجراءات الأمان المعمول بها، من الولوج إليها. والوسيلة الوحيدة التي تجعل الاستادات آمنةً بالكامل هي إنشاء مخارج بعد كل بضعة صفوف، لكن هذا من شأنه تبديد الحشو والاحتفاظ والحصار الزمني عنها التي تنبع منها طاقة، وإثارة كون المرء جزءاً من جمهور الاستاد. وكثير من الاستادات الأمريكية المجهزة بعدد أكبر بكثير من منافذ بيع الأطعمة، وغيرها من المحلات التي تعمل بنظام حق الامتياز لإغواء المشاهدين بترك مقاعدهم، تفتقر إلى التكوين الداخلي المضغوط الذي يتحلى به الاستاد الأوروبي لهذا السبب تحديداً.

وترتبط الاستادات بالتقليد الذي عملت في سياقه عمل التجمعات الكونية الصغيرة، والعوالم الافتراضية، فقد كانت غاية السيرك الروماني تحديداً التأكيد على امتداد الإمبراطورية، وقدرتها على الإشراف عليها، وكأن نطاقها لا يتعدى نطاق المدرج الروماني الكبير، فيكون الإشراف تحديداً هو أسلوب المراقبة الذي يقتضيه هذا النوع من البطولات الكبرى. ومع ذلك، نجد أنَّ الأباطرة والمستبدن لا يشعرون بالارتياح دائماً داخل الاستاد، وذلك لأنه ليس من الواضح بالكامل من أيّ وضع يمكن للمرء السَّيطرة عليه. وثمة قصة ترجع إلى بداية العصر الحديث لتجربة الاستاد تثبت هذه النقطة. فعندما زار الإمبراطور النمساوي جوزيف الثاني مدينة فيرونا Verona، أقام حاكم المدينة مصارعة ثيران على شرفه في المدرج الروماني للمدينة، وسيقَّ الإمبراطور إلى مقعده. وعلى الفور، بحسب الوصف المعاصر الذي أدلى به المؤرخ البروسي يوهان فيلهلم فون أركينهولتس

:Johann Wilhem von Archenholz

وصل عبر شُقَّة صغيرة إلى مقعده، ورأى في دائرته المحدودة جميع قاطني المدينة، والمناطق المتاخمة لها يملؤون المدرج الروماني من أعلاه إلى أدناه. وعلى الفور، وقفوا وألقوا عليه التحية وأثنوا عليه؛ كان مشهداً أذهل الإمبراطور [وتحديداً كما جاء في النص الألماني: مشهداً جعله يشعر وكأنه خرج من بدنه].¹⁷

ولشعوره بالخروج عن ذاته مرادفٌ ربما في معضلة العاملين في المقصورة الملكية: أعليهم الانضمام إلى الموجة المكسيكية التي تنبض في أرجاء الاستاد، ومن ثم يتخلون عما يُميزهم، أم يمتنعون عن الانضمام إليها، فيحافظون نوعاً ما على إبعادهم عن المكان؟ ومن الآلاف أن موسيقى الروك التي تُعزف في الاستاد عادةً ما تلوي الفضاء الدائري للاستاد، وتحيله إلى سينوغرافيا (فن تصميم المشاهد التلفزيونية، والمسرحية)، فقيم علاقة وجهاً لوجه بين النجوم، والجماهير يمكن التحكم بها وأكثر ألفة.

ومع ذلك، فإنَّ الاستادات تساعد على تشكيل تفاعل اللُّعب الذي يُلقى بهذا الانعكاس الكوني المصغر بعيداً عن المركز، وتُستغرق فيه أيضاً. وفضاء اللُّعب لا يُستغل فقط من واقع كونه مُكرساً للحشود التي تجري أحداث اللُّعب أمامهم، فلعبة الخصومة نفسها تنسحب على نحو متزايد إلى علاقة تربطها بمجموعة أخرى من الجماهير القريبة والبعيدة، زماناً ومكاناً. لقد أمسى الاستاد ما أطلق عليه ميشال سيريس «شيئاً عالمياً».¹⁸ وبالنسبة لسيريس، يتميز الشيء العالمي بسمتين: أولهما أنه لا يتقيد بأي ثقافة واحدة، أو تقليد واحد أو مكان وحيد، بل يمتد في شتى أرجاء العالم، ومن ثم فهو ينتقل بذاته إلى أي مكان، ويوفر لوناً من البوابات أو مفتاحاً عمومياً لجميع بقاع العالم. والسمة الثانية هي نتيجة للأولى. يذكرنا سيريس، وفقاً للفهم المشهور في العصور الوسطى، بأنَّ الموضوع هو الذي «يُلقي به أمام» الذات: «يُعمل الموضوع الذي يخضع لسيطرة ذات أثره في غيره من الموضوعات، بل حتى في غيره من الذوات؛ وكل هذه

العناصر تسكن مجموعة زمانية مكانية محدودة مكاناً وثابتة نسبياً زماناً»¹⁹ ولكن، بها أن الموضوعات العالمية في كل مكان، وتتيح المرور إلى أي مكان، فهي (كشبكة الويب العالمية مثلاً) ليست أشياء وحسب مطروحة في فضاء العالم. فبدلاً من أن تنكشف أمامنا، في علاقة التوافر المُشار إليها في علاقة الإطار لدى هايدغر Heidegger، تصنع عادةً أو «محيطاً». وهي موضوعات عالمية لأننا نسكنها على النحو ذاته الذي نسكن به العالم. والفارق بين هذا الموثل وغيره من الموائل هو أنه ليس موقعاً محددًا أو مكاناً مُنسَقاً في الفضاء، بل هو شقة تُفتح على تعميم البيئات، وتعميم وجودٍ شمولي المنظور، والزَّمان للإنسان، يُطلق عليه سيريس اسم «التألق»²⁰.

ولطالما كانت هناك ألعاب مفتوحة على العالم المادي، وربما كان الكريكت أكثرها على الإطلاق انفتاحاً على العالم المادي. فبينما تسعى أغلب الألعاب وراء كمال ملعب لا يتيح أي ميزة في أي اتجاه لأي من الجانبين، نجد أن لعبة الكريكت تستوعب عيوب الأرض، فتبني استراتيجيات كاملة بناءً على الحالة المتقلبة والمتعادلة حتىًاً لبيوب الكريكت. وعلى العكس من أغلب الرياضات الأخرى، تسمح لعبة الكريكت غالباً للمشاهدين بالتجول في الملعب في أثناء استراحة الغداء؛ ويظل بُوب الكريكت مُطوقاً، لكن المرء باستطاعته الاقتراب منه بالقدر الكافي لفحصه وإصدار حكمه الخاص عليه، فيما يتعلّق باحتمالية امتداد المباراة إلى اليوم الخامس. وبعد أن أطاحت بها عاصفة في يناير 2005، نمت شجرة ليمون داخل حدود ملعب مقاطعة كِنت للكريكت Kent County Cricket Ground، في مدينة كانتربري Canterbury، مما استلزم وضع قوانين محلية خاصة: فقد عُدت الكرة التي تضرب الشجرة بأربع نقاط، ولا يجوز لضارب الكرة أن يتجاوزها. وبدلاً من أن يطوق نفسه ويحصنها من الأحداث الطارئة التي تفرضها الأرصاد الجوية، تسمح لعبة الكريكت بأنّ تتشعب بتلك الأرصاد، بل ويُفضل أن تقحمها في اللعبة أصلاً. وهناك لعبة أخرى يمكن فيها أن تتقلب وتتذبذب حظوظ الفريقين (بالتزامن مع حركة الكرة) بشكل مهول نتيجة تعميم

سحابة على الشمس، ويحتاج فيها اللاعبون إلى الالتفات بشدة للسماء؟ يمثل ذلك نظيراً للخصائص الدقيقة للعبة النرد التي طرحها جيرولامو كاردانو Gerolamo Cardano، في كتابه «كتاب ألعاب الحظ» (The book on games of chance)، إذ قال:

ضع ألواح الألعاب الدائرية في الوسط؛ فإذا مالت نحو خصمك، فسيميل صندوق النرد إلى الاتجاه المعاكس، وهذا موقف غير موات لك. وبالمثل، إذا كان هناك ميل تجاهك، فلن يكون الصندوق رأسياً تماماً، وهذا موقف موات لك. ولكن، إذا لم يتحرك صندوق النرد، فإن هذا لا يهم. وبالمثل، إذا سقط الضوء على اللوح من الجانب المقابل لك، فهذا ليس في مصلحتك، طالما أنه سيسوش عقلك؛ وعلى الجانب الآخر، ففي مصلحتك أن يوضع اللوح على خلفية معتمة. ومرة أخرى، يُقال إنه في مصلحتك أن تتخذ لنفسك موضعاً مواجهاً للقمر المنير بسرعة.²¹

وتُقابل ألعاب مثل الكريكت التي يتفاعل معها العالم ألعاباً تتدفق في العالم. ولعل لعبة البيسبول هي أكثر لعبة يتفاعل فيها العالم معها. لكن البيسبول، على خلاف أغلب الألعاب الأخرى، من جانب واحد مهم. فأبعاد الملعب الداخلي، والشكل الماسي الذي تُعد القمة الأساسية له، موقع ضارب الكرة، ثابتة مطلقاً. فلا بد أن تكون هناك مسافة 90 قدماً بين القواعد، على أن يحيط بكل قاعدة قوس طوله 13 قدماً. والمسافة من رأس تلة رمي الكرة إلى موقع ضارب الكرة يجب أن تكون 60 قدماً و6 بوصات. ولكن، بالنسبة لخارج الملعب الذي يمتد من النقطة المركزية للمنطقة ماسية الشكل، فمن الممكن أن يكون مختلفاً، بل إنه مختلف في كل ملعب بيسبول.²² وعندما يستفسر المرء عن «هيئة ملعب البيسبول»، تبرز فكرة التفاعل بين الدقة والتقريب.

ويجعل ذلك من لعبة البيسبول التنفيذ المثالي للحالة المفتوحة-المغلقة على نحوٍ

غامض لفضاء اللّعب في الرّياضة. وتستغل رواية دون ديليلو Don DeLillo «العالم السفلي» (Underworld) (1997) هذه الشُّقَّة الظاهرية، وتُشكِّل نفسها بناءً عليها. فالمشهد الافتتاحي تجري أحداثه في ملعب بولو Polo Grounds، وهو الاستاد الذي فاز فيه فريق نيويورك جاينتس New York Giants في المباراة الملحمية لسلسلة المباريات الحاسمة للبطولة، ضد فريق بروكلين دودجرز Brooklyn Dodgers، في الثالث من أكتوبر عام 1951. وحُسمت المباراة بهدف سدّده مدافع فريق جاينتس، بوبي طومسون Bobby Thomson. ففي رواية ديليلو، يلتقط الكرة فتى نحيل القوام متغيب عن المدرسة يُدعى كوتر، فنراه يحملها بعيداً في نشوة انتصار، وفي خضم زهو، وإحباط مشجعي الفريقين. وعُرفَ الهدف باسم «الضربة التي تردادها في العالم أجمع»، نظراً لعدد الجنود الذين استمعوا للمباراة في كوريا. لكنّ ديليلو يُذكرنا أيضاً بحقيقة أن ثمة أنباء انتشرت خلال المباراة الفاصلة بين فريقَي جاينتس ودودجرز، بخصوص أول تجربة نووية يجريها الروس. فتنقل الكرة المُختلّسة من يد إلى أخرى طوال الرواية، في إنفاذ مثالي لما وصفه ميشال سيريس باسم «موضوع زائف»؛ وهو موضوع يعمل، في أثناء مروره من يد إلى أخرى، عمل الموزّع للمعنى والذاتية.²³ ويقدم لنا ديليلو تأملات جيه إدغار هوفر J. Edgar Hoover حول انتشار الأسرار:

هذا هو ما يعلمه؛ إنّ عبقرية القنبلة لا تكمن فقط في فيزياء جسيماتها وأشعتها، بل في الفرصة التي تخلقها لنشأة أسرارٍ جديدة، لكل انفجار جوي، وكل لحظة نلمحها للقوة المجردة للطبيعة، وتلك العين المنزوعة المنفجرة في الصحراء - لكل واحدة من هذه، نراه يضع مائة خطة سراً للانتشار والتضافر.

وما العلاقة بيننا وبينهم؟ وكم عدد الروابط المُجمعة التي نعثر عليها في المتاهة العصبية؟ لا يكفي أن تكره عدوك؛ عليك أن تفهم كيف يسوق أحدهما الآخر إلى الاكتمال التام.²⁴

سيكون إحراز الهدف والجري في دورة كاملة، وصولاً إلى القاعدة مفتوحاً ومغلقاً في آنٍ واحدٍ، كاملاً وناقصاً في الوقت عينه، وستُشكّل تنقلات إحراز الهدف والجري في دورة كاملة منقوصة «العالم السفلي» كلّه لرواية ديليلو. وإذ يُعد الاستاد مفتوحاً ومغلقاً في آنٍ واحدٍ، فهو يمثل التفاعل المكاني نفسه ويشارك فيه. وانطلاقاً من كونه لم يعد قديماً، ولا حديثاً، فهو مُحوّل ما بين الحديث والقديم، وناقل للأزمان. ويجوز أن يستمر الاستاد في التحلي بالهيئة التي يتسم بها عالم المحاكاة المتكامل على نحوٍ مفرطٍ، المتوقّع على ذاته على نحوٍ توحديّ، لكن الاستادات لم تعد تطوق العالم وتتجاوزه، بل هي تتخيله، وتفتح عليه. وبينما جرى العرف على أن تكون الاستادات محاكاة جريئة للعالم، باتت الآن تنويهاً له.

وفي هذا السّياق، فإنها تنوّه إلى الحركة المزدوجة للرياضات في العالم الحديث الذي شاركت في خلقه جزئياً: أولاً، هناك حركة متوقعة إلى الداخل، تتميز فيها بعض الفضاءات باعتبارها استثناءات للظروف الطارئة الفوضوية للفضاء التّقليدي، حُطت مراراً، وتكراراً بواسطة العديد من المنظورات، والتجارب المختلفة. ولكن، هناك أيضاً حركة صاعدة من فضاءات اللّعب المحدودة هذه، حيث تضمّ المراقبين، والمواقع في كل مكانٍ بالعالم. ويبدو هذا التفاعل المكاني بصدده خلق فضاء للعب من العالم البشريّ، واللابشريّ بأسره.

الفصل الثالث الزّمان

لنحشد قوانا كلّها
وعذوبتنا كلّها في كرة واحدة،
ونمزق مُتَعنا بالتنازع العنيف
عبر البوابات الحديدية للحياة:
ولذا، رغم أننا لا نستطيع أن نوقف
شمسنا، فسنجعله يمضي بسرعة.¹

المطلق والجوهري

هناك نوعان من الزّمانية في الرّياضة، سأطلق عليهما المطلقة والجوهريّة. وسنرى أن هذا التمايز يناظر التمايز بين فضاء اللّعب وتفاعله الذي عرضناه في الفصل السابق. إنّ الألعاب التي يجب أن تُمارَس في إطار زمني محدد عرضة لزمانية خارجية ومُطلقة. ومباراة كرة السلة تجري مجرياتها على مدار شوطين، مدة كلّ منهما 15 دقيقة، ومباراة الرجبي تدور أحداثها على شوطين، مدة كلّ منهما 40 دقيقة، ومباراة كرة القدم تدور أحداثها على شوطين، مدة كلّ منهما 45 دقيقة، ومباراة الهوكي الجليدي على ثلاثة أشواط، مدة كلّ منها 20 دقيقة. وفي تلك الألعاب، يُخيّل إلينا أن الزّمن الذي تدور أحداث المباراة في إطاره، وسط خارّجي محض، ومحايّد، وعديم اللون والاحتكاك. وفي تلك الألعاب، نجد أن الوقت المتاح مَورد، وقيد في آنٍ واحد، ينطبق على الفريقين ويُتاح لهما بالتساوي.

وشأنه شأن الملعب والكرة وإطار قوانين اللعبة، يكون فيه الزّمن المُخصّص للمباراة جزءاً من البيئة العامّة للعبة، أو إطاراً أو شرطاً لإمكانية لعبها. وبالنسبة لمثل هذه الألعاب، يجب أن يُعدّ الزّمن مطلقاً وثابتاً.

الرّياضة تستغرق وقتاً؛ أي أن الرّياضة تُضاعف الزّمن. فممارسة الرّياضة تقضي بدخول فترة زمانية ثانية لا تحل رغم ذلك محل الفترة الزمانية الأساسية، لكنها تعايش معها. وتعني المشاركة في الرّياضة المشاركة في هاتين الزّمانيتين المتداخلتين للزّمن الحقيقي وزمن اللعب. وفي ألعاب بعينها، بوسع المسؤولين أو اللّاعبين الإعلان عن زمن مستقطع أو إيقاف عقارب السّاعة. ولكن، في الواقع، يسمح هذا التعليق للزّمن العادي بتأكيد ذاته، حيث يفضي إلى بدء السّاعة اليومية. والزّمن الحقيقي ليس بطبيعة الحال منتظماً؛ فله تركيزاته وكسوره وتمدداته. لكن أثر الولوج إلى زمن المباراة يقضي بدفع الزّمن الحقيقي إلى الخلفية، ومنح زمن المباراة بذلك التجانس أحادي اللون للتعاقب المحض، لحظة تلو الأخرى، بالمقارنة بزمن المباراة المتصاعد والمحموم، والمتوهج.

ولا يمر زمن المباراة هكذا ببساطة. فالواقع أن أغلب الألعاب تنطوي على فترة فاصلة، يتبعها تغيير لشطري الملعب، فيعطى بذلك زمن اللّعب صفة مزدوجة؛ فالزّمن يمضي، ومع ذلك يمكن أيضاً أن يبدو وكأنه يتدفق أولاً في اتجاه واحد، ثم يرجع لينتكس على نفسه. ومن بين العبارات المبتذلة لمديري أندية كرة القدم الإنجليزيّة أن كرة القدم «لعبة من شوطين»، وهو التعبير الذي يعني أن النمط الذي ينشأ في الشوط الأوّل يمكن ببساطة أن ينعكس في الشوط الثاني. وغالباً ما يكون من الصّعب المحافظة على الزخم الذي خلقه المرء في الشوط الأوّل من المباراة، وكل وقفه في سريان زمن المباراة تتيح فرصة لتحريف أو قلب تدفق الميزة.

إن الزّمن الذي تتعرض له الألعاب للخارجين والداخلين لها في آنٍ واحدٍ؛ فمن ناحية، الزّمن ببساطة فترة؛ مُضي لا هوادة فيه للشواني لا يتحرك بوتيرة أسرع أو أبطأ للمباراة الجارية مما يتحرك لغليان بيضة أو لرحلة بالقطار. وفي

المباريات المعرّضة لزمانية مُطلقة، لا ترتبط فترة المباراة بأيّ صلةٍ بلعب المباراة، ولا يمكن أن تتأثر به بأيّ طريقة. ويعلم أكثر لاعبي كرة القدم حكمةً أن إحراز الهدف يستغرق حوالي 15 ثانية، سواء أحرزَ في الدّقيقة الأولى أو الأخيرة، ولو أن الزّمن قد يبدو مضغوطاً أو مسرعاً بقدر أكبر في الدّقيقة الأخيرة، ولو أن هذا يعني أن جميع مباريات كرة القدم مبدئياً تنطوي على 90 دقيقة من اللعب، فالواقع أن الأمر سيستغرق فتراتٍ متفاوتةٍ من اللّعب خلال تلك التسعين دقيقة، طالما أن ألواناً متنوعة من الوقفات ستعرق اللّعب دائماً يتطلّب ذلك التعويض عنها. ومن بين سمات زمن المباراة أنه متقطع، أي أن الزّمن لا يمكن أن يُسمح له بالمرور ببساطة. وفي هذا السّياق، تماثل مشاهدة المباراة قراءة كتاب أو مشاهدة فيلم على نحوٍ متزايدٍ أكثر مما تشبه عملية مشاهدة مسرحية أو الاستماع إلى حفلٍ موسيقيّ. وعليه، ومن هذا المنطلق، فإنّ الزّمن الذي يكون اللّعب موضوعاً له ليس مستقلاً عن المباراة بالمرّة، لكنه موضوع لأحداثها الطّارئة. وعندما تتحرّك عقارب السّاعة، فإنّ سيادتها مطلقةٌ ومستقلّةٌ؛ ولكن توقيت عمل السّاعة تحديداً وإيقافها يعول على مجريات المباراة من إصابات وغيرها من توقفات يجوز أن تقع. وفي مباريات بعينها، نجد أن هناك شرطاً يقضي باستحالة استكمال المباراة إلى أن يُستكمل تعاقب محدد من الألعاب. ويُمهد ذلك إلى مباراة محدّدة زمانياً من جميع الأوجه فيما خلا نهايتها. وعليه، تُلعب لعبة الرجبي الدولية وفقاً لساعة ميقاتية حصراً، حيث يقرر الحكم ويُعلن متى تبدأ السّاعة الميقاتية ومتى تتوقف، ولكن، فور استكمال مدة المباراة البالغة ثمانين دقيقة، لا يجوز الإعلان عن انتهاء المباراة في واقع الأمر حتى تتوقف الكرة تماماً، عادةً بخروج الكرة من منطقة اللّعب. ولن تستمرّ هذه الفترة عادةً لأكثر من بضع دقائق، طالما أن الجانب المتقدم سيكون متحمساً لإنهاء المباراة بأسرع ما يمكن. ولكن، أساساً إذا نجح الجانب الذي يحاول تفادي الهزيمة في مواصلة الاحتفاظ بالكرة، أو إذا كانت النتيجة هي التعادل ومن مصلحة الفريقين مواصلة اللّعب طالما سنحت لهما فرصة الفوز، فستستمرّ المباراة إلى أجل غير مسمى بتجاوز الثمانين دقيقة

المشروطة. وحقيقة الأمر، حتى في الألعاب التي لا تشتمل على هذا الشرط، فمن المعتاد أن ينتظر الحكام اللّحظة التي لا يكون فيها لفريق ميزة على خصمه قبل أن يطلقوا صافرة نهاية المباراة. وإذا أنهى الحكام المباراة لحظة انتهاء الوقت بالضبط، فمن المتوقع أن تنطلق الصّافرة بين الفينة والأخرى في لحظات حاسمة، كأن تتعلق الكرة في الهواء بعد ضربة ركنية في كرة القدم مثلاً. لكن هذا لا يحدث قط غالباً، ربما لأنّ هناك رغبة في أن يكون للمباراة دور في تشكيل الزّمن حتى حدوده، وإحالته إلى ما يُعرف حصراً في نهاية المباراة بـ «الزّمن الكامل للمباراة» بدلاً من أن يكون خاضعاً لتحديد زمني مطلق، وموضوعي.

ولا يستطيع المرء وحسب اللّعب فقط أثناء الفترات التي تعمل فيها ساعة المباراة، بل إنه من الضّروري أن يلعب الفريقان حقاً، ومن هنا جاءت الجزاءات المفروضة في العديد من الرّياضات لأشكالٍ مُتعدّدة من إهدار الوقت. إنّ جريمة إهدار الوقت، بالإضافة إلى البروتوكولات المُعقدة جداً لتحديد الطرائق المختلفة في رياضات مختلفة التي يجوز بها استنفاد الوقت بإنصاف وبإجحاف، تكشف عن مبدأ محوري للزّمن الرياضي: ألاّ وهو أن الزّمن ينبغي شغله طوال الوقت، ولا يُسمح له بالمرور هكذا دون استغلال. ويجب لعب المباراة خلال الزّمن المحدد لها؛ وفور أن تنفصل اللّعبة عن زمنها، وبتعبير آخر، فور أن يظهر أن لاعباً ما أو فريقاً ما يُمارس شيئاً آخر بخلاف اللّعب، بينما الزّمن يمر ببساطة في الخلفية، فهذا إعلان عن أن مخالفة قد اقترفت.

ولكن، هناك ألعاب أيضاً يتحدّد فيها الزّمن الذي تجري فيه مجريات المباراة خارجياً بالكامل أو جزئياً. إنّ الرّياضات التي تتسم بزمنٍ باطنيٍّ تستمرّ طالما استغرق الأمر تحقيق هدفٍ بعينه أو نشوء موقف بذاته. ويجوز القول إنّ الألعاب ذات الزّمن الباطني تُولّد فتراتها الزّمنية الخاصّة بها. والسرعات والانضغاطات والتمددات المختلفة للزّمن يبدو أنها تتولّد من الأنماط الفعلية للّعب المباراة وتعوّل عليها. والتّبديل ما بين الزّمن الخارجي والداخلي في الألعاب يجوز مقارنته بالتّمايز ما بين التّفعية والإيقاع في الشّعر، حيث تنطبق التّفعية على

النمط الإيقاعي المجرد الذي تتسق معه القصيدة، ويفسر الإيقاع التنويعات على ذلك النمط الأساسي وترخيماته. وما من لعبة تتمتع بزمن باطني بالكامل، لكن أنماط الزمن التي تخلقها ألعاب مثل الكريكت والبيسبول والغولف تجعلها مكافئة لضرب من الشعر الحر غير المنظم بأطر خارجية.

وأحياناً ما قد يبدو أن زمن اللّعب يخلق إحساساً بالعزلة؛ إحساساً بالزمن وكأنه منجذب إلى دائرة ذاتية الإحالة. يرى عالم الاجتماع موراي روس Murray Ross أن لعبة البيسبول تخلق «زمناً موسعاً ومهدراً»، وهو أساساً، لما يشتمل عليه ويسمح به من إثارة ونشوة، زمن الرعي؛ نوع يقترح «عالمًا سرمدياً لربيع دائم... يبدل قصارى جهده لإسكات عقارب الساعة التي تذكرنا بأن العالم الأخضر يتلاشى في الوقت المناسب متحولاً إلى شتاء»². وقد يكون لذلك علاقة بحقيقة أن زمن لعبة البيسبول يتحدد داخلياً لا خارجياً؛ شأنه في ذلك شأن أشكال محدّدة للكريكت تستغرق ما تحتاج إليه من وقت أياً كان. ويميز روس بين لعبة البيسبول التي «تفكك الزمن والحاجة الملحة في رقعة واسعة خضراء» وبين كرة القدم التي يعتقد أنها تحوّل المكان إلى زمان³. وفي كرة القدم، لا يوفر ميدان اللّعب مثل هذا المنظور المختصر المتروبي، لكنه يشجع على التركيز على النقاط الحساسة المحدّدة التي يتركز فيها اللّعب، وتُلعب المباراة وفقاً لفترة زمنية لا في إطار زمني يتقلص ويتمدد طواعيةً لتهيئة ذاته بما يتسق مع مجريات المباراة التي تتكشف مع الوقت⁴.

إن الألعاب التي تُمارس وفقاً لفترة زمنية تحديداً، أي المعرّضة لزمن ليس متماثلاً مع اللّعب، تميل إلى عدم الاكتراث بالزمن الذي يمر خارج إطار اللّعبة، على سبيل المثال: في دورات الضوء والظلام وتنويعات الحالة المناخية، فإنّ الرياضات المتزامنة بشدة مع زمن الساعة هي أكثر تجانساً لهذا السبب، ومن ثم فهي أكثر قابلية للإحالة من حالة مناخية إلى أخرى ومن منطقة زمنية إلى أخرى. وقد لازم تنظيم أزمنة اللّعب كثيراً من الرياضات خلال القرن التاسع عشر عملية جعلها متوافقة مع بعضها بعضاً، ومن ثم كونها قابلة للإحالة من سياق

إلى آخر. والأزمة عينها ساعدت على ممارسة الرياضة في العديد من الأماكن المختلفة. لسنواتٍ عدّة، جرى العرف على بدء مباريات كرة القدم الإنجليزية في بريطانيا في الثالثة عصر السبت، ولكن الآن يمكن لعب مباريات كرة القدم الإنجليزية ومشاهدتها في أي وقت من النهار أو الليل يمكن فيه حشد الحشود أو جمع مشاهدي التلفزيون.

ولذلك، فإنّ الزمن الخارج عن التسعين دقيقة زمن تجريدي وكمّي محض. وفي المقابل، فإنّ رياضات، كالكريكت، والغولف، التي تميل إلى جذب الزمن إليها، فتشكّل زمانها الخاص بها بشكل جوهري، وتُرسّخ أنماط التوتر والتراخي الخاصّة بها، تميل أيضاً - وهو الأمر الذي ينطوي على مفارقة نوعاً ما - إلى أن ترتبط بعلاقاتٍ وتبادلاتٍ أهمّ مع الإيقاعات اليومية والرصدية وحتى السماوية. وربما أنه ما من رياضة لا ينطبق عليها ذلك أكثر من الكريكت، وما من رياضة أكثر تنظيماً ومراعاةً لأوقات الوجبات تحديداً؛ تلك الملابس الخاصّة بالإيقاعات الجسمانية واليوموية. ونادراً ما نجد أحداً في بريطانيا ما زال ينظر إلى شاي منتصف الظهيرة باعتباره مناسبةً لتناول وجبةٍ كاملةٍ بالمقارنة باستراحةٍ مختلّسة، ولكن في لعبة الكريكت نجد أن لاستراحة تناول الشاي أهميةً رمزيةً واستراتيجية كبيرة. ولذا، فمن بين الإيقاعات التي تسري في اللّعب خلال مباراة الكريكت إيقاع الجوع والشبع والهضم. اعتاد المعلق جون آرلوت John Arlott الاقتباس من يوليوس قيصر كلما شارفت عقارب الساعة الواحدة مساءً، مشيراً إلى أن رامي الكرة الذي يبدو عليه حرص شديد اكتسب، شأنه شأن كاسيوس، «مظهراً نحيلاً وجائعاً». إنّ الفترة السابقة للغداء مباشرةً حافلة بالأخطار، وذلك لأنّ ضاربي الكرة تلهيهم أفكار مرق اللحم والكاسترد، وحافلة بالفرص السانحة لرقعة الضرب. ونهاية اليوم أيضاً عرضة لضعف التركيز، هذا بينما تستطيل الظلال ويبدأ محرك أحداث اليوم في التداعي.

ولكن، هناك العديد من الطرائق الأخرى التي تُكيف بها لعبة الكريكت، خاصةً في الشّكل الكلاسيكي للمباراة الجارية بين فريقين دوليين والممتدة

لخمسة أيام، نفسها، ومن ثم تهضم، الدورات الوثيدة للظروف خلال اليوم، من ندى الصباح والمساء، لاسيما في بداية الموسم في إنجلترا، ونهايته، وحتى التدرج المتغير للشمس، بما له من آثار على الضوء والظل والرؤية ودرجة الحرارة والرطوبة. طرح الفصل الثاني فكرة أن الكريكت تقتضي جهوداً أكثر من غيرها من الرياضات، والكريكت أيضاً، أكثر من أي رياضة سواها، مصنوعة من الوقت وتلعب وفقاً للوقت أو ما يجوز أن يكون مثيلاً للوقت، ألا وهو الطقس (حيث الزمن والطقس كلمة واحدة لدى الناطقين بالفرنسية). ولذا، ليس من عجب أن يكون شعار ملعب لورد للكريكت دوارة الريح التي تُظهر «الزمن الأب» Father Time حَكماً مسكاً بمنجل أعلى كتفه ورافعاً عصاه (أو ربما واضعاً إياه على) شَبَاك الهدف.

في الرياضات التي لا يمكن فيها أن تنتهي المباراة بالتعادل، والتي لا بد أن تستمر حتى يعلو فريق على الآخر، نجد أن أكثر الأشكال شيوعاً للنهايات المفتوحة فيما يتعلّق بنهاية المباراة هو التّقليد الذي يوجب على اللاعب أو الفريق إبداء ميزة واضحة، عادةً بواسطة التّقدم بهدفين، أو نقطتين. وقد يفضي ذلك إلى مطّ مبالغ فيه للعب، وأبرز مثال على ذلك في الآونة الأخيرة الجولة الأولى من مباراة التّنس التي أُقيمت في ويمبلدون بين اللاعب الأمريكي جون إيزنر John Isner المصنّف رقم 23 عالمياً والفرنسي المؤهل نيكولاس ماهوت Nicolas Mahut، حيث استمرت المباراة 11 ساعة وخمس دقائق، على مدار أكثر من 3 أيام من 22 إلى 24 يونيو عام 2010. وجاءت النتيجة النهائيّة كالتالي 6-4 و3-6 و6-7 و7-6 و6-70 و68. والمدهش أكثر من غيره بالمرّة حيال المباراة هو حقيقة أن الجولة النهائيّة في المجموعة الأخيرة، في النطاق المجهول فيما وراء النتيجة 6-6 التي يسري بعدها كسر حالة التعادل في المجموعات السّابقة، والتي نادراً ما تستمر لأكثر من أربع أو خمس جولات، استمرت لأكثر من بقية المباراة كلها. والواقع أنه عندما توقفت المباراة عند نتيجة 59-59 في الجولة الخامسة في الساعة التاسعة وعشر دقائق، لُعب بالفعل حوالي ضعّف عدد الأشواط خلال فترة المباراة

النهائية (106 أشواط) التي لعبت في المباراة كلها حتى هذه النقطة (57). ويشبه ذلك الكتاب الذي تبلغ مقدمته ضعفي أو ثلاثة أضعاف الفصول اللاحقة، أو سيمفونية يستمر العزف المنفرد في نهايتها لفترة تتجاوز المقطوعة كلها ببضع ساعات.

لقد كانت هناك محاولات عارضة لتحقيق ضرب من الاستقرار المطلق لزمن الرياضة تحدد فيه مدة المباراة بالمباراة نفسها. وأشهر شكل لهذا الاستقرار المباراة الدولية السرمدية التي أقيمت في مدينة دوربان Durban بين إنجلترا وجنوب أفريقيا في مارس عام 1939 التي صُمِّمت لتستمر إلى أن يستكمل الفريقان جولتين كاملتين مهما طالتا. وبعد عشرة أيام، كانت إنجلترا في موقف قوي، ولم يتبق لها سوى 5 من شبك الويكت، ويفصلها عن الفوز 42 هدفاً. في تلك المرحلة، لزم الأمر تعليق المباراة كي يتمكن الفريق الإنجليزي من اللحاق بالقطار الذي سيقطع بهم 1000 ميل (حوالي 1600 كم) وصولاً إلى مدينة كيب تاون لركوب سفينتهم المتجهة إلى أرض الوطن. إن قدرة لعبة الكريكت على جذب زمانيات مختلفة إلى ذاتها، أو توسعة نطاق إيقاعاتها إلى تلك الزمانيات المختلفة يتجلى في السجع بين مدى الجولات وطولها، حيث ينتج كلاهما ما يُعرف باسم «المثويون». والواقع أنني أكتب هذه الكلمات التي بين يدي القارئ في السابع من أغسطس عام 2010 الموافق، حسبما اكتشفت، لعيد الميلاد التاسع والتسعين لنورمان جوردان Norman Gordan أكبر لاعب كريكت شارك في مباريات دولية على قيد الحياة وشارك في تلك المباراة في دوربان. فهو لم يسجل أي نقاط ولم يخرج من اللعب في الجولتين اللتين لعبتهما جنوب أفريقيا، كما سجل هدفاً واحداً مقابل خسارة 174 نقطة نتيجة ضرب حامل المضرب الكرات التي قام برميها.

إن جميع الرياضات، سواء أتحددت داخلياً أم خارجياً، تنطوي على تعقيد شديد بشكل أو بآخر لزممن الساعة المنتظم. وطرفا التقيض هما محاولة استنفاد الوقت من ناحية، ومحاولة فرض نتيجة بعينها في فترة قصيرة على الجانب الآخر.

وفي بعض الرياضات، تُوزَّع أوجه الاختلاف هذه تفاضلياً بين الخصوم. والفريق الذي يتقدم بفارق ثمين في مباراة حامية الوطيس، ربما سعى إلى الاستحواذ على الوقت الاحتياطي المتاح بأكمله وتوسعته. فالتقدُّم بفارق كبير يعني فعلياً امتلاك احتياطاتٍ مُخترَنة من الوقت، وحتى لو تنازلت عن نقاط، أو مباريات أو أهداف، فما برح خصمك بحاجة إلى بذل جهود مضمّنة فيما يُعتبر، من وجهة نظره الشخصية، وقتاً محدوداً ينطوي على تحدٍ عظيم. والواقع أن الفوز في مباراة ما أو السيطرة عليها يضارع دائماً تقريباً الهيمنة على أغلب احتياطات الوقت. والصراع ضد الفريق الخصم هو - صدقاً - صراع ضد زمنه. ثمّة فريق يصارع من أجل تسريع الزمن باكتساب ميزة يعتلي بها على الفريق الآخر. إذا كنت متقدماً بـ 3 أهداف مقابل لا شيء، فسأكون قد سرَّعت من الساعة، وحرمت الفريق الخصم من الزمن المتاح بزيادة المجهود الذي يتعين عليه بذله خلال تلك الفترة. ويستجيب الفريق الآخر بمحاولة إطالة الزمن؛ فالدفاع إرجاء، وتأجيل، والإبقاء على الزمن مفتوحاً، وتعظيم احتياطي الوقت المتبقي.

ولا مكان للوقت التقليدي التَّقليدي المنقضي في تجربة الرياضة. وذلك لا لأنّ الوقت هنا مُعطل أو معلق، ولا لأنّ المرء غير واع بمرور الوقت، حتى لو كانت تلك تجربة اللاعبين والمشاهدين، بل لأنه في أثناء ممارسة الرياضة، نجد أن الزمن يتجسد بلا هوادة، ولا استثناء. فكل شيء الآن زمنٌ؛ زمنٌ مُتجسّد ومتصلب ومحسوس، ومن ثم فهو مُتفاعل. والمباراة أياً كانت، بدايةً من الهوكي وحتى التنس والكرة الطائرة، هي عبارة عن رصدٍ جوي مُصمم للسرعات والفترات، حيث الكرة أو قرص لعبة الهوكي، هي مُحوّل هذه السرعات وناقلها.

إن فضاء اللّعب - الذي هو أبعد ما يكون عن كونه فضاءً سرمدياً - حافلٌ بالزمن، ومرتسخ به. وللزمن في هذا السِّياق تسام؛ وذلك لأنه لا يعدو كونه مقياساً، وكل شيء يُقاس عليه. وبدلاً من أن يتوارى الزمن وراء تغيرات الشّكل المادي، أو يُستنبط منها، نجد أن الزمن في هذا السِّياق ثابتٌ مطلقٌ في الشّكل المادي، أي أنه مُرَحَّلٌ فيه. وكما تنتج حالاتٍ مرضيةٍ بعينها ظاهرة

«الألم الرجيع» التي يشعر فيها المرء بالألم في مكانٍ آخر بخلاف مكان الإصابة، يُنتج فضاء اللّعب «زمناً رجيعاً». أو ليس الألم صدقاً المؤشر الأساسي للزّمن في اللّعب؟ في الرّياضة، نجد أن الزّمن مُجبر على التجسد، ويصبح الجسد فيسيولوجيا الزّمن نفسه، وقسماته ملامح الزّمن، وسرعاته، وزواياه ملامح الزّمن المتّجسد عينه. فالجسد لا يتصرف في سياق الزّمن وحسب، بل إنّ الزّمن أيضاً يتمثل عبر الجسد.

ومع ذلك، فالزّمن ينقضي طوال الوقت. لكنّ، هناك لحظات انتكاس ومرونة، وجيوب زمنية يُتجزز فيها الزّمن. كان هناك فتى في مدرستنا يُدعى نايجل جالوب Nigel Gallop يلعب في مركز الظهر المساعد في لعبة الرجبي. وكانت لديه القدرة، لحظة أن يتلقى الكرة من لاعب خطّ الوسط، على تعطيل الوقت، إذ كان يميل جهة اليمين، فتراه مُعلقاً كأفرودايت وسط زبد البحر على طرف إصبع قدمه اليمنى، فيجر فريقه والفريق الخصم في اتجاه تمريرته المتوقعة، وكأنه أسقط صينيةً مملوءةً بكرات بلورية بوكزة من يده اليسرى. ولكن، بينما يمنح بقية ميدان اللّعب إلى يمينه، كان يعتدل فجأة جهة اليسار، ليركض أو يركل الكرة بسرعة عبر الممر الذي صنعته خدعته. وكما ترينا نظرية النسبية أن الضوء ينثني بفعل الجاذبية، فإنّ ميدان اللّعب هنا انكمش على ذاته في نقطة واحدة وتمدد في نقطةٍ أخرى. ويتعامل مع المشكلة على الفور في بقعةٍ من الميدان، يكون قد حجز لنفسه بقعة نفيسة في جزءٍ آخر منه. إنّ الفجوات الموجودة في المكان وتلك الموجودة في الزّمان مترادفةٌ بالكامل. وفي أي رياضة، نجد أن أي فرجة من هذا النوع هي ثقبٌ دوديٌّ في الزّمن، زمنٌ شاذٌ. ميدان اللّعب يومض ويفتح عينيه؛ ينفث وينغلق، فيُظهر شقيه، الحقيقي والافتراضي اللذين تتجلى فيهما تجاعيد الفرصة وجيوبها. إنّ تفاعل فضاء اللّعب الحادث داخل فضاء اللّعب ما هو إلا تذبذب لإمكانات التعايش الزّماني الطوبولوجي.

وهناك لحظات خلال المباراة يمكن فيها استعادة شيءٍ شبيهٍ بوفرة الإمكانية الأصلية. فانتظار تلقي الإرسال أو محاولة إنقاذ ضربة جزاء يعني أن يكون المرء

متأهباً للحركة في أي اتجاه. استدعى ميشيل سيريس هذا التعليق للمكان - الزمان؛ إذ قال:

هل حرست مرمى فريقك قطّ بينما الخصم يسرع متقدماً لتسديد ضربة عن كذب؟ يحاكي الجسد المسترخي وكأنه متحرر المبدأ المستقبلي، فنراه متأهباً ليمتد: جهة النقطة العليا، أو عند مستوى الأرض، أو في منتصف الطريق في كلا الاتجاهين، يساراً ويميناً؛ باتجاه مركز الضفيرة الشمسية، يُطلق مرتفع نجمي أفرعه الافتراضية في جميع الاتجاهات في آنٍ واحد، كباقة من المحاور العصبية. هذه هي حالة الحساسية المتذبذبة - حالة اليقظة والتأهب والحراسة - نداءً إلى الحيوان المارّ على مقربة، الحيوان المتربص والمتجسس، ودعوة بكل ما في الكلمة من معانٍ، من كل اتجاه لشبكة الخلايا العصبية البديعة. انطلق إلى الشبكة وتأهب لضرب الكرة الطائرة، ومرّة أخرى، مبدأً مستقبلي، يستهدف المضرب جميع التسديدات في آنٍ واحدٍ، وكأن الجسد، مُحتمل التوازن من جميع الجوانب، يحيك كرة من الزمن، وكرة من الاتجاهات، ويُطلق نجم البحر من صدره.⁵

يرى سيريس أن هذا لا يعدو كونه اكتشافاً للروح، و«شمولية مُبسطة». وعلى التقيض من الوجود الضّروري، أو الحاجة لأنّ يكون الحيوان «موجوداً»، نجد أن الروح «هي نوع المكان والزّمان الذي يمكن أن يتوسع من موضعه الخَلقي نحو جميع التعرضات».⁶ ولكن، في المكان والزّمان، الزّمان المُعلق كفضاء للعب، لا يمكن للمرء أن يظل فاعلاً، أي في حالة احتمال. وذلك لأنّ فضاء اللّعب هو فضاء يتعين عليك فيه دائماً أن تُمارس لعبتك، وأن تتحرك إلى اليسار أو اليمين، وأن تتمدد أو تغطس. وفي فضاء اللعب، دائماً ما ينقسم الزّمن إلى مكان ويُستقر عليه بوصفه مكاناً.

سيظل الزّمان دائماً عرضة للتمدد والانقباض، والترقيق والتخثر، والبرودة

والتوهج، نتيجة أنماط اللعب. وزمن اللّعب وسط مُتحوّل؛ فتارة يكون متشاقلاً ولزجاً، وتارةً عابراً وبلوغاً، وتارةً متجانساً بسلاسة، وتارةً متوتراً على نحوٍ متقطع. إنّ جميع أشكال اللّعب تلوي الزمن فتحيله إلى ضربٍ من النص، وتضفي على الزمن شكلاً محدداً بشكل أو بآخر. ويرى روبرت بيرينبايagam Robert Perinbanayagam لعب الرّياضات واحداً من أقوى سبل عيش المرء علاقته الفانية مع الزمن: «إن الألعاب بنى شاعرية، ونثرية تُمكن الإنسان من تصور الزمن ومُعاشته». وإذ يشاهد «القارئ» المباريات أو يشارك فيها، فهو يختبر الزمن بتعقيده ثلاثي الأبعاد، ألا وهي «الحضور والتذكر والتنبؤ»⁷. والواقع أن الرّياضات تكشف عن أن علاقتنا الأساسية بالزمن هي علاقة لعب وعبث؛ «المرء يعبث بزمن حياته في الألعاب وفي الحياة اليومية»⁸. إنّ مبدأ الرّياضة وغايتها، شأنها شأن الأنشطة البشريّة الأخرى، هما أن يضيفيا شكلاً ويخلعا أهمية على التجربة الزّمانية لم تكن لتمتلكهما تلك التجربة بحد ذاتها. والمبدأ والغاية أن تخلع على زمن المرء قداسة ووجهة وتنوعاً، والأهم من ذلك أن تخلع عليه أُخروية.

بينما يتنظم الزمن في الحياة اليومية إلى ما لا نهاية في هيئة مستقبل، يتوقع في سياقه المرء العديد من المراحل، بما في ذلك هلاكه، نجد أن للزمن في الألعاب أُخروية منعشة، وباعثة على التجدد، تبدأ المباراة، وتستمر في سياق مسارها المحدد، وتنتهي في لحظة بعينها. وهي نهائية وحاسمة، وأنيقة، ولا تخضع للشكوك والنقاشات والإعادات⁹.

ومع ذلك، فمن قبيل المفارقة أن ممارس الرّياضة عليه غالباً أن يتعلم أن يرفع نفسه خارج الزمن مُتشابك الأنماط الذي تقيمه الرّياضة كي يتمكن من التّجّاح فيها. ومن الشائع، على نحوٍ مُخز، أن اللاعب الذي يمكن أن يحقق سلسلة متعاقبة من الانتصارات التي لا تُقاوم قد يجد الخطوات القليلة الأخيرة نحو النّصر مُستحيلة، وتُعرف هذه الظاهرة باسم «الاختناق». إذا كان زمن الرّياضة يربط بقوة ما بين امتدادات الوقت في أنماطٍ مُسلسلةٍ للتنبؤ والاستبقاء،

فالنجاح كثيراً ما يعول على قدرة المرء على فصل الوقت، بل حتى تجزئته إلى ذرات، وعزله كل شيء بصرامة فيما خلا ما يحدث فيها يُعرف، لا على نحو مفهوم بالكامل، باسم «اللحظة»، وإنحاء الترقب والخوف والرغبة والرغبة والندم جانباً. في اللحظات التي نصفها بالأهمية، يبدو أن ثمة بدائل مختلفة تنسحق معاً في ملتقى طرفٍ وحيدٍ. إنَّ اللاعب الذي يضرب ضربة الإرسال في بطولة فلاشينج ميدو Flushing Meadow أو المتقدم لركل ضربة الجزاء الحاسمة في ضربات الترجيح ببطولة كأس العالم يُنصح بمحاولة إخلاء اللحظة من هذا التسلسل والتشابك المركزيين. ولعل هذه هي المفارقة الأكبر لزمان الرياضة؛ ألا وهي أنه لكي ينتصر المرء، فعليه أن ينحي جانباً الطرائق الأهمّ كافةً، التي تُنظم بها الرياضة الزمن وتُعززه. والأهم من كل شيء، على المرء أن يتخلى عن جميع أشكال التنبؤ والجهد المضني لتقييم الموقف وحل الإشكاليات والتخمين الطبيعية للتجربة في مثل هذه اللحظات. ففي مثل هذه الأوقات، يكون المرء أكثر عرضة لخطر محاولة تجاوز عاداته وأكلياته، ولو أنه في تلك الأوقات يحتاج المرء أكثر من أي شيء إلى أن يسمح لردود أفعاله بأن تكون بسيطة ولحظية وغير مُعقدة بالشكوك أو التردد.

ويجوز أن يجبر المرء نفسه أو يحددها فتتلبس بهذه الحالة، لكنني أعتقد أن اللاعبين الأقدر على الفوز في تلك الأوقات ليسوا القادرين عن وعي منهم على التحكم في ردود أفعالهم، بل القادرون على العثور على ذكرى متعة حيوانية في إنجازات اللعب؛ وأعني تلك المتعة التي ينغمس فيها المرء بشدة إبان زمن اللعب فلا يكون واعياً بها، إلا كضربٍ من التألق. وهذه في حدّ ذاتها مفارقة، ولو أنها ربما كانت مفارقة مألوفة؛ لكي يحل المرء نفسه من شباك عقدة الزمن المُعقدة، من المفيد أن يستسلم إلى ضرب من الزمن الجسدي؛ وهو ضرب من الذاكرة يتراكم في الأعصاب والعضلات والمخ خلال ساعات التدريب.

التقويمات

إن نوع الوقت الذي عكفت إلى الآن على دراسته داخلي للرياضة، بما أنه يُعنى بالظروف الزمانية التي تُمارَس الرياضة في سياقها، والآثار الزمانية التي تفضي إليها. ويُركز هذا النوع من الزمن على مسائل المدة الزمنية، وتنوعاتها، والمسافة والسرعة. وثمة ضرب آخر من ضروب زمن الرياضة يُعنى بالطرائق التي تتسرب فيها الرياضة إلى الذاكرة الشخصية والتاريخ الاجتماعي. وهذا النوع من الزمن أقل تركيزاً على المدة الزمنية من تركيزه على الدورية، وأنماط التكرار.

إن التقويم الرياضي مرادف للتقويم الكنسي. وحتى في عالم الرياضات المستمرة طوال العام، وحتى في الرياضات التي لم تعد تزعم لنفسها «موسم» بعينه، ما برحت الرياضة عُرضة لتسلسلات دورية. وكما دُمج التقويم الكنسي بالتقويم الفلكي، فإنَّ التقويم الرياضي أيضاً بما يشتمل عليه من مراحل ودوريات حدوث مختلفة يخلق ارتباطات ومتناقضات تنجيمية. أما النبض الأساسي سنوي. في لعبة التنس، فنجد البطولات الكبرى الأربع (بطولات الجراندي سلام) موزعة على نحو غير متساوٍ طوال السنة، حيث تُقام بطولة أستراليا المفتوحة في يناير، وبطولتا فرنسا المفتوحة وويمبلدون في مايو ويونيو على الترتيب، بينما تُقام بطولة أمريكا المفتوحة للتنس في سبتمبر. إنَّ الإيقاع المُختزل لهذه البطولات الأربع يتلون بقدر أكبر بفعل الأثر الطويل المتتوي العالمي لبطولة رابطة محترفي التنس ATP، حيث تبدأ بطولة جديدة في مكان ما في العالم كل ثلاثة أو أربعة أيام. إنَّ هذا التسلسل السنوي منسجم مع البحر رباعي السنوات للفعاليات الرياضية العالمية الكبرى. إنَّ أكبر حدثين رياضيين عالميين، بطولة الألعاب الأولمبية وبطولة كأس العالم، يُقامان مرة واحدة كل أربع سنوات، ولكن بالتبادل حيث يفصل بينهما عامان. ومنذ عام 1987، أُقيمت بطولة كأس العالم للرجبي كل أربع سنوات أيضاً، وتحديداً في العام التالي لكأس العالم لكرة القدم.

ومن المغربي أن ننظر إلى زمن الرياضة نوعاً من الزمن الخاص، وهناك أسباب تدعونا إلى أن نميزه بطريقتين للنظر في الزمن الخاص أو الاستثنائي:

اللحظة المناسبة والزمن المقدس. في اليونان القديمة، كانت اللحظة المناسبة تمايز عن الزمن المُجسد بتحديددها، لحظة صناعة القرار، أو الإشباع؛ وهي اللحظة التي يتركز فيها على حين غرة التعاقب غير الهادف للأحداث فيعطي أهمية وحيثية. واللحظة المناسبة لحظة خارجة عن الزمن، لكنها لحظة تخلع مع ذلك مغزى واستمرارية واتجاهاً على كل ما يسبقها وما يليها. ويستعين بها المؤلفون اللاهوتيون لتفسير ولوج المقدس أو الإلهي إلى التاريخ، الأمر الذي يتجلى أيما تجلٍ في تجسد المسيح، وكامتداد له تسمية لحظات الإلهام أو الوحي الخاصة. والرياضة أيضاً يبدو أنها تنطوي على بديهة تحويل الزمن جبراً إلى أزمة، وذلك لأنَّ الألعاب، أو على الأقل طرائق مشاهدتنا لها، يبدو أنها بالمثل تُمايز ما بين الأزمات أو نقاط التحوّل - ضربة الجزاء وهدف التقدم - والتعاقب البسيط للأحداث الذي يرسمُ تمريرات اللّعب التّقليدية.

ولكن، رغم ذلك، فالرياضة نفسها ربما لا يُنظر إليها على نحو أمثل باعتبارها تُشكل، أو حتى تتوجه نحو، اللحظات المناسبة، طالما أن تلك اللحظات تنطوي على تعليق للزمن، والرياضة، حتى بينما تُستبعد عن الزمن المقدس، دائماً ما تحقق ذاتها من خلاله. ولا تتيح الرياضة تجارب اللحظات المناسبة؛ لأنَّ الرياضة تنطوي على السعي من أجل مصادفة الزمن أثناء مروره بدلاً من تعليقه أو تجاوزه. وتُعرف الرياضات والألعاب أحياناً باسم «سبل التسلية»، وقد نفسر تلك التسمية بمعنى أقوى من المقصود عادةً. في مسرحية صمويل بيكيت Samuel Beckett «في انتظار جودو» (Waiting for Godot)، يستجيب استراجون Estragon لتعليق فلاديمير Vladimír البهيج بأنَّ ثمة روتيناً بسيطاً انخرط فيه «جعل الوقت يمر»، مُعقباً بفظاظة أنه «كان سيمر على أيّ حال»¹⁰. لكن الرياضة لا تسمح لنا ببساطة بأنَّ نلهي أنفسنا عن استمرارية الزمن. ولا تحاول الرياضات البعيدة كل البعد عن تمرير الوقت أن تسكن وحسب، بل، تحديداً، أن تُصادف مروره. وبما أن الوقت لا يعدو كونه مروراً محضاً، فجل ما يستطيع أن يفعله هو المرور. لكنَّ الرياضة تمثل نوعاً من الإرادة الحرة والفعالة لضرورة هذا

المرور. فعندما يمضي المرء الوقت في هواية ما، فإنه يجعل من الفعل اللازم فعلاً متعدياً، بطريقة كتلك التي يقترح جان بول سارتر بأننا «نوجد» بها أجسادنا، لا بأن نجعل أجسادنا توجد (لأنه لا يسعها إلا أن توجد على أي حال)، بل أن نخلع عليها طبيعة وجودها.¹¹ إنَّ المرور الرَّاسخ والفعال للزَّمن - لا تعليق أو تسامياً على ذلك المرور - له أهمية جوهرية في الرِّياضة.

اقترح ميرتسا إلياده Mircea Eliade أنَّ الأتقياء المتدينين يعيشون ضرباً من الزَّمن المقدس يختلف عن الزَّمن المدنس. فالزَّمن المدنُّس يمر ببساطة وبلا هواده ولكن بلا غاية ولا هدف، أما الزَّمن المقدس فيتحقَّق في الاحتفالات التي تستدعي الأحداث المُشكَّلة للعالم التي وقعت في الماضي الأسطوري. «الزَّمن المقدس قابل للاستعادة على نحو لا نهائي، وقابل للتكرار بلا نهاية. ومن وجهة نظر واحدة، من الممكن الزَّعم بأنه لا (يمر)، وأنه لا يُشكَّل مدَّة زمنية غير قابلة للعكس. وهو زمن وجودي وبارمينيدي؛ دائماً يظلُّ مكافئاً لذاته، فلا يتبدل ولا ينفد»¹². لا ريب، كما أن الرِّياضة يُزعم أنها «عقيدة القرن العشرين»، فإنَّ الفعاليات الرِّياضية تتمتع بأوجه تشابهٍ مدهشةٍ مع الاحتفالات الدينية، ومن المحتمل أن توفر العديد من أشكال الإثارة والإشباع التي توفرها تلك الاحتفالات.¹³ وكما قال دينيس برايلسفورد Dennis Brailsford، رغم تداعي الروابط التي تربط ما بين الإجازات الدينية والأنشطة الرِّياضية، «فما برحت إيقاعات الإجازة القديمة تدب تحت السطح المعدني الأملس للتقويم الرِّياضي لوقتنا المعاصر»¹⁴. وشأنه شأن التقويم الطقسي (نسبةً إلى الطقوس الدينية)، «يتدفق التقويم الرِّياضي في دائرة مُغلقة»¹⁵. وكحال الاحتفالات الدينية، يبدو أن الأحداث الرِّياضية تجلب تقاطعاً بين مختلف مستويات الزَّمن، أو اقتحاماً لـ«الزَّمن الأولي الذي لا يتغير دائماً وينتمي إلى الخلود»، وترج به في الزَّمن التاريخي.¹⁶ وفي مثل تلك الاحتفالات، بحسب إلياده، «يتحوَّل التقى بشكل دوريٍّ إلى المعاصر للآلهة»¹⁷.

لكنَّ توقيت الوجود، ووجود الزَّمن، في الرِّياضة ينبغي أن يتميَّز عن «الزَّمن

المُقدَّس» لإلياده. ومجموع أعياد الميلاد، أو أعياد الفصح أو مهرجانات ديوالي الهندية ضرب من التزامن غير التقدمي. ولا يوجد تنبؤ بأي نوع من التطور التاريخي عبر هذا التسلسل، طالما أن المهم انتقال تلك الاحتفاليات بالإنسان مؤقتاً من الزمن المُدنس للتسلسل إلى الزمن المُقدس للتكرار الدوري. لكنَّ تقويم الرياضات مستمر وتقدمي، فهو مسألة بناءٍ تزايدٍ وكذلك تكرار، ولو فقط في الهوس بإنجازات كسر الأرقام القياسية بمختلف أنواعها. والزمن المُقدس يلتف حول نفسه؛ لكن اللحظات المُقدسة للرياضة لا تنجح أبداً في كبح جماح الزمن.

يرى آلان جاتمان Allen Guttmann الرياضة علامةً على المرور من المُقدَّس إلى العلماني، مؤكداً أنَّ:

الرَّابطة بين المُقدَّس والعلماني انحلت، وحُفِظَ الارتباط بعالم السامي. إنَّ الرياضات الحديثة أنشطة يلتمسها الناس لذاتها، ونوعاً ما لغاياتٍ أخرى علمانيةٍ بالقدر ذاته، فنحن لا نركض كي تصبح الأرض أكثر خصوبة. وإنما نحرق الأرض أو نعمل في مصانعنا ومكاتبنا بحيث يُتاح لنا وقتٌ للعب.¹⁸

إنَّ جميع الرياضات تنشأ في خصومةٍ بين الزمن المطلق والزمن الباطني، وتحتكم للرغبة في تحويل المطلق إلى الثابت، وبتعبيرٍ آخر، الرغبة بتحويل الزمن الذي يتعرَّض إليه المرء إلى زمن يكون المرء له موضوعاً. وممارسة الرياضة تنطوي على محاولة معايشة الزمن بعمق بدلاً من العيش في الزمن أو عبره. والرياضة ليست الوحيدة التي تتسم بهذه الظاهرة بطبيعة الحال. فأبي فعل بشري هادف تقريباً يمكن الزعم بأنه ينتج محاولة تحريك الزمن إلى الداخل، والانتقال بالذات داخله، بدلاً من التحرك إلى جواره ببساطة. ولكن، هناك سمة محدَّدة للرياضة تحوّل لها إحداث هذه المصادفة، ألا وهي حقيقة أنها غالباً ما تنطوي على علاقة

ميالة إلى الصراع بالزّمن. وكل أشكال الرّياضة، بما فيها تلك التي لا تنطوي على نشاط السّباق المباشر، تضع نفسها بشكل، أو بآخر في مواجهة مع الزّمن، ولو لأنّ الرّياضات كافّة تنطوي فقط على استنزافٍ للطاقة، ومن ثم فهي تستتبع الإرهاق والإنهاك. ولذلك كان من الصّوروي الإصرار على التّعريف البسيط لكن المطلق للرّياضة كلعبة تجعل المرء منهكاً جسدياً. إنّ الرّياضات تُمارَس دوماً في سياق الأفق المتجاوز للإنهاك الذي يفضي إلى إيقافها في نهاية المطاف. وجميع الرّياضات شبيهة بالألعاب من حيث إنها تتلاعب بالزّمن، لكن الألعاب التي تُزامن نفسها مع حركة الزّمن باتجاه الاستنزاف يمكن تسميتها رياضات.

التّزامن

جرى العرف التّاريخي على أن يفسح الزّمن الباطنيّ الطريق أمام الزّمن الخارجيّ نتيجة الضغوط التي تمارسها النزعة التجاريّة والبرامج التلفزيونية والتمهين، التي تمارس كلها ضغوطاً من أجل جعل الوقت المُستغرق للعب الأحداث الرّياضيّة متوقّعا. وهذا جزء من عملية تاريخيّة طويلة تعرّضت بموجبها الاحتفاليات الموسعة وغير المنظّمة للعوامل القديمة والوسطى لمزيد من التنظيم تدريجياً، خاصّةً فيما يتعلّق بأزمنتها وأماكن إقامتها.¹⁹ بالمقارنة برياضات القرون الوسطى التي كانت غالباً تستغرق يوماً كاملاً، نجد أنّ الرّياضات الحديثة في عصرنا الحالي تحكّمها جميعاً تقريباً بطريقة أو بأخرى السّاعة الميقاتية. وفي الوقت الذي دان فيه الكهنة المتشدّدون الرّياضات التّقليدية وسبل التّسلية، لا كرة القدم فقط، بل وكذا قرع الأجراس، و«القفز»، باعتبارها صرفاً أنّها للانتباه عن الورع والتقى ومضیعة للوقت الذي يمكن استغلاله الاستغلال الأمثل، لم يتقيد الترفيه والرّياضة تحديداً دائماً بقيود الزّمن المميّزة للإنتاج الرّأسالي، لكنهما شكلا جزءاً مثمراً من الاقتصاد، حيث ابتكرت سبل أكثر وأكثر لجعل اللّعب مثمراً مادياً. لم يكمن التّعارض القديم بين التجارة والرّياضة إلا في التمايز بين الهاوي، والمحترف، ولم يستمر هذا الوضع إلا لثمانينيات القرن العشرين.

تتسم الرياضة الحديثة بالتقييس المتزايد للأزمة والفترات داخل الرياضات الفردية وعبرها. ولقد مارست جداول البرامج التلفزيونية ضغوطاً مهولة في هذا الصدد. ولعل لعبة الكريكت هي الحالة المُحدّدة، فهي اللعبة التي صمدت لأطول فترةٍ ممكنة في عصر الجولات الرياضية السريعة رجوعاً إلى الزمن الترفيهي لسبل التسلية والترفيه القديمة. وحقيقة الأمر أن إمكانية لعب مباراة كريكت يمكن استكمالها حتى في غضون يوم واحد لم تكن واقعاً حتى عام 1962 بين فرق المقاطعات الإنجليزية، ولم تُقم أول مباراة دولية تستمر ليوم واحد سوى بعد ذلك التاريخ بعشر سنوات. ولقد تضمنت الابتكارات الأخيرة مباريات قوامها 20 جولة لكل فريق تستمر عموماً لثلاث ساعات، وحقيقة الأمر أنه في لعبة الكريكت المكونة من 20 جولة، تُفرض عقوبات على الفريق الذي لم يشرع في لعب جولته العشرين في غضون 75 دقيقة. لقد كان للسكك الحديدية أهمية خاصة فيما يتعلق بتقييس زمن الرياضة في القرن التاسع عشر. فكما استحدثت السكك الحديدية فكرة الزمن القياسي أو المتران، فقد سمحت أيضاً بنقل اللاعبين والمشاهدين إلى أماكن أبعد وأكثر انتشاراً، مما شجع على المزيد من التساوق لأزمة البدء والفترات الزمنية.²⁰ ومن بين أشياء أخرى، فقد ساعدت تلك السكك على خلق التمايز التقليدي بين أسبوع العمل وعطلة نهاية الأسبوع رياضية الطابع. ولقد عززت إمكانية انتقال اللاعبين والمشاهدين من التواصل الذي خلق بدوره إمكانية المقارنة وقابلية القياس والتنبؤ بها. ولازم التواصل الترميز على الدوام.

بالنسبة لأكثر نقاد هذه العملية تشدداً، أمثال جان - ماري بروم Jean-Marie Brohm الذي واصل نقده بلا انقطاع للرياضة المنظمة لأكثر من 20 سنة، أمست الرياضة جزءاً من عملية ترتيب إيقاعات العمل الاجتماعي والحياة والتحكم بها تحت مظلة الرأسمالية. فالرياضة «مُنتج لتقليص ساعات العمل أو إضفاء الطابع الحضري والحداثي على وسائل النقل. والرياضة ذاتها تحيل الجسد إلى أداة تساعد على الاندماج في منظومة القوى الإنتاجية المعقدة».²¹ ويُشكل اهتمام

الرِّياضة بالأرقام القياسيّة والإحصاءات ضرباً من «الهوس بالحقائق والأرقام» يرى فيه بروم «تشابهاً عميقاً مع الطّابع الرسمي الإداري للقوائم والاستبانات والحسابات والموازنات والعلاقات في الأنظمة الشمولية».²² ويفسح جهاد الإنسان ضد أخيه الإنسان في المنافسات الرِّياضيّة القديمة المجال أمام وضع البشر تجريدياً في مواجهةٍ ضد الساعة؛ وبذلك تصبح المنافسة هي الاختبار.²³

وبينما أصبحت الأحداث الرِّياضيّة أقصر زمناً وأسرع وتيرةً، مع التشديد على المهارة والسرعة بقدر أكبر من القدرة على التحمل، زاد الاهتمام بوضع الأشباه في مواجهةٍ ضد بعضهم. إنّ الحاجة المتزايدة لأن تكفل الأحداث الرِّياضيّة رفاهية للمستهلكين، الذين يدفعون لقاء ذلك، جلبت اهتماماً جديداً بالنهايات المثيرة المتقاربة النتائج. وبدأت البطولات القومية والدولية في سبعينيات القرن التاسع عشر بفرق الكريكت والبيسبول المتجولة. ويكاد يزعم المرء أن المفهوم الحدائي للإنصاف، وفرصة الفوز كان منسجماً إلى حدّ كبير مع هذه المزامنة المتزايدة للأوقات. ومع السرعة والتقارب نشأت المعاوذة وقابلية التكرار. في مباريات الملاكمة للمحترفين وغيرها من الرِّياضات التي تمتد لفترات طويلة في القرن الثامن عشر، كان من الممكن أن يمتد ما سناه دينيس برايلسفورد Dennis Brailsford «العذابات المطولة للمهزوم» امتداداً أليماً (ولعلنا نتذكر في هذا السِّياق إنّ المناسبات الرِّياضيّة غالباً ما كانت تمثل مكاناً مواتياً للإعدامات العامّة وعقوبات أخرى كالجلّد حتى فترة لا بأس بها خلال القرن التاسع عشر).²⁴ وفي العصر الحديث للمنافسات متكافئة الفرص، من المتوقع أن يكون الطّرف المهزوم قادراً على المنافسة ليوم آخر، على الأقلّ يكون ذلك اليوم بعيداً. لقد أصبحت أعراف رياضية مثل مباراتي أكسفورد - كمبردج وإيتون - هارو للكريكت السنويتين أكثر شهرةً، وما زال السِّباق السنوي بين أكسفورد وكمبردج للقوارب يلفت الانتباه ويستقطب جمهوراً يتجاوز بكثير أهميته الأصلية.

لقد مهد تنظيم زمن الرِّياضة والتساق المتنامي للرموز، والتنافس المتزايد بين اللّاعبين الطريق أمام قدر أكبر بكثير من تقلبات الأقدار. وبينما أقيم المزيد

من المباريات، وأُتيحت المزيد من الفرص للأشخاص والفِرَق لاستعادة الأمل بعد الهزيمة، أمست الانتصارات أقل حسماً وباتت اللقطات العكسية قابلة للانعكاس بسهولة، و بانتظام. ولم يكن الفوز هو المهم بل جدول مواعيد المباريات، وهي الكلمة التي شاعت ضمن الاصطلاحات الرياضيّة خلال ستينيات القرن التاسع عشر. وحقّق جدول المباريات التقليدي التوازن للتنوّع وقابليّة الانعكاس، وبدأ خُلُق المشاركة في مقابل الفوز في الشّوء بالتزامن مع هذه الزّمانية القابلة للتّعديل والانعكاس إلى ما لا نهاية.

منذ بداية الأرقام القياسيّة

من ناحية، أفضى تعميمٌ ومُزامنة زمن الرّياضة إلى تعطيل أو تكثيف الزّمن التّقدميّ وتحويله إلى لون من الحاضر الأبديّ المتجدد إلى ما لا نهاية، أمسى فيه من الأصعب من قبل إظهار الهيمنة المستمرة - خاصةً في المنافسات الدولية التي بدأت إنجلترا - أصل ومصدرٍ كثيرٍ من الألعاب - تخسر فيها مبارياتٌ أمام دول أخرى بشكلٍ منتظم. وفي الوقت عينه، فقد جعل الإحساس الجديد بأنّ الرّياضات تُمارَس في «الوقت نفسه»، أيضاً من الممكن والمُفضّل البدء بمقارنة أداء الرّياضيين والمنافسين في لحظات تاريخيّة مختلفة. وعلى نحو متزايد، تحلّل المنافسات بين مختلف المنافسين صراع أكثر تجرّديّة وعموميّة سعيّاً لتحقيق أداء عالٍ، وصراع ضد التقييد في حدّ ذاته. بدأت ركيزة كل ذلك تصبح سجلاً. فقد شهد القرن التاسع عشر بداية الإحصاءات الرّياضيّة والاحتفاظ بسجلات خاصة بها. إنّ استخدام كلمتي «رقم قياسي» بحيث لا يقتصرُ معناهما فقط على مستند أو تقرير أو دليل بل مقياس أو معيار لذروة ما، يرجع إلى ستينيات القرن التاسع عشر. فلاول مرة، لم تكن الغاية تدوين أرقام قياسية وحسب، بل كسرهما أيضاً، وهو الاستخدام الذي ظهر لأول مرة في ثمانينيات القرن التاسع عشر. وأوجدَ تسجيل الأرقام القياسية وتحطيمها، وعمليتا رصد النقاط والتحليل الإحصائي، اللتين كانتا ضروريّتين لهما، نوعاً جديداً وثانويّاً من الزمن التاريخي.

وحتى منتصف القرن التاسع عشر، لم يكن من الممكن قياس الفترات الزمنية القصيرة بأي مستوى من الدقة، وكان هذا يعني أن السباقات التي تُقام لمسافات قصيرة مالت إلى التركيز على المنافسة لا على الإنجاز المطلق. إنَّ تطوير أجهزة أدق بكثير مما سبق لقياس اللحظات القصيرة جلب في طياتها تشديداً. يعتبر جون بيل John Bale التوجه الذي لا هوادة فيه تجاه تحسين الأزمنة الرياضية موازياً للضغط العام للزمن والمكان العالميين.²⁵ والسعي وراء الأرقام القياسية يتسارع ويتباطأ في آنٍ واحد. والحافز لأجل تعظيم الأداء وتطوير الرياضة يعني أن المزيد من الأرقام القياسية ينكسر (أحياناً، كما يبيِّن المعلقون المرتابون، بمضاعفة عدد الأحداث المختلفة المتشابهة جداً، ومن ثم فرص تحقيق أرقام قياسية وكسرها، خاصةً في رياضة السباحة)، حتى بينما تنقلص الكميات التي تُمحي من الأزمنة القياسية أكثر فأكثر. ويقترح بيل أنه بينما تتجمد الأرقام القياسية في مراحل بعينها، فستكون هناك ضغوط لتطوير التقنية التي تسمح بتوقيتها لكسور أقل من الثانية. وسيعني ذلك أنه «ما من حد، نظرياً، للسرعة التي يمكن العدو بها»، مما يُعد تكيفاً غير مطروق على نحوٍ غريب لمفارقة زينو الرواقي المتعلقة بأخيل والسلحفاة.²⁶

إن أهم نوع للسجلات هو سجل الأرقام العالمية، ويمكننا الزعم بأنَّ فكرة السجلات عينها تميل بطبيعة الحال إلى الحالة المثل لنوع من الزمن العالمي الشامل. ولكن، هناك أيضاً مناطق للزمن المختصر، على هيئة سجلات محلية، لا تتحرك على نحوٍ متناسق أو بالتوتيرة نفسها كالسجلات العالمية. ولذلك قد تبدو الأمم «الأبطأ وتيرة» متخلفة بقدر أكبر في الزمن الرياضي المجرد عن غيرها من الأمم، بينما يجوز أن تكون أرقامها بطيئة جداً في تطويرها، مما يخلق بحسب قول جون بيل «أما يقف عندها الزمن تماماً».²⁷ لكن الرقم القياسي الهندي لسباق 5000 متر للرجال مثلاً تحسناً للرقم القياسي العالمي عام 1965، بينما كان التاريخ الموازي للرقم القياسي الألباني الحالي للمسافة ذاتها هو 1932. إن زمن التنافس، الذي أمسى فيه الوقت نفسه خصماً، ليس متجانساً بل هو

متخترٌ ومُتّخم. على سبيل المثال، لم تكن التّحسينات في أزمنة العدو على مدار القرن العشرين مُوزَّعةً توزيعاً متساوياً على الأحداث الرّياضيّة المختلفة؛ فقد كانت أكبر بكثير على نحوٍ تناسبيّ في سباقات الماراثون وغيرها من سباقات العدو لمسافات منها في سباقات العدو القصيرة. ولم ينقص الرقم القياسي العالمي لسباق العدو لمسافة 100 متر سوى ثانية واحدة، أو 10٪ من المُقدر بـ 69, 9 ثانية وقت تأليف هذا الكتاب بالمقارنة بالرقم القياسي 40, 10 ثانية الذي حققه تشارلز بادوك Charles Paddock عام 1921؛ بينما نجد أن الرقم القياسي العالمي لسباق الماراثون تراجع بمقدار 30٪ من 19: 55: 2 ساعة الذي حققه جون هايز John Hayes عام 1908 إلى 2: 04: 26 الذي حققه هايلي جبرسيلاسي Haile Gebrselassie عام 2007. ولا غرو أن هناك ضيقاً كبيراً في الفجوة بين الرّجال والنساء في أحداثٍ رياضيّةٍ بعينها. لكن أسرع وقت حققته النساء في سباقات الـ 100 متر، ويُنسب إلى فلورنس غريفث جوينر Florence Griffith-Joyner (49, 10 ثانية) ولم يتخطاه أحد بعد، ما برح أبطأ من الرّقم القياسيّ للرّجال الذي تحقق عام 1921، بينما الرقم القياسي العالمي لباولا رادكليف Paula Radcliffe البالغ 2: 15: 25 ساعة لسباق الماراثون أسرع من الرّقم القياسي العالمي للرّجال الذي تحقق عام 1954. في السّباقات التي تعلق فيها أهمية تسجيل الوقت أكثر من غيرها من الرّياضات، تُسمي المعركة ضدّ الوقت نفسه على نحوٍ متزايد أهم بكثير من الصراع لسباق المنافسين، مما يؤدّي إلى المشهد الغريب للأحداث، الذي يجري فيه سباقان مختلفان في آنٍ واحد؛ أحدهما سباق لحيازة المرتبة الأولى هذه المرة، والآخر سباق على لقب العداء الأسرع على الإطلاق. بالنّسبة لألين غوتمان Allen Guttman، الرقم القياسي هو «التّجريد المذهل الذي يسمح بالمنافسة لا فيما بين المُجتمعين معاً في ميدان الرّياضة، بل أيضاً وبين آخرين بعيدين زماناً ومكاناً. وعبر التجريد الغريب للسجل المُحدد كمياً، يستطيع الأسترالي أن ينافس الفنلندي الذي مات قبل ميلاد الفنلندي بعقد كامل». ²⁸ وبالنّسبة للاعب المرتقب أن يكسر الرقم القياسي، فقد يكون السّباق الذي يشارك فيه غير ذي فائدة مطلقاً، بل ربما في

الواقع يشكل إلهاءً خطراً عن غرضه المطلق، وعليه فيتعين تجاهله بعناية. وكما جعل التصوير الفوتوغرافي والسينما من الممكن للبشر لأول مرة الاحتفاظ بتاريخهم الشخصي والعام ومراجعته، فقد خلقت السجلات الرياضية بمعنيها استمراريةً زمانيةً وفرضت على الزمن توتراً في سياق التحدي للانطلاق أسرع وأعلى ولفترة أطول. بدا أن الإنجاز الرياضي يظهر ضرورة التطور بلا جدال. لقد انقسم التاريخ البشري إلى حقتين عظيمتين: حقبة ما قبل التاريخ، مديدة قوامها، وفرةً متشظيةً، ومتفرقةً ومضطربةً، بُذلت فيها جهودٌ رياضية بلا غاية، وبلا مقابل؛ وحقبة زمن الرياضة، «منذ أن بدأت سجلات الأرقام القياسية» التي شكَّلت التاريخ الرياضي على النحو الملائم. ورغم الوعي الغامض والمُزعج أحياناً بأنه ربما كانت هناك إنجازات رياضية للماضي ليس لدينا أدنى فكرة عنها، فقد اكتسبت فرضية أن أي حائز رقماً قياسياً ربما كان صاحب الأداء الأفضل مطلقاً في جميع العصور زخماً، حيث تعني عبارة «في جميع العصور» هنا الزمن منذ بداية تعرض الرياضة إلى القياس الدقيق. جرى العرف على أن يكون البطل الرياضي شخصاً هيمن على ميدان للمنافسة؛ ومنذ أواخر القرن التاسع عشر، كان البطل الرياضي هو الشخص الذي يحوز مكانة مرموقة خلال حقبة بعينها.

المراقبة

لعلّ أبرز سمة مميزة للرياضة الحديثة هي أهمية المشاهد. فقد كانت الرياضات التي يحضرها مشاهدون على درجة عالية من التنظيم سمة للمنافسة الرياضية في العالم القديم؛ واتسع مدرج ماكسيموس Circus Maximus في روما إلى 200 ألف مشاهدٍ لعروض سباقات الخيول، والعربات التي تجرها. لكن المشاهدة أمست أقل أهمية بكثيرٍ خلال حقبة العصور الوسطى التي كان الرابط الوحيد الذي يربط المرء خلالها بالرياضات وسبل الترفيه والتسلية هو أن يكون مشاركاً فيها أغلب الظن. وكما سنحت لنا الفرصة وبيّنا بالفعل، فإنَّ المعنى الأولي لكلمة

«الرَّيَاضَةُ» حتى بداية القرن العشرين ما برح محصوراً في الصَّيد، لكن حظوظ الصَّيد تشير بوضوح إلى الأهمية الجديدة للمشاهد والمُشَاهِدَة. فقد وَفَّرَ الصَّيْدُ بلا شك مشهداً وأداءً ونشاطاً حماسياً، ولكن في وجود القليل من الاستثناءات؛ فقد كان المرء بحاجة إلى أن يكون قادراً على تتبع أثر الصَّيْدِ، سواء على صهوة جواد أو سيراً على الأقدام، وعادةً لمسافات بعيدة جداً، كي يستطيع تقييمها والاستمتاع بها. إنَّ القصص العديدة التي تسوق فيها الطريدة الملك إلى أعماق الغابة وبعيداً عن أنظار أنصاره دليل على قدرة الصَّيْدِ على الفرار من قاعدة المشاهدين.

خلال القرن الثامن عشر، أصبح سباق الجياد تدريجياً مُسوَّغاً، ونتيجة لذلك التف المضمار المفتوح متحولاً إلى دائرة مُغلقة ذاتية التكرار. إنَّ كلمة «دورة» المشتقة من كلمة كان معناها أصلاً شيئاً معلقاً بحريَّة، لكنها بدأت تضم فكرة «الانطواء على»، بدأت في ستينيات القرن التاسع عشر فقط تُستخدم بمعنى دائرة مفردة لهذا المضمار. والغاية من هذا النوع من الدائرة ليس فقط إتاحة إمكانية قطع مسافاتٍ طويلةٍ دون الحاجة إلى تطويق أو الاستحواذ على مناطق شاسعة، بل إتاحة إمكانية الإبقاء على السَّباق في مرمى بصر المشاهدين باستمرارٍ، وعلى نحوٍ متقطع. ويصبح الزَّمن المتقطع لعملية الصَّيد زمناً تكرريراً للسَّباق، في ظل كون موقع المشاهد يحقق إمكانية تتبعها ودراستها في آنٍ واحد. وفي حالة الركض، نجد أن التقييس المتنامي لشكل مضامير الركض، وتكوينها يسمح أيضاً بتحديد أدقُّ للأزمة والأرقام القياسية ومقارنتها بقدر أفضل. لقد أمسى مضمار الألعاب الرِّيَاضية نوعاً من الشَّكل الزمني؛ ومحاكاةً لوجه السَّاعة نفسه، الذي لم يكن المهم فيه أكثر من أي شيء خصوصية الزَّمان والمكان، بل المدة الزَّمنية التي يمكن ترجمته إليها. إنَّ هذا الانطواء لمشاهد السَّباق مثال آخر على التحرك العام من الانتشار والتفرق إلى التركيز والتقييد اللذين وسما الرِّيَاضة على مدار القرنين الماضيين. وحتى حيثما تحددت الرِّيَاضة المعنية بمكانٍ صغير، أو واضح المعالم بشدة، كما في مباراة كرة القدم أو مباراة الملاكمة بين المحترفين، نشأ سببٌ آخر خلال القرن التاسع عشر يدعو إلى تطويق المكان، ألا وهو الاحتمالية المتزايدة

للتزاحم على الدخول. عندما افتتح توماس لورد Thomas Lord أول جولة له في لعبة الكريكت في ملعب سانت جونز وود (St. John's Wood) عام 1787، كان للملعب سياج عالٍ لمنع المشاهدين من مشاهدة المباراة بالمجان. وكانت تجربة المشاهد للمباراة أو حفل سباق الخيل «زمنًا مجانيًا» ومقيسًا قد يتحوّل إلى سلعة في آنٍ واحد.

فمن ناحية، خلق ذلك انفصلاً جديداً عن أشخاص أو أدوار اللاعب من ناحية، والمشاهد من ناحية أخرى. من الآن فصاعداً، ستعنى الرياضات بأغلبية ساحقة رياضات المشاهدين. وحيثما جاز تعطيل المباراة، دون المشاهد، وإيقافها، أمسى زمن اللّعب، وزمن توقف اللّعب بالنّسبة للمشاهد يشكل استمرارية مضطربة. وأصبح المشاهد على نحو متزايد الركيزة الموحّدة للعبة؛ وأمست المباراة تُلعب تحت عينيه ومن منظوره الشخصي. إنّ المشاهد هو الذي يربط ما بين زمن الانقضاء العارض والحدث في تواصل قوي ومكثف ومتحرك. لكنّ المشاهد لا يشاهد وحسب. وسرعان ما أمست مشاهدة الرياضة وسيلة مختلفة للمشاركة في المباراة، وذلك بالتهليل، والسخرية والإنشاد، وحتى المزيد من ألوان التدخل المباشر، كاللقاء القذائف، أو اقتحام الملعب. ولعل مشجعي كرة القدم والبيسبول كانوا الأكثر نزوعاً لانتهاك الحدود الفاصلة بين الملعب والمقاعد.²⁹ تتسم الرياضة الحديثة بأهميّة التبادل بالنّسبة للاعبين بين إيقاعات اللّعب في الملعب، وإيقاعات ردود الأفعال المسموعة لدى الحشود، حيث يكون كل جانب قادراً على تحفيز الطرف الآخر وكبحه (غالباً ما يضع لاعبو كرة القدم الذين يحرزون هدفاً إصبعاً على شفاههم دلالة على أن هدفهم أسكت مشجعي الفريق الخضم). إنّ هذه الإيقاعات، والأصداً تتحرك بسرعة، لكنها لا تتحرك لحظياً، والانقسام المرحلي أو التأخيرات المصغرة في تعديل الأحداث المنظورة (ولكن غير المسموعة إلى حد كبير) على أرض الملعب في ردود الأفعال المسموعة (ولكن غير المرئية إلى حد كبير) للحشود، وفي الاتجاه الآخر، تفسر كثيراً من إثارة الوجود في مباراة رياضية كبيرة. أفاد اللاعبون المشاركون في كأس العالم

لكرة القدم عام 2010 التي أقيمت في جنوب أفريقيا بأنه كان من الصعب عليهم التركيز على المباراة في خضم الأصوات الصاخبة للأبواق، الأمر الذي كشف عن أهمية التغذية الرجعية السمعية للجمهور. إنَّ الصوت زماني الطابع إلى حد كبير، وبدا أن التشويش الضوضائي لتنوع صوت الجمهور يجرم اللاعبين والمشاهدين على حد سواء من الإحساس بالمكان والحجم والاتجاه الزماني، مما يجعلهم يشعرون وكأنهم يلعبون في حلم تحت سطح البحر.

ولكن، هناك أيضاً على نحو متزايد أبعاداً بصرية للطرائق التي يشارك بها اللاعب والمشاهد الزمن. فاستخدام تقنية إعادة الأحداث في الاستادات الرياضية يسمح بالمشاركة في الإزاحة الزمانية التي أمست جزءاً قياسيًّا من بث الأحداث الرياضية عبر التلفزيون. وهذا لا يقتصر على عملية إيقاف اللعب أو على أحداث ما بعد السباق. ففي يومنا هذا، من المعتاد بالنسبة للعدائين في المراحل الأخيرة من السباقات الزاغبين في تقييم صدارتهم النظر سريعاً إلى شاشة الاستاد بدلاً من المخاطرة بالالتفات إلى الوراء. وبذلك يندمج منظور المشاهد، ولو لحظياً فقط، في تجربة الرياضي خلال الزمن الفعلي للعدو في السباق. وباستخدام التكنولوجيا لأغراض تأكيد، أو إبطال القرارات، نجد أن الشقة بين اللاعب والمشاهد تنغلق حتى بقدر أكبر، ولو أن اللاعبين عادة لا يُسمح لهم بمشاهدة مقطع الفيديو، الدليل الذي ما برح يُستعان به على نحو متزايد لاتخاذ تلك القرارات.

وكما في جوانب أخرى، يسمح استخدام تقنية النقل الزمني بالتركيز والانتشار في آنٍ واحد. وإعادة الحدث أو مراجعة القرار تُعلّق زمن لعب المباراة، وبذلك فهي تقطع تواصله واستمراريته. وهذه اللحظات تميل إلى أن تكون مُستخلصةً من بث المباراة مُعادة مراراً وتكراراً في سياقاتٍ أخرى. وفي الوقت عينه، يجوز القول إنَّ إعادة الأحداث «تُغلّظ» زمن اللعب، ما يجعل من المستحيل منعه من نفسه أو طيه على ذاته. وفي بعض الأحيان، يمكن أن يكون لذلك آثار مكروهة جداً، كما حدث مثلاً عندما أظهرت إعادة الأحداث الحية في استاد مدينة

جوهانسبرغ لكرة القدم الهدف الذي أحرزته الأرجنتين في المكسيك في كأس العالم 2010، فتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الهدف كارلوس تيفيز Carlos Tevez سقط في مصيدة التسلسل، مما أدى إلى استياء اللاعبين في الملعب واندلاع شجار فيما بين الشوطين بين اللاعبين والمسؤولين. ويبدو من المستبعد أن تقاوم كرة القدم طويلاً امتداد تلك التكنولوجيا إلى التحليل وتسوية النزاعات، وبينما يتضاعف عدد الأجهزة التي يمكن إعادة الأحداث عليها، فسيكون من الأصعب تدريجياً المحافظة على الفصل بين الزمن المتفرد المتجانس للعب الحي من ناحية والزمن المُتباطئ والمُنبسَط والمُضاعف لإعادة الحدث.

لقد مال انغلاق الاستادات الرّياضيّة إلى خلق إطارٍ زمني/ مكاني مستقل بذاته، وزمانية منفصلة عن الإيقاعات المنافسة للحياة العمليّة والحياة الاجتماعيّة. وبحسب ملاحظات عالم الاجتماع موراي روس Murray Ross التي اقتبسناها في السابق بشأن لعبة البيسبول، فإنّ نطاق الاحتمالات الإجمالية وشمولها المنبسطين لمشاهدي رياضات بعينها، كالبيسبول والكريكت، يشجعان على هذا الإحساس بالزمن المنبسط، ولكن المحتوى، على نحوٍ متهمل. لكن البث المباشر للرياضات، أولاً عن طريق التعليق الإذاعي ثم عن طريق البث التلفزيوني، اقتحم تلك الدائرة المسحورة. والواقع أن البث الإذاعي والرياضة شكّلا بعضهما بعضاً في أوائل القرن العشرين. فبعد عام واحدٍ من تسجيل ماركوني براءة اختراع الراديو، استخدمه لبث أخبار سباق زوارق كينجزتاون Kingstown Regatta لصحيفة دبلن ديلي إكسبريس Dublin Daily Express، وسرعان ما عينته بعدها صحيفة نيويورك هيرالد New York Herald لبث تقارير سباق كأس أميركا للزوارق المقام على ساحل نيوجيرسي. وكما روج الراديو للرياضة، شجع بث الأحداث الرّياضيّة الكبرى مثل مباراة الملاكمة بين ديمبسي وتوني عام 1927 على التوسع الكبير في مبيعات أجهزة الراديو.³⁰

يُمكن البث الإذاعي والتلفزيوني إيقاعات زمانية الرّياضة من التداخل مع إيقاعاتٍ أخرى والتّحاور معها، وخاصّةً في رياضاتٍ مثل الكريكت، حيث

هناك كثيرٌ من الفجوات التي بوسعها استيعاب الانعكاسات الممتدة لفريق المعلقين، وكذا الأنشطة البديلة للمستمعين الذين ربما كانوا في أي مكان في العالم. وتسم رياضتا الكريكت والبيسبول لا بوتيرتيهما البطيئة بقدر ما هو بتبديلها الصّارخ ما بين فترات الاسترخاء التي تخلو من كثير من الأحداثِ وفترات السّرعة المحمومة، ما يجعل التعليق تبديلاً ليس نهائياً ما بين الاندفاعات المفاجئة إلى الأمام وفترات الركود التأملية المتعلقة بالموجزات. إنّ هذه الفجوات ذات الأثر الرجعي في نسيج اللّعب لطالما شجعت من البداية على استبطان أكثر عموميّة في الرّياضة المُتاح فيها وقت كثير؛ لنسج الحاضر مع وقائع السجلات والإنجازات في تاريخ الرّياضة. وقد تفسر هذه البنية أيضاً جزئياً حقيقة أن البيسبول والكريكت هما الرياضتان الأكثر اعتماداً على الإحصاء بشكلٍ مكثفٍ وهوسيّ.

يجوز لنا القول إنّ إيقاعات الكريكت، والبيسبول يّسرت من البداية مُضاعفة الزّمن التي يمكن أن نراها في التعليق. لأول قرنين من الرّياضة المنظمة، شغل الإخبار عن الأحداث الرّياضيّة بضرورة الحال زماناً ومكاناً مختلفين عن الحدث نفسه. فقد ظهرت تقارير حول سباقات ومباريات ملاكمة ومباريات كريكت أحياناً في الصحافة الرّياضيّة بعد وقوعها بأسبوع، وسلط أسلوبها المُعقد والعرضي الضوء على الفجوة بين الفعل والخطاب.³ وقد شهد القرن العشرون تحركاً باتجاه التعليق الحي. وهذا التعليق الأهمُّ والأكثر ثوريّةً من بين الطّرائق التي تتحول بموجبها الأحداث إلى توصيفاتٍ، وتحليلاتٍ. ويطيب لنا النظر إلى تلك التعليقات باعتبارها لحظية، وصحيح أن غايتها العمل في الزّمن الحقيقي. ولكن، في واقع الأمر التعليق دائماً ما يستقر في هامش صغير من التأخير، وفي مظلة زمانية تعمل حقاً على منح المباراة المُعلّق عليها لوناً من العمق، وقدرة على اللحاق بنفسها، بينما تنقضي؛ قدرة لا تكلفها مشاهدتها وحسب.

وما من شكل آخر من أشكال الخطاب مكشوف زمانياً هكذا كالتعليق. فلا بد أن يكون المُعلق، كالرّياضي الفيلسوف، متأهباً لأي شيء، ومنفتحاً بالكامل

على احتمال ما يطرأ على الحدث. لكن وظيفة المُعلق هي خلق استمرارية من سلسلة متقطعة من الأحداث. فسَّرت مقالة ترجع إلى عام 1937 وضعها سيمورديلوتبينير Seymour Joly de Lotbinière، مدير قسم البث الخارجي في هيئة الإذاعة البريطانية، أن «المُعلق لا بد أن يكون قادراً على وصف تعبير واحد بعباراتٍ سلسةٍ وأنيقةٍ، وفي الوقت عينه لا بد أن يسجل تعبيره التالي. ويجب أن يعكف على مشاهدة البث كله ليضمن أنه ليس بصدد فقدان قوامه، ولا بد أن يلاحظ الآثار التي من المرجح أن تصل إلى المستمعين بحيث يستطيع أن يفسر تلك الآثار، ومع ذلك لا يُفصّلها تفصيلاً».³² وشأنه شأن المترجم الفوري، يتعيّن على المُعلق أن يكون متبهاً ومتيقظاً لما يقع من حدث، بينما يحيله أيضاً إلى شكلٍ مختلفٍ تماماً لما هو عليه. ويجب أن يتزامن التعليق أيضاً مع الوتيرة والإيقاعات المميّزة للرياضات المختلفة.

في الأيام المختلفة للتعليق الإذاعي، كان التركيز على نقل صورةٍ سمعيةٍ للمستمع البعيد، مما يعطيه الانطباع بشغل مقعد إلى جانب المضمار. وحقيقة الأمر أن المزج بين أصواتٍ مختلفةٍ في مواقعٍ مختلفةٍ ما برح يمنح المستمع موقعاً سمعياً ممتازاً لم يكن من الممكن لأحدٍ أن يشغله في الواقع. وكان المُعلقون يُمارسون مهاراتهم على مستمعين أكفاء. وفي السّنوات الأولى، كان برنامج «Radio Times» ييئ شبكة من المربعات المقابلة للميدان، مما يسمح للمستمعين بتخطيط حركة اللّعب في مساحةٍ بصريةٍ فعلية. وأصبح هذا الأسلوب مُربكاً، وبدأ يتضح على أي حال أن للتعليق مهامٍ أخرى بخلاف إمداد المستمع ببساطة بوسيلة لبناء صورة الأحداث. وكان المرء قد حدث نفسه أن نشأة التغطية التلفزيونية المباشرة من الممكن أن تحد من دور المُعلق. ولا شك أنها عَيَّرت وتيرة بعض أنواع التعليق وأسلوبها، فمباراة التّنس التي تمتد لعشرين جولة في ويمبلدون من الممكن أن تدور أحداثها أحياناً في صمّتٍ مُطبّقٍ من جانب مُعلقي التلفزيون، على التقيّض تماماً من الجهود الكوميديّة نوعاً ما لمعلقي الإذاعة الساعية لمواكبة المباراة التي يبدو فيها أن الحوارات الأساسية الأكثر هدوءاً دائماً تُراكم عجزاً زمنياً يائساً

لدى المعلق إذا ما استطلت أكثر من بضع جولات.

لكن المعلق عنده دورٌ آخر يتجاوز نقل المعلومات، ألا وهو نقل الطاقة وتذبذب المشاعر وتجسيد النبوة الزمانية للمباراة. وهذا يعني أنه من المهم ألا يظل خطابه على مسافة ثابتة ناقدة من الأحداث المتكشفة، غير أنه لا بد أن يكون قادراً على حين غرة أن تغمره موجات من الإثارة تُطيل الخطاب وتضعفه، فتقسّمه إلى نبض ثابتٍ من العبارات ذات الجعجعات والصيحات الحيوانية. وعليه، لا بد أن يكون المعلق مسؤولاً عن المباراة، فيتوقع كل حركة فيها ويستوعبها، ورغم ذلك يكون قادراً على أن يُذهل بها. إنَّ أكثر اللحظات فعاليةً في التعليق تتبع متى وقع حدث غير متوقع في الملعب - كهدف يُحرز ببراعة، وهجمة مرتدة من ستة لاعبين على حين غرة، وتمريرة بينية مفاجئة - تجعل المعلق عاجزاً عن الكلام فلا يقدر إلا أن يلهث قائلاً «أوووه!»، أو كما قال معلق هيئة الإذاعة البريطانية المخضرم على مباريات التنس دان ماسكل Dan Maskell «يا إلهي!». في تلك اللحظات، نجد أن العجز عن الكلام نفسه، وقدرة الأحداث على إعجاز الخطاب، وتمزيق نسيجه مع ذلك، يخلق حضوراً متصاعداً ونشوانياً.

إنَّ أبناء الأجيال الثلاثة أو الأربعة الماضية، وأمسى بعضهم رياضيين ورياضيات بجهودهم الشخصية، عاشوا الرياضة في تشابكها الدائم مع التعليق. عندما كنت في السابعة من العمر، كنت أحكي بطولات كرة قدم كاملة وحدي في حديقة منزلنا الأمامية، وأرفق كل حركة أقوم بها بصوتي المهيب أو الخبير. واكتسب ولداي مهارة التعليق الذاتي المتزامن نفسها. يبدو الأمر وكأنه، من دون التعليق الذي يُضخم اللعبة وينقلها نوعاً ما إلى زمانٍ وظروفٍ أخرى، لا حضور للمباراة هنا والآن. لقد بات التعليق الصدى المؤكّد الذي يضمن أن المباراة تجري أحداثها بالفعل، وأنه بالحيد عن المباراة فإنه يعيدها إلى نفسها.

ومن الممكن أن يبدو في بعض الأحيان أن الرياضة أصبحت مستمرةً وكنية الوجود في الحياة الاجتماعية. إنَّ التسلّط الزمنيّ لكرة القدم في بريطانيا وغيرها من الدول مصدر اهتمام عميق لدى المهتمين بالرياضات الصيفية، وهو انقلابٌ ساخرٌ

لحقيقة أن كرة القدم الإنجليزية نشأت بوصفها مهنة لأول مرة للاعبين الكريكت خلال أشهر الشتاء.³³ لكن الكريكت أيضاً أمست لعبة تمتد طوال العام، حيث يتبع اللاعبون فصل الصيف في شتى أنحاء العالم في طوبوغرافيا الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس قط. ولكن، الواقع أنه من الأدق القول إنَّ الرِّياضة وبيئاتها المتعددة تداخلت فيما بينها. وبين الحين والآخر فقط، كما في الأحداث الرِّياضية العالميّة حقاً كنهائي كأس العالم لكرة القدم، يبدو أن ثمة شيئاً يحدث أشبه بالتزامن الحقيقي. وأغلب الوقت نجد أن الرِّياضة وسياقاتها متداخلة في سلسلة مُعقدة على نحو لا يتخيله عقل تقريباً من الزَّمانيات المشتركة والمتداخلة التي تنطوي على تنافر وترفيه في آنٍ واحد. وأحياناً ما يكون بوسع إيقاعات مباراة ما اختراق جداول المواعيد الاجتماعيّة.

ذات مرة، كنت جالساً في ساحة انتظار السيارات في أحد المطارات أستمع إلى المدياع متابعاً الجولات التّهائيّة لمباراة كريكت دولية حامية الوطيس ممتدة ليوم كامل. وكان الإحساس بالتسارع والتقيّد، والوقت وهو ينقضي يتردّد صداه ويتضاعف على نحوٍ مؤلم بفعل الإحساس بالانقضاء الثابت للوقت المتبقي لي للحاق بطائري. وبينما ضُربت الكرة الأخيرة، وتحددت نتيجة المباراة أخيراً، أمسكت بحقيّتي وانطلقت إلى مبنى صالة المطار، ودُهلت إذ سمعت أبواب السيارات وهي تُصفق من حولي، ورأيت أشخاصاً آخرين ينطلقون مسرعين من شتى أرجاء ساحة انتظار السيارات. ولكنَّ الطرائق العديدة المختلفة التي يمكن بها نقل الأحداث الرِّياضيّة عبر وسائط متعددة تعني أيضاً أن إيقاعاتها يمكن استيعابها في الحياة الاجتماعيّة بطرائق أدقّ. في أيامنا هذه، عندما أعمل في المكتبة البريطانيّة، فإنني أفتح صفحات ويب التي تقدم لي تحديثات حول مباريات التنس والكريكت وكرة القدم التي ربما تحوز اهتمامي. لم تجعل الاتصالات العالميّة عالمنا مُعاصراً، بل متزامناً نوعاً ما؛ أي مشاركاً ومُبادلاً ومتناوباً وناقلاً أزمنة وسرعات وفترات زمنية مختلفة. وما من أحد متزامن بالضبط مع اللّحظة الحاضرة، لأنَّ التجربة الزَّمانية نفسها، خاصّةً التجربة الزَّمانية للرِّياضة، أمست

متعددة الإيقاعات بشكل مُكثف.

هناك بعض الأسباب الوجيهة جداً الداعية إلى النظر إلى الإدارة الزمانية التي تدور أحداث الرياضة الحديثة في سياقها باعتبارها مختلفة كل الاختلاف عن الإدارة الزمانية لعالم العصور الوسطى. فزمن الرياضة مُنظم ومُقنن بشدة، والرياضة نفسها تعمل في سياق اقتصاد تخطيطات مُشددة للعمل والترفيه، والمشارك والمُشاهد. لقد أفسح الزمن المكان إلى حد كبير للعديد من أشكال التوقيت. ويبدو كل ذلك مختلفاً تماماً عن الرياضات المُوسَّعة التجوالية المفتوحة لفترة العصور الوسطى التي كانت فيها تلك التمايزات أكثر تشوشاً، وكانت الرياضة أكثر انتشاراً في الحياة الاجتماعية. وحقيقة الأمر أنه لهذا السبب يجوز أن نرى الرياضة جزءاً مهماً من تشكيل العالم الزمني العلماني الحديث.

ورغم ذلك، فبعد الفترة التي كانت فيها الرياضة عُرضة لأكثر تنظيم زمني لها على الإطلاق، إلى جانب توسع الرياضة في كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية، ولو بأشكال أكثر تواسطاً بكثير من قبل، يجوز الزعم أيضاً بأن الرياضة استعادت شيئاً من توسعها وكلية وجودها المتزايدة اللتين كانت تتحلل بهما في قرون الصَّيد والاحتفالات الوسطى.

إن الرياضة لا معنى لها دون الجهاد والمنافسة. ولعل أبرز خصم للرياضي وأكثرهم تكويناً له هو الخصم الأقدم على الإطلاق؛ ألا وهو اللحظة العابرة. إن الرياضة، من عدة طرائق، هي محاولة لتحويل الوقت واسترجاعه. لكنها تختلف عن الفنون والطقوس الأخرى من حيث إنها لا تخضع ببساطة أبداً لإغراء تعليق قوة جذب الزمن الشديدة أو إنكارها. فغاية الرياضة لا تمضية الوقت وحسب، بل تعميق مروره وتنويعه. وفي هذا الصدد، نجد أن الرياضة دائماً ما تتصدى للزمن الذي يُعد خصمها الحميم. ولذلك فإن الرياضة هي أكثر أشكال خصومة الزمن حميمة. ولهذا السبب نجد أن لاعبي الرياضة ومشاهديها يجوز أن يقولوا بصيغة المتكلم في قصيدة أندرو مارفل Andrew Marvell «إلى حبيبته الخجلى» (To His Coy Mistress): «رغم أننا لا نستطيع أن نوقف شمسنا / فسنجعلها تمضي بسرعة».

الفصل الرابع

الحركة

الخروج من الذات

دعونا نُعرف الجسم بأنه شيء يستحدث انقطاعاً مستقراً في بيئته المكانية. فالجسم يحتل حيزاً مكانياً، ومن ثم يُحدث فرقاً بين ذلك الجزء من المكان الذي يشملهُ والجزء الآخر المستبعد. وما نعنيه بقولنا إنَّ هذا الشيء جسم له امتداد في الفراغ، هو أنه يشغل الفراغ الذي يحتلّه بصورةٍ تقتصر عليه فقط، فلا يستطيع جسم آخر أن يحتل الفراغ الموجود فيه، كما لا يستطيع هذا الجسم أن يوجد في أي فراغ آخر غير الذي يشغله. ويتسم المكان والزمان الذي يحوي الأجسام بأنه متنوع متقطع، مكوّن من انقطاعاتٍ مستقرةٍ نوعاً ما، يمكن التنبؤ بها. وفي معظم الأحيان، نعيش بأجسامنا البشريّة في مثل هذه الحالة.

إننا نتخذ وضعية ما: نقف، أو نجلس على مقعد، وبذلك نوّكد شغلنا لجزء معين من الفراغ وسيطرتنا عليه. ولا تمتلك الأجسام الحية امتداداً، وحبباً فحسب، بل تمتلك كذلك القدرة على تحريك أنفسها من مكانٍ لآخر. وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ امتلاك القدرة على التحرك في الفراغ، وكذلك من مكانٍ لآخر، لا يغير حقيقة أن كون المرء مخلوقاً مجسماً تفيد بأنه محكوم عليه بـ«الآنية» (Dasein)، أو ما يسميه هيديجر Heidegger «الموجود هناك» (being-there)، حيث تشير كلمة «there» (هناك) إلى حتمية الوجود في كل لحظةٍ في مكانٍ ما أو في غيره.

وقد أدت مثل تلك الاعتبارات إلى متناقضاتٍ زينونٍ عن الحركة؛ ذلك أنه لو

اعتبرنا أن الجسم يوجد دائماً في موضع معين محدّد، فإنّ عملية تغيير هذا الموضع (الانتقال من موضع إلى آخر) تصبح محيرةً بشكل غير متوقع. إنّ الجسم ينتقل من حالة انقطاع إلى أخرى. كيف ذلك؟ أين يكون وهو يتحرك؟ تقول متناقضة زينون المسماة «السهم الطائر»: إنه عندما يتحرك السهم في أثناء الطيران، فإما أن يتحرك إلى المكان الذي يوجد فيه في لحظة معينة من الزمن، أو أن يتحرك إلى مكان آخر. ولكنه لا يستطيع أن يتحرك إلى المكان الذي يوجد فيه بالفعل، ولا يستطيع كذلك التحرك إلى المكان الذي لا يوجد فيه لأنه في هذه الحالة ساكن في المكان الذي يوجد فيه. ومن ثم، فإنّ الحركة بالنسبة لزينون هي أمر وهمي أو مستحيل. ويتمثل الحلّ الذي قدمه بعض الفلاسفة لهذا التناقض في أن الحركة ليست هي التي لا وجود لها، بل لحظات الزمن الساكنة، والنهائية والمكتملة ذاتياً هي التي لا وجود لها. كل هذا لا غبار عليه، غير أن جميع قياساتنا المتعلقة بالزمن تدعو، على ما يبدو، للالتزام بهذا الزعم القائل بتلك اللحظات الثابتة. ويجد هنري بيرجسون Henri Bergson في متناقضة زينون الدليل على «أننا لا نستطيع التحرك خارج حالاتنا الساكنة، وأن الوقت لا يمكن أن يوجد خارج الفراغ»، كما يجد فيه كذلك تحذيراً ضد محاولة فهم التوقيت الصرف طبقاً للمجموعات المتجانسة التي نستخلصها من الفكر المكاني.¹ وتحل تلك الحركات الفلسفية المعضلة، وتدلل في نهاية المطاف على أن الحركة ربما تكون موجودة فعلاً. غير أن ذلك يأتي على حساب إيجاد انقسام محير بين طريقتين في التفكير نعتمد عليهما بصورة مطلقة، ولكنهما على الرغم من ذلك لا تقبلان على ما يبدو التوفيق بينهما. وربما كانت هناك حاجة لأن نقول إنّ الأجسام المتحركة تسكن عالمين مختلفين في الوقت نفسه: أحدهما هو عالم من الحالات المنقطعة الحصرية بصورة متبادلة، والآخر عالم من الحركات المستمرة، وهو ما يسمح له بأن يخرق القوانين المترابطة التي تقول إنّ جسماً ما يمكن أن يوجد فقط في مكان واحد في وقت محدّد، وإن جسماً واحداً فقط يمكن أن يشغل فراغاً معيناً في وقت محدّد.

وتشتمل جميع الرياضات على الجسم، ليس فقط من ناحية الممارسة (بمعنى

استخدام الجسم فيها)، ولكن كذلك من ناحية الإجهاد. فعند الإجهاد، يتمدد الجسم ويُنهك؛ في البداية بغية الوصول إلى أقصى حدّ له، ثم بعد ذلك في تحطّي تلك الحدود. وليس هذا بالأمر اليسير، حيث يدفع العقل والعزيمة الجسم للوصول إلى حدوده القصوى. فالرياضة توفر كذلك فرصة (ليست بكل تأكيد الفرصة الوحيدة، غير أنها مهمة على الرغم من ذلك) للعقل أو العزيمة كي تتعرف من الجسم على حدود ما يمكن أن يصل إليه؛ أي السرعة والإجهاد الذي قد لا يكون قد سمح لنفسه بتحقيقه. ولا تقتصر فكرة الحد على ما هو جسماني فحسب، فما نسميه «الجسم» ليس مجرد طرف من طرفي لعبة «شد الحبل» بين ما هو عقلي وما هو جسماني، بل هو الحبل ذاته؛ علاقة الشد بين عمليات الجذب المتضاربة للإجهاد والحد الأقصى.

وفي حين يُعد تحقيق هذا الحد الأقصى أمراً جوهرياً في الرياضة، فإنّه يعد جزءاً عرضياً أيضاً في الأنشطة الأخرى. إنّ امتلاك وجود مجسم من النوع الذي لدى البشر هو بمثابة الشعور بالجسم، ليس فقط بوصفه سلسلة من الأوضاع المتغيرة، بل باعتباره سلسلة من الإنجازات أو المشاريع والتوقعات، التي يوجد فيها الجسم ولا يوجد في آن واحد في المكان الذي هو فيه. ولعل القول إنّ الإجهاد هو صفة لكل الرياضات، لا يجعله مقتصرًا فقط على أشكاله شديدة التنافس، أو على دعواته أصحاب الخبرة الواسعة والتدريب الرفيع، ذلك أن مجرد ركل الكرة للتسلية، أو لعب مباراة الباتول (pat-ball)، يشتمل على استخدام المرء لجسمه في شكل من أشكال اللعب؛ أي قدر من التوسع أو التنوع في أوضاع الجسم وحرركاته وقدراته.

ولو نظرنا إلى الجسم البشري بوصفه غرضاً من أغراض العالم، فإنّه سيشتغل دائماً الموضع الذي يستحوذ عليه، كما أنه سيتشبع به في الوقت نفسه. ثم لو نظرنا إليه على أنه كائن حي، فإنّه سيكون في حركة دائمة؛ دائماً ما يكون قد وصل للتو من موضع آخر، وعلى وشك الانطلاق لموضع جديد. وطبقاً لمنطق الفراغ الانقطاعي، فإنّ الجسم يوجد دائماً حيثما يكون، وليس في أي مكان آخر. ولكن

طبقاً لمنطق الحركة المتواصلة الذي يتداخل بشكل غامض مع هذا الفراغ، فإنَّ الجسم يكون دائماً بصورة جزئية في مكان آخر، حيث يشغل بالفعل بصورة جزئية فراغاً لم يشغله بعد. فالجسد يوجد في غير موضعه بصورة جوهرية، فيما يشبه ضبابية متعمدة، فهو دائماً في الخلف، أو بجوار أو قبل ذاته.

ولو صح من ناحية معينة عدم وجود مهرب من حالات التجسيم، فسيكون من الصحيح كذلك عدم وجود مهرب من قدرة الجسم الذاتية على تخطي نفسها، أو توجيهها - إذا صح التعبير - إلى الميل تجاه شيء ما. ويبدو أن الحقيقة القائلة إنَّ الجسم يكون دائماً إما إسقاطياً أو وجدانياً هي من بين الأمور التي تلازم المراء نتيجة كونه غرضاً مجسماً، نظراً لأنه يوصف دائماً تبعاً للاحتياجات والتوترات والميول والتوقعات. ولا يوجد الجسم مطلقاً ببساطة، أو بصورة محايدة، في بيئة بعينها: فهو دائماً موجه، دائماً موجود في زاوية معينة مقصودة بالنسبة لتلك البيئة. والفراغ الذي توجد فيه وأنت مجسم هذا الفراغ الذي توجد فيه فعلاً، مع جسمك وبوصفه جسمك في آنٍ واحد، هو الفراغ نفسه الذي يصفه جيرالد مانيلي هوبكينز Gerard Manley Hopkins بـ«الفراغ الذي تحكمه الحركة»².

وينظر جان بول سارتر Jean-Paul Sartre إلى الحركة التوقعية للاعب كرة المضرب على أنها مجازٌ للطريقة التي يمكن من خلالها التّظر للفعل الإنساني بوصفه إسقاطياً، ينبع دائماً من الهوية الذاتية بواسطة حركة تجاه المستقبل:

يكون للوضع الذي أتخذه بسرعة في ملعب كرة المضرب مغزى فقط من خلال الحركة التي سوف أقوم بها بعد ذلك مباشرة بمضربي سعيّاً لإرجاع الكرة من فوق الشبكة... في إحدى مرّات ضرب الكرة، وبينما أنا في الملعب لإرجاع الكرة، أكون موجوداً أولاً كعدم وجودٍ لذاتي، كما أن المواضيع المؤقتة التي أتخذها ما هي إلا وسائل لتوحيد ذاتي مع تلك الحالة المستقبلية من أجل أن أتحد معها؛ ليس هناك مغزى لكل وضع إلا من خلال تلك الحالة المستقبلية، من أجل أن أندمج فيها؛ ولا يكون لأي

وضع معنىً سوى من خلال تلك الحالة المستقبلية. وليس ثمة لحظة في شعوري لا تتحد بعلاقة باطنية بالمستقبل.³

غير أن هذا المستقبل لا يمكن الوصول إليه، حيث إنه يفقد قوة الجذب الإسقاطية المستقبلية بمجرد أن يصير حاضراً، فهو لم يعد المستقبل على وجه أكثر دقة:

لقد حدّد وضعي في ملعب كرة المضرب، استناداً إلى المستقبل، جميع أوضاعي المتوسطة. وفي نهاية المطاف، اتحدت مع وضع نهائي متطابق مع ما كان عليه في المستقبل، بوصفه معنى لحركاتي. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ هذا «الاتحاد» تحديداً يعدّ مثالياً بصورة صرفة، فهو في واقع الأمر لا تأثير له. ولا يسمح المستقبل لنفسه بأن يعاد دمجهُ؛ حيث ينزلق إلى الماضي كمستقبل سالف، ويتجلى الحاضر لذاته بكل وقائعته كأساس لعدميته، ومرة أخرى كغيابٍ للمستقبل الجديد.⁴

والجسدُ هو في آنٍ واحدٍ مبدأ الخضوع للفراغ، والقدرة على الهرب منه. كما أنه في الوقت نفسه استحالة الوجود في مكانٍ آخر، بخلاف المكان الذي يكون فيه المرء، ولو اعتقدنا بما يقوله سارتر، فإنّه سيكون كذلك استحالةً أن يكون ببساطة في مكانٍ واحد، وذلك تحديداً لأنّ الجسم هو الطّريقة التي بها يغير المرء موضعه. فالمرء لا يتخطى الموضع إلا من داخل الجسم، ومن خلاله. إنّ حالة أن يكون المرء داخل الجسم تعني من ناحية ما ضرورة أن يواصل المرء تخطي جسمه، ويتساوى في ذلك أن نمدّ ذراعنا للإمساك بمقبض الباب، أو لتنفيذ ضربة صعبة في لعبة كرة المضرب. ومن يروون أنهم مروا بتجارب «الخروج من الجسد»، يقولون كذلك دائماً بخوضهم تجارب الجسد الواحد، الذي يستمر في الإذعان لحالات شغل الفراغ بشكلٍ متقطعٍ: فعلى سبيل المثال، عادةً يطير من

يدعي الخروج من الجسم، أو يطفو. وحسب علمي، لم يدع أحد مطلقاً خوضه لتجربة الانتشار في الفراغ، أو الوجود في عدة أماكن في آنٍ واحدٍ؛ وهي الأمور التي من المفترض أن تميز تجربة الخروج من الجسد بشكلٍ حقيقي. ومن ثم، فإنَّ تجربة الخروج من الجسد المزعومة هي تجربة انتزاع المرء من جسم، ليدخل في جسمٍ آخر، وإن كان جسماً خيالياً، وليس الخروج من الحالة المكانية للتجسيم في حدِّ ذاتها.

وتنطبق تلك الحالات المتضادة على جميع الأجسام، وفي كل الأوقات، غير أن لها أهمية خاصة في الرياضات، التي يسعى فيها الجسم للتفوق على ذاته، والتي يكون الجهد فيها بين المتقطع والمتصل، وبين الفراغ الداخلي والفراغ في ظل الجهد، دائماً في صلب الموضوع. وكما قلت سابقاً، فإنَّ الرِّياضة تنطوي على الإجهاد (exertion)، وهي كلمة تتكوَّن من مقطعين: (ex) أي خارجي، و (serere) بمعنى يدمج أو يشابك. ولا شك أن تفعيل الطرد، أو الإسقاط، أو الطرح أو العرض المحتمل، لا يفيد مجرد الانتشار أو التعميم. فعندما يتحرك المرء للأمام، لا يترك ذاته خلفه بصورة كاملة. إنَّ بذل الجهد هو أن يضع المرء نفسه بالنسبة لنفسه بطريقة ينتج عنها دمج اللَّحظتين الآنية والسَّالفة معاً، حيث تتشابك وتلتصق بذاتك، وأصبح مختلفاً وأبقى كما أنا في الوقت نفسه، وحيث أمتد إلى جزئي غير المستغل. ويعبر جون دريدن John Dryden عن جانبي الإجهاد هذين، الجذر والفرع، في ترجمته لديوان الشاعر الروماني فيرجيل Virgil الذي يحمل عنوان «جيورجيكون» (Georgics): «أشجار التفاح، بسيقانها القوية القادرة على حمل فروعها المتشعبة، تُجهد نفسها في الهواء»³. ويمكن القول إنَّ الرِّياضة هي محاولة التغلب بشكلٍ أدائي على المشكلة التَّالية المُتضمنة ذاتياً: هل العلاقة بين المتقطع والمستمر ذاتها هي علاقة بين الأمور المتقطعة والمستمرة؟

تأمل الموقف الذي يكون فيه لاعب كرة القدم على وشك تسديد ركلة حرة مباشرة بالقرب من منطقة جزاء الخصم، وقد اصطف أمامه أربعة أو خمسة من لاعبي الفريق المنافس، حيث شكّلوا من أنفسهم حائط صدٍّ؛ لدى اللاعب

المتأهب لتسديد الكرة عدة اختيارات: في مقدوره أن يسدّ الكرة بقوة كافية لتخطي حائط الصد، أو بإمكانه جعل الكرة تلف عن يمين، أو يسار الحائط، أو تطير من فوقهم ثم تهبط بشكل حاد داخل المرمى، أو أن يجمع بين هذين الاختيارين. وبمقدوره أن يمرر الكرة إلى لاعب آخر لديه مجال رؤية أفضل. ويتكرر هذا الموقف مع بعض الاختلافات في العديد من الألعاب التي تصد فيها قوة مدافعة، وقوة أخرى مهاجمة، كما في الرجبي وكرة القدم الأمريكية والكريكت والكرة الطائرة. ففي كل تلك الحالات، يحاول لاعب أو فريق تأكيد مبدأ الاستمرارية وتفعيله، من خلال تعظيم شغلهم المحتمل للفراغ عبر الحركة، أو السرعة، وبالميل نحو الانتشار في كل مكان. في حين يستعين الآخرون بمبدأ الانقطاع لصد هذه الاستمرارية التي تم تعظيمها، وكأنهم يقولون للخصم: ممنوع المرور. ويهدف الحائط الدفاعي للحد من جميع الاحتمالات. أما الفريق المهاجم، فيهدف إلى تعظيم جميع الاحتمالات. فالجرائت يواجه الغاز، والفضاء يلعب ضد الأرض.

وعلى الرغم من ذلك، وبشكل متساوٍ، يدفع كل واحد من المتنافسين الآخر لأنّ يتحوّل. وبعبارة أخرى: يتقيد الفريق الذي يقوم بتسديد الضربة الحرة بمحاولة العثور على ثغرة دقيقة، تكاد تكون متفردة، تسمح له بالتسلل خلال منطقة الدفاع المزدحمة. وسوف يقلص هذا المسار التهديفي ويحدد الفراغ، بدلاً من توسيعه وتعميمه. وبالمثل، يجب على الحائط أن يستجيب لكل خطة (تكتيك) يتبعها الفريق المهاجم، بأنّ يعيد تنظيم نفسه في التو واللحظة. وفي حين يتحتم على الغاز أن يرق ويتكثف ليدخل داخل الإبرة، يجب على الحائط أن ينتشر كالهواء. فعند ممارسة رياضة ما، يتحرك الجسم بشكل مفاجئ، وكذلك دون توقف، بين تلك الحالتين الكثيفة والريقة. وفي بعض الأحيان، يهدف لثلاثي يكون سوى السكون وعدم النفاذ. وفي أحيان أخرى، يهدف إلى الوجود في كل مكان والانتشار. وفي غيرها، يتقلص إلى الآن وهنا المتطابقتان بشكل تام. وفي أخرى، يسعى لأنّ يوجد بتفرد في كل مكان.

وهناك نوعان من الحركة في الرياضة، يتناغمان مع ذلك التضاد بين الجسم الذي صار صلباً في شكل فراغ، والجسم الذي ترقق ليصير احتمالات متناهية. وتهدف ما نسميه «الحركة المطلقة» إلى الانتقال مباشرةً من نقطة إلى نقطة أخرى في الفراغ. ويمكن مشاهدة ذلك في أنقى صوره في السباق، حيث لا يهم سوى إخضاع جميع العوارض الداخلية للضرورة الصرفة، المتمثلة في السرعة القصوى، أو الإحلال - أو التحلل التام - للكتلة، لتتحول إلى حركة. ويُمثل السباق في هذا المضمون الشَّكل المجرد لنوع ما من الحركة، التي تعدُّ مكوناً يدخل في جميع الألعاب: الهجوم على خطِّ المرمى، والتسديدة التي توجه إلى الزاوية، وتصويبة «سلام دانك» في كرة السلة، وسباق العدو 100 متر الصَّعب. ومن ناحية، يمكن النظر لذلك على أنه المحاولة المبهجة للهروب من قيد الكتلة أو الوضع، أن يفرغ الإنسان ذاته ليصير مساراً صرفاً. غير أن الحالة المثلثي للسباق، الحد المطلق تجاه ما يقوم بإنهاكه، لا تتمثل في الحقيقة في إلغاء الفراغ، بل في إلغاء الزمن. إنَّ العدو الذي ليس بعده عدو سوف يتمثل في قطع العداء للمسافة من نقطة البداية حتى خط النهاية في أقصى وقت ممكن. ومن ثم، وفي نهاية المطاف، ففي تلك الحالة الفيزيائية المثالية للعدو، لن يكون هناك انقضاء للوقت على الإطلاق، بل للفراغ فحسب، وقد ضغط بعضه على بعض (سيكون هناك فراغٌ، ومواضع بداخله، ولكن لن تكون هناك مسافة فيما بينها). ومن ثم، يمكننا القول إنَّ هناك حركةً مطلقة تميل تجاه تقليص ذاتها.

ولكن الرياضة تشتمل كذلك على ما يمكن أن نطلق عليه «الحركة المكثفة» (accented motion)، وهي أنواعٌ كثيرةٌ من الحركات المعدلة، أو المائلة مثلاً للانحراف والالتفاف والدوران والارتداد والعرضية والتظاهر في الرجبي، والانطلاق والإرسال المقوس في التنس، والتَّخطي الجانبي في الرجبي، والمراوغة في كرة القدم، التي تغير من اتجاه وقوام الحركة المطلقة، وتصل بها بطرق مختلفة إلى أهدافها من طريق غير مباشر. وتسعي الحركة المطلقة إلى ضغط الوقت في الفراغ. أما الحركة المعدلة، فتنتشر الفراغ في الوقت، أي تأخذ ما يحلو

لها من الوقت، فتغلف الفراغ وتعقده، من خلال لفه بخيوطِ الفترات الزمنية والانعقضاءات.

الزوايا

يشير إيان ستيوارت Ian Stewart، في قصة الأطفال الخيالية عن الرياضيات «فلاترلاند» (Flutterland)، إلى وجود طريق سهل للتغلب على مشكلة تصور أبعادٍ إضافيةٍ للفراغ، بخلاف الثلاثة التي ندرکہا. فالدراجة جسم صلب له ثلاثة أبعاد، أو محاور فراغية: يسار - يمين، وأمام - خلف، وأعلى - أسفل. حرك مقود الدراجة، وسيكون من الممكن وصف الحركة على أنها توليفة معقدة من الحركات المختلفة في الأبعاد الثلاثة المعتادة: إلى الأعلى قليلاً، للأمام قليلاً، أقرب قليلاً. ويمكن كذلك النظر إليها على أنها حركة في اتجاه جديد، لا تكون عمودية بالنسبة للاتجاهات الأخرى، لكنها تقطعها بشكل منحرف. ترغب فيكي، وهي شخصية شديدة الفضول في قصة ستيوارت عن الأبعاد، في الحصول على شرح أكثر إقناعاً من مدرستها، الحصان المطاطي النطاط:

«ولكن لو تحرك إلى بعد جديد، ففي أي اتجاه يكون هذا البعد؟»
قال الحصان المطاطي النطاط: «في اتجاه إدارة مقود الدراجة، وهو مختلفٌ عن اتجاه حركة الإطار الأمامي، وهو مختلف عن اتجاه حركة الإطار الخلفي، وهو مختلف عن اتجاه الدواسة؛ تلك أربعة أبعادٍ جديدةٍ، إضافةً إلى الأبعاد الثلاثة الأصلية»^٥.

ولا يتحرك الوضع المتغير لمقود الدراجة خارج فراغ الأبعاد الثلاثة، لكنه على الرغم من ذلك يخلق على ما يبدو اتجاهاً جديداً بداخلها. وستكون إحدائيات ديكارت Descartes كافية لتحديد موقع أي نقطة في الفراغ، وذلك من خلال مزيج من الخطوط الأفقية والعمودية، ولكن إذا كنا سنضعُ نموذجاً للحركة من

موضع إلى آخر، فسيكون علينا الاستعانة بالأقطار، لتحديد محاور: س، و، ص، وع. وتتضح قوّة القطر في خلق حيز جديد في الفراغ داخل الفراغ، من خلال حقيقة تمثيل العمق، في الرسومات التي ترسم على سطح منبسط بواسطة خطوط مائلة. ولأسباب مشابهة، يشير القطر إلى تجسيم المنظور البشريّ الفردي، الذي يحل دائماً محله بصورة صارمة حتمية، ولكنه يكون كذلك مائلاً أو إلى جانب الأشياء ذاتها. وبالنسبة لجان بول سارتر، فإنّ الوجود لا يمكن إلا أن يكون آنيّاً، والآنية تعني دائماً الوجود في زاوية معينة من العالم، حتى أنه «بالنسبة لي، توجد هذه الكأس على يسار الدورق وخلفه بقليل؛ وبالنسبة لبيير، فإنها توجد على يمينه وأمامه قليلاً. ولا يمكن حتى أن نتصوّر أن بإمكان الوعي أن يرى العالم بطريقة تكون من خلالها الكأس في آنٍ واحد على يمين وعلى يسار الدورق، ثم أمامه ومن خلفه».⁷ وتخلق الحقيقة القائلة إنّ الآنية تعني الاتجاه ما يشبه خليطاً من الضّرورة والعرضية: «بينما يكون من الضّروري أن أعتقد في وجهة النظر هذه أو تلك، فمن العرضي أن أعتقد في وجهة النظر تلك تحديداً مع استبعاد ما سواها».⁸ إنّ ميلّي تجاه الأشياء لا يعد مجرد حقيقةً عارضةً لوجدني الآني، بل هو الضّرورة الحتمية لتلك العرضية.

وتشير أسطورة البدء في قصيدةٍ حول طبيعة الأشياء، للشاعر الروماني لوكريتيوس Lucretius، إلى ضرورة وجود بعض الميل، أو الانحراف في الأشياء. فبعد شرحه للفلسفة الذرية لإبيقور Epicurus وديموقريطوس Democritus، يطلب منا لوكريتيوس أن نتخيل عالماً تهطل فيه الذرات ببساطة من خلال الفضاء الفارغ. وفي مثل تلك الحالة التي نطلق عليها في الوقت الراهن «التدفق الطبقي» (laminar flow)، تجري الذرات في طبقاتٍ منفصلةٍ متوازية، ولا تختلط فيما بينها، ولا يحدث أي تصادم، ولا أي تغييراتٍ من أي نوع. كما لن يكون هناك وجودٍ لأي زمن، ولكن مجرد علاقة من المساواة الثابتة: $A = A = A = A$. وبعد أن قدم تعريفاً لاستخدام علامة «يساوي» في كتابه «شحد المعرفة الرياضيّة» (Whetstone of Witte)، الصادر في 1557، يوضح روبرت ريكورد أنه اختار

الخطين المتوازيين «لأنه لا يوجد ما يماثلها في التساوي»⁹ ولكي يوجد شيء في الأصل، ينبغي أن توجد على الأقل ذرة واحدة انحرفت عن مسارها، «حتى يتسنى أن تقول إنَّ هناك تغيراً في الاتجاه»: الانحراف (clinamen).¹⁰ ودون هذا الانحراف، لن يكون هناك سوى الضَّرورة، تكرر ذاتها بصورة لا نهائية. وهذا التنازل غير الضَّروري، وهذا الابتعاد الأدنى عن الهوية الذاتية، لهو أمر ضروري لكل شيء في عالمنا كي يكون موجوداً. وسيحتتم على كل شيء أن ينبع من ذلك الانقسام الأولي، ومن هذا الانفصال الاستهلاكي، ومن «ذرة الزاوية» تلك.¹¹ ولكن في وقتنا الراهن، وفي عالمنا الحالي، يعد ذلك هو الكل المتشعب لملايين الانحرافات. أما الغريب الذي لم يسمع عنه، فهو الانسيابي، وليس المنحرف. وبالنسبة لمايكل سيرز Michel Serres، فإنَّ الجسم ذاته ليس عمودياً، بل
قطرياً:

لو لعب الجسم دور تمثال، مع توجُّه وزنه تجاه الأسفل، فإنَّه يمثل نحتاً لتمثال آخر، من خلال تجانبه لليمين أو اليسار. ومع أنه يستند إلى قدميه، فإنَّه يميل إلى أحد الجوانب. وسيكون من الضَّروريّ تتبع خطِّ مائل مركب، يعطي الخط العمودي الحقيقي للكائن الحي الذي ينجذب بصورة لا تتوقف نحو ذلك القطر، الذي سيشكل زاوية وقوعه مع الخط العادي. فكل شيء يميل ويكون ضعيفاً من منطقة الجانب التي سيسقط من جهتها.¹²

والقطر هو «متجه» (vector)، لأنه لا يوجد مطلقاً في مكان محدد. فهو تقريبي، وذلك يعني أننا لا نستطيع أن نقرب منه مطلقاً. ويستدعى التساوي وميضاً من الأقطار، بينما يقتربون ويتعدون عن قطب العمودية:

لا نستطيع العثور على المركز ونحن مترددون في التخلي عنه. فنميل إلى

اليمين، وإلى اليسار، للابتعاد عنه. هل نخشاه ونحن لا نعرف كيف، ولا نستطيع أيضاً أن نسكن هذا الصدع وهذا المحور، أو هذه الدوامة؟ من الذي سيبنى بيتاً في منتصف هذا التيار؟ لا تبنى مؤسسة، ولا نظام، ولا علم، ولا لغة، ولا تلميح أو فكرة، على هذا المكان المتقل، الذي يعد الأساس الأمثل لكنه لا يؤسس لشيء في الوقت نفسه.

نستطيع فقط التوجه صوبه، ولكن فور وصولنا إليه، نتخلى عنه، مجبرين على ذلك من قبل الأسهم التي تخرج منه، ولا نقضي هناك سوى لحظة متناهية الصغر، فهو زمن ومكان الانتباه الشديدين.

ولا يرى المرء شيئاً في الظهيرة، في وهجها الكثيب. فليس هناك سوى السطوع الذي يصيب بالعمى. ولو نظرت عين الربِّ إلى ذاتها دون بقايا، ودون فقدان شيء، فإنها وبكل تأكيد ستستهلك ذاتها. فينبغي أن يكون هناك تأخير، وتدرج، وقطرية. إنَّ العيش في بعد إضافيٍّ من الفراغ سوف يفيد بإمكانية أن ننظر لأنفسنا دون أن يلاحظ ذلك أحد، تماماً كما يستطيع المخلوق الذي يسكن عالماً ثلاثي الأبعاد أن يطل على المساكن غير المسقوفة لسكان فراغ ثنائي الأبعاد، وينظر إليهم. غير أن النظر مباشرة على شيء يعد بمثابة تقليل لأبعاده الثلاثة إلى اثنين، مزيلاً بذلك كل تلميح أو إشارة إلى طوله أو حجمه. إنَّ ذلك بمثابة إعادة الأشياء إلى مخططها أو رسمها الأساسي أو العام، وهو كذلك كجعل المرء نفسه أحادي اللون، أو أعمى. فالنظر مباشرة من أعلى، وهو ما تفضله القنابل، الذكية منها وغير الذكية، هو أمر يتسم بالفعل بالتدمير والخراب. وعلى مستوى المركز التخيلي للأمور، فأنا أيضاً أتلاشى عن الرؤية، ويتحلل شكلي إلى تساو عموديٍّ صرف، فأكون مثل عقرب الساعة الرملية. وعندما أميل إلى أحد الجوانب، أو تنحرف الشمس عني، يظهر ظلي وأظهر للعيان. ولا يكون اختلاف المنظر إلا بوجود زوج من العيون. ويمكن أن تكون في المكان الذي أنت فيه، أو يمكنك رؤية المكان الذي توجد فيه، ولكن لا تستطيع أن تحقق الأمرين معاً، لأنك إذا

كنت تستطيع أن ترى المكان الذي توجد فيه، فأنت إذن لم تعد موجوداً في هذا المكان، لقد انفصلت على الأقل عن نفسك، بالطريقة نفسها التي يجب عليك اتباعها كي تعلم أين أنت على وجه التحديد. وثبتنا الأقطار في مكاننا من خلال نزعنا من مكاننا قليلاً. فنحن نرى أننا في المكان الذي لا توجد فيه، وأنا لا توجد في المكان الذي نراه، حتى إن كنا في نهاية المطاف لا شيء سوى تلك المحدودية، ويعد ذلك دائماً زاوية تحول من القدرة على رؤية كل شيء.

وإذا كان هناك تنافس - كفاح وإجهاد - في هذه القطرية، فهناك أيضاً جمال الإيقاع. فالليل يستوحي الزمن والسرعة والرغبة (الميل). فهناك إثارة وتهميج في المنحدر عما هو موجود في الحائط أو الأرضية، لأننا تحديداً يمكن أن ننحرف مع المنحدر، وهو ما يمكن أن يجعلنا نفقد السيطرة على أنفسنا (ذات مرة، سمعت شخصاً يدلي بملاحظة بريئة، خلال مقابلة في المذيع عن المشكلة التي تكمن في مغالطة المنحدر الزلق، حيث يقول إنه لا يمكن للمرء أن يعلم إلى أين ستقوده).

وعندما كنت في المدرسة، كنا نلعب الرجبي ضد مدرسة تميل أرضية ملعبها بشكل شديد من جانب إلى الآخر. فإذا خسرت القرعة، فستمضي الشوط الأول، وأنت تعاني مع كل خطوة تخطوها في كفاح ضد قصورك الذاتي المعرقل. وقد كانت محاولة الجري تعني رفع الركبة بشكل مؤلم للهروب من قوة جذب الأرضية المتصاعدة في الارتفاع، التي كانت تبدو على الرغم من ذلك كأنها تتصاعد مثل الضباب الكثيف فوق أطرافنا، الذي تحول ببطء إلى ثقل شديد مجهد. كان كل جهد تبذله للتغلب على الانحدار يزيد من مشقته، مما يجعل زاوية الارتفاع (الشيكية)، وكأنها تزداد حدة أكثر فأكثر، فتميل برأسك إلى الأرض وكأن الأمر سينتهي بك إلى الزحف، أو كمن يتسلق حافة جبل، لا عداء. وحتى إذا لم تكن تلعب ضد مسار الرياح، التي كانت دائماً وكأنها تهب بشكل عمودي من طرف الملعب إلى الطرف الآخر، بدلاً من أن تهب عرضية، كان الأمر وكأن الرياح تهب ضدك، وأنت تصعد تلة؛ عندما تحاول ركل الكرة للحصول على مساحة في أرض الملعب، كانت الكرة تتأرجح بشكل مزعج، وكأنها بين أسنان

إعصار، وكانت التسديدة المتلوية التي يسددها ظهر فريقنا، التي كانت تخرق الهواء مثل الصاروخ، تبدو وكأن الجاذبية قد أفسدتها. وفي حين صارت الكرة العرضية المنخفضة من خط دفاعنا بطيئة، ومهترئة نظراً لشعورنا بالتعب، صار الكفاح المضني يضرب به المثل، ولم يحدث من قبل أن كانت لغة الرجبي، المتمثلة في ارتكاب الخطأ، والمعاقبة عليه، صحيحة كما كانت في هذا اليوم.

وعلى الرغم من ذلك، وبعد برهة، تؤمك قدمك بشدة، كما يحدث مع متسابق ركوب الدراجات أو سباق العدو في الجبال خلال تسلق جبل مرتفع. وبدأ توقع زاوية التل يمنح الكاحلين والركبتين شيئاً إضافياً، كرد على تلك القدرة المثقلة. وبدأت نعمة الوجود توتر العضلات كما لو كانت مذراًة. وبيطء، يتخلل المنحدر شديد الميل إلى قامتك، وإلى ميل رقبتك، وإلى كفّ يديك. فلعبة الرجبي تعتمد كثيراً على ما هو قطري؛ ينبغي تمرير الكرة للخلف، وحتى عندما يتم ركلها للأمام، فإن ذلك يعد ميزة لها كي تهبط في زاوية، وترتد بطاعة واجبة في يد الظهر، الذي يكون قد مر من خلال مطحنة اللاعبين القاتلة. ويعيدك التقوس البشع لأرضية الملعب إلى ذاتك، ويعيد إليك وعيك، ويعيد حواسك إلى العمل. وعلى ما يبدو، فإن التل يطلعك الآن على سرّ مفيد، ويدفع بكرم ولطف كل شيء ليسير في مصلحتك.

وكان من المتوقع أن تختار اللّعب في اتجاه ميل أرضية الملعب خلال الشوط الأول، وذلك أملاً في أن تحرز عدداً كبيراً من النقاط لن يملك الفريق الخصم العزيمة ولا الطاقة لتخطيها مع نفاذ مخزونهم من الطاقة. ولكن لم يكن اللّعب في اتجاه انحدار أرضية الملعب ميزة على الدوام، ولذا ففي بعض الأحيان، وبعد تغيير نصف الملعب للعب في اتجاه المنحدر بعد اللّعب عكسه في الشوط الأول، كان هناك عقاب جديد وغير متوقع. فعلى ما يبدو، كانت الكرة تُسحب بعيداً عنك بطريقة خبيثة، وكانت ركلات التهديف تتعد بصورة هيسترية خارج نهاية الملعب. ومع العدو بسرعة في اتجاه المنحدر، كانت قدمك وكأنها قد فقدت قوتها على السحب، كما فقد فريقك الأرض التي سيطروا عليها بالتمرير، كما

أن الشريط المطاطي المحكم الذي ربط بين لاعبي خط الدفاع، والذي يشبه الدوارة التي تنز في جبل متسلق الجبال، بدا وكأنه قد تمزق، وقد صوبت التسديدات إلى الأمام بصورة اعتباطية، مع تغلب الخصم على أفراد الفريق بوحشية. كان عليك الكفاح ضد الميزة التي تتمتع بها، بسحب نفسك للخلف بينما يتم سحبك للأمام، وكبح حركتك وتسريعها في آنٍ واحد. والآن، فإنّ الزاوية التي تتخذها بالنسبة للأرض كانت تتأب بطريقة مقززة، وتصفك بالأبله، فالخطورة ما عادت تكمن في أن تراجع قدمك خلفك، فتتكفي أرضاً على وجهك، بل صارت تكمن في أن تسبقك بشكل مضحك، تماماً مثل المبتدئ على لوح التزلج.

كان الميل دائماً غامضاً مثيراً للشك إلى حد ما (النظرة الخبيثة، والانحناء الماكر الذي يمثل عدم الشرعية). فهو الأداة والبعد لما لا يمكن حسابه، والأداة الموصلة إليه، وما هو متناهي الدقة، وما هو تقريبي. ولذلك، فهو يمتلك أيضاً قوةً سحريةً. ويوضح أفلاطون Plato لأحد العبيد، في بداية كتابه «حوار مينو» (Meno)، كيف أنه من الممكن حل إحدى المشكلات الصعبة بصورة مذهلة، التي تتمثل في رسم المربع (ب)، على أن تكون له مساحة المربع (أ) نفسها، من خلال رسم المربع الثاني على قطر المربع الأول. وقد قيل إنّ هيباسوس، وهو من رابطة فيثاغورث، قد قُتل غرقاً لكشفه عن حقيقةٍ مخيبةٍ للآمال، تقول إنّ نسبة قطر المربع بالنسبة لضلعه تساوي « $2\sqrt{2}$ »، وهو عدد لا يمكن كتابته في شكل عدد صحيح، ولا في شكل كسر في الوقت نفسه. ويقص لنا صامويل بيكيت Samuel Beckett، وهو أشهر من كتب الكوميديا الهندسية، تلك الحكاية بصورة مضحكة، في حوارٍ من روايته «مورفي» (Murphy):

«قال نيري: إذا ختنتني، فسيكون لك مصير هيباسوس نفسه».

«قال وايلي: إنه من أتباع فيثاغورث، على ما أعتقد. لكنني نسيت ما كانت عقوبته».

«قال نيري: أغرقوه في بركة ضحلة، لإفشائه عدم اشتراك الضلع، والقطر في القياس».

«قال وايلي: ومن ثم، الموت لكل من هو ثنائياً».¹⁴

ولقد وصف إيامبليخوس، في القرن الثالث الميلادي، وفاة هيباسوس، وقال إنه ربما يكون قد نُفي، أو أغرق في البحر. وعلى الرغم من وجود بعض الشك حول أسطورة الفيثاغورثيين، ورهابهم من كل ما هو غير منطقي،¹⁵ فقد استُغلت نسخ من تلك القصة كثيراً لتوضيح نفور اليونانيين من القياس والحساب، وهم من كانوا على درجة كبيرة من البراعة في فهم العلاقات بين النسب الهندسية. وعلى الرغم من ذلك، فإن مايكل سيرس Michel Serres يشير إلى ملاحظة تتعلق بمسار الشمس، مفادها حقيقة أن مسار الشمس على مدار العام يكون بزاوية بالنسبة لخط الاستواء السماوي، وقد أوجد ذلك ثغرة في منتصف تلك المنظومة المنطقية:

يعود النفور في قلب هذا المشروع الرّسمي إلى التثبُّت فقط بفعالية الأفكار أو الأشكال الرياضيّة، وفي حلم الاستدلال العام ذاته، وهو الحلم القويّ الأجوف الذي كان يعني أن اليونانيين لن يصلوا أبداً للعلم الحديث، وتستحدث الضوضاء في تكرار الشيء الواحد، ليذكرنا بذلك بقصة بدايات العالم.¹⁶

ويمكن أن نفترض أن عدم اشتراك الضلع والقطر في القياس يمثل الصور المركزة لعدم اشتراك القياس بين الرياضيات المجردة أو النظرية وسلوك الأشياء في العالم المادي. وربما لا يوجد تعارض بين المنطقي وغير المنطقي، حيث إن ذلك مفهوم عمودي، ولكنه كذلك بدرجة طفيفة، وهي درجة تقل بشكل مستمر طوال الوقت، لكنها يظنان منفصلان. ومهما بلغ اقترابها من بعضهما بعضاً،

في الوقت المجسد، فإنَّ تلك الفجوة لن تُسد أبداً. وطبقاً لسيرس Serres، فإنَّ «الفيزياء هي حقاً مسألة تتعلق بالزوايا»¹⁷.

وتؤدي الحركة في الرِّياضة إلى التَّنَافس المستمرَّ بين الميل والمستقيم، وبين العرضي والعموديّ، وبين المائل والتضاد. وفي الأيام الأولى لرياضة الرجبي، كانت اللعبة تتمركز حول التَّنَافس الأساسي، المتمثِّل في تشكيلة التصادم، حيث يتشابك الفريقان معاً برؤوسهم في جهد مجلجل. ومن هنا، يبدو في مثل هذه الظروف أن القوَّة الصرفة والعزيمة الصلبة هي التي تستطيع فقط التغلب على المقاومة، أو صد الهجوم. ولم تبدأ الفرق في البرهنة على وجود طريقةٍ أخرى للمرور عبر أو حول لاعبي الخصم إلا بعد حلول عام 1870. فإدخال خلل بسيط على أحد جانبي تشكيلة التصادم سوف يؤدي إلى تغيير لاعبي الخصم لاتجاههم في شكل دائري، حيث إنَّ الطاقة المطلوبة لإمالة قوة ما تعد أقل بكثير من الطاقة المطلوبة لعكس اتجاهها، كما أنها سوف تجعل الفريق المهاجم ينحرف ليكون أمامه مساحة لا يوجد بها دفاع للخصم، مما يسمح للجناح بالانطلاق. ويتحوَّل الميل هنا -وبسرعة- إلى دائري. فالدوران أو الانحراف هو ميلٌ مُركز (أو من الممكن تحليله كذلك من وجهة نظر مبدأ الانقطاع). فهو ميلٌ يجعل على شكل ميل بصورة متكررة: إنَّ الابتعاد العرضي عن الاستواء يفسح المجال مباشرة لابتعاد آخر عن هذا الاتجاه، يعقبه ابتعاد آخر، ثم آخر. ويبدو أن الالتفاف بشكل خاص يغير الفراغ الذي يتحرك فيه، حيث يسלט الضوء بشكل مستحيل على فراغات داخل الفراغ. وهذا هو السر وراء المقولة الشائعة إنَّ اللاعبين غالباً لا يعثرون على الفراغ، أو إنهم يتحركون فيه فحسب، وهذا أمر صحيح، بل إنهم بالأحرى «يخلقون لأنفسهم هذا الفراغ». وبمقدرة الانحراف أو الالتفاف أن يسحب كتلة اللاعبين جانباً، مثل الستارة، مما يتيح انطلاقات سريعة حادة خلال الثغرة.

ويمكن أن يكون ذلك هو السَّبب وراء بعض التعليقات التي تثير الفضول، والتي تستخدم في الرِّياضة وترتبط بالوضع والحركة. ويُعد العديد من تلك

المصطلحات منطقياً للغاية فيما يتعلق بمواقع اللاعبين الثابتة وبالملاعب: يسار، يمين، وسط، جناح، المهاجمون، الدفاع. غير أن الرياضة تعتمد كذلك على بنية مفصلة للخارج والداخل. فيفهم المرء بشكل عام كيف يتحرك اللاعب داخلياً تجاه منتصف الملعب، وخارجياً تجاه الجوانب. ولكن هناك أنواع أخرى كثيرة دقيقة وغامضة من الداخل، والخارج في الرياضة، لا يتحدد اتجاهها تبعاً للملعب والعلامات الموجودة به، ولكن من طريقة اللعب. فالألعاب التي يوجد بها تشكيلات تصادم، مثل كرة القدم الأمريكية والرجبي، تخلق حرفياً مساحات غير مرئية؛ ثقوباً سوداء لا يكون فيها لقواعد اللعبة العادية أي أثر، حيث يقال إن اللاعبين يلعبون «داخل»، و«خارج» بعضهم بعضاً. وتمتلى مساحة الملعب بالجيوب، والزوايا والتجاويف، إضافة إلى الثغرات المفاجئة، والمساحات الخالية.

الانحرافات المركزية

يوجد نظامان للفراغ، كما أشرت في الفصل الثاني، يدخلان في اللعب: مساحة اللعب الثابتة، التي تتمثل في أرض الملعب، باختلاف أسسائها، والوظيفة الديناميكية للفراغ التي تتشكل من خلال حركة اللاعبين، بينما يتأرجحون بين حالات المتواصل والمنقطع، السائل والصلب، الحركة والكتلة. والنوع الثاني من الحركة - الفراغ هو الذي يتطلب تأثيرات الحركات الانحرافية، كما أنه ذاته يخضع لها. وكما أن الانحراف هو سلاسل لا نهائية من الحركات بعيداً عن الحركة، فكذلك الحركة الالتفافية هي حركة بعيدة عن الفراغ الذي يخلقه اللاعبون وهم يتحركون، وهو بذلك انحرافٌ يخلق على ما يبدو فراغاً جديداً وخالياً يتحرك إلى داخله.

ولقد كان الانحراف سبباً السّمة فيها مضى، وظلّت قيمة التّعاملات المستقيمة، والمستوية باقية في عبارات من قبيل «ولاء لا ينحرف» (unswerving devotion). وعلى ما يبدو، فإن فنون اللف والدوران والانحراف تنتمي للحقب الحديثة من الرياضة. وقد عارض جون نايرن John Nyren، في عام 1833، نصيحة

قدمها رامى كرة في لعبة الكريكت يدعى لامبرت Lambert، الذي ربما يكون أول من رمى الكرة بشكل ملتف، للاعبين صغار، من خلال استحداث أسلوب مخادع مشير للغنيط، عبر رمى الكرة بالطريقة التي أصبحت تُعرف فيما بعد بالرمية ذات النّهاية الملتوية على الأرض (off-break)، واستبعد باستخدامها عدداً كبيراً من ضاربي الكرة من خصوم نادي هامبيلدون، من كنت وسري «الذين لم يتمكنوا من معرفة ما يفعلون مع كرتة الملتفة الملعونة تلك».¹⁸

وكان نوح مان الأكبر Noah Mann Sr أول رامى كرة في لعبة الكريكت يجعل الكرة تلف في الهواء، وليس فوق أرضية الملعب، وهو الذي استخدم أسلوب نادي همبيلدون خلال عام 1780. ويعتقد أن أرثر كمينجز Arthur Cummings كان أول رامى كرة بيسبول يقذف «الكرة الملتفة»، وهو الذي استخدم رمية تحت الذراع (underarm)، وذلك في أثناء مباراة في عام 1867 بين فريق إكسلسيور من بروكلين وفريق هارفارد من كامبريدج.¹⁹ وانتشر مصطلح «الرمية القوسية» (curve ball) في سبعينات القرن التاسع عشر، وقيل إنها في عام 1877 «استخدمت بشكل واسع».²⁰ ويقول إف هوبكنسون F. Hopkinson، الذي قدم تفسيراً لتلك الظاهرة، إنه قد شاهد قيام لاعبي الكريكت يلفون الكرة في الهواء في وقت مبكر عن ذلك، قد يصل إلى عام 1865، على الرغم من أنه يشير بصور حماسية إلى أن لاعبي الكريكت الإنجليز الذين قاموا بجولة في أمريكا في ثمانينات القرن التاسع عشر قد أعادوا اكتشاف فن الرمية القوسية بين رماة الكرة في لعبة البيسبول.²¹

وقد كان هناك شك لبعض الوقت حتى في إمكانية دوران الكرة في أثناء طيرانها في الهواء الثابت. وحتى في وقتنا الحالي، هناك العديد من الألباز السرية المتصلة بانحراف كرة الكريكت؛ لا يعرف جميع رماة الرمية القوسية على وجه التأكيد كيفية أدائهم لتلك الضربة، ولا قدرتهم على أدائها في الأصل في ظلّ ظروف معينة. ولا يزال هناك حيرة حول السبب في أن السحب المنخفضة، أو حتى أقل مرور للشمس خلف السحب، يعزز من ميل الكرة للانحراف - علاوة على قدر لا بأس به من الشكّ يتعلّق بوجود أي تأثير منتظم للرطوبة على

انحراف الكرة من عدمه، خصوصاً من قبل براين ويلكنز Brian Wilkins، وهو على الأرجح أكثر من أجرى بحثاً علمية عن انحراف كرة الكريكت، مقارنةً بأي شخص آخر.²²

ويبدو أن رمي الرمية القوسية لم يتطور ليصل إلى أكثر أشكاله غموضاً إلا في خلال القرن العشرين. ففي السنوات الأولى من القرن، خصوصاً خلال جولة فريق اللورد هاوك Hawke في أستراليا ونيوزيلندا، في عامي 1902 - 1903، طور بي جي تي بوسانكويت B.J.T. Bosanquet أسلوب رمي الكرة المعروف باسم المرعبة googly (أو «Bosie» في أستراليا؛ نسبة لاسم أول رام قام بها)، التي تكون على هيئة رمي الكرة بطريقة تجعلها تبدو كالرمية ذات النهاية الملتوية على الأرض - بمعنى أنها تنحرف عند ارتطامها بالأرض من الناحية اليسرى لليمنى، أو من اليمنى لليسرى، إذا كان ضارب الكرة أيمن - لكنها في الواقع تذهب في الاتجاه الآخر لتصير هدفاً.

ويبدو أن الكرة تتمتع بمزايا خاصة، لامتلاكها القدرة على الدوران والالتفاف. وتُظهر الأنواع المختلفة من الكرات أشكالاً ودرجات مختلفة من الاستجابات، وربما لا تُظهر أي كرة هذا الأمر بتلك الدرجة الشيطانية مثل كرة تنس الطاولة، التي يجعلها وزنها الخفيف سهلة الدوران والالتفاف بصورة هائلة. وتفيد حقيقة لعب تنس الطاولة في مساحة ضيقة للغاية، على الأقل فيما يتعلق بالطاولة، باستخدام الدوران للتحكم في مسار الكرة. فعلى سبيل المثال، يسمح ذلك بضرب الكرة من مستوى أدنى من مستوى الطاولة، وعلى الرغم من ذلك، تهبط الكرة في منطقة اللعب، وذلك نتيجة للأثر المقيّد لإرسال الدوران الأقصى (topspin)، وكذلك حتى يكون مسارها غير متوقّع لأقصى درجة بالنسبة للخصم. ويمكن أن تجعل خفة وزن كرة تنس الطاولة المرء وكأنه يلعب بجيب أو تركيز من الهواء نفسه، كما يجعل من المباراة ذاتها خليطاً من التقييد والحرية.

وتشتمل جميع أشكال الالتواء والانحراف على تبادلات معقدة سريعة بين العلاقة بين الحركات المتوقعة والحركات الفعلية، وكذلك تعديل تلك الحركات.

وأكثر أشكال الرمية القوسية، أو المائلة خطورة هو ذلك الذي ينحرف أو ينخفض في آخر المسار. ففي هذه الحالة، لا تكمن المسألة في أن الحركة التي كان متوقّعا منها الاستمرار في الاتجاه نفسه قد غيرت هذا الاتجاه بصورة غير متوقّعة؛ لكنها تتمثل في وجود تغيير في معدل تغيير المسار، الذي يتكون هو ذاته من مجرد حالات لا نهائية من الابتعاد عما هو مستقيمٌ وضيقٌ. ومن ثم، فإنّه تغيير في ظروف القابلية للتغيير ذاتها. وبمقدورنا أن نقول إنّ الطيران الالتفافي يمثل نوعاً خاصاً من التوليفة المتعلقة بالحركة المتوقّعة والحركة الفعلية، أو الجمع بين الـ«كما لو» والفعلي الذي يشتمل فيما بينه بصورة متعمدة على الاحتمالات المحتملة، ولكن غير المحقّقة في الواقع. وفي واقع الأمر، يبدو أنّ هناك سبباً للاعتقاد أن بعض المقترحات الأولية، التي تقول إنّ الرمية القوسية هي خداع بصري، لها في حقيقة الأمر أسس جيدة، حيث إنّ دراسات أجريت مؤخراً قد وجدت أن الكرة التي تتحرك من مركز رؤية الرامي إلى محيطها قد تعطينا انطباعاً بأنها قد غيرت اتجاهها إلى الجانب بصورة فجائية.²² ويمنحنا ذلك مبرراً أقوى للنظر إلى الكرة المنحرفة على أنها ليست مجرد تأثير مادي، بل بوصفها كويكبة من الحركات، فعلي وافتراضي، مادي وعقلي.

ويقال في العادة إنّ أكثر الحركات السلسلة الناجحة في الرياضيّة هي أيضاً أكثرها اقتصاداً. ومن الحقيقيّ بصورة مؤكدة أننا قد نصاب بالذهول من قبح أنواع معينة من الحركات غير الفعالة، التي تعد زائدة عن الغرض المقصود منها، والتي ربما اشتملت أيضاً على قدر كبير من القفزات والاسترسال الزائد. غير أن التمعن عن قرب قد يكشف لنا أن الأناقة لا ترادف دائماً أكثر درجات الاقتصاد نقشفاً. وبالفعل، فقد تتمثل تلك الحركات الأنيقة في بعض الأحيان في تلك التي تشتمل على أشكال من التنميق والتوسّع بخلاف ما هو ضروري للغاية. وعلى ما يبدو، يوجد لدينا هنا منطق غير متوقع لما يمكن أن يطلق عليه ما هو في الأصل زائد، الذي تتحدد فيه الرشاقة تحديداً من خلال مفهوم ما يتم تأديته بصورة تزيد قليلاً عما هو ضروري، عندما يبدو الاقتصاد نوعاً من الأسلوب؛ تأدية

فعل يُظهر نفسه أو يصورها بالحد الأدنى على أنها أداء. إنَّ الدوران والالتفاف يجسدان على ما يبدو تلك الزيادة بصورةٍ خاصّةٍ، وذلك بالنسبة لهامش أو حافة القدرة التي دائماً ما تحتويها.

الغطس

المنحنى المكافئ هو أكثر أشكال المنحنى شهرةً، وقد اهتم رماة المدفعية والسهام بخواصه الرياضيّة لقرون، حيث يبدو هو الآخر كمزيج من الضّروري والعرضي. ومع كل بهاءٍ ورونقٍ فهم نيوتن شمولية الجاذبية في الكون، فإنَّ أكثر ما يثير الدهشة في قانون الفيزياء ذلك هو حقيقة أن قوة الجاذبية تتسم بالضعف الشديد للغاية، ويمكن في تجاربنا اليومية أن نقاومها بسهولة ونتغلب عليها. فبإمكان كومة محظوظة من الكربون والماء مثلي أنا أن تمنع سقوط الأشياء على الأرض: وبالفعل، إذا كان اسم إنسان من بين أسمائي، وهو يشير إلى الأصل الأرضي، فإنَّ الإنسان المتصب هو من الأسماء الأخرى التي أطلقتها على نفسي، والتي تجعل من رفض الروابط الثابتة بالأرض مبدأً مميزاً لي. وبطبيعة الحال، ففي نهاية المطاف، أو على المدى البعيد، فإنَّ الأشياء تهوي، وتندهور، وتستسلم لقوى الجاذبية. غير أن الطّريقة التي يتحقّق بها ذلك في المنحنيات والأقواس، بمختلف أنواعها، توضح الاختراق المزدوج للجاذبية والأناقة، التي تكون في آنٍ واحد التقدير والنتيجة المحسوبة لمشكلاتٍ معقدةٍ بصورةٍ لا توصف، تتعلق بالتوافق بين القوى المتضادة والمنحرفة. وهناك أشياء قليلة فقط تمنح البشر متعة أكبر من تحيل العيش لبرهة في لحظةٍ شبه مستحوذ عليها من السقوط المتنوع. وقد سمح اختراع جوليرمو أنطونيو فاريني Guillermo Antonio Farini لفقرة المدفع البشري، في عام 1877، للبشر لأول مرة بأنَّ يتعرفوا بصورة كاملة على القذائف التي اعتادوا على رميها في الهواء.²⁴

وربما كانت رياضة الغطس هي أكثر الأشكال الصرفة لمثل هذا الاستعداد المضاد للواقع من اللّعب والوثب، مع الإمكانيات التي صارت متاحة لما يمكن أن

يكون بخلاف ذلك أكثر نوع مبيت من الهبوط الطائش. ويشير جاريت سودون Garrett Soden بشكل منطقي إلى أن المتعة في السقوط المنظم تنبع من حقيقة أن للبشر غريزتين متضاربتين: «إحدهما مصممة لحمايتنا من الجاذبية، والأخرى تحثنا على اللّهُو بها»، ويوضح أن ذلك يعود إلى إرثنا المختلط كحيوانات كانت تسكن فوق كل من الأشجار والأرض.²⁵ وبالفعل، فإنّ قدرات البشر المتعددة في رياضة الأكروبات في البيئات المختلفة هي من النواحي القليلة التي يتفوق فيها البشر على ما عداهم من المخلوقات: «ليس هناك من يضارعنا عندما يتعلّق الأمر بـ(السقوط الموجه).²⁶ وجميع حركات الغطاس دائرية، مثلها في ذلك مثل لاعب الأكروبات، كإغلاق القوس على نفسه، متحدياً بذلك نظام ما هو مباشر وما هو عمودي. ويكمن الهدف من قفزة الغطس في استخدام ظروف الضّرورة للقيام بأكبر عدد ممكن من الحركات التي لا هدف منها حرفياً، وذلك في غضون المساحة الزمنية المحدودة بحكم الضّرورة، التي يسمح بها الهبوط.

ولعل حقيقة بذل البشر لكل هذا المجهود من أجل إطالة هذا الفاصل الزمني وتكريمه تشير إلى الرّغبة في بذل أقصى جهد ممكن لتجاهل واقع الجاذبية. ومن الصحيح فعلاً أن الحركات الرائعة في العديد من الرّياضات يبدو أنها تشتمل على مبدأ العلو البهيج، كما لو كان الأمر بمثابة الانفصال عن الجاذبية إلى الأبد. وعلى الرغم من ذلك، وفي واقع الأمر، يبدو أن التخلص التام من الجاذبية هو كذلك تخلص من التوتر، ومن جمال وبهجة الهبوط الأكروباتي، الذي يتحتم فيه على اللاعب أن يصمم على الخسارة، ولكن الخسارة بأكثر الطرق مرحاً. ويبدو أن وصف «اللّعب مع الجاذبية» (gravity paly)²⁷، الذي اخترعه كريس بيكر Chris Baker من نادي الرّياضات الخطرة في عام 1979، يشمل رياضات حديثة مثل: القفز بالحبال، والقفز الحر بالمظلات، والتزلج الهوائي، والقفز من المرتفعات الثابتة (القفز بالمظلات من فوق أماكن ثابتة، مثل المباني أو الجروف)، وأكروبات سباق الدراجات على الطرق الوعرة (بي إم إكس)، يعد وصفاً ملائماً. وليس هناك توتر في فاصل زمني لا نهائي. ولا تعد مناورات ممارس رياضة الطيران

الشراعي نسخةً مفخمةً لأقصى درجة من حركات الغطاس أو المظلي، فهؤلاء يمارسون لعبةً مختلفةً تماماً.

وتشير بعض التطورات الأخيرة في الرياضة، التي نتجت عن مكانتها البارزة المتزايدة، إلى أن التبني المنهجي للتنافس لا ينبغي أن يأتي كلياً على حساب مبدأ الدوار (ilinx) الفوضوي. فقد كان يصاحب التهديف في رياضة كرة القدم على وجه الخصوص (وهو أمر نادر نسبياً مقارنة بالرياضات الأخرى، حيث يمكن تسجيل عدد كبير من الأهداف) لعقود مظاهر احتفالٍ مبالغ فيها، تعتمد في الغالب على مبدأ التشوش المفاجئ، وانقلاب الأمور رأساً على عقب، ويكون ذلك فقط عند النقطة التي قد يتوقع المرء عندها التأكيد على قيم التنسيق والعزيمة المركزة. ويعتاد من يسجلون الأهداف على القيام بشقلبات أمامية وخلفية، أو يرمون بأنفسهم على أرض الملعب، وذلك على التقيض من الوضع المتوقع، المتمثل في مد الذراعين ورفعها إلى الأعلى. ويتمثل أكثر تلك الأمور المعبرة في تقسيم الملعب، وفي حجب مراكز اللاعبين في الملعب التي تميز كرة القدم الحديثة، حيث يكون كل لاعب مسؤول عن حراسة منطقة معينة من أرض الملعب، وهو الأمر الذي يؤدي إلى تشابك السيقان بينما يندفع الفريق الذي سجل الهدف نحو الكرة، في كتلةٍ ملتفةٍ من السيقان والأطراف البشرية. وفي هذا الموقف، تتحول آلة النصر المتمثلة في جسم مسجل الهدف إلى الجسم البهلواني المتلون الذي يشير مجازياً إلى الرجل المحتال.

ويتحقق تسجيل الأهداف في عدد من الرياضات من خلال هبوط الكرة أو ملامستها للأرض بصورةٍ معبرةٍ عن الانتصار. أما في كرة القدم، التي يكون الهدف فيها بمثابة أرض بديلة، فتستكمل الحركة من خلال الاحتفالات الشعائرية لحقيقة تسجيل الهدف، التي قد تشمل على زحلقة دراماتيكية، إما على الركبتين أو مع مواجهة الوجه للأرض مع فتح الذراعين، فيما يشبه سجوداً ترحلياً رائعاً. ولأن ذروة المباراة هي أبعد ما يكون عن تحقيق السمو، فإنها تشبه إجلالاً للامتهان.

وكل ما يتم تحقيقه في أثناء زمن اللّعب يتحقّق ضدّ مرور الوقت، والإجهاذ والجاذبية، التي يستسلم لها اللاعبون في نهاية المطاف. ولا يتحقّق النّصر على هذا الاستسلام من خلال إنكاره، عن طريق نوبات متقطعة ضعيفة من السمو، بل من خلال اللّعب الفردي، وإلا فالتلاشي التدريجي. وقد طور لاعبو الرجبي ترسانة كاملة من الأشكال المختلفة من السقوط زحفاً (dive) فوق خط الملعب من أجل تسجيل محاولة، وهم بذلك يهدفون على ما يبدو إلى إطالة لحظة الإثارة العالقة البهيجة (منذ ظهور آلات التصوير عالية السرعة، صار السقوط الزاحف العمودي (horizontal dive) المثالي هو المثل الذي يحتذى به، وهو ما يخلق صورة تشبه سوبرمان في أثناء الطيران). وهناك نوع آخر من السقوط الزاحف، الذي لا يلجأ إليه حراس المرمى في الرياضات المختلفة فحسب، بل يلجأ له كذلك اللاعبون في الرياضات التي تستخدم المضرب، مثل تنس الريشة وكرة المضرب؛ وتلك ليست سقطة النّصر الزاحفة، لكنها تشبه اليأس المتشئي، الذي يجبر المرء على التخلي عن استقامته المريحة، ويحول جسمه إلى قذيفة. ومرة أخرى، يختلط السجود بالبهاء، مع محاولة اللاعب شغل الفاصل المستحيل للحركة الصرفة من أجل التقاط الكرة، بعد أن استطال بجسمه عن آخره، وذلك بغية الحصول على نقطة توازن بداخله.

وعندما يضع المدربون خطط اللّعب والتحركات، فإنهم يميلون لتقسيمها إلى تحركات منفصلة متزامنة، كما لو كان لعب المباراة يتضمن تجميع عدد من أساليب الحركة المنفصلة، تماماً كما ينطوي تأليف قطعة موسيقية على الخلط بين مصادر مختلفة متوازنة من الأصوات. وينطوي ذلك على تبسيط كبير للغاية للطريقة التي تحدث في واقع الأمر بواسطتها الحركة الرياضيّة، حيث يترجم ذلك إلى خطط المواقع المبسطة التي تستخدم بصورة مقدسة للغاية في مناقشات استراتيجية كرة القدم، وهو ما يعطي الانطباع أنه لا ينبغي على اللاعبين أن يفعلوا شيئاً سوى حراسة منطقة صغيرة، لا يتحرّكون منها مطلقاً. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ تلك المواقع هي في واقع الأمر نسبية، ولكن ليس بالنسبة لأرض

الملعب الثابتة، بل بالنسبة للمشهد الديناميكي للعب. ومن ثم، فإن الفريق الذي يلعب مع تمرکز خط دفاعه أمام المرمى هو فريق يغازل الكارثة، حيث إن ذلك يمنح الفريق المهاجم مساحة الملعب بأكمله تقريباً للعب فيها. وفي واقع الأمر، ينبغي على خط الدفاع السعي للعب أبعد قدر ممكن بعيداً عن المرمى، ذلك أن الحاجة لتجنب الوقوع في التسلسل سوف تقلص مساحة اللعب بالنسبة للخصم بشكل لا يرغبون فيها. وتختلف في الغالب حركة - مساحة المباراة بصورة كبيرة عن مساحة الملعب الفعلية، حيث إن تلك الحركة - المساحة توسع، وتقلص، وتلوي، وتعقد، المساحة الفعلية.

والأهم من ذلك أن تلك الحركة - المساحة هي ذاتها في حركة مستمرة. وبعبارة أخرى: إنها متغيرة، وذلك نتيجة لتغير مراكز اللاعبين، التي تشكل ويعاد تشكيلها مراراً وتكراراً أثناء المباراة. كما أنها محط تواصل دائم، حيث يتم نقلها في شكل توقعات واستجابات من لاعب إلى آخر. ومن ثم، فلا ينبغي فهم الحركة الموجودة في المنافسة الرياضية على أنها التجميع المبسط للحركات المختلفة التي يقوم بها اللاعبون المختلفون، إضافة إلى الكرة، على الرغم من تعقيد تلك الحركات، ولكن ينبغي فهمها على أنها التفاعل المكثف بين اللاعبين وتحركاتهم. ومع كل حركة أقوم بها، وأنا على سبيل المثال لاعب كرة مضرب أرجع الكرة من على خط الإرسال، فإنني لا أتقدم فحسب صوب الموضع الجديد الذي أرغب في شغله، بل إنني أتقدم كذلك صوب الانعكاس الداخلي لتلك الحركة لخصمي وتصوره عن نتيجتها. إن هذا التقدم صوب ما أفترض أنه تصور خصمي لحركتي المستقبلية يصبح جزءاً من تلك الحركة. ومن ناحية، فإن ضارب الإرسال ومن يقوم بإرجاعه لا يعدان خصمين على الإطلاق، من حيث إن كلاهما ببساطة لا يواجه الآخر، لكنهما شريكان مقربان.

إن اللاعب الذي ينجح في التمايل المخادع بينما يسدد لكمة، أو يرمي الكرة، أو يضرب الكرة في اتجاه معين، يستغل الحقيقة المتمثلة في أن الحركة الرياضية هي مصدر عدوى قوي. فلا يعد كل لاعب منفرد متقدماً على نفسه أو بجوارها

بالنسبة لنفسه في أثناء تحركه، بل إن تلك الحركات، سواء كانت فعلية أم ضمنية، تحفز كذلك حركات مقابلة أو متبادلة، ينبغي على اللاعب المراوغ نفسه توقعها. ويكمن فن المراوغة في تخطي تلك التوقعات، ووضع الخصم في ورطة نتيجة تحركاتهم ذاتها، وذلك لإغوائهم للقيام بحركة تساوي وقوفهم دون حراك نتيجة القدرة على التنبؤ بتلك الحركة. ومن ثم، فإن «إقناع الخصم بالقيام بتمريرة التظاهر، من خلال قبول تمريرة الاستبدال (changeling pass)، يمثل أخذ احتمال على محمل الجد، على الرغم من أنه لن يحدث مطلقاً في الواقع». وبهذا، يُقضى تماماً على من خُذع بتمريرة التظاهر، أي يتحوّل من شخص قادر على المبادرة بحركة ما بحرية تبعاً لإرادته إلى كيان مستقبل للفعل من قبل الآخرين، أو يُحرّك من مكان لمكان بصورة سلبية. ويأتي التفرد الهزلي للتحوّل من حقيقة خداع اللاعب أو «جعله يخطئ» (wrong-footed)، لكن ليس من خلال بطئه، بل عن طريق جهده الخاص بالتوقع، والوصول إلى ما وراء اللحظة الحالية. وتعد جميع الحركات في الرياضة مزيجاً مقلداً من هذا النوع، تكون فيه الحركات في خضم عملية الانتقال جيئةً وذهاباً من خلال التقليد والتوقع. فكل خطوة أمر دقيق يرتبط بفاعلين اثنين (pas-de-deux).

الفصل الخامس

المعدّات الرياضيّة

لقد رأينا أن الأنواع المعينة من الإجهاد الجسماني، التي تعرف بالرياضة، تتطلّب ممارستها وقتاً ومكاناً محدّدين. ونستهل هذا الفصل بناءً على الإدراك القائل إنّ العديد من الرياضات - إن لم تكن كلها - تتطلّب نوعاً ما من المعدّات المساندة، أو شيئاً ما للعب به.

فما معنى أن نقول إنّنا نلعب بأشياء مثل مضارب الكريكت ومضارب كرة القاعدة، وكرات القدم وكرات الرّيشة؟ يرى رولاند بارثيث Roland Barthes أن علاقتنا تجاه الأشياء التي نلعب بها هي علاقة خصومةٍ صرفةٍ، حيث يرى أن النّضال ضد الأشياء في الرّياضة هو جزء من منافسة جديدة بين البشر والجهد، وليس بين البشر بعضهم بعضاً، أو بينهم وبين أجناسٍ أخرى:

لا يواجه المرء في الرّياضة إنساناً آخر بصورةٍ مباشرةٍ؛ حيث يوجد بينهم وسيط، كالعارضة والآلة، والقرص أو الكرة. وهذا الأمر هو الرمز الأسمى لكل الأشياء: فمن أجل أن يمتلك المرء ويتقنه، عليه أن يتصف بالقرّة والبراعة والشجاعة... لقد أضفت الرّياضة مغزىً جديداً على مسألة المبارزات في العصور القديمة، حيث يسعى الإنسان للتفوق هنا على الأشياء فقط. فمن أفضل إنسانٍ سيتغلب على مقاومة الأشياء وعلى ثبات الطّبيعة؟ ومن أفضل من سيؤثر في العالم ويمنحه للإنسان.. لكل البشر؟!

مما لا شك فيه أن الأدوات الرياضيّة قد تبدو في بعض الأحيان وكأنها تقوم بدور الخصم - على سبيل المثال: في رياضات الرمي، تمثل المطرقة والرمح، والقرص أو الجذع (رياضة رمي جذع الشجرة في اسكتلندا)، شكلاً من أشكال المقاومة التي يجب التغلب عليها. غير أن تلك الأشياء ليست هي تماماً الأمور التي يكافح المرء ضدها. ومن المثير للغرابة أنه عندما يبذل المرء قصارى جهده ومهارته من أجل أن يرمي هذه الأداة لأبعد مسافة ممكنة، فإنّ هذه الأداة تشاركه بصورة ما في الرمي. فالمرء لا يرمي الرمح فحسب، بل يستخدمه في إتمام رميته. ويمكن القول، من ناحية ما، إنّ المرء يستخدم الرمح ضد ذاته. فرغم بقاء الرمح غرضاً واحداً، فإنّه ينقسم إلى مجموعتين من السمات: تلك التي تتكوّن من الخصائص الثابتة التي تتقاسمها مع غيرها من الأغراض الماديّة، والتي تشكل حاجزاً أو مقاومة ضد الرمي؛ الوزن، والشكل، والملمس، والأمور الأخرى التي تتدخل وتخيم أو تعترض على حركات الرامي. أما الثانية، فتتكوّن من الأمور التي تساعد الرامي؛ قدرة الرمح على شق الهواء، وملاءمة استخدامه باليد والذراع. ويكشف اللّعب بالأغراض الرياضيّة عن هذا النوع من أدوار الوظائف داخل تلك الأداة، وفصلها إلى تلك التي تساعد على تحقيق هدف الرّياضة، وتلك التي تقف في وجه تحقيقه. ومن ثم، «يلعب» المرء بالأداة من ناحيتين: اللّعب بها بوصفها أداة للعب، وتتضمن فرض إرادة المرء وحرية في التصرف بهذه الأداة، واللّعب بها كما يلعب المرء مع رفيقه في اللعب. ويمكن التمييز بشكل واضح بين الحالتين من خلال العبارة التّالية: «لقد فاز في المباراة التي لعبها معه بسهولة كبيرة، حتى أنه كان يلاعبه فقط». وعلى الرغم من القدرة على التمييز بوضوح بين نوعي اللّعب اللذين تعبر عنهما كلمة «لعب»، فإنّ التمييز بين الحالات التي تنطبق عليها ليس على الدرجة نفسها من السهولة.

وعندما نشير إلى الأدوات التي نلعب بها في الرّياضة، فإننا لا نشير في الغالب إلى الملابس. وفي الواقع، فإنّ الفكرة القائلة إنّ ممارسة الرّياضة تتطلب أنواعاً خاصة من الملابس هي في حدّ ذاتها فكرةً حديثة نسبياً، فقد كان طلاب

المدارس يعتادون على ممارسة الرّياضة وهم يرتدون ملابسهم العادية، حتى بعد بداية القرن التاسع عشر بوقت ليس بالقليل. غير أن الملاكم كان يتعري حتى خاصرته، ولا شك أن لاعب البولينج القوي كان يشمر عن ساعديه قبل رمي الكرة. وفي الغالب، فإنّ الفكرة القائلة إنّ ممارسة الرّياضة تتطلّب أنواعاً خاصة من الملابس أو الثياب هي ظاهرة تعود لأوائل القرن التاسع عشر. وهناك ثلاثة استخداماتٍ عامةٍ للملابس الرّياضية: توفير الراحة، وتحسين الأداء، والحماية من الإصابة. ومن الممكن، في نهاية الأمر، أن يكون لكل هذه الأشياء أهمية مركزية، حتى أننا قد لا نتخيل ممارسة الرّياضة من دونها. وعلى الرغم من ذلك، فهناك فرق بين الزي والأداة التي يمكن أن نستخدمها في ممارسة الرّياضة (السرراويل، والأحذية الرّياضية، والقفازات، وغطاء الوجه الوقائي، وواقى الأسنان)، وتلك الأشياء التي نمارس الرّياضة من خلالها. فالأول أمر تكميلي، أما الثاني فهو أمر ضروري. قد يكون من المعتاد، أو مما يُنصح به، أن أرددي بزة الترحلق والقفازات والنظارات عند التزلج على الجليد، ولكن لو قررت أن أتزلج وأنا عارٍ من الملابس أو مرتدياً زي ممرضة، فإنني لا أزال أمارس رياضة التزلج، وإن كان ذلك بشكل منحرف. أما لو قررتُ التخلص من أي نوع من المعدّات التي تثبت في القدمين، لأنها كانت أطول مثلاً منها بدرجة كبيرة، والتي تُصمّم من أجل السماح لي بالترحلق على الجليد أو الثلج، فإنني ببساطة لم أعد أتزلج على الإطلاق، بل صرتُ أترحلق بألواح الثلج أو بحذاء الجليد، أو أزحف على الثلج لا أكثر، فالزلاجات ليست اختيارية أو إضافات يمكن الاستغناء عنها في الرّياضة التي نطلق عليها التزلج على الجليد. وهناك شروط مشابهة ترتبط بالكرة في رياضة كرة القدم، وبالمطرفة في رياضة الكروكية، وبالمضرب في رياضة التنس. وهناك حاجة لفهم أن اللّعب باستخدام تلك الأشياء يعني ممارسة الرّياضة بواسطتها أو من خلالها، وليس مجرد اللّعب إلى جانبها.

وبطبيعة الحال، لا تشتمل جميع الرّياضات على هذا النوع من المعدّات. فقد لا تتطلّب سباقاتٌ مثل العدو والسّباحة سوى جسم المتسابق ونطاق التسابق

الذي يُقاس من حيث المسافة أو الوقت، والذي يتم التّسابق على أساسه. أما في الرّياضات التي تُعدّ المعدّات فيها أمراً حيويّاً، وتمثّل لبُّ الرّياضة ذاتها، فهناك علاقةٌ عميقةٌ مقصودةٌ معقدةٌ بين اللاعب وما يستخدمه في اللعب. وتلك هي الرّياضات التي تحوّلت فيها أنواع معينة من المعدّات من متطلب زائد إلى متطلب أساسي. فقد طوّرت الضمادات الواقية، والقفّازات في لعبة الكريكت في نهاية القرن التاسع عشر من أجل حماية حامل المضرب من الإصابة، غير أنها تحوّلت لاحقاً إلى عناصر أساسية في أسلوب ممارسة الكريكت، فصارت قوانين اللعبة تحدد مكانها، ووظيفتها. ومن ثم، أصبح بمقدور حامل المضرب أن يستخدم الضمادة الواقية، وكأنها مضرب؛ وذلك إما لإبعاد الكرة عن عارضة النّصيبة (المرمى في لعبة الكريكت) أو لتسجيل هدف.

ويستخدم هايدغر كلمة «أشياء» (Zeug) للإشارة إلى اللّوازم الماديّة التي نستخدمها في أغراض معينة، وهي الكلمة التي تُترجم عادة إلى كلمة «أدوات» المستخدمة في عالم الرّياضة.² ويكمن وجه الشبه بين الأدوات الرّياضيّة، مثل المضرب والكرات، والمطارق (وهو المثال المعياري الذي يسوقه هايدغر) ومفكات البراغي، في أن الأدوات المقصودة هي مواد للاستخدام في مهمة ما. فالمطرقة غرض مادي مصمم أو مهياً لغرض الغرز والضّغط، أو خلاف ذلك من تعديل غيره من الأغراض الماديّة بالطرق عليها بصورة متكرّرة. ومن المؤكّد أنني أستطيع استخدام المطرقة لأغراض أخرى، ولكنني عندها لن أستخدمها كمطرقة؛ أي: شيء أدق به. ويصدق الأمر ذاته على مضرب الكريكت، الذي هو في الواقع غرض مهياً للاستخدام كغرض يشبه المطرقة؛ عندما تستخدم الدّراع لغرز النّصيبة في الأرض مرة أخرى بعد أن أسقطت الكرة الجذوع الخشبيّة للمرمى. ويبدو وجه الشّبه واضحاً: تستخدم المطرقة لطرق الأشياء، أما المضرب فيستخدم لضرب الأشياء (كرات الكريكت)، في حين يمكن استخدام الاثنين في بعض الأحيان في أمور أخرى. إلا أنني أرى اختلافاً مشوقاً فيما يتعلّق بمنطق استخدام المطارق، ومضارب الكريكت كأداة. فعندما أستخدم المطرقة، فإنني

أودي بواسطتها وظيفة يمكن أن تؤدي على أكمل وجه باستخدام أداة أخرى، إذ لا يوجد في تعريف استخدام المطرقة ما يحتم استخدامها بشكل مطلق في موقف معين، وذلك إذا توافر شيء آخر أفضل وأسهل، وأكثر أماناً وقوة أو دقة. وربما كان القول إنَّ المطرقة مصممة، أو ينظر إليها، بوصفها تستخدم لغرض الطرق، جزءاً أساسياً من تعريفها، غير أن استخدامنا للمطرقة، لطرق الأشياء بواسطتها هو أمر مشروط؛ والمقصود بذلك أنه ينبع من، أو يتوقف على، مجموعات متغيرة من الشروط. وبالفعل، فإنه يدخل في تعريف المطرقة أنه قد يكون من الممكن، أو حتى من المستحسن، أن يستبدل بها شيء آخر، في ظل ظروف معينة. وهنا، أعتقد أننا ينبغي أن نرى في ذلك شرطاً عاماً لمنطق استخدام تلك الأشياء كأداة؛ أي أنه يمكن أن يكون هناك دائماً شيء آخر بمقدوره كذلك أداء الوظيفة نفسها. ومن ثم، يمكن أن يُستبدل به دون نقص، بل ربما كان في ذلك ميزة. وإذا كان استخدام ما يسمى «المطرقة» بعينها مطلوب على وجه التحديد، أو كان المطلوب نوعاً من المطارق بعينه، فمن المرجح أن يعود ذلك إلى قواعد أو أعراف إضافية تطبق في ظروف معينة، وفي حقيقة الأمر لا ترتبط مطلقاً بالمطارق، أو بالطرق؛ على سبيل المثال: الأعراف التي قد تحكم حجم وتكوين المطارق المستخدمة من قبل قضاة المحكمة العليا، أو من يترأسون الاجتماعات. وعليه، فإنَّ المطرقة هي بشكل عام ما تستخدمه (يمكن استخدام أي شيء، لكن المطرقة ستكون الأفضل) عندما تريد شيئاً للطرق به.

وتبدو الأمور مختلفة تماماً عندما أستخدم مضرب الكريكت. ففي حين لا تحتاج عملية الطرق لمطرقة بشكل حتمي، فإنَّ الكريكت يعتمد على استخدام مضارب الكريكت. وفي حين تكون المطرقة مجرد أفضل الأدوات، فهي ليست الأداة الوحيدة المستخدمة في الطرق، فإنَّ مضرب الكريكت إلزامي في ممارسة الكريكت. فعندما أقف عند خط ضرب الكرة وليس معي أي شيء يشبه مضرب الكريكت، فمهما كان أداؤه لوظيفة مضرب الكريكت رائعاً، فإنني عندها لا أمارس الكريكت. ليس ذلك فحسب، بل لا يمارسه كذلك أي من

اللاعبين الآخرين. ويمكن استخدام مضرب الكريكت في العديد من الأغراض الأخرى، علاوة على ضرب كرات الكريكت، غير أنه يدخل في تعريف مضرب الكريكت أنه الشيء الذي ينبغي عليك استخدامه إذا أردت أن يحتسب ما تقوم به على أنه ممارسة رياضة الكريكت. ولا ينبغي القول إن طبيعة مضرب الكريكت ذاتها محدّدة بشكل حصريّ. فهناك جوانب معينة لمضرب الكريكت تكون محدّدة بشكل واضح، ويرجع ذلك في بعض الأحيان إلى التحديات التجريبية التي ينخرط فيها لاعبو الكريكت، غير أن بعض الجوانب الأخرى تسمح بوجود بعض المتغيرات. فعلى سبيل المثال، تقول قواعد الكريكت إنَّ الطول الكلي للمضرب يجب ألا يزيد على 38 بوصة أو 96,5 سنتيمتر، وألا يزيد طول اليد على 52 في المائة من الطول الكلي للمضرب، وألا يزيد عرض المضرب على 4,25 بوصة أو 10,8 سنتيمتر في أكبر أجزائه من حيث العرض. ولقد كان تصنيع المضارب من الخشب من الأمور المعتادة حتى عام 1979، وكانت التقاليد حتى القرن التاسع عشر تقضي بتصنيع المضارب من خشب شجرة الصفصاف (وتحديداً من الفصيلة التي تعرف بالصفصاف الأبيض، أو النوع الذي يعرف بصفصاف مضرب الكريكت)، غير أنه لم تكن هناك قاعدة تحدّد ذلك حتى عام 1979، وذلك عندما بدأ رامي الكرات الأسترالي دينس ليلي Denis Lillee جولته في المباراة التجريبية أمام إنجلترا، في مدينة بيرث، مستخدماً مضرباً مصنوعاً من الألومنيوم. ولقد أُجبرَ على أن يستبدل به مضرباً خشبياً بعد أن اشتكى اللاعبون الإنجليز من أن مضربه يتلف الكرة، وتبع ذلك تغيير القواعد لتنص على أن المضرب يجب أن يكون مصنوعاً من الخشب (على الرغم من عدم النص على تحديد نوع الخشب، أو الأخشاب التي يصنع منها). ولا توجد حتى الآن قواعد على الإطلاق فيما يتعلّق بوزن المضرب.

لماذا لا يمكن ممارسة الكريكت إلا باستخدام مضرب كريكت قانوني؟ ولماذا لا يمكن ممارسة كرة الريشة إلا باستخدام ريشة قانونية؟ أعتقد أن السبب وراء ذلك يكمن في أن الرياضات، أو الألعاب التي تُمارَس باستخدام أدوات مادية،

تتضمن على اللّعب بتلك الأدوات كجزءٍ من هيتها، ويكون ذلك من خلال استجلاء، أو تفعيل قدراتها، أو التقصي بصورة عملية عن مقدار اللّعب الذي تستطيع القيام به، من ناحية المتغيرات التي تستطيع تحملها، مثل قدرة الركبة على الحركة. فالمرء يمارس الكريكت باستخدام مضرب الكريكت، لأنّ من أغراض ممارسة تلك الرّياضة أن يعرف المرء ما يمكن تحقيقه باستخدام هذا المضرب، في ظل ظروف ممارسة رياضة الكريكت نفسها (وتحديداً: أن يقوم شخص ما بضرب الكرة باتجاهك بغرض إسقاط النّصيبة). ويعني هذا أن الأدوات التي تستخدم في الرّياضات لا تكون مطلقاً مجرد أشياء إضافية بالنّسبة للغرض من ممارسة اللعبة، كما أنها لا تكون أبداً مجرد ذلك الشيء الذي يتبادر إلى خاطرك استخدامه في اللّعب. فممارسة اللعبة هي ممارسة اللعبة باستخدام هذه الأداة. ومن ثم، فإنّ الغرض من اللعبة هو دائماً، وجزئياً، عبارة عن القيام باختبار تشريحي لقدرات الأداة. فالمرء يلعب بالأداة كي يُظهر خواصها وقدراتها للعيان؛ أي ليكتشف ويحدد ما تشتمل عليه من لعب.

الفاعل.. والغرض.. والمشروع

يمثل ما يلي نوعاً مختلفاً من العلاقة التي نشعر بها في العادة تجاه الأغراض. فقد جرت العادة على النظر إلى الأغراض من خلال تقسيم ثنائيّ مبسط: إما بوصفها عقبات أمام تطلعات البشر، وإما باعتبارها أدوات يحققون من خلالها تلك التطلعات؛ إما أن يكون الغرض هو الضد المطلق أو الخصم للفاعل الذي ينبغي التغلب على مقاومته، وإما يُجذب إلى داخل مجال تأثير الفاعل، حيث يصبح امتداداً اصطناعياً للذراع أو القدم. ويكمن الهدف من الأداة الرّياضية على وجه التّحديد في تعقيد هذا البديل البسيط.

هل تختلف ممارسة اللّعب باستخدام أدوات اللّعب عن اللّعب باستخدام كل ما يمكن اللّعب به بصورة عامة؟ مرة أخرى، نقول إنّ الاختلاف المهم الذي يجعل من شيء ما رياضة، وليس مجرد لعبة، هو الحقيقة المتمثلة في الإجهاد

البدني. وبالتأكيد، فإنَّ الأداة الرِّياضيَّة تمثل نوعاً من الخمول يكافح الرِّياضي ضده: قد تُدفع كرة التَّنس أو كرة القدم في أوقاتٍ معينةٍ بأقصى قوة كي تتحول الأداة الساكنة إلى قذيفةٍ. غير أن الهدف من ذلك لا يكمن مطلقاً في تدمير الأداة، التي يجب المحافظة عليها، حتى مع تعرضها لضغط هائل لدرجة قد تصل إلى حد تشويهها. فالهدف يتمثل، على ما يبدو، في محاولة الكشف عن قدرات الأداة، ولا يكون ذلك من خلال اختباره لدرجة التدمير، بل -إذا جاز التعبير- من خلال دفعه «بإصرار» من أجل الوصول به إلى حدوده القصوى. وبهذه الطَّريقة، يتسع مبدأ الإجهاد البدني من اللاعب ليشمل الأدوات التي يلعب بها، حتى بالنظر إلى أن تلك الأدوات تمثل الطرق التي يجهد اللاعبون من خلالها أنفسهم. وينبغي علينا أن نتذكر أن كلمة «يجهد» تشير إلى معنى: الدفع أو التوسع، والقذف أو الإظهار، وهي تعبر عن الشيء الذي يبذل الجهد، أو الذي يُجهد وقد تحرر من حالته ذاتها من أجل أن يظهر ما يمتلكه من قدرات.

وتنطوي العديد من الرِّياضات، إن لم تكن غالبيتها، على تناقض بين القاذف والقذائف. وفي الغالب، يكون الجسم البشريُّ هو القاذف، أو جزءٌ منه متخصصٌ في غرض القذف، مثل اليد في لعبة الخمسات، والرأس والقدم في لعبة كرة القدم. غير أنَّ البشر قد أنابوا كذلك وظائفهم الخاصَّة بالقذف إلى العديد من أدوات الضرب والطَّرق، كمضارب التَّنس والكريكت، وعصيِّ البلياردو، ومطارق الكروكيه. وتمثَّل وظيفة القاذف في نقل القوَّة القاذفة إلى المقذوف، مثل ريشة لعبة الريشة، وقرص الهوكي، وكرة القدم. والقاذف والمقذوف كلاهما من الأغراض، من حيث افتقارهما إلى النية أو العزيمة التي يمتلكها اللاعب الذي يستخدمهما، غير أنها لا يبدوان كالنوع نفسه من الأدوات. فالقاذف -إذا جاز التعبير- هو غرض حوَّل إلى فاعل، أو غرض نُقِل إلى فئة الفاعل. ومن ثم، فإنَّه يتواطأ معه حرفياً. أما القذيفة، فهي غرض حوَّل إلى مفعول به. وإن كنا سنسمح بمثل هذا الهراء الواضح لبرهة، فإنَّه يكون عبارة عن غرض الهدف منه كلياً فعل شيءٍ به. إنه لتخمينٍ ممتعٍ (نظراً لأنَّ كلمة غرض «object» ذاتها

تحتوي في مكنونها على فكرة رمي شيء ما «ob-» التي تعني: ضد، ثم مقطع «iacee» بمعنى: يرمي)، أن يكون هناك جدل ضمنى من النوع الرياضي متجسد في الطريقة التي ننظر بها إلى الأشياء بصورة عامة.

ومن المعتاد أن ننظر إلى الأدوات القاذفة بوصفها أطرافاً اصطناعية؛ امتدادات لقدرات وطاقات البشر. غير أن ذلك سيكون بمثابة نسيان للفرق الذي قدمته منذ برهة بين المعدّات، أو الأدوات المعدة للاستخدام في مهمة ما (بمعناها العام)، واستخدامات تلك الأدوات في الرياضة. وفي واقع الأمر، لا يمثل مضرب الجولف طريقة لتحسين القيام بعمل ما كان من الممكن القيام به بطريقة أخرى مباشرة بدرجة أكبر، أو دون استخدام تجهيزات. وعلى الرغم من مرور مضارب الجولف بالعديد من التّعديلات والتحسينات عبر القرون -وهي تواصل التطور بشكل مذهل، ومن جوانب غير متوقعة- فإنّ أول مضرب للجولف لم يُصنّع ليكون طريقة أفضل لدفع الكرة في ملعب الجولف؛ مقارنة على سبيل المثال بقوة البضربة إذا حاول المرء ركل كرة الجولف بقدميه، أو وخزها بأنفه. وذلك لأنه لم يكن هناك ما يعرف بالرياضة الجولف قبل أن يكون هناك ما يؤدّي وظيفة مضرب الجولف. ولم تكن تلك الوظيفة لمجرد توسيع أو زيادة القدرات، كما هو الحال في العادة بالنسبة للأطراف الاصطناعية (قد تكون الأطراف الاصطناعية غريبة في بعض الأحيان، ولكن ما من أحد يضع قدماً اصطناعية لتقليل قدرته على الحركة، أو يضع نظارات لإعاقة رؤيته، لأنهم إنّ فعلوا ذلك، فإنهم لا يستخدمونها في الأصل كأطراف اصطناعية). وتعد الأدوات القاذفة التي تستخدم في الرياضة امتداداً حقيقياً للقدرات البشرية، حيث تسمح لنا بضرب كرة التنس بقوة أكبر وأسرع، وكذلك دفع كرة الجولف بصورة أسرع بكثير مما لورمينها أو ركلناها بالقدم. غير أنها تمثل قيوداً في الوقت ذاته، وتؤدي دوراً مهماً في أدوات القيد غير الضرورية التي تُعد حيوية في كلّ الرياضات. وتمثل أوجه الجمال والفعالية التي صُممت بها أدوات القيد تلك كي تقلل من الإعاقة التي تمثلها في حدّ ذاتها، والتي تعد ضرورية في آنٍ واحدٍ.

ولهذا السَّبب أيضاً لا ينبغي أن نسمح بحدوث تماثل بين الأدوات القاذفة في الرِّياضة ومستخدميها، أو استيعاب الثاني في الأول، كالذي نجده -على سبيل المثال- في تعليقات من قبيل:

إن تجربة استيعاب الأدوات الرِّياضيّة داخل الذات الاستثنائية... تدلني على أن ذاتي تمتد خارج جسدي لتدخل في الأغراض ومع الأغراض الموجودة في العالم. كما أنها تقول لي إنَّ هويتي الشخصية بوصفي إنساناً حراً تنتج جزئياً من علاقةٍ خاصيةٍ مع الأغراض في هذا العالم، وهو ما يجعلها جزءاً يعزز ذاتي، لا جزءاً منفصلاً عنها.³

لكنني لا أستحوذ ببساطةٍ على الأداة الرِّياضيّة، أو أحقق ذاتي ببساطةٍ وبشكل كليٍّ من خلالها. وذلك لأننا قد وجدنا أن تقييد قدرات القاذف هو جزء من وظيفة الأداة المقذوفة، أي ضبطه والحد من حرية القاذف، بل والوصول إلى حد تشجيعه على التحلي بصفات الأداة ذاتها، وذلك من خلال التدريبات والتَّمارين المتكررة التي توجه وتقيّد حركاته. أما إن تُركت لأفعل ما يحلو لي، فسأضرب ببساطة مضرب التنس في اتجاه خط تقدم الكرة، حيث أقلب المضرب بمعصمي، في حركة سريعة وتشنجية. ومن ثم، لا أتمكن في معظم الأحيان من ضرب الكرة. ويجب عليّ أن أتعلّم الوقوف ومواجهة الكرة مع الانحراف جانباً، لا أن أوجهها بشكل مباشر، كي أتمكن من إعادة المضرب بسرعةٍ أكبر بكثير، وبشكل مبكر أكثر مما هو ضروريٌّ، كي أنقل ثقل جسمي من القدم الخلفيّة إلى القدم اليمني، بينما أضرب في الاتجاه الذي تأتي منه الكرة. وينبغي عليّ أن أتعلّم ألا أشدّد من قبضتي على يد المضرب عند لحظة اصطدام الكرة به، كما تحثني على ذلك جميع ما يسمى الغرائز، ولكن عليّ أن أخفف من قبضتي قليلاً؛ عندها فقط سيتحوّل صوت الغنة القبيحة التي تصدرها أوتار المضرب إلى صوت طرقة يبعث على الرضا، ويدلّ على ضرب الكرة بشكلٍ جيّد. وإذا

أصبح مضربي، في نهاية المطاف، امتداداً لذراعي، فإن ذلك لا يكون إلا بعد أن يعيد جسدي بأكمله تشكيل ذاته وتوازنه، وذلك ضمن سلسلة من التعديلات التي تأخذ في الحسبان ميول مضربي في المقام الأول. فإذا كنت أرغب في أن أكون مع المضرب ذاتاً واحدة، فعلياً أولاً أن أصبح المضرب، أو أن أصبح الذات التي يتطلبها المضرب، والتي ستكون على أعلى درجة من الاستجابة له. وعلى حد مقولة فرويد الشهيرة: «حيث يكون الهو، يجب أن يكون هناك الأنا»⁴. وينطبق ذلك على الموقف الذي تنوب، أو تبرز، فيه الأداة في مقدّمة عضو ما أو وظيفة ما من وظائف الجسم، مثل مضرب الكريكت، أو مضرب التنس، أو مضرب كرة القاعدة، الذي يُستمدّ طبقاً لبعض الاشتقاقات من كلمة «rchette»، أو راحة اليد، أو «rascette»، من الرسغ أو عظمة الرسغ. غير أن هناك استبدالاً آخر يظهر في معادلة فرويد: حيث أكون أنا، دع ذاتي إذن توجهني وتعلمني. وفي واقع الأمر، وكما أشار مايكل سيريس، توجد دائرة مستمرة من التحوّلات والتغيرات، مع تحويل البشر لأنفسهم إلى أغراض تنتمي لعالم الأدوات والمعدّات بكل أشكالها، ثم في حركة تجاوبية، يستوعبون أو يعيدون تلك الأغراض الخارجية إلى أجسامهم⁵. وتُعدّ العجلات أبرز الأمثلة التي ساقها سيريس في هذا الصدد، والتي يقول إنها مأخوذة من الحركات الدائرية للجسم في أثناء السير أو العدو، ثم يمنحها الإنسان شكلاً خارجياً في صورة العجلات أو الإطارات، وبعد ذلك يعيد إدخالها إلى داخل جسمه عندما نتعلم كيفية ركوب الدراجات؛ إنَّ تعلم ركوب الدراجات يعني:

إعادة اكتشاف وجود تلك العجلات في الجزء الأسفل من الجسم، التي نبذها الجسم إلى العالم الخارجي، ثم تحسّن طالعها وزاد تطورها على مبعده من ذلك الذي لم يعد يدرك أنها تنتمي إليه. وينطوي تعلم ركوب الدراجة على الإحساس بتلك الأشياء التي استوعبت داخل الدراجة من خلال الإطار والبدال، علاوة على الإحساس بالطريقة ذاتها بأننا لم

يسبق لنا أن سرنا أو عدونا إلا بواسطتهما، وذلك لأننا اخترعنا الوقوف منتصبين، والاستواء والمشي، من العزم الدائري للسائقان في التوازن الحركي، قبل أن نصادفه بوقت طويل في الأغراض.⁶

ويُعد تأثير المتابعة من أقوى مظاهر الرياضة، على الرغم من أن وجودها لا يقتصر على الرياضة فحسب. فلو فكّرت فقط في مجرد ضرب الكرة، سواء أكان ذلك بالعصا أو بالضرب، فسيكون من الصّعب التكهّن بمسارها والتحكّم فيه. وبدلاً من ذلك، يجب ألاّ تركز على النقطة التي تبدأ منها الحركة، بل على المسار الذي ترغب في أن تنتقل فيه الكرة. فإذا شاهدت لاعبي الجولف وهم يتابعون الضربة الأفقية الممتدة، ستجد أنهم يتصرفون دائماً تبعاً لتوجيهات هاري فاردون Harry Fardon، الفائز ببطولة الولايات المتحدة المفتوحة ست مرات، التي ساقها في كتابه المعنون بـ«لاعب الجولف المثالي» (The Complete Golfer)، الصادر في عام 1908:

لا أوافق على تثبيت النظر على المكان الذي تقع فيه الكرة، وبالتالي لا يرى اللاعب سوى العشب بعد أن تغادر الكرة مكانها. ثبت نظرك على الكرة حتى تضربها، ولا تزد على ذلك. لا تستطيع متابعة الكرة الطويلة بشكل سليم إذا ظللت تركز نظرك على الأرض. اضرب الكرة، ثم تابعها بعينيك وهي تخلق في أسرع وقت ممكن.⁷

وبالمثل، فعندما يتابع لاعب كرة الرجبي التسديدة الساقطة، تستطيع أن ترى جيداً الجهد الذي يبذله لإجبار الكرة على الطيران لمسافة أطول قليلاً، مع الميل قليلاً ناحية اليسار. ولقد كان اللاعب ديفيد بيكهام David Beckham في شبابه يمتلك موهبة غير عادية، وهي القدرة على ضرب الكرة الساقطة من على بعد ثلاثين أو أربعين ياردةً لتهبّط بسرعةٍ مثالية، كي تدور وترتدّ أمام قدم مهاجمٍ

قادم من الخلف. وكان بيكهام على ما يبدو يبقي قدمه اليمنى مرتفعة في الهواء مدة ثانية تقريباً بعد تمريره للكرة، وكأن الكرة لا تزال ملتصقة بقدمه بخيط مرن طويل، وكأن قدمه دفعة تقوم ببعض التعديلات الأخيرة.

وقد كنت أعتقد فيما مضى أن هذا التصرف هو سحرٌ صرفٌ، كما أن تلك التسديدة تتفق في واقع الأمر مع تأثير «قانون المشاركة»، الذي صاغه لوسيان ليفي بريل Lucien Levy-Bruhl بين القبائل البدائية، والذي يقول إنَّ «الأغراض»، أو الأدوات التي يصنعها الإنسان، تظهر دائماً مشحونة بـ«خصائص سحرية»، كما أن «الأغراض، والأشياء، والظواهر، يمكن أن تكون... ذاتها وشيئاً آخر بخلاف ذواتها». ⁸ وعلى ما يبدو، فإنَّ الرغبة في تحريك الكرة في اتجاه هدفها يشهد على الاعتقاد القائل إنني لم أركل الكرة فحسب، بل أجبرت جزءاً من نفسي على الاندماج بإدتها من أجل توجيه الكرة، ويستمر هذا الاندماج حتى تتلاشى قوة الركلة. لقد كنت، وما زلت، أحتقر إلى حد ما هذا النوع من السحر. فإذا خضت امتحاناً، أو أجريت مقابلةً شخصيةً، وكنت في انتظار النتيجة، فلا شيء في هذه الأثناء يمكن أن يؤثر على النتيجة التي صرنا في الوقت الراهن، حسب القول المأثور، لا نملك شيئاً حيالها. وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ غالبيتنا يشعر في مثل هذه الظروف بأنه مجبر على اتباع أساليب معينة في أثناء فترة الانتظار تلك، وذلك خشية أن تصاب النتيجة بالنحس نتيجة لتأثير أفكار أو تصرفات معينة. ونحن نعلم جميعاً أن عازف البيانو الذي يرفع أصابعه بخفة عن المفتاح الذي لمسه للتو، على غرار الأب الذي يتعد بلطف عن ولده عندما يخلد إلى النوم بجواره، لا يؤثر فعلاً على الصوت الذي عُزف للتو، حيث إنَّ جهاز الأداء قد ضرب الوتر وعاد إلى موضعه، كما أن النغمة الناتجة عن التلامس قد صدرت بالفعل. ويعبر بي إيه فالي P. A. Vale عن وجهة النظر تلك من خلال انتقاده للاعب الجولف «بسبب اعتقادهم أن المتابعة تؤثر على مسار الكرة، على الرغم من أنه من البديهي أنه لا يوجد أي تأثير للمضرب بعد ضرب الكرة على مسار الضربة الطويلة»، ثم ساق البرهان التالي الذي يعد منطقياً بصورة مثالية: «لنفترض الآن - على سبيل

البرهان- أن رصاصة طائشة أصابت مضرب اللاعب بعد حوالي ست بوصات من طيران الكرة، فتهشم المضرب إلى شظايا، ستظل نتيجة الضربة على الدرجة نفسها من الجودة»⁹.

وعلى الرغم من ذلك، فإننا نواصل اعتقادنا في تبادل الصفات بين الأشخاص والأغراض، وفي استمرار وجود علاقة بين القاذف والمقذوف، وذلك من خلال مبدأ تطلق عليه الفيزياء الكمية «التشابك». لقد لاحظت بنفسى عندما كنت صغيراً أن اللاعبين غير البارعين وغير الأكفأ (كنت عادة من هؤلاء) يندفعون بشدة، ويضربون الكرة نتيجة لاعتقادٍ خاطئ في مبادئ الفيزياء، وهذا المبدأ تحديداً هو أن كل شيء مركّز في نقطة الاصطدام. ولم يكن اللاعبون الجيدون بطبيعتهم يدخرون أي جهد في ضرباتهم (كما كان يقال لنا في العادة)، أو ركلكهم للكرة، بل كانوا يببالغون في ذلك بدرجة هائلة. وبينما كان اللاعبون الماهرون يركزون بصورة شديدة للغاية على نقطة التصادم، كان الآخرون على ما يبدو يشعرون، على حد تعبير جيمس برايد James Braid في عام 1914، بأن «ضرب الكرة من داخل المربع الرملي بواسطة المضرب ذي الرأس المعدني في الضربة السفلية الطويلة هو مثال على اللعبة بأسرها... وذلك لأن... نجاح الضربة لا يأتي فقط مما حدث سابقاً، بل يكون بدرجة كبيرة ناتجاً عن المسار الذي سلكه المضرب بعد ضرب الكرة»¹⁰.

وربما لا يتشابك اللاعب والكرة فحسب في أثناء عملية الارتطام، وذلك لأن تلك اللحظة يصيها التعقيد الشديد. وفي الواقع، فإن ما يحدث بعد ارتطام المضرب بالكرة لا يمثل أهم شيء بالنسبة للتسديدة، ولكن يبدو أنه من المنطقي في حالة لاعب الجولف ولاعب كرة القدم، أو عازف البيانو، أن تنفيذ الضربة يتأثر في المقام الأول بالتوقع الخاص بالمتابعة. ومن ثم، فإن المستقبل المتوقع للضربة يرتد للوراء كي يحدد ماضيها. ويتشابه شكل هذا الارتداد إلى الوراء تماماً مع شكل ارتداد المنطق الذي يحدث في السحر. وفي الحقيقة، لا يقع السحر عملياً، وذلك لأنه يخضع كلياً للاعتبارات العملية، غير أن الاقتناع بأن السحر

يقع فعلاً، علاوةً على التنفيذ العملي لهذا الاقتناع، يمكن في واقع الأمر أن يكون فعلاً للغاية. وربما لا يكون هناك فرق مطلق بين السحر والمادة لأنَّ السحر دائماً، ولدرجةٍ ما، هو جزء من حقيقة المادة.

وترتبط حالة مشابهة من الالتباس بالأغراض التي تُقَدَف في الرِّياضة، وذلك على الرغم من أنني قد قلت للتو إنَّ دورها يكمن في القيام بدور الأغراض المجسمة. وبالتأكيد، يتمثل الهدف من كرة الجولف أو التنس، وبدرجةٍ كبيرة، في توافرها كي تُضْرَب نحو الهدف. غير أن جميع المقذوفات، حتى الكرات، تمتلك خصائص تمنعها من أن تكون سلبيةً بصورةٍ صرفة. كما أنها تمتلك خصائص غير متساوية، تُفَعِّل بشكل متغاير في ظل ظروفٍ مختلفةٍ - يتوقع لاعبو كرة القدم أن تحلق الكرة لمسافة أطول عندما يلعبون، على سبيل المثال، في منطقة مرتفعة عن مستوى سطح البحر، وتُستدعى تلك الخصائص وتستجيب كذلك للأنواع المختلفة والخاصة من القوَّة التي قد تُطبَّق عليها-.

وبمقدور الأغراض الرِّياضية كذلك أن تُظهر قدرةً مذهلةً على الانعكاسية. فكرة الكريكت تكون دون شكٍ قذيفةً خفيفةً عندما تنطلق من يد جيف تومسون Jeff Thomson أو وسيم أكرم Wasim Akram، إلا أنها تحتفظ بداخلها بالنية الفاعلة للقاذف، حيث إنَّ الغرض منها هو نفسه القيام بدور القاذف، من خلال إصابة عارضة النصيب، أو أرجل حامل المضرب الذي يدافع عنها. أمَّا هدف حامل المضرب، إذا نجح بعد نصف ثانية في ضرب الكرة التي رميت باتجاهه بالمضرب، فيتمثل في تغيير هذا الغرض المجسد إلى غرض مقذوفي. وبطبيعة الحال، يتمثل الهدف من المقذوفات في أن تُقَدَف - تُرمى أو تُرَكَل أو تُضْرَب. وفي بعض الرِّياضات، يتمثل الهدف الرئيس في مجرد قذف الأداة إلى أبعد مسافةٍ ممكنة. وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ اتجاه هذا القذف يكون دائماً مختلفاً، حتى إن كان هناك اختلاف واضح في ذلك بين الرِّياضات، كما هو الحال بين رياضة الجولف (التي يكون للدقة فيها الأهمية نفسها للمسافة)، ورياضة رمي القرص (التي تكون فيها سلامة الجمهور، أو المتفرجين هي في الواقع الشيء

الوحيد الذي يحدد صحة اتجاه الرمية من عدمها). وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ كلمة «يقذف» ذاتها تشير إلى أن جميع عمليات الإطلاق أو الدفع تلك تكون في واقع الأمر، وبشكل عام، في اتجاه المقدّمة ومن أمامنا، بما أن تلك هي الاتجاهات التي نشعر من خلالها أننا نسعى للتفوق على أنفسنا من خلال ما لم يحدث بعد؛ فإذا افترضنا ظهور رياضة جديدة يتم فيها رمي الرمح أو المطرقة إلى أبعد مسافة ممكنة باتجاه الخلف، فإنَّ تحقيق الأرقام القياسيّة في أثناء المسابقة، والتنافس على تحطيمها، سوف يضع تلك الرّميات من النّاحية المجازيّة أمام المشاركين، وذلك في صورة معايير تُضاهي، أو يُتغلب عليها. وبعبارةٍ أخرى: فإنَّ مسار القذيفة يكون دائماً للأمام، وفي اتجاه المستقبل.

وعلى الرّغم من ذلك، فإنَّ الهدف من معظم المقذوفات يكمن على وجه التحديد في توجيهها صوب نقطة معينة: يجب ركل كرة القدم بين العارضتين، ويجب إسقاط كرة السلة داخل السلة، وضرب كرة التنس في الأرض، لتخرج بعدها خارج الملعب. ومن ثم، فنادراً ما تُرمى ببساطة، أو تُركل أو تُضرب، المقذوفات بعيداً، بل تُسدّد في الوقت نفسه تجاه شيءٍ ما. ويُسهّم ذلك في الإجابة عن السّؤال الأصعب والأعمّ، المتمثل في ماهية الهدف من الرياضات بشكل عام. يُقال غالباً إنّ المباريات لا تمتلك هدفاً بخلاف خوض المباراة ذاتها، غير أن الحقيقة التي تقول إنّ معظم الرياضات الحديثة هي عبارة عن ممارسات تُسّم بالتنافس، ويُعنى اللّعب فيها باللّعب من أجل الفوز، تفيد في واقع الأمر بأنّ هناك مقاصد من ممارسة جميع الرياضات. وتتّسم هذه المقاصد بأنها محدّدة للغاية، كما أنها على ما يبدو متنوعة. ولقد كان فيجنتاين Wittgenstein يعتقد أنه من الخطأ تحديد جوهر اللعبة، وذلك لأنه على الرغم من وجود تشابهات كبيرة بين الألعاب، فإنها لا تتشارك في شكل واحدٍ يجمع بينها.¹¹ ولكنني لست واثقاً من أننا ينبغي أن نتوقف ببساطة عن التّوصل إلى تعريف مقتضبٍ للهدف من الرّياضة.

وربما يمكننا البدء بالتمييز بشكل منطقي بين ثلاثة أنواعٍ من الرياضات،

فهناك سباقاتٍ للسرعة، ومنافساتٍ تتعلق بالمسافة والوزن، يتمثل الهدف فيها في أن يكون المتنافس هو الأسرع أو الأقوى، ويقاس ذلك حسب طول مسافة من الأرض، أو عارضة وضعت على ارتفاع معين، أو وزنٍ محدد. ثم هناك الرياضات التي تقوم على وجود مرمى، مثل كرة القدم، التي يتمثل الهدف منها في اختراق منطقة الفريق المنافس، حيث يكون المرمى بمثابة قلعتهم أو جوهرهم العميق. وأخيراً، هناك رياضات المجازاة، التي تعدُّ كرة الطائرة أفضل مثالٍ عليها. ويتمثل الهدف من اللّعب هنا في منع الخصم من اللعب، وغالباً يقصد بـ«اللعب» فيها منع الكرة من ملامسة الأرض، أو إبقائها في حركةٍ دائمةٍ داخل منطقة اللعب. وسيطلق عن جدارة، وبشكلٍ معبر، على الضربة الساحقة في الكرة الطائرة أو التنس «الضربة التي تمنع من اللّعب»، وذلك لأنَّ الخسارة في هذه الرياضات تعني فعلياً منع الخصم من اللّعب بصورةٍ متواصلةٍ، ثم إخراجها من المباراة كلية. ومن ثم، يلعب المرء مع خصمٍ أو ضد شيءٍ ما، وذلك من خلال منعهم من اللّعب معه.

وفي ظاهر الأمر، سيكون من الصّعب أن نستوعب تلك الأنواع الثلاثة داخل بعضها بعضاً، أو اختزالها في هيئةٍ غايةٍ مشتركةٍ بينها تكون أساسية وذات أهمية أكبر، إلا إذا أدركنا التلميح الذي تحويه الكلمة الأخيرة، ونظرنا بعدها إلى جميع الألعاب تبعاً للمنظور الذي يرى أنها تهدف إلى إنهاء اللعب. وبطبيعة الحال، هناك طرقٌ كثيرةٌ يمكن من خلالها عدم مواصلة اللعب، أو إلغائه، ويتمثل أسهلها في أن يرفض أحد الأطراف ببساطة الاستمرار في المشاركة، ولكن نادراً ما يكون ذلك كافياً ببساطة لإجهاض المباراة، أو وضع حد لها، لأنَّ الغرض من المباريات هو إنهاء اللّعب حسب الشّروط المسموح بها في اللعبة.

ويمكننا استعارة المصطلحات التي يحتويها كتاب «ما وراء مبدأ المتعة» (Beyond the Pleasure Principle)، الذي صاغ فيه فرويد بصورةٍ غنية وخطيرة فرضيات عن عمليات غريزة الموت؛ وكان هذا الكتاب هو أوّل ما تحدث فيه فرويد عن هذا المفهوم. يفترض فرويد، بكآبةٍ مهيبية، أن الهدف من جميع

المخلوقات يجب أن يتمثل في موتها بشكل أساسي، حيث إن تلك هي الطريقة الوحيدة لضمان تخفيض التوتر إلى أقصى درجة ممكنة، أو الوصول إلى التوازن المطلق، الذي يُمثل بالنسبة لفرويد المصدر والهدف لكل ما هو متعة. إلا أن حقيقة تطور الكائنات الحية لتصبح أكثر تعقيداً، وحشدها للعديد من الأطر الزمنية والأطوار والفترات المختلفة، تفيد بأنه ليس بالأمر الهين أن تقضي تلك الكائنات على حياتها بهذه البساطة. وعلى غرار الحاسوب الحديث الذي يحتاج إلى القيام بسلسلة من عمليات الإغلاق قبل أن يُطفأ، فإن الكائن الحي المعقد يجد نفسه مضطراً للمرور بعدد من الانعطافات الإجبارية في أثناء سعيه للوصول إلى الموت (وهي الحالة التي تشير إليها كلمة «dentus» أو «الميت» في بعض المراثيات اللاتينية). يقول فرويد إن ذلك هو السر وراء «الإصرار المحير للكائن الحي (والذي يصعب خلق توافق بينه وبين أي سياقٍ من السياقات) على المحافظة على وجوده في مواجهة جميع العقبات». ومن ثم، فإن غريزة المحافظة على الحياة ودفاع المرء عن نفسه ضد الموت، التي يمكن للمرء أن يراها جيداً بصورة رمزية ومنقحة في الصراع خلال الرياضات التنافسية، لا تتعدى أن تكون:

عناصر غريزية تتمثل وظيفتها في ضمان سير الكائن على الطريق نحو موته، وإبعاد أي طرق ممكنة للعودة إلى الوجود غير العضوي، بخلاف تلك التي تعد جوهرية في الكائن ذاته... ويتبقى لنا فقط حقيقة أن الكائن يرغب في الموت بطريقته الخاصة... ومن هنا، يظهر لنا وضع يتسم بالتناقض الذي يتمثل في أن الكائن الحي يناضل بكل طاقته ضد الأحداث (في واقع الأمر: المخاطر) التي يمكن أن تساعد على الوصول سريعاً إلى الغرض من حياته - أو يمكن أن يشبهه بالدائرة القصيرة.¹²

وربما كان بمقدورنا أن نفترض أن الألعاب والرياضات تسعى بصورة مماثلة نحو الانقطاع، ليس من خلال وقف اللعب، بل من خلال الاستمرار

فيه والانتهاه منه. ومن ثم، فإنَّ الهدف من الرِّياضة هو موت المباراة تبعاً لشروط اللعبة ذاتها. وتُعدُّ الأغراض الرِّياضيَّة، خصوصاً الكرات، الوسائط لهذه الازدواجيَّة المتضاربة. ولقد حازت الكرة في الرِّياضات بعض التفسيرات الرمزيَّة، وعلى رأسها ما قاله روبرت دبليو هندرسون Robert W. Henderson، الذي يصرُّ على أن الكرة، سواء كانت ترمز لرأس أوزوريس (Osiris) أو للشمس، وهي مصدر الحياة في «مصر القديمة وجميع البلاد المجاورة لها، فإنها تمثل فكرة الخصوبة والمبدأ المانح للحياة».¹³ وأعتقد أن ما سبق يمكن أن يكون مقبولاً فقط إذا كانت الخصوبة والحياة المذكورتين تمثلان الاحتمالات الممكنة في المباراة، وبماثل ذلك القول إنَّ الكرة ترمز للحياة التي تمتلكها المباراة ذاتها وتحافظ عليها.

وتلك ليست بالمسألة المباشرة. ويعود ذلك إلى أن الأغراض التي تشبه الكرة تتصف بالحياة والموت في آنٍ واحدٍ، أي أنها أغراض تُفخَّ فيها روح العزم والإصرار والإرادة. وينظر مايكل سيريس إلى الكرة في الرِّياضة بوصفها رمزاً لما سماه «شبه الأداة». ومن هذا المنطلق، فإنَّه يقصد بتلك الأداة التي لا تكون غرضاً بصورة تامة، أو لا تكون مجرد أداة، وذلك لأنه يتردد بين الغرضية والفاعلية، ويتوقف ذلك على ما إذا كان ثابتاً دون حراكٍ على نقطة الجزاء، أو كان مدفوعاً بقدوم أحد المهاجمين في أثناء الهجوم. ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك، حيث تُحدث الكرة ومضات وتوهجات متقطعة، داخلية وخارجية، من الفاعلية بين اللَّاعبين. فعندما أمتلك الكرة، تضاعف داخلي الفاعلية، على الرغم من أنني الحامل المؤقت للفاعلية الجماعيَّة للفريق. وعندما أمُرُّ الكرة، أنقل هذا الضوء إلى لاعبٍ آخر. وعندما تستقر الكرة، تضاعف معبرة عن «أنا»؛ وعندما تتحرك، تمثل «نحن»، التي يقصد بها الفريق، أو المباراة. ولا يمكن ببساطة تقسيم «أنا» و«نحن» و«هي»، وذلك لأنَّ تلك المراحل الثلاث تنشأ هي ذاتها من الحركة والتمرير:

يعد شبه الأداة، الذي يمثل سمة من سمات الفاعل، مُكوناً مذهباً للفعالية البينية. ونحن نعلم من خلاله كيف ومتى نكون فاعلين، ومتى وكيف لا نكون كذلك. فما المقصود بـ«نحن»؟ إننا نمثل على وجه الدقة «أنا» التي تتأرجح جيئة، وذهاباً. و«أنا» في اللعبة هي عبارة عن رمزٍ يُتبادل. ويُنسج المجموع بهذا التمير، وتلك الشبكية من التميرات، وعمليات التبادل بين الفاعلين... تُصنع «نحن» من ومضاتٍ، وانطفاءات «أنا»، كما تُصنع «نحن» من خلال تمير «أنا» وتبادلها واستبدالها ونيابتها بين اللاعبين.¹⁴

وتتجسد نظرة سيريس بشكل رائع من خلال مسابقة «اكتشف مكان الكرة»، التي تمتعت بالشهرة في الجرائد البريطانية في سبعينيات القرن الماضي، حيث كان يُطلب من القراء فحص صورة لإحدى مباريات كرة القدم بعد حذف كرة القدم منها، ثم عليهم أن يحددوا المكان الذي كانت فيه الكرة بناءً على أماكن اللاعبين وتعبيراتهم وسلوكهم. وكان المشارك الذي يضع علامة على المكان الصحيح يفوز بجائزة. وهنا، ربما يكون لدينا عكس الموقف الذي يصفه سيريس تماماً، الذي تضيء فيه الكرة للاعبين بصورة تتسم بالتمييز. فالآن، أصبح اللاعبون هم من يكشفون أو يخفون (كما في العديد من الحالات) وجود الكرة. وربما يُوجد هنا حيناً للماضي البعيد لممارسة إخفاء الكرة، التي كانت تستخدم كما هو واضح في بعض الأحيان للتمويه في ألعاب الكرة بالعصور الوسطى، والتي ظلت باقية كأسلوب من أساليب البقاء في الرجبي وكرة القدم الأمريكية. غير أن مسابقة «اكتشف موقع الكرة» تؤكد العلاقة البينية المرنة بين اللاعبين والأغراض، فالكرة علامة دلالية على الاستحواذ والسيطرة. فإذا نزعنا الكرة، يصبح اللاعبون علامات دلالية على الكرة. ومن الأمور المثيرة التي تؤكد هذه المرونة تلك الحقيقة القائلة إنه على الرغم من القدرة على تحديد موقع الكرة بشكل دقيقٍ ويسرٍ من خلال استرجاعها من الصورة التي حذفنا منها، فإنَّ المسابقة كانت دائماً تحكمها مجموعة من الخبراء الذين كانوا يقررون أين ينبغي أن

تكون (وذلك لأنه لا يجوز من الناحية القانونية المقامرة على حدث تم بالفعل).

الأهداف

وإذا نظرنا إلى الكرة من منظور سيريس، وذلك باعتبارها شبه غرض، فإنَّ الكرة تكون وسيطاً بين الحي والجماد، بين غرائز الحياة وغرائز الموت. هناك كذلك معنى مباشر بدرجة أكبر ربما ينطبق فيه ما سبق، حيث توجد الكرة في معظم الألعاب من أجل ضربها، ويكون ذلك في بعض الأحيان بأقصى درجة من القوة، وكان اللاعب قد فرغ تماماً منها وقضى على إمكانية اللّعب بها. وفي بعض الأحيان، يتحدّث الكتاب الرياضيون عن ضرب لاعبي التنس للكرة بقوة شديدة، وكأنهم -على ما يبدو- لا يرغبون في رؤيتها مجدداً. أما في لعبة البيسبول والكريكت، فإنَّ رفع الكرة عن الأرض يمثل أعظم إنجاز بالنسبة للضارب. ويتمثل الهدف من ضرب الكرة في دفعها خارج الملعب، أو خارج المستطيل، أي إرسالها إلى موت رمزي من خلال الخروج من الملعب. وفي العادة، يُطلق على الكرة التي تخرج خارج الملعب «الكرة الميتة». ويهدف لاعب الجولف إلى إغراق الكرة في حفرتها. وحتى في الألعاب السلمية، مثل البلياردو أو السنوكر، فإنَّ الهدف من اللعبة يكمن في إيقاع الكرة بعيداً عن الأنظار إلى داخل الجيوب. وعلى الرغم من ذلك، لا يمكن للاعب مطلقاً أن يضرب الكرة خارج الملعب، وذلك لأنَّ الكرة تعود بطرق مختلفة، مثل البمرنغ (القوس الخشبي المرتد)، وبذلك يُمنع الانقطاع السابق لأوانه للعبة، الذي ربما يأتي من مجرد فقدان الكرة. وربما كانت رياضة بولينج الطريق العتيقة التي يمارسها الأيرلنديون أكثر تلك الألعاب البدائية التي تعتمد على انعكاسية رمي الكرة بعيداً، ثم عودتها إلى نقطة البداية. وتُرمى في هذه اللعبة كرة تزن 800 جرام، عبر مضمار يبلغ طوله عدة كيلومترات، حيث يفوز اللاعب الذي يستخدم أقلَّ عدد من الرّميات.¹⁵ ويتّسم دور الكرة الحيوي في هذه الرياضة بالوضوح، وذلك من خلال تشكيل طريقة ممارسة اللعبة، بمعنى الممارسة التي تُستمد من الفيزياء، من الكتلة التي

يجب تحريكها عبر مسافة، والتي تصوغ بناءً على ذلك تتابع الإجهاد الذي يجعل اللاعب يبلغ هدفه ويعود إلى ذاته. ولقد قدم كتاب جون نيوبيري John Newbery، المعنون بـ«كتاب الجيب الصغير المصقول» (Little Pretty Pocket Book)، الصادر في عام 1760، تجسماً للعب كرة البيسبول، إضافةً إلى حكمةٍ أخلاقيةٍ:

في إحدى المرات، ضرب حامل المضرب الكرة،
ثم هرع اللاعب يعدو كالبرق
إلى القاعدة التالية،
ثم جرى إلى المرمى بسعادة.
الحكمة الأخلاقية.
وهنا، هرع الإنجليز خلف المال،
وطاروا فوق القاعدة الرئيسة،
لكنهم كما طاروا بسعادة،
عادوا أدراجهم مجدداً إلى مراكزهم الأصلية.¹⁶

وتكمن السعادة التي تنقل اللاعب في سعادة الانتقال ذاته، أي الانتقال بعيداً ثم العودة مجدداً إلى ذاته. وعلى غرار الكائن الحي المعقد عند فرويد، فإنّ السعي وراء الموت على طريقته الخاصّة، من خلال عبور مسار الحياة الطويلة التي عاشها طوال الوقت سعياً وراء الوصول إلى الموت، وخادماً لغريزة الموت التي تُوظف جميع حيل، وموارد الرّغبة في الحياة من أجل خدمة أغراضها المنحرفة، فإنّ الكرة تسعى هي الأخرى إلى الموت، أو الخروج من الملعب على طريقته الخاصّة فقط. أو بعبارة أخرى، فقط من خلال الاكتمال الذي تسمح به اللعبة. ومن ثم، فمهما بلغت قوة ضربك لكرة الجولف، أو مهما بلغت المسافة التي تصل إليها، فيجب أن تضربها من النقطة التي تُوجد فيها. ومهما انحرفت تسديدتك عن

المرمى، لتصل إلى أعلى نقطة في المدرج، فستُستأنف المباراة بمجرد عودة الكرة. وفي فترة شبابي، كان يتحتم على المرء الانتظار كي تعود الكرة من فوق رؤوس الجماهير إلى أرض الملعب مجدداً. أما في وقتنا الحاضر، فهناك سلسلة من الكرات المتطابقة لضمان إمكانية مواصلة اللعب على الفور. إن إخراج الكرة من الملعب لا يعني التخلص منها، ولا هي حالة طارئة ينبغي أخذها في الحسبان. وبعبارة أخرى، فإن إخراج الكرة بصورة تامة لا رجعة فيها من الملعب يكون من خلال إغراقها في الحفرة المخصصة لذلك، أي دفنها، أو حسب التعبير القائل: أدخلها في الشبكة لتصير هدفاً. وتكمن الطريقة الوحيدة لخروج الكرة من المباراة في الثقب الضيق الذي يوجد في قلبها، والذي يصعب الوصول إليه. كما أن المباراة ذاتها هي المنعطف الضروري لمسار اللعبة، ويقصد بذلك الهدف منها. إن الحقيقة المتمثلة في أن تسجيل الأهداف قد صار في الوقت الراهن قابلاً للتعويض -على الرغم من أن تسجيل هدف واحد في كرة القدم في بداياتها الأولى كان كافياً في العادة لإنهاء المباراة- تمثل دلالة على مدى التعقيد، والتشابك الذي وصلت إليه العلاقات بين اللعب والتوقف عن اللعب، بين الحياة والموت في اللعب. إن الهدف الذي كان فيما مضى يقضي على اللعب، قد أصبح في وقتنا الحالي مجرد مرحلة غير حاسمة تماماً في المباراة.

لقد ازداد ذلك تعقيداً نتيجة احتواء العديد من الرياضات على هدف كاذب أو مانع من الهدف، ويأتي ذلك في شكل التقاط التسديدة. فإذا التقت الكرة الساقطة من قبل متلقي الضربات في لعبة كرة القاعدة أو الكريكت، فذلك يعني أنك لم تستكمل تسجيل الهدف، بل يعني خروجك من اللعبة -ويُقصد بذلك: إبعادك عن اللعب، بدلاً من سموك فوق اللعبة. إن ما يُقال في بعض الأحيان عن الكرة الساقطة، التي تمثل هدفاً سهل الالتقاط، من أنها ستسقط «مباشرة إلى بلعوم متلقي الضربات»، يُظهر هذا الخطر الرمزي الذي يوجد عند التقاطها. وبدلاً من استكمال مسارك وتسجيل الهدف وعودتك إلى ذاتك (من الأمور التي تمتلك منطقاً سحرياً، أن تضرب الكرة دون أمل في عودتها مع خروجها

خارج الاستاد، وهو ما يعطي الحق في كرة البيسبول للفريق الضارب أن يسجل هدفاً يطلق عليه «هوم رن»، فإن التقاط الكرة يتلاحم مع ثلاثية: تخليق الكرة، والمجهود الذي تبذله، والهدف الذي تسعى إليه، كي تحوِّلك إلى التابع الذي يعقد هدف الفريق الخصم ونتيجته.

ويرتبط الخروج من الملعب، والعودة إلى القاعدة الرئيسة بصورة معقدة، حتى إنَّ الاتجاهات تصير غير مؤكَّدة. وفي واقع الأمر، فإنَّ أسرع طريق للوصول إلى الهدف يكون غالباً هو الطريق الأطول. وهنا، تصدق مقولة بولونيوس Polonius: «سوف نفعل ذلك بحكمةٍ وذكاءٍ، وبصورةٍ غير مباشرةٍ، وسنكتشف الحقيقة بطرق ملتوية» (هاملت، الجزء الثاني، المشهد الأول). لقد صُمِّمت الأداة الرياضيّة كي تتبع هذا المسار الملتوي في اتجاهين متعارضين في آنٍ واحدٍ، الذي يكون فيه الخارجُ داخلياً والبعيدُ هو البعيد عن الوصول إلى القاعدة الرئيسة. وتُجسد قواعد الكريكت، عندما يتم شرحها لمشاهد لا يفهمها، بشكلٍ رائعٍ تلك الانعكاسيّة بين ما هو داخل، وما هو خارج:

هناك جانبان: أحدهما خارجٌ في داخل أرض الملعب، وثانيهما داخل أرض الملعب من الجانب. يخرج كل لاعب ليكون حامل المضرب، ويظل خارجاً حتى يخرج من اللعب. وعندها، يعود إلى الداخل. وعندما يخرج جميع اللّاعين، يدخل الفريق الذي كان في الخارج، ثم يحاول الفريق الذي كان في الداخل أن يخرج الفريق الذي أصبح الآن في الداخل إلى الخارج.

ولقد لاحظ فرويد هذه الانعكاسيّة الأساسيّة في اللعبة التي شاهد حفيده يلعبها، والتي صارت تعرف بلعبة «ذهب هناك» (forte-da)، حيث كتب فرويد أن حفيده كان يرمي بصورة متواصلة كرةً من القطن مربوطةً بقطعةٍ من الخيط لترتطم بسريره ذي الستائر، وهو يصرخ: «أو.. أو.. أو» -يقابل ذلك كلمة

«ذهب» (forte) بالألمانية- ثم يسحب الحيط بسعادة وهو يصرخ «هناك» (da)، أو عودي مرة أخرى.¹⁷ ويوضح فرويد مبدأ الاستحواذ الموجود في اللعبة، حيث يشير إلى استحواذ الطفل على الوقت الذي تغييت والدته فيه من حين لآخر، وهو الأمر الذي يمكن محاكاته، ومن ثم التحكم فيه، من خلال الرمزية. ومن الممكن عكس هذه الانعكاسية ذاتها، حيث يشير فرويد إلى نسخة ثانية من اللعبة تتسم بقدر أكبر من العدوانية، التي لا يُفترض أن تعود اللعبة فيها، بل ربما لا تكون هناك نية لعودتها. وفي هذه اللعبة، يرمي الطفل الكرة على الأرض وهو يصرخ: «اذهبي إلى الأمام». وهنا، يقدم فرويد تفسيراً أوديبياً: «لقد سمع في هذا الوقت أن والدته كانت (في الأمام)، وكانت لا تشعر بالتقدم على تركه. وعلى التقيض من ذلك، فلقد أوضح أنه لا يرغب في أن ينازعه أحد في استحواذه على والدته».¹⁸ ويمكن للمرء أن يقول بوجود فرق بين الواقع الذي يرمز له اللعب، واللعب ذاته. وعلى وجه التحديد، فليس هناك شيء في الواقع يتسم فعلياً بالانعكاسية، كما لا يعود أي شيء تماماً للوراء. أما في اللعب الرمزي، فإن الأشياء يمكن دائماً أن تنعكس، وذلك بسبب تكرارها. غير أن اللَّعْبَيْنِ إجمالاً تَمَثِّلان أشكالاً مختلفة من بعضهما بعضاً. ومن ثم، فإنها يمثلان بالنسبة لفرويد (وليس بالنسبة لحفيده) نوعاً من اللعب، أو التبادل بين نوعي اللعبة: اللعبة الانعكاسية التي تشتمل على الرجوع، واللعبة التي لا تنعكس وتشتمل على الاستمرار في البعد.

ويشير ذلك إلى وجود لعبة أعم، وربما يتمثل ذلك في ممارسة جميع الألعاب، حيث إنَّ المرء يلعب ليس فقط بواسطة تلك الأشياء التي ترمز لها الأغراض الموجودة في اللعبة، لكنه يلعب كذلك بقوى اللَّعْب ذاتها، بينما ترتد جيئةً وذهاباً بين الانعكاسية والانعكاسية. ويفيد لعب المباراة بمحاولة وقف اللَّعْب فيها، وذلك من خلال جعل إعادة الكرة من قبل خصمك أمراً مستحيلًا. أما إن نجح خصمك في منع أو صد التسديدة، أو حتى لو أعادها بقوة مضاعفة، فقد يؤدي ذلك إلى بدء التبادل المتواصل للتسديدات، الذي يُطلق عليه «الراي» (rally) -من كلمة «re-» الفرنسية، وتعني: مرّة أخرى؛ وكلمة «ally»، وهي مأخوذة

من كلمة «يضم معاً» (ligare) في اللاتينية. ويشبه ما نطلق عليه «الراي» تمساح القاطور (alligator)، الذي يُشتق اسمه من المصدر نفسه، وهو سلسلة من المفاصل أو مجموعة من الوصلات تشكّلت من الانقسامات، والالتحام جاء من الانفصال. وفي الأصل، استُعيّر مصطلح الراي، كما يستخدم في الرياضة، من الاستخدام العسكري، وهو يشير إلى استدعاء أو حشد القوات، على خلفية حدوث قصور كبير في الأعداد. وبشكل تدريجيّ، وفي أعقاب ما يبدو بمثابة المنطق العنيد للألعاب، المتمثل في ميلها للعثور على سبل لتعدّد أشكال الانعكاسيّة، فقد صار الراي يعرف بأنه التبادل المتواصل للتسديدات، وذلك في التّس وفي غيره من رياضات المضرب. إنّ الجهد ذاته المبذول لإنهاء الراي يؤدي إلى إطالة أمده، وهو الذي يكرّر منطق الدّاخل والخارج، والهدف الخطأ، والذي يولّد لعب المباراة ويتولّد من خلاله.

الارتداد

هناك العديد من الأدوات الرياضيّة، ولكن بمقدورنا القول إنّ أهم تلك الأدوات هي الكرة، وهي الأداة التي تميل جميع الأدوات الرياضيّة إليها، وتقترب منها. ومن ناحية أخرى، ربما أمكننا أن نقول إنّ الكرة ليست عبارة عن أداة واحدة، بل تشبه تجريداً أو مزيجاً من العديد من الأدوات الرياضيّة الأخرى. وتمتلك الكرة خاصيّتين أساسيتين؛ يتمثل أولهما في امتلاكها لشكل دائري كامل. أما ثانيهما، فيتمثل في مرونتها، وما يرتبط بذلك من عدم القدرة على تدميرها. ويجسّد الشّكل الدائري للكرة مبدأي الاتساق والتقلب في آنٍ واحدٍ. فيمكن لأي شكل يُرسم على أي جزء من سطح الدائرة الكاملة أن يرفع ثم يوضع حرفياً على أي جزء آخر من السطح نفسه. كما تُجسّد الكرة وتمثل كذلك تساوي اختلافاتها، بل وربما جسّدت ومثّلت كذلك التساوي بين الاختلاف بين التمثيل والتجسيد. ولقد استغرق هذا الاتساق وقتاً طويلاً كي يتحقّق. فكان الإغريق والرومان يستخدمون خمسة أنواع على الأقلّ من الكرات. وكانت

هناك كرة مصنوعة من الصوف، أو الشعر المضغوط، التي كان يُطلق عليها «pila»، والتي كانت تستخدم في ممارسة كرة اليد في بلاط القصور. ومن ثم، كان من المفترض أن تتمتع ببعض القدرة على الارتداد. وكانت هناك كرة يُطلق عليها «harpasta»، وكانت تستخدم في لعبةٍ تشبه الرجبي، وربما لم تكن تتمتع بأي قدرة على الارتداد. كما كانت هناك كذلك كراتٌ مصنوعةٌ من الزجاج والحجر، يُعتقد أنها كانت تستخدم في ألعاب الدحرجة، مثل لعبة القناني الخشبية «skittles». كما كانت الكرة تُضرب بعصيٍ مقوسةٍ في لعبةٍ كان يطلق عليها لعبة الفلاح «paganica»، في حين كانت هناك كرةٌ يطلق عليها «trigonalis»، تستخدم في ممارسة لعبةٍ كانت أرضية الملعب فيها مثلثة. وكان لدى الرومان كذلك كرةٌ مصنوعةٌ من المثانة المنفوخة، يُطلق عليها «follis».¹⁹

وكان اختراع إيدوين بيرد بدنج Edwin Beard Budding جزازة العشب من بين الأمور التي كانت يجب أن تحدث من أجل أن تُطوّر الكرة المتسقة، وهو الأمر الذي جعل من الممكن الوصول إلى سطح مستوٍ تماماً يسمح للكرة بالجري فوقه.²⁰ ويشبه الاستواء التام لأرضية الملعب التوأم الطوبوغرافي لاتساق الكرة: فكأن الكرة هي نفسها أرضية الملعب، إذا جاز التعبير، لكنها تكون مكورة. غير أن الرياضة الحديثة تتوقف كذلك على ظهور مادة لم تكن معروفة في أوروبا قبل اتصالها العنيف مع ثقافات العالم الجديد. ويحكي كورتيز Cortes عن كراتٍ مصنوعةٍ من المطاط شاهدها تستخدم في الرياضة في بلاط مونتي زوما (Monte - zuma)، وقد اندهش من قدرتها الفائقة على الارتداد، مقارنة بالكرات المنفوخة التي تستخدم في أوروبا.²¹ ومن الغريب انقضاء ثلاثة قرونٍ قبل أن يتم اكتشاف إمكانيات المطاط، الذي يصنع من العصارة الجافة لعدد من الأشجار المتنوعة التي توجد في أمريكا الجنوبية. ولم يدخل المطاط في الحياة الحديثة بصورة حاسمة قاطعة إلا بعد أن قام توماس هانكوك Thomas Hancock، معتمداً على أعمال تشارلز جودير Charles Goodyear، بتسجيل براءة اختراع عملية الفلكنة في عام 1844، التي مزجت بين المطاط والكبريت لضمان احتفاظ المطاط بخواصه

في ظل تنوع واسع من درجات الحرارة (كانت منتجات المطاط قبل ذلك تتشقق نتيجة البرودة، وتذوب نتيجة الحرارة).

وقد احتفت العديد من الثقافات بالقدرة على الارتداد، والمرونة التي توجد في النسيج الحي، غير أن القرن التاسع عشر شهد بداية عالم بُني بصورة متزايدة حول قدرات الأنواع الاصطناعية من الحياة التي تتجسد في المرونة المصنعة. وأطلق طبيبا القرن التاسع عشر بي جي تايت P. G. Tait ودبليو جاي ستيلي W. J. Steele اسم «معامل الارتداد» على قدرة الجسم على الارتداد، ويُقصد بذلك: معدل سرعة اقتراب الجسم في أثناء الاصطدام بجسم آخر، مقارنةً بسرعة ارتداده.²² ويتراوح معامل الارتداد من (0) إلى (1)، حيث يمثل الرقم (0) انعدام المرونة التام في الجسم الذي يتوقف عن الحركة عند الاصطدام، في حين يمثل الرقم (1) أعلى درجات المرونة لدى الجسم الذي يرتد بالسرعة نفسها عند اقترابه دون فقدان أي طاقة على الإطلاق. وبمقدورنا أن نقول إنَّ معامل الارتداد في العالم الحديث قد زاد بشكل ملحوظ بعد الانتشار الواسع للمطاط. يقول مايكل سيريس إنَّ الجسم البشري يتميز بقدرة معينة على التمدد، ونزعةٍ داخليةٍ نحو التوسع، بعيداً عما هو مألوف بالنسبة له:

ودون تلك اللبونة الشديدة، لا يمكننا أن نتشبَّث، ونحن على سطح الجبل، بتلك المقابض البعيدة، ولا يكون بإمكاننا تنويع الطريقة التي نتشبث بها بتلك المقابض، سواء أكانت مستويةً أو معقوفةً. ودون هذا الهامش، كيف سيتسنى لأي أحد أن يرقص؟ وأي نوع من اليوجا سيكون في مقدور الإنسان أن يمارسه؟ كما تعتمد المهارة اليدوية في المهن الفنية على تلك المرونة. ويظل التطلع، أو السعي وراءها من الأمور التي تقتصر على البشر... وبخلاف القدرة على جذب الأشياء، يقوم السعي نحو التمدد على هذا المزيج من الطول والزاوية، الذي يكون متغيراً ولكنه محدود؛ وعلى الرغم من محدوديته متغير: أكثر قليلاً، فقط قليلاً... ويعود الفضل

في قدرتنا على القيام بما نقوم به إلى هذا الأمر، كالوصول إلى ما يتعذر الوصول إليه، واستعادة ما وضع في مكانٍ غير صحيح، واستخلاص وتحرير ما يصعب الوصول إليه، والسير على حواف المنحدرات. ويُعلمنا الجسد هذا الفائض، الذي يولد فيه كل ما هو زائد، سواء أكان منحرفاً أو مقدساً. ذلك أن الجسد يعلم كيف يتخطى حدوده ويصل إلى ما هو بعيد؛ إنَّ ذلك دليل ناصع على ما نمتلكه من قدرات.²³

وتمثل الرِّياضة إحدى الساحات التي يتجسّد فيها هذا الإجهاد القطعي، وهذا الامتداد للعادة والسُّكون للامتداد. ويقوم المطاط، وغيره من المواد المرنة التي زادت من مقدار الرِّياضات الحديثة وتنوعها، بضبط قدرتنا على الوصول وعلى الاستجابة، كما أنها على ما يبدو تخلق حرّكات الامتداد والارتداد وتحفزها، فالفكرة عند ارتدادها تنشر في العالم مبدأ الامتداد العضلي ذاته. ومن الممكن أن يأتي الامتداد في صورة الألم الشديد، أو في صورة البهجة، غير أن المطاط يمثّل نوعاً من المرونة المثاليّة التي لا تنفد. ولكي تُجسّد الكرة مبدأ الانعكاسيّة، يتحمّم عليها أن تنجو من أكثر الضربات عنفاً. فبمقدور الكرات المطاطية امتصاص القوّة دون أن تصاب بسببها بضررٍ دائم، ويعود ذلك تحديداً إلى قدرتها على ردّ تلك القوّة.

ومن ثم، تتمثل أهمية المطاط في تحقيقه للانعكاس الأساسي للقيم والقيمة السيادية للانعكاسيّة التي تسبر الرِّياضة غورها. ويفيد الاتساق المتزايد للكرات، علاوة على مرونتها المتزايدة وقدرتها المنتظمة على الارتداد، بامتلاكها للقُدرة على الاقتراب من حالة الانعكاسيّة الصرفة والمطلقة؛ ويفيد ذلك في زيادة مهارة اللاعبين، وقدرتهم على السيطرة على الكرة، علاوة على أشكال جديدة من التقلب، يأتي على رأسها فنون الانحراف والدوران المتعددة. ولا تُشجع الكرات التي تتكوّن من مواد مختلفة، وتتمتع بصلاحيّة لا يمكن توقّعها، على تطوير المعرفة الجسديّة اللصيقة بسلوك الكرة وقدراتها، التي أصبحت ممكنة بمجرد

أن صارت الكرة متسقة، وبالتالي تجريدية - بمجرد أن تصبح الكرات نسخاً موضعيةً مجسدةً من «الكرة». وعلى الرغم من ذلك، فإن مرونة الكرة المطاطية كانت مجرد تحقيق للقدرة المتعددة بشكل رائع، التي كانت كامنةً في الكرة، وهذا هو ما دفع -على سبيل المثال- الطبيب جالين Galen إلى امتداح قدرتها على تمديد وإرخاء جميع أجزاء الجسم:

هو شيء يجعل جميع أعضاء الجسم تتحرك بصورةً مشابهة، ويسمح بأكثر درجات الجهد عنفاً أو بأكثر درجة من الاسترخاء؛ لا يوجد ذلك في أي رياضة سوى الكرة. ويمكن أن تكون اللعبة سريعةً أو بطيئةً، هادئةً أو عنيفةً، تبعاً لميلك الخاص، وتبعاً لما يحتاجه جسمك. ومن الممكن تمرين جميع أجزاء الجسم في الوقت نفسه، إن رأيت أن ذلك هو الأصلح بالنسبة لك، أو تمرين بعض الأجزاء دون الأخرى، إن كنت تمجد ذلك.²⁴

ولقد انبهر الكتّاب الذين تناولوا الرياضات السابقة من الحركات الجنونية غير المتوقعة للكرات المطاطية، والتأثير المتقلب لتلك الكرات، خصوصاً تلك التي تتمتع بها كرة القدم. يقول ريتشارد كاريو Richard Carew، واصفاً مباراة جامعة في كتابه عن تاريخ كورنويل، الصادر في عام 1602:

يمكن مقارنة الكرة في تلك اللعبة بروح شيطانية، لأن كل من يستحوذ عليها، ينطلق بها مسرعاً كالمجنون، فيتصارع ويتقاتل مع كل من يحاول إعاقته. وبمجرد أن تُنتزع الكرة منه، يتخلى عن هذا الغضب للاعب التالي الذي استحوذ على الكرة للتو، ثم يعود لسابق عهده من الهدوء.²⁵

وتصير الحركات الجامحة، وغير المتوقعة للكرة، ولتحركات من يسعون خلفها، مثلاً على عدم دوام الثروات الدنيوية، كما توضّح ذلك شخصية موزيلو

في رواية جيمس شيرلي James Shirely الكوميديّة، المعنونة بـ«الطائر المحبوس في القفص» (The Bird in a Cage)، والصادرة في عام 1633:

تستطيع، يا صاحب السيادة، أن تحقق مثلها من خلال كرة القدم،
فهي الرّياضة الشعبيّة في أيامنا هذه.
وما العالم إلا كرة،
نجري وراءها بحماس وشعورٍ أجوف،
من يستحوذ عليها مقدر له أن يسقط،
بعرقله كاحليه من قبل من يلاحقه.²⁶

ولكن تظّل هذه الأنواع من الكرات تستمدُّ معظم طاقتها وقدراتها المرحة من اندفاع اللّاعبين. وعلى التّقيض من ذلك، كان من الواضح أن الكرة المطاطيّة تمتصّ الطاقة، ثم تخزنها وتطلقها. ومن خلال قيامها بذلك، جعلت البعدّين الممثليّين في الأعلى والأسفل، والسماء والأرض، والحياة والموت، والاستمرار والانقطاع، والفاقة واليسر، محلّ كل منهما محلّ الآخر بطريقة تبادليّة. وحيث يكمن هبوطها في ارتفاعها، يُكتنّف ارتفاعها مجدداً في سقوطها. ولا تتأرجح الكرة المطاطيّة فقط بين الحالات المتضاربة، بل إنها تمزجها كذلك -على ما يبدو- في كيانها ذاته، الذي هو مزيج من الكثافة والتخلخل. وعلى عكس المثانة المتنفخة، التي تحتوي على جيب هوائي لا يختلط بالمثانة التي تحتويه، فإنّ الهواء يكون -على ما يبدو- جزءاً من نسيج المطاط. وبدلاً من أن تؤثر القوّة فيها وحسب، تقوم الكرة بتخزين تلك الطاقة، ونشرها، فتغيّر الحركة التي غالباً ما كانت تتغير من خلالها. ومن ثم، ومن خلال تأخيراتها وتبادلاتها وانطلاقاتها، تنسج خيوط الزّمن وتمثه على الانطلاق.

وبالنسبة لرمزها وتمجيدها للانعكاسيّة، تتسم جميع الكرات بمخالفتها للقواعد، فيما يتعلّق بالزّمن المتحرك الذي لا يقبل الانعكاس. ولكن، وفيما يمثل

عكساً لهذا الميل إلى اللانعكاسية نفسه، فقد صممت بعض الكرات لتخزين الحوادث الزمانية التي تتعرض لها، ولتجسد سيرتها الذاتية، ووصفاً تاريخياً لحياتها، وللتغيرات التي تتعرض لها في أثناء اللعب. فعندما يبدأ المرء اللعب بكرة الاسكواش، تكون بطيئة مترددة، لا تكاد ترتفع فوق مستوى الكاحل عندما ترتد. وبعد عشرات التسديدات على الحائط، يتغير ملمس الكرة، ليصير دافئاً عند لمسها، ثم تبدأ في الطيران بنشاط شديد. ويُنسَّق إيقاع ضربة الإرسال وضربات الإرجاع في التنس تبعاً لإيقاع أكبر يتعلّق بشيخوخة كرات التنس وتجدها، التي تُستبدل كل 7 أو 9 أو 11 شوطاً، تبعاً لقواعد الاتحاد الذي ينظم المباراة، في حين يُوفَّر عدد لا نهائي من الكرات الجديدة، التي يفترض أن تكون متطابقة في لعبة كرة القاعدة. وعند خروج الكرة من الاستاد، يُعاد ضبط الوقت، كما صُمِّمَت الكرة المستخدمة في رياضة الكريكت لتمتص جميع أنواع الصدمات. وتؤدي الصدمة الناتجة عن ضربها بصورة مستمرة، سواء بالمضرب أو بسبب ارتطامها بالأرض، إلى زيادة خشونة سطحها، مما يؤدي إلى فتق خط الالتحام. ونتيجة لذلك، يحاولرامي الكرة المحافظة على لمعانها في أحد الجوانب على الأقل، حيث إنَّ عدم تناسق نصف قطر الكرة يؤدي إلى ميلها في أثناء الطيران في الهواء. وقد وُضِعَ قانونٌ معقّدٌ، ومتناقض كلياً، لتنظيم تلك المسألة، حتى يتم القضاء على هذه الأنواع من التجاوزات. فيسمح لرامي الكرة بتلميعها فقط باستخدام إفرازاته الطبيعية لا غير، وهما في الأساس: اللعاب والعرق. ولقد حدث جدال طويل حول اعتبار زيت الشعر منتجاً طبيعياً، ومن ثم يمثل مرهماً مشروعاً لتلميع الكرة. ويشبه ذلك تأملات توماس أكويناس Thomas Aquinas المُعذِّبة التي تدور حول أي أعضاء الجسم يُعتَبَر من الإفرازات (الشعر، وأظافر أصابع الأقدام، والأسنان)، ومن ثم لا تكون مؤهلة للبعث؟²⁷ ولا يجوز استخدام أي مادة في المضرب يمكن أن تسبب ضرراً لا ضرورة له للكرة. ويُعد التوقيت المناسب الذي تُغيَّر فيه الكرة، عندما يصبح ذلك ضرورياً (وذلك، لأنَّ الكرة الجديدة سوف تناسب بعض رماة الكرة دون غيرهم، وستناسب كذلك

ظروفاً معينةً دون غيرها)، من أكثر القرارات تعقيداً، ويتحتم اتخاذها من قبل قائد الفريق الذي يقوم بضرب الكرة. إلا أن تلك لا تعد المناسبة الوحيدة التي يمكن فيها تغيير كرة الكريكت. وفي أنصع مثال على انعكاسية الانعكاسية والانعكاسية، يحتفظ حكام مباراة الكريكت بمجموعة من الكرات التي تختلف أعمارها ودرجات التلف المصابة به، وذلك تحسباً لضياح الكرة، أو تضرر شكلها بشدة نتيجة الضرب، ولتلبية طلب قائد الفريق الذي يقوم بالضرب (في العادة) لاستبدال الكرة.

ولم تؤدِ المرونة إلى زيادة الفرص في الرياضة وحسب، وذلك في شكل التقلب الجديد المحير المبهج، بل أدت كذلك إلى أشكالٍ من التضييق الجسماني. ويأتي ذلك -على سبيل المثال- في صورة الأنواع الجديدة من الملابس الرياضية التي بدأت في الظهور مع بداية القرن التاسع عشر، ومكنت عدداً أكبر من السيدات من المشاركة في الرياضات.²⁶ ومن ثم، اكتسب ممارسو الرياضة بعض المرونة المحسنة التي تتمتع بها الكرات التي يلعبون بها. ونتيجة لأنهم كانوا هم أنفسهم مقبدين بصورة أشد إحكاماً، أصبحت حركاتهم تتسم بدرجة أكبر من الحرية والمرونة.

وعلاوة على ذلك، فإنَّ الانتقال من غير المنتظم إلى المنتظم، ومن المتسم بالخشونة إلى المتسق، لا يعد ذاته حركةً متسقةً. وقد طورت بعض الألعاب ما يشبه عدم الانتظام المنتظم، أو التشويه المصبوغ بالصِّفة القانونية أو الرسمية للكرة. وربما كان أقدم مثال على ذلك الورب الذي صار مع منتصف القرن السادس عشر من الأمور القياسية في الكرات التي تستخدم في لعبة البولينج. تقول إحدى الروايات إنَّ مميزات الورب اكتشفت في أثناء إحدى مباريات البولينج في عام 1522. فقد كان تشارلز براندون Charles Brandon، دوق سوفولك، على وشك خسارة المباراة، بعد أن انقسمت كرتة إلى نصفين نتيجة ضربةٍ قويّة. وعندما استبدل بها كرة من رأس الدرايزين، حيث شذب الجذع العمودي من الجهة المقطوعة بسيفه بصورة غير متقنة، اكتشف بعد بضع رميات أن بإمكانه استغلال

المسار غير المستوي للكرة لجعلها تلتف حوّل الكرات الأخرى التي تقف بينه وبين الكرة الصّغيرة البيضاء كي يفوز بالمباراة.²⁹

ويتسم منشأ الأنواع الأخرى من المقذوفات بغرابةٍ مماثلةٍ. فقد تطورت لعبة كرة الريشة من لعبة المضرب، التي كانت تتمثل في الإبقاء على طيران أداة ما باستخدام مضرّين. ومن المرجح أن يكون إطلاق اسم «Shuttle cock»، ويعني حرفياً: الديك المكوكي، على كرة الريشة قد جاء تعديلاً للاسم القديم لها (shuttlecock)، ويعني حرفياً السدادة المكوكية المصنوعة من الفلين، وذلك لأنّ الأداة ذاتها كانت تصنع من تلك المادة. وربما جاءت إضافة الريش إلى السدادة -التي تشبه ترعلة الديك (الريش الموجود حول عنق الديك)- نتيجة استخدام السدادات، لتثبيت أقلام الحبر، علاوة على مساعدة الريش على إبقاء الأداة في الهواء، كما أنها تعد توضيحاً للانتقال من كلمة سدادة (cock) إلى ديك (cock)، وربما يكون هذا هو السرُّ وراء تسمية الريشة بالطائر في الولايات المتحدة الأمريكية.³⁰ وقد أُستخدم الريش في العديد من الرياضات، وكان هناك بالفعل نسخة من الرّياضة تُمارس في دول شمال أوروبا، وتعرف باسم «كرة الريشة» (featherball).³¹ وتتمثل الفائدة من الريشة تحديداً في مساعدتها على منع الأداة من الطيران بسرعةٍ شديدةٍ، مما يساعد على استمرار تحليقها في الهواء. وعندما تحولت اللعبة إلى لعبة تنافسية، في خمسينيات القرن التاسع عشر تقريباً، وكان الهدف منها هو منع الخصم من إبقاء الرّيشة في وضع الطّيران، حوّل هذا البطء إلى استخدامات هجومية، كما هو الحال في الضربة الساقطة، وفي التغيير المفاجئ للسرعة في الضربة الساحقة. وإذا كان اتساق الكرة يوفر خلفية حياديةٍ أو غير متحيّزة، يمكن تطبيق القوى التفاضليّة في مقابلها بصورةٍ يمكن التنبؤ بها، فإنّ التباين المتنوع للريشة يعقّد تلك المعادلة، فيعقّد الانتظام وعدم الانتظام لآلة الحظ الذي يوجد في شكلها الخارجي، والذي سيتبدل، تبعاً لمسار اللّعب، بين حالة المنتظم اللامتظم، واللامنتظم المنتظم.

ولا يُعرّف، على حدّ سواء، منشأ الكرة المفلطحة المدبّبة ذات الشّكل المميّز،

التي تُستخدَم في الرجبي، وكرة القدم الأمريكية. وكانت لعبة كرة القدم التي تُمارَس في مدارس الرجبي في بداية القرن التاسع عشر تسمح بركل الكرة وحملها في اليدين، ولكن لم يكن يسمح باستخدام اليدين في أثناء التقدم للأمام. وكان تجاهل هذا القيد هو ما شكل أسطورة وليام ويب إيليس Willim Webb Ellis، المعروفة بـ«عدم الإذعان النبيل» لتلك القاعدة، وذلك بدلاً من حمل الكرة باليد بالطريقة المفترضة. وكانت شركة جيلبرت تصنع الكرات المستخدمة في تلك اللعبة من مئاة الخنزير، وهناك ادعاء بأن هذا هو السبب وراء شكلها المميّز الذي يشبه الأجاص. غير أن النوع نفسه من المئاة كان يستخدم في صناعة الكرات المستخدمة في كرة القدم، التي يسود فيها ركل الكرة بالقدم. وعليه، ينبغي أن نفترض أن الشّكل البيضاوي كان يؤدّي بصورة ما وظيفة تجعلها تلائم الألعاب التي يُمسك فيها بالكرة ويُجرى بها، كما في الرجبي. ومن المرجح أن تكون الكرة ذات الشّكل الطولي قد ظهرت نتيجة تطور مهارات إمساك الكرة باليد، بل وساعدت عليها كذلك، حيث يسهل إحكام القبضة على الكرة التي يقل سمكها عند أحد أبعادها، وذلك في أثناء الجري بها، حتى باستخدام يد واحدة، وربما كان تمريرها أكثر سهولة أيضاً. وفي الوقت نفسه، لا يشجع الشّكل البيضاوي على ركل الكرة على الأرض لمسافة كبيرة، مما أدى إلى بروز الفرق بين الرجبي وبين ما صار يعرف لاحقاً بكرة القدم. ومن ثم، ربما كان بمقدورنا أن ننظر لإطالة شكل الكرة على أنه جزءٌ من ميل الرّياضة لتجسيد البعد الهوائي، وطريقة نمنح بها اللعبة بعداً آخر من أبعاد التغير.

وعلى غرار الريشة، لا تُعتبر الكرة في رياضة الرجبي مجرد شبه أداة، يتحرك إلى داخل وخارج حالة الموضوعية، بل هي كذلك شبه غرض منتظم، يتأرجح بين قابلية التنبؤ وعدمها. ويقارب الشّكل المستدير أو المنتظم حالة الشّكل أو الفكرة المجردة، وذلك لامتلاكها اتساقاً لانهائياً. أما شبه الأداة المنتظم، فيقف في منتصف الطريق بين الشّكل والجسد، بقدر ما يُنظر لهذين البديلين كمزيج بين ما هو أثري وما هو أرضي. ويقدم أرسطيدس كونتيليانوس Aristides Quintilianus

استعارة لشكل الجسم البشري، قائلاً إنه كتأثير الجاذبية، وهي تسحب الدائرة الأفلاطونية، بينما تهبط من القبة السماوية، منطقة الأشكال الكاملة، إلى ظروف الأرض الرطبة الحانقة.³² وربما كان باستطاعة المرء أن ينظر لبيضاوية كرة الرجبي كصورة تماثل الشكل الكامل وقد تشوّه وتحوّل إلى وجودٍ فإن. وبالتالي، فهو صورة من الجسد المختلط الذي يتشكل في كل مرة يقوم فيها أحد البشر، الكائن الذي يشير اسمه إلى وظيفته الأرضية، بتحقيق كمال ذاته من خلال ممارسة الرياضة. وبعبارة أخرى، يتجاوز حدود ذاته، ثم يعود إليها من خلال عملية تبادل مع أداة رياضية. ومن المرجح ألا تكون ممارسة الرياضة ممكنة دون وساطة إحدى الأدوات، حتى لو كانت تتشكّل من خلال أشكال اللّعب التي تزيد تلك الأدوات ذاتها من فاعليتها.

الفصل السادس

القواعد

الألعاب والرياضات هي مناورات مقيدة بقواعد. فممارسة لعبة، أو رياضة ما ليست مجرد لعب أو تسلية أو لهو بحرية، بل هي التزام بالقواعد. وهذه القواعد ليست مجرد وسائل راحة مصممة لجعل اللعب أكثر أماناً، أو أكثر تسلية، رغم أن هذا الأمر قد يكون أحياناً هو الدافع لإنشاء القواعد، أو تعديلها. إن مكانة القواعد في مجال الرياضة متفردة جداً. فالقاعدة، كما أشار جان بودريار Jean Baudrillard، «أشد مقاومة للكسر بكثير من (القانون) الذي يمكن خرقه؛ إذ إن بوسعك أن تفعل أي شيء بالقانون. أما مع القاعدة، على الجانب الآخر، فإما أن تلعب وفقاً لها أو لا تلعب. فإذا لعبت، فإن القاعدة لا تعرف معنى التسامح، ولا يمكنك الاحتيال عليها؛ وسيكون من الحماقة خرقها». ¹ واللعب هو الرغبة، لكنه خضوع غير ضروري للضرورة. إنك تستطيع العيش بلا انصياع للقانون دون أن ينقطع بقاءك على قيد الحياة. أما إذا لم تلعب وفقاً للقواعد، فإنك لن تلعب بطريقة خاصة وأكثر مرونة أو بطريقة مبتكرة، بل إنك لن تلعب على الإطلاق. فما الذي تقررته قواعد لعبة ما؟ إنها تحدد الهدف من اللعبة، وما يعنيه الفوز، والطريقة التي يجب أن تمارس بها. إن المرء يكسب مباراة أو معركة، ويكسب بطولة أو كأساً، لكنه يفوز «في» رياضة ما. ومن معاني الفوز «الكسب» (ويقابله في الإنجليزية كلمة gaining، وفي الفرنسية gagner)، ويشير هذان التعبيران على ما يبدو إلى أن المرء يُحصّل فائدةً بكسبه المباراة أو المعركة. لكن حرف الجر

التنبيهي «في» يشير إلى أنه، في الرياضة على وجه الخصوص، يُحدّد شكل فوز المرء دائماً من خلال هيكل تنظيمي من القواعد التي تسبق أي شكل من أشكال تطبيقها وتدوم بعده. وتمتلك الرياضة مظهراً من مظاهر السيادة هو أعظم، وغير مشروط بصورة أكبر من أي مجال آخر، لكنها تملك هذا المظهر فقط لأنها تحدّد وتضع شروط تلك السيادة، التي يجب أن يقبلها الفائز حتى يتسنى له تحقيق أيّ فوز. وهذا يمثل فارقاً بين الرياضة مثلاً والفن المفاهيمي. ففي الرياضة، لا يختار اللاعب أبداً الطرق التي يمكن أن يفوز بها، مما يجعل من المحتمل دائماً بالنسبة له أن يخسر، وأن يُخفق عادةً بطريقة لا يمكن أن يخفيها عن نفسه، أو عن المتفرجين. وأما في كثير من أشكال الفن المفاهيمي (ولعلنا نستثني منها تلك التي تُخضع نفسها طواعية، وحقيقة لشكل من أشكال الهيكل التنظيمي للعبة)، فليس من الممكن للفنان، أو لمن أبدع العمل الفني أو الممارسة الفنية أن يخسر أو يفشل، حيث إن هذه الممارسة للفن عادة ما تصنع قواعدها بنفسها. وفي هذا الصدد، تكون الرياضة منفتحة على غيرها، ويكون الفن المفاهيمي منغلقاً على نفسه. وبعبارة أخرى، نقول إنه في الرياضة على وجه الخصوص، لا يمكن للفائز أبداً أن يستحوذ على كل شيء، لأنّ الرياضة تحديداً اسمٌ لنشاطٍ يمكن تقرير الفوز فيه بدقة، وتأسيسه بشكل حاسم. سيكون هناك كلام مستفيض بشكل أكبر في الفصل التالي الذي يتناول طبيعة الفوز. وأما الجزء المتبقي من هذا الفصل فسيكون معنياً بطرق تعريف الفوز وقياسه.

وتحكّم القواعد إلى حد بعيد أنواع الحركة الجسدية المسموح بها والمطلوبة في الرياضة (وحتى في غير الألعاب الرياضية، تتكوّن اللعبة في الواقع مما يسمى «حركات» أو «انطلاقات»). ولا يمكن أن توجد رياضة دون حركة جسدية، ويجب أن تكون هذه الحركة مقصودة، وموجهة في الوقت ذاته لتحقيق هدف ما (وهو أحد الأشياء التي تميز الحركات الرياضية عن حركات الرقص)، كما ينبغي لها أن تكون. إنّ التنظيم ضروري للرياضة، لأنّ التنظيم يحدّد الشكل الخاص بالعمل المعاق بالقواعد على نحوٍ تعسفي، واللّازم لأيّ نوع من أنواع الرياضة.

والقواعد موجودة لتسمح وتحظر أنواعاً معينة من الحركة، إذ إنها تحدد أنواعاً خاصة من الحرية عن طريق فرض قيود معينة.

وتوجد القواعد أيضاً لجعل اللّعب هادفاً، إذ تسمح للعبة الجارية بأن يكون لها نتيجة، من حيث الفوز والخسارة. وبما أن ثمة انسجاماً لطيفاً للمعاني يبدو حين يتحدث المرء عن «غاية» رياضة ما؛ وأن الغاية من الرّياضة (ربما إحراز أهداف، أو اجتياز مسطح مائي معين في أسرع وقت ممكن) عادة ما تحددها الأنواع الخاصّة من الأهداف التي تترأى للمرء خلال سعيه لتحقيق ذلك؛ فإنّ الاستهداف والتنافس يمثلان الشيء نفسه. إنّ اللّهُو أو التّسلية البدنية لا يمكن أن يكون رياضة إلا إذا كانت هناك طريقة ما للفوز فيه، وبالتالي للخسارة أيضاً. ثمة إجراء واضح تنطوي عليه لعبة تنظيط الكرة، وكذلك ألعاب التّسلية المشابهة: أبقى الكرة تثب مراراً وتكراراً على القدم وعلى أجزاء أخرى من الجسم لأطول مدة ممكنة. وبهذا المعنى، يكون تنظيط الكرة نسخة من اللّعب مع الجاذبية، الذي تنطوي عليه رياضة الغوص والألعاب البهلوانية. ولا يبدو تنظيط الكرة كرياضة إلا من اللّحظة التي ينافس فيها اللاعبون بعضهم بعضاً.

ولقد لعبت رياضة تنس الريشة لعدة قرون على ذلك المبدأ الخاص بـ«إبقاء الكرة مرتفعة عن الأرض» وحسب، حيث يعمل اللاعبان معاً على إبقاء كرة الريش طائرة في الهواء بينهما. ولم تبرز لعبة كرة الريشة (واسمها بالإنجليزية بادميتون Badminton) من مجرد ممارسة هادئة واجتماعية لتصبح رياضة تسمى تنس الريشة وكرة الرّيشة إلا عندما قُنتت بطريقة جعلت من الممكن إحراز الفوز فيها، ولعل ذلك حدث في خضم فوضى ضباط بريطانيين في بونا، أو الاحتمال الأضعف أنه حدث في منزل بادميتون الذي كان يخص دوق بوفورت. إنّ النقطة التي تتمحور حولها القواعد هي السّماح للعبة بأن يكون لها غاية، وبالتالي أن تُلعب بغير الغاية، بكلا المعنيين المعتادين لتلك الكلمة، ألا وهما: «النهاية» و«النتيجة». وهذا يعني أنه، بدلاً من مجرد قضاء، أو شغل الوقت، فإنّ الألعاب والرّياضات تكون موجهة نحو نتيجة ستبعدها عن مسار الزّمن

ولم يأت من فراغ. فالمباريات النهائية ذات التسلسل الطويل تسمى المباريات الحاسمة. ومن العيوب التأسيسية للرياضة؛ أنها تعمل وسيلة لصنع القرارات - على الرغم من أنه لا شيء في الواقع يُجسم أبدأً بشكل قاطع، حيث إن إعادة المباراة أمر ممكن دائماً من حيث المبدأ - . فالرياضات وسيلة لتحصيل المعرفة، والقواعد ضرورية لضمان أنها حقاً توصل إلى المعرفة - أو على الأقل إلى الإحساس بالمعرفة، الناجم عن اتخاذ القرار. ويبدو أن من الشروط اللازمة للرياضة أنها ينبغي أن يكون من المستحيل أن تنتهي دون تحديد فائز واضح أو الإعلان عن حالة محدّدة من التساوي في النتيجة (أي التعادل). إن اللقاء الذي ربما يكون من المستحيل أن يجبرنا من فاز (ولعل هذا يمثل غالبية اللقاءات التنافسية، بما في ذلك العديد من الحروب)، لا يمكن بسهولة أن يُعد رياضة. ذلك أن العلاقة الوثيقة بين الرياضة والقواعد تأتي من حقيقة أن الرياضات نفسها يمكن أن ينظر إليها باعتبارها طرقاً لتحديد أو معرفة من أفضل أو من هو الأفضل على الإطلاق. والوظيفة الحاسمة، أو المحدّدة للقواعد لا تُفرض على الرياضة من الخارج؛ بل إنها تنشأ لتسمح للرياضة بأن تكون على ما هي عليه تعريفيّاً، وتحديداً من ناحية كونها طرقاً للوصول إلى القرارات.

ماذا تقرر الرياضة؟ إلى حدّ ما، لا تقرر شيئاً سوى من يفوز. ذلك غثّ وسمينٌ في الوقت ذاته. فعلى الرغم من أن الفوز في الرياضة يمكن بسهولة، وبتراخ تام عادة، أن تُطمس بهجته بمزاعم أن البراعة الرياضيّة هي مجرد إجراء وعاقبة تعقّب أنواعاً أخرى من الصفات - كالقدرة على التحمل، والشجاعة، والقيادة، وحسن التعاون - فإنه لن يكون من الحكمة عادةً أن نفترض أن هذه الصفات هي في الواقع الشيء الذي يجسم لمن يكون النّصر، أو أنها قابلة للنقل خارج نطاق الرياضة. فالرياضة تقرر من يفوز، ولكن في تلك الرياضة عينها وحسب. ولعل وظيفة الرياضة هي أن تمنحنا الطمأنينة من أن مثل هذه القرارات ممكنة؛ والأكثر من هذا، أن هناك طرقاً لجعل التصرفات البشريّة

حاسمة من تلقاء نفسها. والرياضات على اختلافها هي عمل فيه معرفة وعمل فيه إظهار، وهو إظهار لشيء يمكننا معرفته.

وقد تخرج القواعد في كثير من الأحيان إلى حيز الوجود لتمنع أنواعاً معينة من اللعب، إذ تفرض قيوداً على مجموعة الخيارات التي ربما تكون متاحة للاعبين. إن القواعد والنتائج الرياضية دائماً ما تحد نوعاً ما من الإمكانيات التي لا تحصى للعبة أو تحددها. لكن القواعد ليست دائماً تحد أو تقتصر على الحد من حرية الحركة لا غير. ففي كثير من الأحيان، بدلاً من تقليص القواعد لإمكانيات اللعبة نجد أنها في الواقع تُنتجها؛ بل وربما نشأت القواعد في كثير من الأحيان من الرغبة في توسيع إمكانيات لعبة بعينها، أو لمنعها من الدخول في حالة من الجمود الممل. وخير أمثلة على ذلك هي التعديلات العديدة التي أدخلت على قواعد لعبتي الكريكيت والرجبي، لكف اللاعبين عن التصرف بشكل دفاعي جزاء الحرص المبالغ فيه تجنباً لارتكاب الأخطاء. ولقد عدلت قاعدة التسلل في كرة القدم على فترات لمدة قرن أو يزيد، وذلك تشجيعاً لمزيد من المرح، والمغامرة في اللعب.

وفي المدونة التي أصدرها اتحاد كرة القدم الذي تشكل حديثاً في عام 1863، كان اللاعب يُعد متسللاً كلما كان أقرب من الكرة إلى خط مرمى الخصم. ومع التمير للأمام، المحظور في هذه المرحلة، كانت الطريقة الوحيدة للهجوم بالنسبة للاعب هي الجري بالكرة للأمام، على رأس مجموعة من اللاعبين، جميعهم يأمل في تمريرة خلفية. وفي عام 1867، غُيّرت القاعدة بهدف إعفاء اللاعب من قاعدة التسلل ما دام هناك ثلاثة لاعبين، بمن فيهم حارس المرمى، يقفون بينه وبين خط المرمى. كان ذلك مجدياً لفترة؛ بل إنه حفز أيضاً المدافعين على استخدام تكتيك الدفع للأمام في خطٍ مستقيم لإجبار المهاجمين على الوقوع تحت طائلة قاعدة التسلل. وفي عام 1925 واجه فُحُّ التسلل تغييراً آخر في القاعدة جعل من الضروري وجود اثنين فقط من المدافعين (لاعب في أقصى الملعب عادة وحارس المرمى) بين المهاجم، وخط المرمى.² ولا تتعارض القواعد في هذه الحالة مع انفتاح اللعب، بل هي موضوعة بُغية تعزيره. ومن دون هذه الأنواع من القواعد، تكون

الرّياضات التي نمارسها معرضة لخطر التدني إلى مستوى صراعاتٍ عنيدةٍ، وممّلةٍ ومتوقّعةٍ تماماً.

وقد شهدت الرّياضة أيضاً تحوّلاً مطرداً من القواعد الداخلية الرّاسخة إلى القواعد الخارجيّة، التي كان يشرف عليها ويطبّقها نوع من الوسطاء المحايدين، كالمحكّمين مثلاً أو الحكّام. ومن المفارقات أن لعبة الكريكيت التي تعتمد بشدّة على إجراءاتٍ حسابيّةٍ خارجيّةٍ معقّدةٍ من أجل رصد النتيجة، ينبغي أن تكون أيضاً من آخر الألعاب التي تعتمد في لعبها إلى حد بعيد على طريقة التحكيم. فلمعظم الوقت، يبدو أن الكريكيت تجري من تلقاء نفسها، لا تحتاج لتدخّل الحكّام إلا في أوقات الخلاف، أو الشكّ، مثل الالتقاط المنخفض للكرة the taking of a low catch أو ادّعاء أن رجل المضرب خالف قاعدة وضع القدم قبل المرمى. وتتسم الكريكيت حتى بما قد يسمى التحكيم المقلوب، أي من الحكّم إلى اللّاعين، وهذا أطرف شيء بالتأكيد، إذ إنّ عمل الحكّام هو «منح الضوء» لرجال المضارب، بمعنى إعطاء اللّاعين المسؤولين عن ضرب الكرة الفرصة لتعليق اللّعب في ظروف الإضاءة السيئة. وليس مفاجئاً أن الرّياضات قد أديرت إلى حد بعيد من خلال هذه المبادئ الخاصّة بالتنظيم الداخلي حتى عهد قريب.

ولعل كرة القدم هي أوضح مثالٍ على ذلك: فالحكّام يتركزون على طول خط التماس، ولن يُستدعى حُكّمهم إلا عندما يلجأ الفريقان إليهم في حالات المخالفة أو الأهداف.³ لقد كان القرن التّاسع عشر الحقبة الأكثر حسماً في إضفاء الصبغة الرسميّة على القواعد، وهذا يعني وضع قوانين صريحة، تكون مستقلة بذاتها عن اللعبة، وسائدة في كل الظروف. وبشكلٍ تدريجيّ، خضعت القوانين الضمنيّة للعملية التي سهاها الفيلسوف الألماني بيتر سلوتردايك «Explizierung»، وتعني بالعربيّة «الإيضاح».⁴ فبينما أصبحت القواعد أكثر تجرّداً واستقلالاً عن ممارسة اللعبة، زادت أهميّة الدور التنظيمي للمسؤول بوصفه وسيطاً بين القاعدة واللعبة. وتخطّى حكام كرة القدم خط التماس ودخلوا الملعب. إنّ هذا المزج بين الداخل والخارج يتكثّف في الرّياضة الحديثة القائمة على الوساطة، التي يجوز

فيها إكمال دور الحَكَم بالمساعدة التقنيّة، ويكون ذلك أحياناً باستخدام أجهزة الاستشعار المزروعة في قلب الملعب، التي تُعالج بياناتها رغم ذلك على مسافة من الملعب.

إن تنظيم الحركة الرياضيّة من خلال القواعد يتجاوز مجرد تهيئة الظروف التي تساعد على إحراز الأهداف، وممارسة اللعبة وصولاً إلى نتيجة حاسمة. ففي ظل التشابك المعقد بين المنظمات المحلية والدولية، تشكل الرياضة على نحو متزايد بنية من القواعد الوصفية، التي لا تحكّم الطريقة التي تمارس بها الألعاب، بل تحكّم الظروف التي يمكن أن تجري فيها أنواع مختلفة من التنافس الرياضي. هذه القواعد لا تتعلق بما يحدث في الملعب، أو الساحة، أو في حوض السباحة، بل تتعلق بسلوك اللاعبين والمسؤولين خارج زمان ومكان الحدث الرياضي.

لعبة الأرقام

من الممكن أن نفوز بلعبةٍ بكثيرٍ من الطرق التي تشبه طرق فوزنا في مسابقات أخرى؛ فمثلاً، من الممكن أن يضرب الإنسان خصمه حتى يغمى عليه أو يستسلم. ولكن الصعوبة التي نواجهها في ضمان هذه النتائج، وإظهارها أكبر مما نظن. فالقواعد ضرورية لتحديد الفائز. وفي جميع الألعاب تقريباً، تحدد النتائج من خلال المحافظة على الأهداف التي سُجّلت. وهنا تجدر الإشارة إلى أن كلمة «تسجيل الهدف» (score) ترجع إلى الكلمة التيوتونية القديمة «sker»، وتفسرها «قطع». وقد عرضنا فكرة مشابهة في الفصل الثالث: ألا وهي أن أصل كلمة «تحدد» (decide) هو الكلمة اللاتينية «caedere»، وتفسرها «قطع» أيضاً. هذا، ويرجم الوقت المستغرق في ممارسة اللعبة إلى أهدافٍ محدّدةٍ تتحقّق في نهايتها. كما تحدد العلامات وقت بداية اللعبة، والوقت الذي تستغرقه؛ فمثلاً، تتمثل نقطة بداية سباق العدو في الألعاب الأولمبية اليونانية في خط مرسوم على الأرض. ومن ناحية أخرى، يُعد اتخاذ لاعب الكريكييت وضع استقبال الكرة أول علامة على تسجيله أهدافاً.

وتحدد هذه العلامات (نقطة بداية سباق العدو ووضع استقبال الكرة) الثانية التي يبدأ فيها عمل نقش العلامات، واحتساب الأهداف، والاحتفاظ بها. جميع الرياضات بها أرقام. فالفوز والخسارة، واحتساب الإمكانيات، والاحتمالات، والعدالة، واحتساب الوقت، كلها تحتوي على طرق للاحتفاظ بالأهداف، وتقريباً جميع الرياضات تعتمد على إحراز نوع معين من الأهداف باعتبارها طريقةً لتحديد الفوز والتناجح. وحين نتذكر مفارقات الحركة لدى «زينون»، نستطيع أن نقول إنَّ تسجيل الأهداف ينطوي على صراع، والتقاء بين نظامين قابلين للقياس: الشَّكل النوعي لحركة الجسم Kinesis، والمجموع الكمي للرقم ratio؛ فحركات الجسد مستمرة، ولا يوجد سبيل للتمييز المطلق بين نهاية حركات معينة، وحركة اللُّعب وطريقته، أما عن نظام إحراز الأهداف، فهو متقطع؛ إذ إنه يقسم هذه الحركات إلى كياناتٍ محدَّدة، فليس هناك معنى لأنَّ يؤدي الشوط الأوَّل من المباراة إلى الثاني، أو أن الهدف الثاني هو الذي يؤدي إلى الثالث. ليس من الممكن تسجيل كسور أهداف في لعبة الكريكيت، بل لا يستطيع اللاعب أن يُسجل «محاولة».

وهناك عددٌ كبيرٌ من القواعد التي تخضع لها الرياضة، لكن جميع هذه القواعد تتضمن انتقال العمليات دائمة التغير إلى كمياتٍ متقطعة، وكذا تحول الحركات الزمنية إلى أشكالٍ مكانية. ورغم كون الأرقام غريبة على اللُّعب الصرف، فإنَّ أنواع الرياضات كافة تتطلَّب وجود الأرقام التي تسهم في تقسيم العالم إلى كميات محدَّدة كي يُلجأ إليها في اللعب. وكما سبقت الإشارة في الفصل الخامس، رغم كون اللُّعب تعبيراً عن الحرية الخاصَّة، فإنَّه يتطلَّب دائماً المزيد من الأشياء. فاللُّعب يحتاج لأدواتٍ للعب مثل المضارب، والكرات، والعصوات. فاللاعبون يحتاجون إلى «أدوات» يتعلَّقون بها ويحققونها لأنفسهم. الأرقام نوع من الأشياء أو الشيء، ما يقلص من لا محدودية الرياضة، ويجعلها - بالطبع - قابلة للحساب أو الانقياد لأغراض البشر. وعلاوةً على ذلك، فإنَّ الأرقام تفتح المجال أمام البشر لقياس العالم، والتنبؤ بظروفه، وتخمينه، والأهمُّ هو فرصة التفوُّق عليه.

فكم مرّة أستطيع أن أركل هذه الكرة في الهواء دون أن تلمس الأرض؟ إلى أي ارتفاع يمكنني أن أقفز؟ ما السّرعَة التي أستطيع أن أعبر بها ملعباً بهذا الطول؟ قد يبدو تحويل اللّعبة إلى هدفٍ شيئاً غريباً أو بدائياً. لا يظهر هذا الأمر بوضوح إلا في نهاية المسابقة التي يسيطر عليها لاعبٌ واحدٌ طوال وقت اللّعب، لكنه ينتهي إلى الخسارة بسبب تبديد فرصه أو بسبب أهداف الثواني الأخيرة التي يحرزها خصومه غير المؤهلين.

وفي مثل هذه الأحوال، قد يشعر الإنسان أن ثمة ظلماً قد وقع عليه، وأن الطرف الذي كان يستحق الفوز قد سلب حقه في فوزه المشروع. مع ذلك، قد يكون من العبث، أو حتى من الجنون أن يدعي أحدهم أن الجانب الأفضل هو الذي فاز - رغم الهدف الذي حققه الجانب الآخر - إلا من الناحية المعنوية والأدبية (فليس الفوز الأدبي أو المعنوي وارداً إلا في الآراء الفلسفيّة، لكنه غير وارد في الرياضات التنافسية). هذا، وحين تُتاح الظروف، لا يمكن للفريق الفائز ألا يفوز إلا إذا خرقت إحدى القواعد.

إن تسجيل الأهداف يتضمن وجود فجوةٍ بين المباراة أثناء اللّعب، واللّائحة الكميّة التي تُحوّل المباراة من خلالها إلى أهدافٍ. تُعدُّ هذه الفجوة إحدى سمات الرّياضة. إنّ نظامي الكم والكيف غير قابلين للقياس. يعني هذا أنه لا يوجد معيار مشترك لتحويل نظام إلى آخر. هذه مفارقة؛ لأنّ تسجيل الأهداف ينتج عن قياس ما لا يُقاس، ومن تحويل التصرفات المعقدة والصعبة إلى حسابات رياضيّة. من ثم، إذا كانت الرّياضات كافة تنافسيّة، ربما يُعد أكثر أنواع الصراع agon تجرداً وعموميّة الذي يميز الرّياضات كافة هو ذلك الصراع القائم بين الهدف واللّعب. ففي الرّياضة - تماماً كما في العلوم - كان هناك صراع طويل وبطيء - لكنه ناجح - بين محاولة الجمع بين منطق الرّياضيات، ونظامها والحالة المضطربة والمعقدة لحركة الأشياء على أرض الواقع. إنّ الأشكال العشوائيّة وغير المستقيمة في الرّياضيات تتيح لنا فرصة ابتكار طريقة لاستيعاب حركة تسريب الصنابير المعقّدة، وحركة الأنهار العكرة، وتزاحم الجماهير. إنّ الرّياضات القديمة على

شاكلة كرة القدم الشَّعبية، أو ألعاب الكرة قبل اكتشاف الأمريكيتين قد تكون الغيت منذ زمن بعيد، ولكن قلما حُددت بنسبة 1 - 0 لأنَّ تسجيل هدف ينهي اللعبة. لكن الرِّياضات الأكثر تطوراً مثل «التنس» و«كرة السلة» (اللتين شكّلتا مؤخراً)، تُسجل أهدافاً على مدى فتراتٍ متكررةٍ أثناء المباراة، ومن ثم، تتيح تسجيل التقلبات بشكل أدق، علاوةً على طريقة لتجميع هذه التقلبات بهدف الوصول إلى نتيجة متفق عليها تتبع مما ظهر للعيان أثناء اللعبة. وفي الرِّياضة كما في الرِّياضيات، فإننا نحاول جعل الواقع منطقياً. فدون منطق، لن يكون هناك سبيل لإدراك الواقع، إلا من خلال قوى غامضة، وغير محدّدة. لكن، في المنحنيين، يبدو أن الواقع دائماً يتخطى المنطق (رغم أن هذا يحدث على نطاق ضيق). ولكن، سيبقى دائماً شيء غير قابل للاحتساب، أو عدد غير جذري لا يمكن تفسيره، رغم أن التفسير الرِّياضي يمكنه أن يكشف عن هذا بدقة وفعالية. ورغم وجود فجوة بين اللعبة والهدف موازية للفجوة بين قواعد اللعبة وطرق لعبها ومساوية لها، فإنَّ الشيء نفسه ينطبق على المحافظة على الأهداف التي تتبع مباشرة من لعب المباراة وتؤثر فيها بشكلٍ قويٍّ ومباشر.

ورغم اختلاف اللّعب عن إجمالي الأهداف، نجد أن غاية كثير من الرِّياضات هي تسجيل الأهداف. ويعني هذا أن اللّعبات والرِّياضات قد تُعتبر أدوات لحساب نفسها. وفي أغلب اللّعبات، لا يُعدُّ محقق الأهداف هو «الهدف» الوحيد، بل اللاعبون أنفسهم. ولا تتمثل الأهداف في الجانب المكاني وحده أو الجانب الكميّ وحده، إذ إنَّ تحقيق الأهداف يعدُّ حركة تراكمية وقابلة للتغيير. من ثم، ليس أداء اللعبة وواجبات اللاعبين accountancy بأمرين متناقضين، بل سمات لبعضهما بعضاً؛ فاللّعبة عملية يُظهر فيها اللاعبون إحساسهم بالمسؤولية. وعلى مدى الأعوام، طورت عدة رياضات شكلاً من أشكال القياس الكمي بين اللّعب وتسجيل الأهداف على هيئة إحصائيات رياضية. ليس لهذه الإحصائيات قوة فعالة لأنها لا تسهم بأي شكل مباشر في احتساب البعض فائزين والبعض الآخر خاسرين؛ إذ لا يحصل اللاعب على تقدير لاستحواذه على الكرة أو عمله تمريرات ناجحة لوقتٍ أطول من الآخرين في لعبة «الرجبي». لكن الإحصائيات

تشبه الأهداف في أنها لا تحول الأداء المتقطع إلى ظروفٍ مستقرّة، جاعلة من الأداء الزمني صورة مكانية.

كما قد تُؤثر الإحصائيات بشكل كبير على اللعب. فقد يرى لاعب التنس أنه من المفيد أن يعرف نسبة الرميات الأولى التي يحاول تحقيقها في الملعب، رغم أن هذه الإحصائية لا تؤثر بشكل مباشر في نتيجة المباراة، بل إنّ ما يؤثر في النتيجة هو عدد اللعبات والمجموعات التي يفوز بها. وفي اللعبات التي تحتوي على نُظم بالغة الدقة في تسجيل الأهداف من شأنها تحديد وتسجيل المزيد من حركة اللعبة بالأرقام، يمكن البدء في مراقبة المباراة في أثناء حدوثها من خلال التعويض عن الحركة بالأرقام. وهذا يعني أننا نستطيع أن نفسر تحركات مباراة للكريكيت من الكمبيوتر، دون الاضطرار إلى الاستماع إلى التعليق على المباراة. يحدث هذا من خلال مراقبة الأرقام التي تتغير بتعاقب كراتٍ ستّ، وتغير متوسطات الضرب وركل الكرات، وما شابه ذلك.

ففي الفترة التي سبقت البث المباشر للمباريات من ملاعب «ويمبلدون» Wimbledon، لمن لا يستطيع دخول الملاعب، كانت الجماهير تتابع تقدم المباريات بمراقبة لوحة الأهداف التي كانت تتغير عند الفوز بالأشواط أو خسارتها. وكان أغلب الأطفال يمارسون شكلاً من أشكال الرياضة خارج البيوت المشابهة لرمي النرد أو غيره من الممارسات التي تعتمد على الحظ مثل لعبة الطعن (الكريكيت) Howzat! وربما تُعزى جاذبية هذه اللعبة إلى أن تقاليد إحراز الأهداف في لعبة الكريكيت يشبه تقليد لعب المباراة نفسها. يتطلّب هذا ويسمح أيضاً بتسجيل احتمالات كل كرة تُركل على حدة، ومن ثم، أخذ تقارير مستمرة عن أشياء مثل تسجيل الأهداف ومعدلات الركل التي توضع في شكل سجل للأهداف يتيح للشخص فرصة مشاهدة اللّعب من البداية إلى النّهاية وإعادة صياغة تطورها. فكل كرة من الست التي تتعاقب في لعبة الكريكيت تُسجل في خلايا صغيرة متعاقبة. وأي شخص قضى وقتاً في تسجيل أهداف مباراة كريكيت سوف يتذكر السعادة البالغة التي شعر بها في أثناء تجميع النقاط الست التي تشير إلى رمياتٍ لم تسجل فيها كرات ولم تُسجل فيها أيّ رميةٍ إلى m أو في حالاتٍ نادرة وأكثر قبولاً

w (ذات الكرسي) Cassiopeia التي يؤخذ فيها المضرب.

وتتوسع رواية «روبرت كوفر» Robert Coover التي ألفها عام 1968، تتوسع في سرد هذه الأحداث تحت عنوان «الاتحاد الكوني للبيسبول، إنك، جيه هنري ووه بروب» The Universal Baseball Association, Inc, J. Henry Waugh Prop. وتدور الرواية حول محاسب يقضي جل وقت فراغه (على مدى عدة أعوام) في ممارسة لعبة من اختراعه يُستخدم فيها النرد، مستحضراً منتخب «بيسبول» بأكمله ومعه سجلاته التي تحمل إنجازات جيل بأسره. يعيش «هنري» قصته الخاصة مع لعبة «البيسبول» التي يدخل فيها الخيال والإبداع في حياته الحقيقية، رغم شعوره بالملل من لعبة «البيسبول». فليس هناك ما يشبهها. لكن لعبة «البيسبول» الحقيقية كانت تصيبه بالملل. بيد أن الأهداف، والإحصائيات، والتوازنات الغريبة بين الأفراد والفرق، والهجوم والدفاع، والتخطيط والحظ، والصدفة والخطأ، والقوة والدهاء هي التي كانت تستهويه. فليست هناك لعبة في العالم مثل «البيسبول» لها هذا التاريخ الشامل، والدقيق، والأخلاقيات الخاصة، والغريبة، والغموض.³ ففي الماضي، كانت «البيسبول» من اللغات البطيئة أو التي تتسم بتعاقب الحركات المدروسة والوقفات الطويلة للتفكير، والتعديل التكتيكي مثل «الكريكت» و«البيسبول»، ما كان يُعطي وقتاً للإحصائيات لسدّ الفجوات.

وفي العصر الحديث، يمكن الحصول على الإحصائيات إلكترونياً بهدف المصاحبة الآنية للمباراة. كما يخضع اللّعب - في تناظر مع الموسيقى والرقص - للمزيد من تحليل الخطط، والتحركات، والاستراتيجيات بالغة الدقة.⁶ وهو ما يجعل الإحصائيات أشبه بتعليق آلي متواصل ولمحة رياضية متطورة عن ممارسة اللعبة في الخلفية، أكثر من كونها على إجمالي اللعبة، والأهداف، والقواعد. فإذا كانت قواعد اللعبة هي التي تحدد ظروف اللعبة، وإمكاناتها، والأهداف هي التي تُعبر عن مُحصلة اللعبة بعد انتهائها، تبرز الإحصائيات المقامة أياً من اللعبة وتداخل معها. كما تُعد الإحصائيات تمثيلاً للعبة، أي الطريقة التي تتضح بها اللعبة (خصوصاً حين يستطيع المعلقون والجمهور الوصول بسرعة إلى هذه

الإحصائيات). ومع ذلك، يعدُّ هذا التمثيل أحد مكونات اللعبة (وكما رأينا، يعد اللاعبون متفرجين أيضاً، وقد يستطيعون الوصول إلى هذه الإحصائيات أثناء اللعب). هذه هي الحالة تحديداً، إذ لا تحتاج الإحصائيات إلى التخلف عن اللعبة، بل لأنَّ تسمح الأهداف المتوقعة، ومعدلات رمي الكرات الستِّ في الكريكيت بتوقع مختلف النتائج حتى في أثناء المباراة، وأن تؤخذ هذه النتائج في الاعتبار بوصفها جزءاً من المباراة. ومن ثم، تبدأ الإحصائيات في مضاعفة الجزء الأساسي من اللعبة، وتنوعه، تماماً كما تضع الرياضة جسم الفرد أمامها وبجانبها، فنحن نسعى لإحصاء ذروة المشاعر التي توصلنا لها الرياضة.

اقتناصُ الفُرصِ

كانت «الرياضة» في معظم تاريخها، تعني شيئاً مختلفاً تماماً (صيد الحيوانات) عما كانت تعنيه في القرن الماضي، حتى إنَّ معنى كلمة «لعبة» اختلف كثيراً (فرغم ارتباطها المثير، تُستخدم كلمة لعبةٍ للدلالة على الحيوانات التي تصاد كنوع من أنواع ممارسة الرياضة)، وحتى فترة طويلة من القرن التاسع عشر، ظلت اللعبات واللعب لا تختلف عن المقامرة أو المراهنة التنافسية التي تعتمد على الحظ. ورغم اتساع فكرة اللعبة لتشمل أفكاراً أكثر، ظل الحظ مشاركاً أساسياً في الرياضة. فالقواعد في الرياضة مرتبطة بشكل بالغ التعقيد بمناورات الحظ، حتى ولو بدا الحظ غير قابل للاختزال في قاعدةٍ ومنطقٍ على مدى جزءٍ كبير من تاريخ البشر الذي تحرك ببطء شديد من الإيمان بالقدر وعدم الاكتراث بالحظ نحو اعتراف لا يُمحي بخضوع الأشياء للحظ. فرغم هوائية آهتهم، كان الإغريق يشعرون بأنَّ تقصي الحظ أمر دنس؛ لذا، رغم كونهم لاعبي نرد متحمسين، طوّر الإغريق نظرية الاحتمالات. ولطالما اعتقد الإغريق أن العالم مقسم بين الأقدار - الإرادة المطلقة - والحظ - والإرادة المجهولة. ولم يكن هناك صلة بين هذه وتلك.

وفي واقع الأمر، هناك أدلة قليلة في منتصف القرن السابع عشر على وجود أي شخص في أي مكان لا يشك في أن الحظ قد يكون غير خاضع لقوانين، ومن ثم، ليس عسراً على فهم الإنسان وتدبيره. وانطلاقاً من هذه النقطة، أفسحت

التعاويد المجال للتقدير المنطقي للفرص، وتعزيزها، وقد طبق هذا في الرياضة على أقل تقدير. أدى التطور التدريجي للتأويل العلمي لقوانين الطبيعة إلى فتح مجال التقدم نحو الوصول إلى المعرفة الكاملة الذي يضيق الخناق على الصدفة، حتى إنَّ كانت اكتشافات الفيزياء الكمية بدأت تلوح للجميع أن الصدفة هي أساس الأشياء.

ولكن إذا كان البشر قد استغرقوا وقتاً طويلاً لبيدوا دراسة عمل الاحتمالات، فقد استغلوا كل فرصة لتحليل مناورات الصدفة. ويرتبط تاريخ نظرية الاحتمالات ارتباطاً وثيقاً بتاريخ اللعب؛ كما يُعد مفهوم اللعب غير قابل للفصل عن المقامرة. وقد ألف «جيرولامو كاردانو» Gerolamo Cardano أول كتاب عن الاحتمالات عام 1520. ومع ذلك، لم ينشر الكتاب إلا عام 1663، وكان موضوعه الرئيس هو اللعب والنرد.⁷ إنَّ التقدم الذي شهده القرن التالي نتيجة لجهود علماء الرياضيات، مثل جاليليو، وباسكال وفيرما، كان مدفوعاً بالمشكلات المتعلقة بلعبات النرد. فاستجابة إلى طلب دوق «توسكانا» عام 1610، استطاع «غاليليو» أن يبين سبب وجود فرصة أكبر (بنسبة 1: 08)، للحصول على 10 أو 11 أكبر من 9 أو 12 بثلاث من زهرات النرد.⁸ بينما اتجه «باسكال» و«فيرما» إلى التفكير بسبب مشكلة كيفية توزيع المراهنات في لعبة النرد المتقطعة التي أطلق عليها اسم «مشكلة النقاط» - ولهذا نظير في الرياضة المعاصرة في نموذج «دكوورث - لويس» الذي ابتكره عالم الإحصاء «فرانك دكوورث» و«طوني لويس» كي يجدد أي هدف يجب أن يوضع أمام الفريق صاحب الدور الثاني في عددٍ محدودٍ من الرميات الست في إحدى مباريات الكريكت الخاضعة للمقاطعة بسبب المطر أو أي شيء آخر. يبدو أن الصدفة تلعب بطريقتين في الرياضة واللعبات. فمن ناحية، تعد اللعبات جهوداً لتشكيل الحظ. ومن ناحية أخرى، تعد طريقة لإخضاع الذات له. من ثم، تعد اللعبات استراتيجيات لتقليل الحظ أو تزويده. إنَّ أدوات اللعبة تضع شروطاً عادلة: تلك الشروط العادلة التي لا تتوافر في الطبيعة، تحديداً بسبب الآثار المنحرفة للتأرجح العشوائي، بهدف توفير مجال يمكن فيه عزل مناورات الحظ وتكبيرها.

وبالطبع، يمكن أن نعتبر الرياضيّة محاولة لجذب كل شيء نحو دائرتي الإرادة والهدف. فلاعب التنس الذي يحالفه الحظ حين تصطدم الكرة بالحبل أعلى الشبّكة دون قصدٍ، ثم تندرج إلى الجانب الآخر (يحصل على ضربة حظ) سوف يعتذر لخصمه، مُعترفاً بأنه استفاد من شيء غير مقصود. إذ يُعد الحظ أو الصدفة دلالات على رفض العالم الدخول في دائرة قوانين البشر السحرية، أو الانحياز للأطر القيمية البشريّة. ولكن لكي يستفاد من كل احتمال في أفق الرياضيّة، فمن الضروري للاعبين وللرياضة نفسها أن يعرضوا أنفسهم للاحتتمالات كي ينفوا انتفاء الإرادة البشريّة التي تمثلها الاحتمالات، ومنع انحراف مقاصد الإنسان عن السداد. قد يبدو العمل المشترك بين الحظ والقواعد غريباً لأننا اعتدنا الاعتقاد أنّها ضدان؛ فالقواعد (القوانين) توضع للحد من عمل الصدفة أو العشوائيّة، لكن الصدفة والقوانين، في واقع الأمر، متداخلتان مع بعضهما بعضاً، رغم عدم إمكانية تزامنها. ولأنه يجب تطبيق القوانين على ظروفٍ معيّنة - تلك الظروف التي تطرأ - والتي لن تحيد عن القانون (فالحياد يعني حرفياً ما تعنيه الظروف). فإنّ كان للقانون أن يتزامن مع الظرف، فلن يكون هناك قانون أو أي ظروف. فالظرف يُعد ظرفاً بالنسبة للقانون الذي لن يحيد عنه إلا قليلاً. أما القانون، فلا يعتبر إلا قانوناً لأنه يمتد خارج المكان، والزّمان، وأشكال تطبيقه؛ إذ إنه يطبق على الظروف التي يستهدفها. وهناك منظوماتٌ فكرية قليلة تحاول الجمع بين القوانين والظروف أكثر من التلمود اليهودي. فالتلمود من التّاحية العمليّة يحتوي على المشناة (الشرعية) التي تمثل الوصايا المكتوبة المأخوذة عن التوراة (أسفار موسى الخمسة) و«الجمارا» (تفسير) Gemara، تلك الكلمة المشتقة من اللّغة العبرية تحديداً من كلمة gamar، التي تعني «أكمل» وهي تأويل الوصايا. هذا، ويحتوي التلمود بالفعل على عدد من الوصفات المتعلّقة بالألعاب. بل وأكثر من ذلك، يمكننا أن نزعّم أنه يشبه الألعاب في بنائه. فليس التلمود مجموعة من الوصفات المُجردة؛ لكنه مجموعة من الأمثلة الدالة على كيفية تطبيق القوانين في مختلف الظروف. لا عجب، إذن، أن يكون هناك تشابه كبير بين القوانين والألعاب. والمؤكد هو أن الألعاب لها قوانين. بيد أن القوانين أيضاً

تتطلب شكلاً (بناءً) يشبه بناء الألعاب - أي مجال للتطبيق يمكن تفعيل القوانين أو إنفاذها فيه - فليس هناك قانون دون مجالٍ خالٍ من القانون أو «ليس قانونياً» يعمل فيه القانون. هذا، ويوسع التلمود طائفة القانون، محاولاً أن يحتوي الظروف كافة. لكن، إذ يعمل هذا، فإنها يعرض نفسه للمزيد من احتمالات الخرق.

وقد نلاحظ البدايات الطويلة والمؤجلة بشكل غامض لنظرية الاحتمالات في منتصف القرن السابع عشر في أثناء بذل الجهد للجمع بين دائرة القوانين المنطقية ودائرة الصدفة أو الظروف. لم يتمكن الفكر الإغريقي من قبول ظروف العلم؛ لأنه كان مبهوراً باكتشافه مطلقات الهندسة المنطقية التي لا يمكن الجمع بينها وبين الاحتمالات السريعة للواقع. كان يمكنها فقط التجرد من الواقع، ومن ثم، اتباع الحقائق التي تمنحها قدراً محدوداً من القدرة على وضع التوقعات.

وينشأ العلم من التجارب أو من مقابلة العقل مع التجربة. هذا، ولا يمكن تجريد الاثنين أو - بعبارة أخرى - إخضاعها لقوانين المطلق، بل بالأحرى يجب أن يوجد دائماً في تمازج. لا يمكن للعقل أن يخضع الاحتمالات؛ عليه أن يتعلم كيف يأخذها في الاعتبار وأن يتقدم نحو إدراك الاحتمالات عن طريق التسليم بها جزئياً. وتعدّ نظرية الاحتمالات أحد أهم أشكال تسليم القانون بالظروف. ويمكن اعتبار نظرية الاحتمالات قانوناً لا تخضع له الظروف بقدر ما تتبع (أي نظرية الاحتمالات) منها. لنأخذ إحدى الصور القياسية لنظرية الاحتمالات الممثلة في رمي العملة أو الترد. فإذا رميت العملة مرتين، فلن تعتريني الدهشة إذا ما ظهرت ناحية الصورة مرتين، أو ثلاث مرات متتالية، لكن فقط بعد ظهور الصورة خمسين مرة متتالية، فسوف أشك أن وجهي العملة متطابقين (بها صورة)، أو أنها موزونة بشكل غير متساو. أما إذا حدث هذا مائة مرة، فسوف تتزايد شكوكي في وجود شيءٍ مريب، بل سيرقى شكّي إلى حد اليقين.

ولم يكن البشر محتاجين إلى نظرية احتمالات ليعرفوا أن قوة الصدفة تميل إلى الانحسار الشديد حين تتكرر الأحداث، إذا ما كانت الأحداث المتكررة مستقلة عن بعضها بعضاً. إن نسبة الحصول على الصورة إلى نسبة الحصول على الكتابة في رميات متعاقبة لعملة موزونة بالكامل في ظروف متساوية، وثابتة ستعطي

تدريجياً نسبة 1:1 بمرور الوقت. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الوقت يؤدي إلى تصدع في كيان القانون، والأحداث الفعلية شريطة أن يُرأب هذا الصّدع بمرور الوقت؛ لأنّ قانون الاستدلال سوف يبرز بمرور الوقت. لكن ماذا عن «سوف» في عبارة «ستعطي تدريجياً نسبة 1:1؟» هل يعني هذا أن الأمر سيكون هكذا دائماً، وبالطريقة نفسها، وبالمعدّل نفسه في أيّ تتابع للرميات؟ كلا البتة. هذه مسألة احتمالات أكثر من كونها ضرورة لا تحتمل الخطأ. ليس مؤكداً أن عدة رميات متلاحقة سوف تؤدي دائماً إلى توليد النسبة نفسها القريبة من التساوي، رغم ارتفاع احتمالية توليدها.

لكن هذا يعني أن ادعاءات الاحتمالية، التي تبين أن اليقين ينتج من تطور الظروف وكذا من عدة صدق، تُعد (أي الاحتمالات) احتمالية في حدّ ذاتها. فمعظم مُشجعي الرياضة سيترفون أن أفضل طريقة لمحو آثار الصدق هي التأكد من أن المباريات الرياضية تستغرق وقتاً كافياً يضمن لكل خصم أن يحصل على نصيب عادل من الحظ الحسن أو السيئ. ولكن ما هو الوقت الكافي؟ عملياً، رغم وجود عدالة قاسية في توازن الطعون وارتدادات الكرة التي يمر بها اللاعبون خلال المباريات التي تتضمن خمس مجموعات، أو إصابات تعاني منها مختلف الفرق خلال موسم رياضي، سيبدو أن أحد الطرفين سيحصل على أكثر من نصيبه من المقاطعات أو سوء الحظ. هذا، وسوف يكون تعادل المقاطعات المناسبة أو غير المناسبة من أشكال الحظ (ضروب الصدفة). يُضاف إلى هذا أن نظرية الاحتمالات لا تخبرنا بأي شيء عن كيفية انتهاء المباراة بالتعادل.

وهناك 22 نسبة مختلفة تنتج عن رمي العملة عشرين مرة، دون حدود لغير المحتمل (الكلُّ صورة، أو الكلُّ كتابة) إلى الأكثر احتمالاً (10 من كل وجه)، وبحدّ يصل إلى 19 صورة إلى كتابة واحدة، أو 18 صورة إلى كتابة واحدة، وغيرها. وهنا تجدر الإشارة إلى أن «المحتمل» و«غير المحتمل» يعنيان أن الأمر لا يعتمد على عشرين رمية متتالية. لكن إذا افترضنا أن النسبة التي نحصل عليها هي 10:10، فسوف تكون هناك متواليات مختلفة من الصور، والكتابات التي تتحقق فيها هذه النسبة، وهو ما لا تخبر عنه نظريات الاحتمالات إلا قليلاً.

فليس بإمكان نظرية الاحتمالات أن تسد هذه الفجوة بين الحالات المجمعة والحالات الفردية التي تصنع الحالات المجمعة. فقد يقرب الواقع ما تضعه نظرية الاحتمالات من توقعات. لكن، سيكون ثمة اختلاف حول القيمة الفعلية أو الحقيقية. وسيكون ثمة بعض سوء توافق أو «تلاعب» بين القاعدة وتطبيقها، وبين الضرورة والصدفة. هذا هو الحيز الذي تشغله الرياضة. وفي دائرة التعليم، نشعر أنه يجب علينا عمل ما نستطيع للحد من آثار الصدفة في تسليم المهام وتقييمها حيث يقدر كل شيء طبقاً للمعايير (فالبحت بحث، لكنه محاولة أو تجربة من حيث المعايير)، ومن ثم، نحاول توضيح معايير تصحيح الأبحاث، محددتين مقدماً، وبأقصى وضوح ممكن مختلف السمات والدرجات التي تقيم مثل الترابط المنطقي، والدقة، واستخدام المصادر، ووضوح التعبير، والإبداع. ليس هناك ما يعيب هذه الممارسة التي تحول ما يمكن أن يعد مجالاً مفتوحاً، وغير محدد إلى مجال أكثر تحديداً.

وبوضع قواعد اللعبة في الاعتبار - مكان العارضة وعرضها كما اعتدنا القول - يفترض أن يتمكن الطالب من التركيز بفاعلية وتأثير في تطوير ما نريد تشجيعه ومكافأته من سمات. لكن هناك مشكلة تبرز بشكل منتظم في حالات الخلاف. فقد يتفق ممتحنان اتفاقاً كاملاً على معايير التقييم. لكن حين يأتي دور الاتفاق الكامل على معيار معين موضع شك، يقول الممتحن الأول: «أوافق تماماً على مكافأة الدقة». لكن الممتحن الثاني يخالفه الرأي قائلاً: «لا أعتقد أن الدقة من سمات هذا البحث. لكن هذا يعتمد على ما تعنيه بكلمة دقة»، كيف يمكن حل هذا الخلاف؟

وينزع البعض إلى محاولة وضع مجموعة من القواعد لكيفية تطبيق القواعد على مختلف الظروف (تعني الدقة تطبيق المنهج العقلاني بشكل ثابت، ومتقن) ولكن، ما الذي يضمن أن هذه النظرية سوف تطبق بوضوح ودون نقاش على كل مسألة موضع خلاف؟ وإلى أين تنتهي هذه النظرية؟ إذ سوف يطبق القانون دائماً بشكل غير كامل لأنه ليس إلاً قانوناً. وهذا يعني أنه سوف يفتقر القانون الضروري لحكم تطبيقه على الظروف الممكن تصورها كافة؛ لأن هذا الأخير

سوف يحتاج بدوره إلى قانونٍ يحكم تطبيقه، وهكذا.

وبالمثل، يستحيل أن تشرع قواعد ممارسة أيِّ لعبةٍ أو رياضةٍ كل شيءٍ مُحتمل الحدوث على أرض اللعب. ولا يُعزى هذا فقط إلى كون القانون محدوداً، ولكن لكون إمكانيات اللعب غير محدودة تقريباً مما يجعل الصدف غير المتوقعة مؤكدة الظهور (فما من أحد من السادة المحترمين الذين وضعوا قواعد لعبة الكريكت، أو الرجبي، أو كرة القدم، قد توقع الحاجة للتعامل مع المقاطعات التي يسببها أشخاص يجرون عراة للمباراة). هذا، وليس هناك أي قاعدة تفسر نفسها دون أن تكف عن كونها قاعدة، أو تتوقف عن امتلاك ما تفسره. وهناك سبب آخر لعدم إمكانية تطبيق نظرية الاحتمالات ببساطة، وصراحة على أي لعبةٍ أو رياضةٍ، إذ لا يمكن تطبيق قواعد الاحتمالات المطلقة، والدقيقة إلا في ظروف تتسم بالعشوائية أو عدم الثبات المطلق. بيد أنه ليس هناك ما يضمن أن أي لعبة عادلة بالكلية، وغير منحازة لأي طرف، أو إذا بدأت هكذا، فسوف تستمر هكذا، ولن تحيد عن التوازن الدقيق - حيث ترميها الرياح - لأن الحكم يميل لا شعورياً لطرف أو آخر، ولأن الغش لا ينكشف. وبالطبع، يمكن اتباع خطوات لمحاولة ضمان عدم معاناة أي فريق من سوء الحظ، حين يلعب أحدهما شوطاً أعلى التل أو ضد اتجاه الريح مثلاً، لكن هناك احتمالاً، لا تأكيداً، أن هذه التفاصيل الظرفية سوف تنزن بشكل ما ليُحتفظ بالتوازن.

ويعني هذا أنه في أي لعبة يوجد نوعان من التقلبات. هناك تقلبات تعتري أي صدفة داخل اللعبة، وهناك تقلبات أخرى تعتري اللعبة نفسها، داخل ظروف التوازن المثالية المطلوبة للعبة عادلة، وخارجها التي تعني لعبة كهذه. ويقول المثل الرياضي القديم: «كلما تدربت باجتهاد، زاد حظي». لكن، ما من رياضي يصدق هذا المثل، وإلا لن يُظهروا ذلك الاعتماد الكبير على الطقوس، والخرافات، ومراسم الاستعفاف، وطلب العناية، ووضع المعدات بشكل معين، وتقبيل أرض الملعب، ورسم الصليب، وطقوس الخدمة، والتمتمة بالتعاون. هذا، وتبدو الغالبية العظمى من الخرافات الرياضية محافظة أكثر من كونها مادية. وهذا يعني أن تلك الخرافات تحتوي على ممارساتٍ تستهدف تجنب

سوء الحظ أكثر من جلب حسن الحظ.

وتُعزى كثيرٌ من هذه الممارسات إلى تداعيات المغالطة المنطقية (بعد ذلك، من ثم لهذا السَّبب) post hoc propter hoc التي يرجع فيها حسن الحظ الناتج عن ممارسة، أو ظروفٍ معينة، يرجع إلى تلك الممارسة، ومن ثم لا يمكن الحصول عليه مجدداً دون هذه أو تلك. لقد وجد حارس المرمى الأرجنتيني «سيرجيو جويكوخي» Sergio Goycochea، نفسه يائساً للغاية بعد مباراةٍ طويلةٍ لدرجة جعلته يقضي حاجته على المرمى قبيل لعب ضربة الجزاء ضد «يوغوسلافيا» في الدور قبل النهائي لكأس العالم عام 1990. وحين فاز فريقه، شعر «جويكوخي» بأنه مضطّرٌّ لتكرار هذا التصرف باعتباره طقساً يسبق أي رمية يشارك فيها. وما لا شك فيه أن لاعبي الرياضات، الذين يندفعون نحو تكرار سلوك بعينه كي يخرجوا عن روتين التدريب اللازم للأداء الكفء، ميالون على أي حال للممارسة هذه الطقوس والمحافظة عليها.

وفي عام 1873، اخترع «فرانسيس غالتون» Francis Galton جهازاً يُدعى «لوحة غالتون»، على غرار نموذج وضعه «كارل غاوس» Carl Gauss عام 1809؛ نموذج التوزيع الطبيعي للأحداث العشوائية⁹ وفيه، يُترك عدد متتالٍ من الحبات ليسقط أسفل لوح مرصع بالدبابيس يشبه طاولة لعبة الكرة والدبابيس. سوف تنحرف الحبات إما نحو اليمين أو نحو اليسار حين تصطدم بالدبابيس، لتنتهي في أحد الصناديق المتتابعة المرصوفة من اليسار إلى اليمين في السطح السفلي. سوف تميل أغلب الحبات للتجمع في الأجزاء الوسطى لأنها سوف تحيد ذات اليسار، وذات اليمين عدداً متساوياً أو شبه متساوٍ من المرات، بينما سينحرف عددٌ قليلٌ من الحبات نحو أقصى اليمين أو أقصى اليسار، ويتطلّب هذا ألا يكون وجود احتمالية لانحراف الحبات في الاتجاه نفسه عدة مراتٍ متتالية. فكلما زاد عدد الحبات المتساقطة، تجتمع المزيد في القاع مُعطياً شكل الجرس لما يُعرف باسم «المنحنى الطبيعي» الناتى من الوسط، ويتسطح (يستقيم) على الأطراف. يوفّر اللّعب النوع نفسه من التصور لشكل الحظ.

وحين تبدأ اللعبة، يعطي اللاعبون صورةً لاحتمالية التّساوي، مطابقين

بعضهم بعضاً في تنظيمهم (ميولهم). تجسد كلمة «تنظيم» اضطراباً في الإمكانية. إنَّ تنظيم قطع الشطرنج على لوحة اللعب، أو تنظيم اللاعبين في مباراة «البيسبول» أو «الكريكت» يعني ترتيبهم، أو وضعهم في أماكنهم. لكن تنظيم (ميول) الشخص قد يعني عكس ذلك. فإذا نزعنا نحو شيءٍ إنما يعني هذا أنني أميل نحوه أو تجاهه. ليست ميولي هي الطريقة التي يُقيّم بها وضعي فحسب، بل إنها تعني كذلك سلوكي الخاص، أو وجهة نظري في الأشياء. الميول هي التوجه المميز نحو التصرف طبقاً للشكل الذي وُضعت فيه. وحين تبدأ اللعبة، ينظم اللاعبون أنفسهم في شكل صورةٍ للخيارات، والصدف، والحقيقي والافتراضي، والأشكال والظلال، ثم يبدأون في تغيير أماكنهم، والتحرك نحو الداخل والخارج مع بعضهم بعضاً. يبدو هذا وكأن مسارات اللعبة تشعل خطوط القوّة ومجالات الإمكانية، تماماً كما تُظهر برادة الحديد الجدائل المتلفة نحو قطعة المغناطيس.

وفي بداية المباراة، يكون هناك ما يشبه مشهداً ساكناً من الاحتمالات، تحدد الإمكانات المختلفة أهميتها أو تركزها. لنفترض أن أحد الفريقين حضر إلى المباراة بكامل لاعبيه مؤهلين بدنياً وفي كامل لياقتهم، وبعد تحقيقهم سلسلة سابقة من الانتصارات. في حين حقق الفريق الثاني انتصاراتٍ متفرقة، علاوة على غياب عدد من لاعبيه الأساسيين نتيجة الإصابة والوقف، إضافة إلى لعبه خارج أرضه. قدم وكلاء المراهات احتمالاً يقدر بـ $1/2$ ضد فوز الفريق المستنزف. لكن ذلك لا يعدو كونه تلخيصاً للفرص أو نتيجة نهائية لها، أو نتيجة لمسألة حسابية ما، دون حل المسألة بشكل فعلي. يتكون مشهد الاحتمال مما هو أكثر من مجرد منحدر بسيط، وسهل يقف في صف أحد الأطراف ضد الطرف الآخر. وذلك لأنَّ هناك خصائص أخرى للمشهد تزيد من نقاط القوّة والضعف وتنقص منها، كالشروخ، والشدوخ، والصدوع، والجيوب، والحفر، والجروف، والمنحدرات، وكتل العشب، وأكوام التراب، التي تجعل الاحتمالات أكثر تنوعاً وتزيد من درجة عدم توقعها. فهناك على سبيل المثال، حقيقة الإعجاب الشديد بالفريق المضيف، وهو ما يضعهم أمام ما يعرف بمحاولة فعل المستحيل، ويقصد بذلك،

أنه حتى في حال فوزهم فسينظر إلى ذلك، وكأنهم لم يحققوا شيئاً يذكر بخلاف تحقيق النتيجة المتوقعة، أما في حال خسارتهم فستكون المفاجأة والخزي اللذان سيلحقان بهم هائلين. وذلك لأنَّ مشهد الاحتمالات يتسم بدرجات معقدة. كما أن لجميع الاحتمالات درجات، أو درجات للشك. ففي حالة اليقين القاطع، تكون الشمس متعامدةً فوق رؤوسنا، في حين لا يكون لعقرب المزولة أيُّ ظل. يفيد احتمال الفوز بنسبة 95 بالمائة وجود فرصة للخسارة، أو التعادل، بنسبة 5 بالمائة فقط، أي أن الشمس تحركت إلى أحد الجانبين بمقدار طفيف للغاية. ومع زيادة طول الاحتمال، يزداد كذلك طول الظل، وبذلك يبدو الحدث الذي تكاد تكون هناك فرصةٌ لتحقيقه وكأنه سيحدث في نهاية اليوم، مع نزول موقع الشمس في السماء وامتداد الظل لثلاثة، أو أربعة أضعاف حجمه الأصلي.

وتتضمن الأسباب التي قيل إنها السَّبب وراء مرور وقت طويل قبل ظهور نظرية الاحتمال النظرة القائلة بأنَّ البحث في تفاصيل القدر يعد ذنباً من الذنوب، وكذلك عدم توافر الظروف الملائمة لفهم البشر لمفهوم تساوي الاحتمالات، أو حتى الفرص، وهو الأمر الذي يعد ضرورياً من أجل وضع نظرية للاحتمال. غير أنه لديّ اقتراح مختلف بعض الشيء عن السَّبب وراء ظهور نظرية للألعاب في وقت متأخر للغاية، الذي يتمثل تحديداً في أن الألعاب ذاتها تقوم بوظيفة مشابهة للنظرية. لقد لاحظت منذ وقتٍ مبكر أنه حينما طلب دوق توسكاني من غاليليو البحث في احتمالات وقوع النتائج المختلفة عند رمي ثلاث من قطع النرد، فلم يكن يقصد من هذا الطلب أن يحدد الاحتمالات، بل أن يؤكد ويشرح السَّبب وراء ما كانوا يشكون فيه بالفعل، الذي يتمثل تحديداً في زيادة مرات سقوط النرد عند رقم 10 عن 9. كيف كان لهم أن يعرفوا بهذا الأمر؟ قد ينبغي علينا أن نفترض أن لاعبي النرد المخضرمين قد تطور لديهم حس أو موهبة تجاه إدراك الأفضلية التي يمتلكها العدد 10 مقارنة بالعدد 9. ولا يبدو لي ذلك بالأمر البعيد، وذلك على الرغم من أن ديورا جاي بينت (Deborah J. Bennett) تجد أن تمييز أحد المقامرين للفرق الضئيل بين 0 و 11574074، و 0 و 125، يعد أمراً غير منطقي، في حين تشعر بأنَّ التفسير المرجح لذلك يتمثل في أن تكون «تلك المعرفة هي جزء

من الخبرة التي اكتسبها المقامرون، وتوارثوها عبر القرون فيما بينهم»¹⁰.
ويطرح هذا الأمر سؤالاً مثيراً حول ما يعنيه معرفة المرء بشيء ما. فهل
يجسب أن المرء يعرف شيئاً ما دون فهمه، ويقصد بذلك دون القدرة على التعبير
عنه؟ كان إحصاء أو احتساب جميع الاحتمالات الممكنة مرحلة أولى ضرورية
في نظرية الاحتمال. وحتى وقتنا هذا، يوجد عدد قليل جداً من الناس ممن لا
يحتاجون إلى إثبات طريقة عمل نظرية الاحتمال من خلال إحدى طرق التعديد
(حساب الاحتمالات). تظهر خطورة تعديد الاحتمالات منذ مرحلة مبكرة من
خلال الخطأ الذي ارتكبه الرياضي الفرنسي جين دالمبير (Jean d'Alembert)،
الذي زعم أن احتمال سقوط العملة على وجهها عند رميها مرتين هو 1 من 3،
وذلك لوجود ثلاثة احتمالات فقط (سقوطها على الوجه مرة واحدة، أو مرتين،
أم عدم سقوطها على الوجه مطلقاً)، وقد غفل بذلك عن الحقيقة التي تفيد
بأن هناك طريقتين يمكن من خلالها سقوط العملة مرة واحدة على وجهها
(سقوطها على الوجه ثم على الظهر ثم الوجه)، بينما هناك طريقة واحدة فقط
لسقوط العملة على وجهها مرتين، أو عدم سقوطها على الوجه مطلقاً. 11. ومن
ثم، فإن احتمال سقوط العملة على وجهها مرة واحدة هو 2 من 4 أو 1 من 2.
وعلى الرغم من ذلك، فإن معالجة الاحتمالات، أو تعديدها، على الرغم من
أهميته، فإننا لا ننظر إليه في الواقع على أنه عملية حسابية، وذلك على الرغم من
أن العمليات الحسابية الأولى التي تمت باستخدام الصخور، وهو السبب وراء
تسميته «الحساب»، من كلمة صخر (calculus)، كانت تشمل تحديداً على هذا
التلاعب «الأعمى»، وكذلك على الرغم من الحقيقة التي تفيد بأننا عندما نقول
إن تلك الأشياء «تحتسب» أو لا «تحتسب» تشير إلى مدى ثقتنا في هذا النوع من
عمليات التثبت أو التحقق.

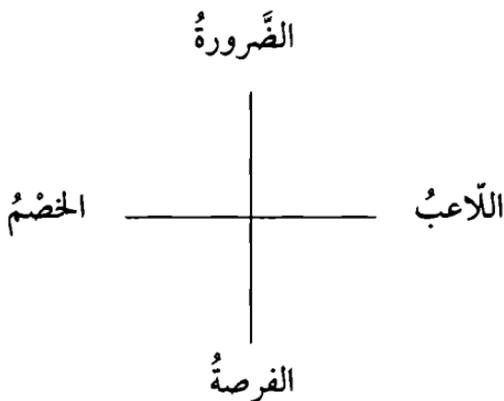
وفي واقع الأمر، فإن مثل هذا التعدد الأعمى قد يكون له أهمية كبيرة.
وبالنسبة لبعض العمليات الحسابية، مثل حساب مساحة شكل معقد، فقد
يكون استخدام طريقة مونت كارلو (Monte Carlo) هي أكثر الطرق فاعلية في
التوصل إلى حل لها. يتكون ذلك من وضع الشكل داخل مستطيل، ثم استخدام

أحد أساليب «التعشئة» (randomizing) في توزيع نقاط عشوائية داخل وخارج المساحة التي نرغب في حسابها. فإذا كانت النقاط عشوائية بصورة حقيقية، وكان عدد النقاط كافياً كذلك، فستوزع (بدرجة كبيرة من الاحتمال) بنسبة المساحة نفسها المستهدفة للمستطيل الذي يحتوي الشكل. ستظهر تلك النسبة من خلال حساب تلك النقاط. وعلى الرغم من البراعة الشديدة لتلك الطريقة، إلا أنها تبدو كنوع من الغش، وذلك لأنها لا تتضمن أي مبدأ من المبادئ، أو عملية حسابية مختصرة مناسبة.

إن أكثر ما يثير انتباهنا هنا هو أن المعرفة لا يمكن حقاً التوصل إليها إلا إذا كانت الأرقام ومراكز النقاط عشوائية بصورة حقيقية، أي غير معلومة. يمكن النظر إلى ممارسة الألعاب على أنها طريقة مشابهة لمحاولة الوصول إلى المعرفة دون امتلاكها. يتمثل جوهر اللعبة في أنه ينبغي على المرء تفسير ظروف عدم اليقين، من أجل أن يعرض المرء نفسه لها. فاللعبة هي جهد يتزامن مع معرفة لا يمكن القول إن المرء يمتلكها.

ودعونا نحاول تعديد الشخصيات الدرامية التي توجد في الرياضة أو اللعب. يوجد أولاً المتنافسان. ومن التاحية التقليدية، هناك الخصمان. وهناك أيضاً رياضات وألعاب يتنافس فيها الخصوم من خلال التنافس ضد عنصر ثالث. ومن الممكن أن نطلق على هذا العنصر «الضرورة»، أو ضرورة الحد على وجه التحديد، حيث سيوجد دائماً حد لسرعة المرء الممكنة، ولقوته، ولقدرته على الاحتمال، ومرونته. تُثلث ضرورة الحد الخصومة بين الطرفين وذلك في ألعاب التنافس التقليدية، حيث يثلث وجود المتنافسين المتعددين الخصومة بين العداء وحدوده في سباقات العدو. يظهر هذا العنصر الثالث المتمثل في الحد الجسماني في الرياضات، حيث يتوسط العلاقة بين المتبارين.

غير أنه يوجد وسيط آخر؛ حيث لا يتنافس المتباريان ضد الضرورة وحسب، بل ينبغي عليهما كذلك التباري ضد الفرصة ومعها. ومن ثم نستطيع تخيل وجود نسقٍ على النحو التالي:



ويحاول المشاركون في الرِّياضة غالباً جعل الفرصة تتوافق مع قيمهم البشريّة وتوقعاتهم، كما نفعل في العادة مع الطقس، حيث نحيل الفرصة إلى حظٍّ جيدٍ أو عسر. غير أنه ليس للفرصة مثل هذا التوجه في واقع الأمر. وعلى الرغم من تناسق الفرصة مع الضَّرورة، وذلك من حيث إنها توفر الظروف التي يجب أن تجري من خلالها جميع المساعي البشريّة، فإنّ هذا هو السَّبب في عدم تعارض الفرصة مع الضَّرورة بشكل تامٍّ ولا حتمي، وإذا كانت الضَّرورة تمثل الحدود داخل مجال الرِّياضة أو اللّعبة، فإنّ الفرصة تمثل الانفتاح للصرف للعبة، أي إمكانية ممارستها، وعدم القدرة على التكهن بها، وهو الأمر الذي ينبغي أن تتسم به إنَّ كان لها أن تكون لعبة في الأصل.

وعلى الرّغم من وجود فارق بين الفرصة والضَّرورة، فإنّ الضَّرورة تخرق الفرصة، ويعود ذلك تحديداً إلى اتصاف الضَّرورة بأنها محدّدة وفاصلة، أما الفرصة فغير محدّدة. إنّ حقيقة وجود الاحتمال، أو التعرض لدرجةٍ ما من عدم التّحديد أو الأمور غير الضَّروريّة، هو في واقع الأمر أمرٌ ضروريٌّ.

تجسّد الرِّياضة أو الألعاب ما وصفه جان بول سارتر بضرورة احتماليتنا.¹² وتمثل الرِّياضة، وذلك على غرار غيرها من أنواع المساعي البشريّة، تعرضاً متعمداً أو معارضة للضرورة، والمحدودية، والقيد. غير أن الرِّياضة تختلف

عن غيرها من أنواع المساعي البشرية في الحقيقة التي تقول بارتباط الضرورة والاحتمال بصورة وثيقة، ومتناقضة داخل الرياضة. كما أن التعرض للضرورة ذاتها في الرياضة أو اللعبة يعد أمراً عشوائياً، أو بعبارة أخرى ضرورياً. تحول الرياضة الفرصة إلى أمر ملموس، أو ممارسة فعلية للعبة. وهي في ذلك تشبه نقيض نظرية الاحتمال، التي تحاول حساب فرص نتيجة معينة سابقاً. وعلى الرغم من أن اللعب ضد الاحتمالات أو معها يعد من الصفات المميزة للعديد من الرياضات - مثل اتباع استراتيجية «اللعب حسب نسبة الخاطرة» في التنس، فعلى سبيل المثال، من خلال عدم الإقدام على أي ضربة تتسم بالمخاطرة والانتظار حتى يرتكب الخصم خطأ ما - كما أن الرياضة في حد ذاتها نوع من حساب أو تعداد الفرص.

المحاكمة باستخدام التعذيب

اضطر القضاة في العديد من النظم القضائية في العصور القديمة والوسطى للهجوم إلى أنواع عديدة من المحاكمة باستخدام التعذيب من أجل الوصول إلى حكم صائب، وذلك في المحاكمات التي تنسم بقدر كبير من عدم اليقين. فقد كان من الممكن أن يُطلب من المتهمين بالزنا المشي فوق شفرات المحراث الساخنة، في حين كان يجبر السارقون والمهرطقون على غمر أيديهم في مياه مغلية وإخراج قطعة من الحجر منها. وتدل كلمة المحاكمة باستخدام التعذيب على معاني الأمر والإلزام، ولقد ظلت الكلمة تحتفظ بالمعاني التي تشير إلى تلك الممارسة، وإلى الميول والتوجهات التي تتضمنها. وتحتوي المحاكمة باستخدام التعذيب دائماً على معنى الاختبار، أو التفريق بين الذنب أو البراءة، والنعمة أو العقوبة، وهو الأمر الذي يكون في مصلحة خصم ما دون الآخر. وقد ورثت الرياضة هذه المعاناة العنيفة كشكل من أشكال اتخاذ القرار بها.

وتختبر الرياضة على ما يبدو الأشياء من خلال التعرض للظروف القاسية والمخاطر، أو لظروف تميل فيها بصورة غريبة للاعتقاد أن قوى القانون سوف

تظهر في نهاية الأمر. وتمثل جميع الرياضات أشكالاً من إخضاع الأشياء للتساؤل، وطرقاً للتوصل إلى الأحكام، أو بالأحرى إذعان أعمال التوصل إلى حكم على الأمور للتلاعب بالأشياء ذاتها. وتُمنح الفرصة في هذه العملية قوة الضرورة، كما يناط بها مهمة محو الأخطاء، ومحو الوهم والخداع. ويأتي ذلك تماماً على نقيض المبدأ الذي أنشأناه سابقاً، الذي يقول إنَّ القانون لن يتوازي أبداً مع الظروف، وذلك نظراً لأنَّ الظروف دائماً وأبداً إما أن تتخطى القانون أو تتخلف عنه. أما هنا، وعلى النقيض من ذلك، فتمنح الظروف، وهي الطريقة التي تحدث بها الأشياء، قوة السُّلطة القضائية. ومن المثير للدهشة أن تلك السُّلطة القضائية تأتي من صلابة الفرصة غير القانونية، ومن الحقيقة نفسها التي تقول إنك لا تستطيع وضع تشريع للظروف، وذلك على حد تعبير المعلقين الرياضيين. وفي حقيقة الأمر، فإنَّ ممارسة الرياضة تمثل مبدأ تقنين المخاطرة.

أشار سيمون بارنيز (Simon Barnes) في معرض تأملاته عن الهدف الذي لعب على ما يبدو دوراً حاسماً في فوز إي سي ميلان على ليفربول في نهائي بطولة أوروبا في عام 2007، إلى أن كرة القدم تُعظم بصورة هائلة من تأثير عامل الحظ، وذلك من خلال ميلها إلى اختزال كل شيء في مباراة واحدة - المباراة النهائية. أما الألعاب من قبيل السنوكر، والتنس فإنَّ التنافس فيها يمتد خلال فترة أطول بكثير، ومن ثم تتساوى فيها فرص الفوز عن طريق الحظ. ولكن، وكما لاحظ بارنيز، «لا يوجد في عالم الرياضة حظ يعادل تسجيل هدف عن طريق الصدفة في كرة القدم».¹³ ويعتقد بارنيز أن اعتلاء كرة القدم لعرش أكثر الألعاب شعبية في العالم لم يأت من قبيل الصدفة، حيث تؤدي الأهمية الكبيرة لعامل الحظ إلى الولع الهائل بتلك اللعبة. لكنني لا أعتقد أنه محقُّ تماماً فيما يتعلق بتفاصيل مزاعمه؛ وذلك لأنَّ التأثيرات الناتجة عن الحظ ليست سلسلة بالدرجة نفسها التي يلمح إليها؛ فتسجيل هدف بطريق الصدفة بعد ملامسة الكرة للشبكة في الشوط الأوسط مما يغير من مجرى مباراةٍ ماراثونيةٍ من خمسة أشواطٍ قد يكون مجرد هدفٍ من بين عدد من الأهداف المماثلة التي تسجل في المباراة نفسها، ولكن

إن كان هذا الهدف بعينه هو الهدف الذي غير من مجرى المباراة، فستكون له أهمية هائلة من بينها جميعاً. لكن بارنيز على صواب في جوهر كلامه، حيث إنَّ هناك توجهاً في كرة القدم، على غرار غيرها من الرياضات، نحو خلق مواقف يكون دور الحظ أو الفرصة فيها حاسماً أو مغيراً لمجريات الأمور، وهي مواقف تخضع لعملية تنظيم صارمة.

وربما جعل ذلك بدوره الرياضة تبدو شكلاً معقداً على نحو خاص من التنبؤ، أو الكشف عن المعنى من خلال خلق الفرصة لأنماط الأشياء، سواء أكان ذلك في صورة مبادئ علم الأحشاء أو في التحليق السلس للطيور. ينطوي التنبؤ على الاعتقاد بأنَّ الكون يرتبط بعضه ببعض من خلال التشابه، وبأنَّ الأشياء تعكس بعضها بعضاً ويلقي كلُّ بظلاله على الآخر، ولكن من الواضح حتى بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بهذا المعتقد، أن أنماط التشابه تلك تظل متوارية في معظم الأحيان. كما ينطوي التنبؤ كذلك على الاعتقاد بأنَّ الظروف ذاتها يمكن أن تُجر فقط على إظهار اليقين في ظل ظروفٍ معينة. يوجد دائماً شكل من أشكال القانون، أو نوع منصوص عليه من القانون، يخدم التوصل إلى المعاني والأحكام؛ حيث يجب على العذارى، اللاتي يسعين إلى معرفة أسماء أو ملامح وجوه أزواجهن في المستقبل تأدية أنواع مختلفة من الشعائر، والامتناع عن تناول الطعام، وارتداء قمصانهن بصورة معكوسة وهلمَّ جزءاً. يجب كذلك أن يُتنبأ بذلك في وقت معين، أو في مكان معين، كما ينبغي أن يشتمل على النطق بألفاظٍ معينة وإتيان حركات معينة. يشكّل غير المتغير الثابت والضّروري طريقاً ضرورية نحو اختبار الأشياء على يد الصدفة، والخضوع للتحكيم من قبل ما هو عشوائي. ويجب في التنبؤ، كما هو الحال في الرياضة، أن يتشابك ما هو مقدر مع ما هو غير مقدر علاوة على تعزيز كلِّ منهما للآخر. وينبغي تبعاً للظروف أن تطبق القوّة بصورةٍ ما، وذلك من أجل أن تظهر القوّة الحرة للحقيقة الضّروريّة. وتنطوي المحاكمة بالتعذيب على اتخاذ القرار، وعلى تقليل الاحتمالات. كما أنها تحاكي عملية الزمن ذاتها، التي تخفض بصورة مستمرة من عدد واسع من

الاحتمالات حتى تصير عدداً محدوداً من النتائج الفعلية. تمثل اللعبة هذا التقليل من الكثير إلى القليل؛ وذلك في صورة سؤال محدد أو محاكمة. كما أن اللعبة تهدف، على غرار المحاكمة، إلى إصدار أحكام محدّدة، وذلك بفصل الحقيقة عن الخطأ أو ما هو غير ذي صلة، الذي قد تكون تشابكت معه بصورة غامضة. لكن اللعبة تبدأ كذلك بعرض رسمي أو بتخصيص للاحتتمالات، وذلك من خلال ما يسمى في لعبة الورق على سبيل المثال توزيع الأوراق (كما أن كلمة «توزيع» (deal) هي كذلك المصطلح القديم الذي كان يطلق على الضربة الأولى في لعبة «كذف الكرة الفضية في الشوارع» (Cornish hurling). وفي أعقاب هذه البداية التحضيرية، تبدأ المحاكمة بالتعذيب في اللعبة، التي يهدف إلى التوصل إلى الحقيقة. ومن ثم، وفي نهاية الشوطين الإضافيين، ومع استمرار حالة التعادل، تلجأ كرة القدم إلى ضربات الجزاء الترجيحية، التي يشار إليها بصورة صحيحة على أنها نوع من التعذيب أو المعاناة بالنسبة للاعبين، وللجمهور. وفي هذه اللحظة يتغير تشعب اللعبة العشوائي كي تصب في مصلحة أي فريق، الذي فشل في التوصل إلى قرار، ليتحوّل إلى عملية دقيقة لتقليل الاحتمالات. فإما أن تُسجل الضربة أو لا (من خلال صدها من قبل الحارس أو تسديدها خارج المرمى). وربما جاءت صعوبة تسجيل ضربة الجزاء التي زادت بصورة هائلة في ظل هذه الظروف من الطريقة التي تنظم بها تلك المعاناة، يضاف إلى ذلك الصعوبة المعهودة والمتمثلة في تقبل، أو فهم البشر للاحتتمالات. يفيد الواقع بأن احتمال تسجيل الضربة يزيد كثيراً عن احتمال صدها، وذلك لوجود القليل من الطرق التي يمكن بواسطتها صد الكرة، بينما توجد العديد من الطرق التي يمكن من خلالها تسجيل الضربة. غير أن طريقة تنفيذ تلك الضربات، التي تقلل من مقدار النتائج المحتملة لتصير اثنين فقط (إما التسجيل أو الفشل في التسجيل)، تشجع على إساءة فهم النتائج والاعتقاد بأنها متساوية.

ويرتبط اللّعب بالعلاقة نفسها التي تجمع بين العدد والاحتمال. فالاحتمال والفرصة هما ظلال مختلفة الدرجات (الظل المشعّشع penumbra) بالنسبة للعدد،

يمكن منح قيمةً عدديةً للاحتمال (وفي الحقيقة فإنَّ الاحتمال كان دائماً عددياً)، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ الاحتمالية لا تتلاقى ببساطةٍ مع العدد في نقطةٍ واحدةٍ. وذلك لأنَّ الاحتمالية ليست مجرد العدد الذي نشير به إلى رجحان حدوث شيءٍ ما؛ بل تمثل كذلك رجحان عدد ما. وكما لا يمكن التمييز بين الاحتمالية والعدد ولا المزج بينهما بصورةٍ كاملةٍ كذلك، فإنَّ العدد لا يمكن فصله عن اللَّعب كما لا يمكن للعدد أن يستنفد اللَّعب بصورةٍ كاملةٍ. فالاحتمالية هي استخدام العدد بالطريقة التي يجعل منها العدد ذاته أمراً ممكناً.

ومن خلال إجبار الفرصة على المشاركة بدور فعال على هذا النحو، فإنَّ الفعاليات الرياضيّة تميل في الغالب لأداء دور الكاشف، عن القدر، وتوضيح ما يجب أن يحدث، ويكون ذلك على نحوٍ خاصٍ حتى وإن كان قد تحقق في الواقع القدر من خلال أحداثٍ تصادفيةٍ لم يكن لها في الواقع أن تقع. تؤثر الرياضة في التحوّل المتسم بالصراع من حالةٍ لأخرى، من العرضي إلى الصّوري ومن الحالة غير الشخصية للفرصة العمياء والحيادية إلى الاعتقاد الشّخصي فيها هو مقدر. تنطوي الرياضة حرفياً على المخاطرة، لا من أجل الانتصار على الفرصة، ولكن من أجل الاستحواذ عليها وامتلاكها.

إن ممارسة الرياضة تعني مخاطرة المرء بذاته، والمقامرة بالذّات في المنافسة ضد الفرصة ذاتها. وهنا يوجد دائماً حالتان متناقضتان من النيات. تسعى إحداها للتغلب على الفرصة، وفرض هيمنتها، وتوجهها على ما هو غير محدد؛ في حين تتغلب الأخرى على الفرصة فقط في حالة إخضاع المرء نفسه لها، باللّعب معها، وضدها والاستمرار في ذلك حتى النّهاية.

التّظاهرُ بالمشاركة في اللَّعب

هناك قاعدة تحكم جميع الرياضات، على الرغم من عدم وجود نصٍّ خاصٍّ بها في أي من قوانين تلك الرياضات. وربما كانت تلك القاعدة متميّزة عن القواعد والقوانين التي توفر الأطر الحاكمة لكل رياضة على حدة، التي تُوجد في الأساس

القيود التي تعد ضروريةً في أي رياضة، وهي من ثم عبارة عن نصوص تشتمل على الأمور الممنوعة لا نصوص تشير إلى متطلبات الرياضة. وحتى القواعد التي تنص على المواصفات الإيجابية، مثل عناصر الأدوات الرياضية، أو تنظيم الملاعب، تقوم بدور العناصر الممنوعة من حيث تحريمها للعب على سبيل المثال باستخدام مضرب عرضه قدم، أو في ملعب كرة قدم دائري. ويمكننا القول إن القواعد المحددة التي تنص على كيفية ممارسة الرياضة هي قواعد استثناء. ومن ثم، فإن القاعدة غير المنصوص عليها التي تحكم ممارسة كل رياضة لا تعد تحريماً بل هي ضرورةً إيجابيةً. فهي الإلزام الذي يتحتم على المرء محاولة الفوز به. ولا يمكن النص على تلك القاعدة غير المنصوص عليها بوصفها جزءاً من نظام معين للسلوك وذلك لأنها تمثل شرط قبول جميع قواعد اللعبة، أو الطرف الذي تصبح من خلاله جميع القواعد حازمة، وذلك على حد وصف بودريار (Baudrillard). ولا يتحتم على المرء أن يلعب في الأساس، ولكن إن كان له أن يمارس اللعبة، فعليه إذن أن يمارسها بصورةً صحيحة، ولا يعني ذلك مجرد ممارستها طبقاً لقواعد اللعبة، ولكن أن يتقبل كذلك نتيجة المباراة، التي سيحاول المرء الفوز بها تبعاً للطريقة المعينة التي تنص عليها القواعد.

ويجب على المرء أن يأخذ اللعب على محمل الجد، وألا يستخف بممارسة اللعب. وهذا هو ما يشير إليه الغش في جوهره. ويقدم مارشال سواين (Marshall Swain) ومايلز براند (Myles Brand) وصفاً اصطلاحياً بدرجة أكبر للغش، كما يلي:

يغش المرء، الذي نشير إليه بالحرف (م)، في اللعبة:

- 1) إذا شارك (م) في اللعبة لاعباً أو مدرباً.
- 2) إذا خرق (م) قاعدةً رسميةً للعبة بغرض الحصول على أفضلية غير عادلة يتفوق بها على خصمه في اللعبة.¹⁴

ولكن لا يبدو لي أن ما سبق يعبر عما يعنيه الغش بصورة جيدة، وذلك لأنه

يقتصر على خرق القواعد الرسمية (على الرغم من تعديل سواين وبراند في نهاية كتابها هذا التعريف ليشمل القواعد المتعارف عليها كذلك). يربط ذلك بين الغش واللعب غير النظيف، أو اللعب بطريقة تخرق قواعد اللعبة. لكن المرء يمكن أن يخرق قواعد اللعبة ويتقبلها في آنٍ واحد. وبالفعل، فإنَّ خرق القواعد ينطوي بشكل عام على قبول لهيكل القواعد، وبخاصة إذا كان من المحتم خرق بعض من تلك القواعد بصورة غير متعمدة. وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ الغش ينطوي دائماً على نوع من الخداع، أو محاولة كسب نصر، أو ميزة من خلال التظاهر بلعب المباراة بينما لا يقوم المرء بذلك حقاً، وذلك لاعتماده على قواعد لا يحترمها. وفي واقع الأمر، فإذا لم يحاول المرء الفوز بصورة عادلة، فإنه بذلك يمارس الخداع ضدَّ خصمه، وذلك من خلال انتزاع قدرتهم على الفوز بصورة عادلة ونزيهة. أما اللاعب الذي يدعي الإصابة لكسب التعاطف، أو للتأثير على المتفرجين بسبب شجاعته، أو لإخراج نفسه من موقفٍ مملٍّ أو صعب، فلا يكون غشاشاً، وذلك لأنه ومن ناحية ما لا يشارك عندها في اللعب من الأصل. ويمكن القول إنَّ الغش يحدث فقط عندما تكون هناك محاولة لكسب أفضلية في اللعبة من خلال الخداع، وذلك بترك الخصم يلعب طبقاً للقيود المفروضة في اللعبة بينما لا يلتزم هو بتلك القواعد نفسها. وعليه، فإنَّ الغش لا يمثل خرقاً للقواعد، وهو أمر طبيعي في اللعبة، لكنه يمثل بالأحرى التظاهر باتباع تلك القوانين. ومن هنا، فإنَّ الغش لا يمثل «عدم لعب المباراة»، بل هو استغلال عدم اللعب هذا (محاولة تطبيق القواعد بصورة غير متساوية) كطريقة للعب المباراة.

وعلى الرغم من وجود عقوبات قاسية في الرياضة ضد التمثيل، والخداع، فإنه لا يوجد قاعدة محدّدة في أي رياضة من الرياضات تحرم الغش، ويقصد بذلك أنه يتوجب عليك عدم التظاهر فقط باللعب، وذلك لأنَّ هذا الأمر يمثل شرط الانخراط بمحض إرادة المرء في عقد خوض المباراة. وهنا يمكن القول إنَّ جميع الرياضات تحكمها قاعدة سامية أو عليا، التي تنص على أنه عندما تخوض مباراة ما فيتحتّم عليك أن تلعب من أجل الفوز، أو اللعب بصورة جيدة على

أقل تقدير. ينطوي الغش دائماً على شكل من أشكال الخداع، ومن ثم يجب أن يكون هناك نفور قوي لدى اللاعبين والجمهور تجاه هذا التصرف، ومن مجرد فكرة الغش وذلك لأنّ الغش يضرب الرّياضة في صميمها من خلال الحيلولة دون إمكانية الدخول في قبولٍ متبادلٍ وبمحض الإرادة لشروط اللعب. يمثل خداع الغش هجوماً على ما يمكن أن نطلق عليه مبدأ جدية الرّياضة.

ولا يمكن لأي شيء أن يفرض هذا القيد، أو القاعدة مهما كان، حيث يجب القبول بها طواعية. وليس بمقدورك أن تجبر أي شخص على القيام بالاختيار الحر الذي تنطوي عليه الرّياضة. فإذا أجبر المرء على اللعب، فلن يكون هناك أي معنى للإلزام الذي يقتضي أن يلعب المرء بصورة فعلية، بمعنى أن يحاول جدياً تحقيق الفوز، وفي ظل هذه الظروف فإنّ المرء لا يشارك في اللّعب فعلياً. وذلك لأنّ هذا الإلزام يكون نافذاً فقط إذا أقدم عليه اللاعب دون أن يجبره أحد على ذلك، ويكون هذا النفاذ عندئذ مطلقاً، حيث إنه يشكل عنصراً أساسياً في الرّياضة المعنية. وفي حقيقة الأمر، فإنّ إجبار المرء على المشاركة في اللّعب يمثل خداعاً يشبه الغش، وذلك لأنه يمثل خرقاً لشرط اللّعب بمحض الإرادة الذي تقوم عليه جميع الألعاب. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّ هذا الاختيار الحر لا يكون محددًا بصورة دائمة من خلال قرار صريح أو حالة ذهنية معينة. أما بالنسبة لتلك الأجيال التي تكره الرّياضة، وكانت تجبر على النزول إلى ملاعب كرة القدم والهوكي المليئة بالطين بينما كان باستطاعتهم القيام بأي أمر آخر بخلاف ذلك، فلربما كُتب لهم التّجاح فعلاً في عدم المشاركة في اللّعب من خلال عدم رضاهم عن ذلك. أما إن اضطروا للمشاركة في المباراة بعزيمة، وذلك نتيجة للتهديد أو لانصياعهم الشديد أو بحكم العادة، فإنّ ذلك سيمثل تعبيراً عن رضاهم على الرّغم من عدم ميلهم لذلك في الأصل. وفي ظل هذه الظروف يمكن أن يقال إنك قد قبلت بمحض إرادتك وبشكل فعلي بمتطلبات الرّياضة دون قصد ذلك.

ويمكن لهذا الإلزام الخاص باللّعب بجدية أن يقودنا إلى جوهر لغز الرّياضة.

ففي العادة تعرف الرياضة من خلال القواعد الخاصة التي تميزها عن الحياة العادية. ويشبه اللعب من بعض النواحي التمثيل الذي نجده في دور المسرح والسينما، وفي الرقص وغير ذلك من الفنون الاستعراضية. ففي كل تلك الحالات، لن تتمكن من فهم ما يدور فيها إذا لم تتمكن من فهم الحقيقة القائلة إنَّ الممثل الذي يلعب دور عطيل لا يشعر بغيرة قاتلة تجاه الممثلة التي تقوم بأداء دور ديدمونة، أو أن فريق كرة القدم لا يكافحان فعلاً للاستحواذ على الكرة (ومن هنا جاءت الحيرة التي شعر بها زائر الأرض من كوكب المريخ حين شاهد مباراة لكرة القدم، ثم تساءل بعد بضع دقائق لماذا لا يمنح كل فريق كرة ليلعب بها بمفرده). إنَّ الهدف من الرياضة، المتمثل تحديداً في حقيقة ابتعادها عن العلاقات العادية الخاصة بالسيطرة، والخصومة وبأنها «مجرد لعبة»، يجعلها تشبه على ما يبدو تلك الأنواع سابقة الذكر من الفنون. غير أن الرياضة تختلف بصورة جذرية وذلك من حيث إنَّ المرء لا يمكنه أن يصفها بأنها مجرد تظاهر أو تمثيل. وحتى إنَّ كانت «مجرد لعبة»، ونقصد بذلك أنها ليست حقيقية، لكنها تظل على الرغم من ذلك مباراة، ويقصد من ذلك أن هناك مباراة قائمة بصورة لا جدال فيها.

ونتيجة لهذا السبب، فإنني أميل للقول إنَّ تجسيد الرياضة لمبدأ الإيجابية المطلقة - أو على العكس من ذلك تماماً، أي خلوها من السخف - يمثل إحدى أهم خصائص الألعاب. وعلى نقيض «الحياة الحقيقية»، التي تعجُّ على الرغم من سمعتها العالية بكم هائل من الضبابية والأوهام والخدع والغرور والأمانى الكاذبة، فإنَّ الرياضة تخلق قسراً حالة يستحيل إنكار ما يحدث فيها. وعلى الرغم من كل المزاем القائلة إنَّ الرياضة تمثل إزاحة مسرحية للرغبات البشرية والقيم والمناقب، فإنَّ الرياضة في جوهرها تعد غير رمزية بصورة حماسية كما أنها لا تبعث على الأوهام، على الرغم من اشتقاق الأخيرة من لفظ ludere اللاتيني الذي يعني اللعب. كما يكمن الهدف منها في توفير مكان، وزمان لا يكون للتظاهر فيها أي مكان، اللذين يمكن للمرء أن يضمن أن كل ما يحدث فيها يحدث بصورة

صادقة وغير رجعية. وبطبيعة الحال، فإنَّ هذا هو ما يشجع على ممارسة الغش؛ وذلك لأنَّ الفوز بالتَّصر في ظل هذه الظروف يكون له قيمة كبيرة.

ومن هذا المنطلق، فيمكن أن نرى أن الرِّياضة تقوم بإجبار الأشياء على الظهور بمظهرها الحقيقي، رغم أنها تسهم بشكل كبير في ثقافة الإلهاء والوهم. وعلى الرغم من مضاعفة الرِّياضة للتردد وعدم الوضوح، فإنَّ الهدف منها يكمن في زيادة - (ما لم يتوجب على المرء أن يقول تقلل) - قدرة الوصول لما هو واقعي. وكما نوهت إليه للتو، فإنَّ الرِّياضة تقوم بدور القاضي في المحاكمة، وذلك من حيث إصدارها للحكم أو للقرار. كما قلت إنَّ السِّياق الرِّياضي يمثل محاكمة بالتعذيب أكثر من كونه محاكمة باستخدام الأدلة والحكم، وذلك لأنَّ الحدث الرِّياضي يهدف إلى إجبار الدليل على الظهور للعيان بصورة واقعية. وربما اعتمدت الصلة بين الرِّياضة والمحاكمة بالتعذيب على مبدأ الإيجابية؛ وذلك لأنه إذا لم تكن الرِّياضة شيئاً واحداً، فكيف لها أن تصدر قرارها بصوت واحد؟ وبطبيعة الحال، تنطوي ممارسة الرِّياضة على تبادل متواصل، ومعقد بين الدوافع والنيات، والخيارات المتاحة من ناحية، والخيارات والتصرفات وإخراج الأمور إلى حيز الواقع من ناحية أخرى، غير أن الرِّياضة تهدف دائماً وتميل صوب اختزال الافتراضي ليصير حقيقياً. وعلى الرغم من السمعة التي تتمتع بها الرِّياضة والتي تقول بتشجيع الطموح والتحوُّل الذاتي، فإنَّ الرِّغبة تتحكم في حركتها في حصول التطابق بين الكينونة والمعنى.

ولقد كانت الفكرة التي قال بها أنطونين أرتو حافزاً لبعض أنواع المسرح الحديث، وتقول الفكرة بالهروب من حالة الانعكاس المهلهل أو محاكاة الآخر، أو غيره من عناصر الواقع الأساسية، وذلك من خلال محاولة تقديم نوع من الوحشية يتسم بدرجة أكبر من الواقعية مما عليه الحال في العالم الحقيقي، بكل ما فيه من حيل ومراوغات ومقاربات. ومن الممكن القول إنَّ الرِّياضة تهدف إلى نوع مماثل من الحقيقة المطلقة، أو معالجة قاسية لكل ما هو مشروط واحتمالي. وربما كان هذا هو السر وراء تشابه حالة بعض الأشكال المجهددة من الفنون

الاستعراضية أو المسرحية مع الرياضة. وذلك لأن الممثلين المنهكين في عرض فرقة فورسد انترتاينمنت (Forced Entertainment's Quizoola)، الذين تجبرهم قواعد العرض على الاستمرار في طرح الأسئلة والإجابة عنها لساعاتٍ طويلةٍ، لا يتظاهرون من أي ناحية منطقية للقيام بذلك. تبعث تلك الرغبة العارمة في الوصول إلى الحقيقة المطلقة، التي تصل في بعض الأحيان إلى حد النشوة، أن تكون أيضاً وفي الغالب بشعة، وسامة بشكل شديد فيما يتعلق بالموضوعية الدقيقة التي لا نكاد ندركها والتي تؤدي إليها الرياضة.

وعلى الرغم من ذلك، فإذا كانت الرياضة تتعارض في جوهرها مع المحاكاة، فإن المحاكاة تشكل جزءاً أساسياً منها. فالتغلب على خصم ما ينطوي في الغالب على تزييف النيات، أو بذل المرء قصارى جهده لإخفائها كلية. يعد التظاهر أو التمثيل من أكثر التصرفات الرياضية تعقيداً وقوة. ولقد اتصفت دائماً تلك الأنواع من التصرفات الخادعة بالغموض. كان المصارع الذي يحاول خداع خصمه وإيقاعه في شبكة، الذي كان يطلق عليه في اللاتينية reticularius، من أدنى المصارعين مكانة. كما كان شبهةً من الريبة والشر والخداع فيما يتعلق باستخدام الانحراف، سواء أكان ذلك بالنسبة لجسم اللاعب أو للمقذوفات، وربما عاد ذلك إلى الشعور الذي تؤدي إليه من عدم التجاح نتيجة لاتباع القواعد بل من خلال تعديلها بصورة غير ظاهرة، وبطريقة لا تعد قانونية بشكل كامل. عبر والت ويتان عن شكواه في قصيدة في عام 1889 حيال ذلك قائلاً: «هل من القواعد أن يرمي الرامي الكرة بطريقة تجعل حامل المضرب يعجز عن ضربها؟ اضربها حتى تنحرف - ولم لا - فتترلق عند لمس المضرب أو لا يمكن ضربها بصورة صحيحة؟... وكان الرياضي في وقتنا المعاصر قد صار كالثعلب والشعبان وصار مخادعاً ومتحايلاً - على الرغم من أنه لا يجوز لي قول ذلك، فالثعبان غادر بحكم مولده، أما الإنسان الشعبان فيعود غدره لغير ذلك، إذا جاز التعبير». 15. كما اشتكى حامل المضرب الإنجليزي آرثر شروثري بصورة ماثلة من الكرة المنحرفة للاعب بوثانكويت ووصفها بأنها غير عادلة. 16.

ويوجد في الألعاب غالباً مناطق يسمح فيها بتصرفات مستهجنة لكنها تكون رغم ذلك مسموحاً بها، والتي تسمح بها قواعد اللعبة بشكل تام، لكنه يُنظر إليها على أنها تمثل بصورة ما خرقاً للروح الرياضيّة. وكان من أغرب تلك التصرفات انعدام المصدقية الذي كان يرتبط بتسجيل هدف في لعبة الكريكيت من خلال رمي الكرة إلى يسار حامل المضرب. فعلى الرغم من عدم وجود قاعدة تحرم ذلك، علاوة على احتساب الأهداف التي تسجل برمي الكرة إلى يمين حامل المضرب بالدرجة نفسها التي تحتسب بها الأهداف التي تُرمى فيها الكرة إلى يساره، فقد كان ينظر لرمي الكرة بتلك الطريقة، حتى عشرينات القرن الماضي، على أنه تصرفٌ رخيصٌ مشينٌ. وربما كان السبب وراء ذلك يتمثل في الحقيقة التي تفيد بأن حامل المضرب لا يستطيع توجيه إدراكه بصورة كاملة إلى الكرات التي ترمى إلى يساره كما يفعل مع الكرات التي ترمى إلى يمينه، كما قد يرجع السبب وراء ذلك أيضاً إلى تشجيع طريقة اللّعب تلك لحامل المضرب للوقوف بصورة تحفي جزءاً أكبر من النّصيبة (المرمى) عن مرمى بصر ضارب الكرة، مما يحرمه من رؤية عادلة للمرمى للتسديد حتى يسدد الكرة إليه. وربما زاد كذلك من درجة الاحترام المنخفضة التي كانت تحظى بها طريقة اللّعب تلك نتيجةً للحقيقة التي تفيد بصعوبة ضرب الكرات، خاصة تلك التي تطير بسرعة عالية، التي تكون على الجانب الأيسر من حامل المضرب، كما أنها تكون وبكل تأكيد أكثر صعوبة في ضربها باستخدام الأسلوب التقليدي المتمثل في توجيه الجسم والمضرب بصورة موازية لمسار الكرة، مما يعني أن الكرات التي تأتي من الجهة اليسرى لحامل المضرب تكون غير تقليدية وغير متوقعة. تدخل أشكال الخداع تلك أصنافاً من أساليب الأداء الاستراتيجية إلى قلب الرياضة. وليس من السهل دائماً التمييز بصورة تامة بين أشكال الخداع غير القانوني، أو اللّعب غير الجاد، وأشكال اللّعب التي قلنا إنها تدخل ضمن نطاق الغش.

وهناك صعوبة تتسم بدرجة أكبر من الضباية يجب أخذها في الاعتبار. ومن المؤكد أن الالتزام بأخذ الرياضات على محمل الجد ينطوي ضمناً على

مطلب الالتزام بالقواعد. ولكن وكما أسلفنا، فإنَّ تشكيل القواعد قيوداً يجب أن يتنافس اللاعب ضدها يمثل خاصية من خصائص الرِّياضة. كما أن ميل اللاعبين للوصول إلى أقصى درجة تسمح بها تلك القواعد يعد من الأمور التي تحتوي عليها الخاصية السابقة بصورةٍ ضمنيةٍ، وذلك إذا مزج هذا الميل بالالتزام بممارسة الرِّياضة بجديّة، أي اللّعب من أجل الفوز. وقد يؤدي ذلك إلى جعل المرء نفسه عرضةً للانهيار لعدم الالتزام التام بالتنافس تبعاً للقواعد وضدها. فليس بمقدورك عرقلة لاعب آخر في كرة القدم دون المخاطرة على الأقل بارتكاب مخالفة. وفي الغالب يؤدي التنافس ضد القواعد إلى خلق أشكالٍ استراتيجيةٍ جديدةٍ لم يرد بخصوصها نص سابق، حتى تلك اللّحظة، ولكن وعلى ما يبدو، تتطلّب لاحقاً أن يُجد منها أو تحرم كلية. ومن هنا، فإنَّ الميل لممارسة اللّعب التزيه، الذي لا يحافظ فقط على القيود الظاهرة لكنه يتمسك كذلك بالالتزام الضمني المتمثّل في اللّعب بجديّة، يتمثّل في دفع اللاعب بصورةٍ متناقضةٍ نحو خرق القواعد. تشير عبارة «خرق القواعد» ذاتها إلى أن أثر الضّغط الناتج عن اللّعب بجديّة علاوة على محاولة المرء بذل أقصى ما في طاقته سيؤدّي إلى تشجيع اللاعبين على المخاطرة فيما يتعلّق بالقواعد، ولا يكون ذلك من خلال خرقها بصورةٍ فاضحةٍ، بل بالوصول بها إلى أقصى حدودها. وكما يأتي في النصيحة التي توجه إلى لاعبي البيسبول، وعلى حد تعبير سكوت أوستلر (Scott Ostler): «إذا لم تغش، فإنك إذن لا تحاول الفوز كما ينبغي».¹⁷

ولكن يختلف مثل هذا النوع من الضّغط الإلزامي للقواعد عن الغش. وذلك لأنه بينما يقاوم اللّعب بصورةٍ نزيهة القواعد ويمجازف ضدها، كما يسعى للحصول على ميزةٍ بواسطة العثور على طرق للنجاح من خلال ما تسمح به تلك القواعد، أو من خلال عدم خرق ما لا تحرمه تلك القواعد بصورةٍ صريحة، فإنَّ المكاسب التي تأتي من خلال الغش تحصل على الأفضلية من خلال توقع اتباع اللاعبين المنافسين للقواعد. يتحدى اللّعب التزيه القواعد، ويتنافس ضدها عن قصدٍ؛ أما الغش فيعتمد بصورةٍ غير نزيهةٍ على استغلال تلك القواعد. يخاطر اللّعب

النزيه دائماً بخرق القواعد؛ أما اللّعب غير النزيه فيعتمد على السُّلطة المحرمة للقواعد بالنسبة للخصم. تتضمن جميع أشكال اللّعب خرقاً للقواعد من حين لآخر، لكن الغش ينطوي على التظاهر باللّعب في حدّ ذاته. يعد الغشاش مذنباً لأنّ ممارسته للعب لا تتسم بالجد، ولأنه أساء السلوك بصورة متعمدة في طبيعة النّشاط المعني.

ويقدم كانت (Kant) توجيهاً للاستقامة الأخلاقية يتمثل في اختبار يجتبر قابلية التعميم العالمية: إذا كان بمقدوري السيطرة على هذا العامل المنطقي ليتصرف بالطريقة نفسها التي أنصرف بها، حتى وإن أثرت تصرفاتهم بشكل مباشر على مصالحني، عندها يمكن تبرير تصرفاتي. يعد ما سبق اختباراً قوياً لتحديد ما هو خير، ولكن وكما لاحظنا في كثير من الأحيان، فإنّه لا يقدم أي حجة تجيب عن التّساؤل القائل: «ولكن لماذا يسعى الإنسان لأنّ يكون خيراً في المقام الأول؟» (بخلاف الإشارة إلى أن فعل ما هو صوابٌ يعدُّ على درجة أكبر من العقلانية التي تتسم بالضعف والتي لا يمكن دعمها بالدليل، كما أن ما سبق لن يصمد كثيراً عندما يجد المرء منفعةً، وميزةً في فعل ما هو خطأ). هناك فارق كبير مشابه يفصل بين الغشاش واللاعب النزيه. وعلى حدّ تعبير جراهام ماكافي (Graham McFee) «فإنّ اتباع القواعد لا يمكن أن يكون في حدّ ذاته مسألةً تفرضها بالقواعد».¹⁸ ولا يرجع احتقار الغش بدرجة كبيرة إلا - (وقد ازدادت الأدلة على صدق ذلك وكذلك على العديد من الحيوانات الاجتماعية بخلاف البشر) - لأنه أمر مستهجن، ولكن لكونه أمراً سخيلاً. ويعود كونه أمراً مستهجناً بصورة كبيرة إلى اتّصافه بتلك السخافة. وكما يشير بودريار في الاقتباس الذي بدأت به هذا الفصل، إلى أنه من السخافة حرفياً أن نارس الألعاب من خلال التظاهر بخوض المباريات؛ وذلك لأنّ الطّريقة الوحيدة لممارسة الألعاب تكون من خلال قبول القواعد، وهي قواعد لا جدال فيها وذلك لأنها على وجه التّحديد عشوائية ويكون القبول بها بمحض إرادة اللاعب (وهو ما يفيد بأنها هي في حدّ ذاتها تتصف بالسخف)، فمن المستحيل منطقيّاً الحصول على أي أفضلية من

خلال التظاهر بممارسة اللعبة؛ وذلك لأنك حينها لا تمارس اللعبة فعلاً. ومن ثم، فإنَّ الغش لا يمثل جريمة في الألعاب، بل تحدياً وجودياً لها. وتأتي العداوة ضد الغش من الرغبة في حماية وجود اللّعب ذاته، الذي يؤدي به الغش إلى أزمة. ومن ثم، فحينما وجد الغش أدى إلى استنزاف واقعية اللّعب، فيخلفها شبحاً واهياً لا قيمة له، حيث يُكشف عن أن الغشاش ليس وحده الذي يتظاهر بممارسة اللّعب؛ بل يتضح كذلك أن بقية اللّاعبين كانوا أيضاً يتظاهرون باللّعب، وذلك بناء على أن اعتماد اللّاعبين على قبولهم المتبادل لقواعد اللّعبة كي يكون بمقدورهم الانخراط فيها. ومن هنا يأتي الشعور بالمرارة والمذلة الشديدة من قبل اللّاعبين الذين يكتشفون بأنهم قد شاركوا في مباراةٍ متفقٍ سابقاً على نتيجتها. فلم يسبق أن ظهر على محمد علي كلاي تلك النظرة المليئة بالغضب الصادق، كتلك التي رمق بها سوني ليستون باحتقارٍ مليءٍ باليأس، وذلك بعد أن سقط الأخير على الأرض بعد ضربة مصطنعةٍ بعد مرور دقيقةٍ وأربعين ثانية فقط من الجولة الأولى من مواجهتها في عام 1965. فإذا كان مبدأ الإيجابية المطلقة هو المحفز للرياضة، أو مبدأ مصداقية ما يقع في المباراة من أحداثٍ، فإنَّ الغش يفرغ تلك الإيجابية، ويحولها إلى خداعٍ محكم ولكنه سخيّف أيضاً.

ويدل على ذلك بصورة واضحة الهدف الذي سجلته فرنسا في آيرلندا في التّصفيات المؤهلة لكأس العالم 2010. وكما أظهرت كاميرات التسجيل بصورة واضحة فيما بعد، فقد ارتدت الكرة بعد ارتطامها بالأرض إلى تيري هنري على ارتفاع يقل قليلاً عن خاصرته مما لا يمكنه من تسديدها ومن ثم وخزها بيده إلى وليام جالاس الذي سجل منها هدفاً. اعترض الفريق الأيرلندي بغضبٍ فلولا هذا الهدف لكان لهم الحق في الصعود إلى نهائيات كأس العالم في جنوب أفريقيا بدلاً من فرنسا، ولذا طالبوا بإلغاء الهدف، أو إعادة المباراة. ولكن ومن ناحيةٍ ما، فقد أفرغ تيري هنري المباراة بأكملها من مضمونها.

وربما عاد هذا النوع من الغش بتبعات أكثر خطورةً على الغشاش، ممّا قد يعود به على الخصم المظلوم. وكما يبدو لي فإنَّ الفريق يفشل في تسجيل ضربة

الجزء التي يحصل عليها بصورة غير صحيحة خاصة بصفته نتيجة لرد فعل على إعاقة غير قانونية. وربما يعود ذلك إلى الانتباه المتزايد والعزيمة من قبل حارس المرمى نتيجة إحساسه بالظلم، كما قد يعود ذلك إلى أثر تبدد واقع الغش الذي قد يضعف من قدرة منفذ ضربة الجزاء على التركيز. وبالنسبة لحالة الفريق الفرنسي في كأس العالم 2010 لكرة القدم، كان لأثر تبدد واقع الغش هذا القدرة بعد مرور عام على شل حركة الفريق الذي كان يلعب وكأنه يتلمس طريقه في حلم مظلم، وكأنهم كانوا يشعرون بأنهم قد تحولوا إلى مجرد بدلاء يعتبرهم الوهن.

تتعامل كرة القدم الحديثة مع لمس الكرة باليد بجديّة غريبة، فهناك احتمال كبير أن يطرد اللاعب الذي يلمس الكرة بيده ويمنعها من دخول المرمى. وحتى بالنسبة للمس الكرة عن غير قصد، الذي قد ينتج على سبيل المثال بوصفه نتيجة صرفة للدفاع عن النفس عندما تتجه الكرة مباشرة ناحية المدافع، فإن ذلك قد يؤدي إلى حصوله على بطاقة صفراء. وبالنظر إلى وقوع مثل تلك المخالفات على مرأى من الجميع، مع تساؤل فرص عدم ملاحظتها والمعاقبة على ارتكابها، ومن ثم وجود صعوبة في إثبات تهمة الغش، فمن الصعب إذن أن نتفهم أولاً السبب في النظر إليها على أنها أكثر خطورة من غيرها من أنواع اللعب غير النظيف، التي تتمثل عقوبتها في احتساب ضربة حرة لا أكثر. ويعود ذلك بكل تأكيد إلى أن مجرد الإيجاء بمحاولة الحصول على أفضلية من خلال تجاهل مبدأ الاستثناء التام، الذي يجعل كرة القدم هي اللعبة التي نعرفها، والذي يتمثل تحديداً في عدم السيطرة على الكرة أو لمسها باليد، قد أدى إلى دخول التفاهة وانعدام المغزى إلى جوهر اللعبة، مما أدى إلى تفرغها من الإجماع، وهو الأمر الوحيد الذي يبقى على وجود اللعبة. ومع وجود اللاعب الغشاش، تدخل المباراة بأكملها في أزمة، وتصبح سخيفة؛ فتصبح المباراة منعقدة وقائمة في الوقت نفسه، أي يجري خوضها وعدم خوضها في الوقت نفسه. ومن ثم فإن الغش يصبح خطيراً كما هو الحال نتيجة لكونه أمراً تافهاً جداً، حيث يتلاعب بمتطلب ضرورة أخذ اللاعبين المباراة على محمل الجد طوال الوقت. حيث يؤدي عبث الغشاش المتعمد بالهدف

من المباراة إلى القضاء على المغزى كله من المباراة. وربما كان هذا هو السر وراء سماعتنا لتعليقات من قبيل «هذا ليس مباراة كريكية»، أو «ليس هكذا تخاض المباراة»، فالغشاش يكون في مكان آخر غير المباراة، كما أنه يخاطر بخروج المباراة من ذاتها.

وليس من السهل بشكل عملي إقامة الحججة على الفرق الذي أشرت إليه بين خرق القواعد والغش. ولكن سيكون من الأسهل القول باحتواء كل خرق للقواعد تقريباً على عنصر من عناصر الخداع، وذلك لأنَّ خارق القواعد نادراً ما يعلن عن جريمته تلك كما أنه يكون من المتبع وجود استعداد لديه للاستفادة من حقيقة عدم اكتشاف ما فعله. ومن النادر ألاَّ يقدم اللاعب الذي تمت معاقبته على ارتكاب تصرف غير قانوني على الاعتراض لإثبات براءته بصورة أو بأخرى. ولكن لا يقصد من الفرق السابق أن يكون بمثابة تمييز بين الأنواع المختلفة من التصرفات الرياضيّة، بل بالأحرى أن يكون مميزاً للأنواع المختلفة من السلوكيات الرياضيّة، حتى وإن تجسّدت في صورة تصرفات. ومن ثم، فإنني أقترح أن نُعرّف ما يسمى الغش بأنه التصرف الذي يقود إلى تقويض مبدأ الإيجابية المطلقة باستخدام الخداع. وهذا هو السبب وراء دخول العديد من التصرفات لتندرج تحت فئة الغش ثم تخرج منها تارة أخرى. حيث لا ينظر إلى قيام لاعب كرة قدم يعيق بصورة متواصلة لاعباً آخر على أنه غش ما لم يحدث ذلك باستخدام قدر أكبر من الخفاء والخبث.

ويتمثل الميل الشائع هنا في إدراج التصرفات التي ينظر إليها في بداية وقوعها على أنها من الغش ضمن قائمة الخدع المسموح بها في اللعبة. يعد «الزحف على الأرض»، وهو ادعاء الإصابة أو التعرض للعرقلة، من الأمثلة الجيدة على ذلك، خاصة في الرياضات الاحتكاكية مثل كرة القدم أو الهوكي، وذلك من خلال محاولة الحصول على ضربة جزاء. وعلى ما يبدو صار الزحف على الأرض أكثر شيوعاً في كرة القدم منذ ثمانينيات القرن الماضي، وربما كان ذلك استجابة لتغليظ عقوبات اللّعب العنيف الذي كان يكثر في اللعبة حتى تلك النقطة، التي كانت

كما يبدو في طريقها لإعادة «اللعبة الجميلة» إلى عهدها البربرية. ويبدو لي أن الزحف على الأرض كان ينظر إليه فيما مضى بقدر أكبر من التقزز والغضب من قبل اللاعبين والجمهور على حدٍ سواءٍ عما عليه الحال في الوقت الحالي. فقد صار اللاعبون الذين كانوا في عصور سابقة يملكهم الغضب العام بسبب معاقبتهم على التمثيل العلني بإعاقة الخصم لهم، يتقبلون ذلك على ما يبدو دون اكتراث على أنه جزء من اللعب. كما أن القاعدة التي تنص على أنه يجب أن تركز الكرة لا الخصم قد بدأت تتطور إلى مبدأ يقول إنه ينبغي أن تتجنب الاحتكاك بالخصم، الذي قد يتمكن الخصم من تضخيمه من خلال التظاهر، أو التمثيل فيحوّله إلى مخالفةٍ تستحقُّ العقاب. وبشكل عام، ساعد ذلك على ما يبدو في تقليل الاحتكاك الجسماني في كرة القدم، على الرغم من عدم تقليله بصورة غير مفهومة لعدد الإصابات وخطورتها.

ويبدو لي أنه من المستبعد جداً أن يُجبر اللاعبون والرياضيون على مقاومة جميع أشكال المواد الاصطناعية التي تحسّن الأداء والتي تنتشر بصورةٍ واسعةٍ في وقتنا الحالي، بدأت باستخدام المخدرات، أو «المواد المحرمة»، لغير ذلك من أنواع معززات الأداء الاصطناعية. ويبدو من المحتمل على المدى البعيد أن تدافع الرياضة عن ذاتها ضد تلك الممارسات من خلال استيعابها في هيكل قواعدها، بدلاً من إظهارها بمظهر تشكل فيه تحدياً للرياضة ذاتها.

وتقول أكثر وجهات النظر التهكمية الخاصة بالغش إن ممارسة الغش قد صارت واسعة وثابتة بين الرياضيين، والرياضيات حتى إنه قد أصبح من الصعب استمرار الرياضة دون التمثيل، والخداع. وفي الواقع، فمن الممكن لنا أن نقول إنَّ مبدأ الإيجابية ذاته يعد أكبر خدعة على الإطلاق، وهو القائل إنَّ كل ما يحدث في الرياضة يحدث بصورةٍ فعليةٍ وصادقة، والذي أشرت إلى تعرضه للخطر نتيجة ممارسات الغش. لقد عرفت الرياضة الحديثة المنظمة منذ عهد قريب جداً، ولقد دخلت عليها تغييرات كبيرة خلال تلك الفترة. ولذا، ليس هناك ما يمنع من تحولها بعيداً عن المبادئ التي كانت تحكمها حتى وقتنا الحالي. وعلى كل حال، فإنَّ

كثيرين لا يزالون يؤمنون بوجهة النظر القائلة إنَّ المرء لا يمارس الرِّياضة فعلاً إذا كان يتلقى مقابلاً لذلك. كما أن التوسُّع الذي شهدته الرِّياضة ما كان ليحدث دون الضُّغط باتجاه ما أصبح يطلق عليه إزالة التفریق ضد الممارسات المتخصصة. وكلما زاد حجم شيء ما وتأثيره، زادت صعوبة الاحتفاظ بهويته واستقلالته.

وعلى الرغم من الإعجاب بالالتزام بمبادئ الإيجابية والهوية الذاتية في الرِّياضة، فإنها تشوبها مسحة بربرية. فإذا كان الغش في الرِّياضة جزءاً من التدهور العام للمبدأ القائل إنَّ الأداء يجب أن يكون تماماً كما يبدو في ظاهره، فإنَّه يُشجِّع كذلك من خلال الميل المعاكس في الرِّياضة والمتمثل في تجسيد الحقيقة القائلة إننا لا نكون على طبيعتنا مطلقاً، وبالتالي فإننا نكون دائماً جزءاً مما ليس نحن عليه. تعدُّ الحقيقة الرِّياضية المطلقة نوعاً من العنف يمارس ضد جميع أشكال عدم اليقين وعدم القدرة على التكهن، وبالتالي ضد الحياة ذاتها. ولن يكون من قبيل المفاجأة بالنسبة لنا أن نكتشف، كما سنفعل في الفصل الأخير، أن الرِّياضة يصاحبها عنف حقيقي لا يمكن فصله عن السعي نحو الفوز في عالم الرِّياضة.

الفصل السابع

الفوز

اللُّعب القاتل

كان من الصَّعب الفصل بين الرِّياضة والعنف حتى منذ بداياتها المبكرة. فقد كان يُنظر للرِّياضة والألعاب منذ العصور الغابرة على أنها تدريب على خوض المعارك الحقيقية. وكانت رياضة الصَّيد، التي تعد من بين عدد من الرِّياضات التي تعرف بأنها «رياضات الملوك»، أهمُّ وسيطٌ كُتب له البقاء بين عالمي الرِّياضة والقتال. ولقد وصف وليام سومرفيل William Somerville رياضة الصَّيد في عام 1735 بأنها «المطاردة، ورياضة الملوك، وصورة الحرب، لكن دون ما يُرتكب فيها من ذنوب»¹. ويعود الشعور نفسه للظهور في قصيدةٍ أخرى كُرسَتْ للصَّيد، معنونة بـ«رياضات الميدان»، وفيها يقول الكاتب بعد وصفه لوصول رحلة الصَّيد باستخدام العقاب إلى ذروتها الدموية: «تلك هي رياضة الملوك، وهي أفضل بكثير / من ممارسة الملوك للسرقة، ومن الأسنان المخضبة بالدماء / للحروب التي لا تُبقي ولا تذر»². ويوضِّح الكاتب المتشدد فيليب ستوبس Phillip Stubbes بجلاء، في أكثر وصف مفصل وصلنا على الإطلاق عن الأيام الأولى لكرة القدم، كيف كانت اللعبة تتسم بالعنف المستمر، حيث تجمع بين الشمالة التي نجدها في مبدأ «الدوار» (ilinx) والجدية القاتلة التي تتسم بها «المنافسة» (agon)، اللذين كتب عنهما روجيه كايوا Roger Caillois:

وفي ما يتعلَّق بممارسة كرة القدم، فإنني أعترض على ما تقول، من أن ما

ينبغي أن نطلق عليها قتالاً هو أكثر ودية حتى من مشاهدة مسرحية أو من التنزه؛ إنها ممارسة دموية مميّنة، لا نزهة أو رياضة يمارسها الرفاق. وإلا، فلماذا يستلقي المرء، وينتظر خصمه كي يسقطه على الأرض، وينخره في أنفه، سواء أكانوا يلعبون فوق حجارة صلبة أو في حفرة أو وادٍ عميق، في سهل، أو فوق تل، أو في أي مكان آخر، فلا أحد يكثر بكل تأكيد بأين يطرح خصمه أرضاً. أما ذلك الذي يمكن أن يساعدك قدر استطاعته، فإنه رفيقك الوحيد، ومن غيره يكون؟ ومن ثم، وبسبب ما سبق، نجدهم تارةً يتسببون في كسر أعناقهم وظهورهم، وتارةً يكسرون أرجلهم وأذرعهم، وتارةً تتخلع مفاصلهم، أو تسيل الدماء من أنوفهم، أو تُقلع أعينهم؛ تارةً يصابون في هذا المكان، وتارةً أخرى يصابون في موضع آخر. ولا أحد ينجو دون عقاب، فإما أن يُصاب بجرح غائر، أو كدمة أو سحجة (خدشة)، أو غير ذلك، وتظل النجاة دون إصابة أمراً صعباً للغاية. ولا عجب في ذلك، فلدى اللاعبين حيل من خلالها يحصر لاعبان أحد الخصوم فيما بينهما، فيطعنونه في قلبه بكوعيهما، ويلكمانه بقبضتهما تحت ضلوعه، وبركبتيهما على فخذه، ويضايقانه في عنقه، باستخدام مئات من الأدوات المميّنة. ومن ثم، ينمو بينهم الاستياء، والحقد، والضغينة، والكراهية، والبغض، والعداوة، وكل ما عدا ذلك؟ وفي بعض الأحيان، يتشاجرون، ويتعاركون، ويتشاحنون، ويتنافسون، ويقتلون، وتسيل دماؤهم كالأنهار، كما تُعلّمنا تلك التجارب التي لا يخلو منها يوم.

فهل صارت تلك اللعبة المميّنة في وقتنا هذا تدريباً معتاداً كل يوم سبت؟ وهل من المقبول في المسيحية أن يمزق الأخ أخاه، وأن يؤذي غيره، وأن يضره عن سبق الإصرار والترصد؟ هل هذا ما أمرنا به من أن نحب لأخينا ما نحب لأنفسنا؟ لقد أمرنا الله بأن نحرص على سلامة رفاقنا بدرجة أكبر من ذلك بكثير.³

ويشبهه وصف ستوبس التهكمي عن كرة القدم، بقوله إنها «قتالٌ وديٌّ» في

عصرنا الحالي، المزحة القديمة عن شخص ذهب لمشاهدة مشاجرة، فاندلعت خلالها مباراة هوكي الجليد. ويشار إلى المكانة الخاصة لكرة القدم في تجسيدها عنفاً مسلياً، لا عنفاً نبيلاً، من خلال التنويه المتكرر إلى إمكانية النظر إلى الكرة على أنها رأس إنسان. وكان يُعتقد فيما مضى أن مباراة كرة القدم التي كانت تقام في كينجستون في إنجلترا، يوم ثلثاء المَرَفَع من كل عام، هي إحياء لذكرى انتصار الإنجليز على الغزاة الدنماركيين، حيث احتفل المنتصرون بركل رأس قائد الغزاة في الشوارع.⁴ ومن ثم، فإنَّ قذف شيء ما ودحرجته بصورة غير متوقعة - أي التسلي به، كما تتسلى الريح العاصفة والأمواج العاتية بالسفينة - هو ما صار لاحقاً رياضة كرة القدم. وقد تكهّن الراهب المنشق عن الكنيسة عالم الدين ريتشارد باكستر Richard Baxter، الذي عاش في القرن التاسع عشر، بشكوانا في العصر الحديث من استغلال هذا الأمر أو ذاك وكأنه «كرة قدم سياسية»، في مَرَثِيَّتِهِ:

عليّ أن أقف جانباً وأشهد الكنيسة، ورسالة المسيح، وكأنها كرة قدم بين أقدام حشد من الصبية، يتقاذفونها في تشاحن، والكل يعدو، ويتصبب عرقاً بعنف أحمق، ويناضل لإسقاط كل ما يقع في طريقه، ويحصد جميع أسباب القوّة في يديه، كي تتسنى له إدارة كل شيء بنفسه، ليقوده أمامه كيفما شاء.⁵

وفي مقولة أخرى، يؤنب من يسخرون من الدين، سائلاً إياهم: «أليس لديكم شيء آخر غير أبناء الله تحولونه إلى سخرية مثل رياضة كرة القدم؟»⁶ ويمثل فقدان الرّياضة لارتباطها بالضحك أحد أهم التغيرات التي طرأت عليها، بينما يتواصل الاعتقاد في أنها تمثل مصدراً للمتعة. وتحتوي قصيدة ميلتون Milton، المعنونة بـ«الرجل السعيد» (L' Allegro)، على أحد آخر أشكال العهد القديم للرّياضة، الذي اتسمت فيه بالبساطة وبروح دعاية جامحة أو طفولية؛ يستحضر ميلتون روح «الرّياضة التي تسخر من الشيخوخة / والضحك الذي

يسير على جانبيه / تعالي وارقصي أثناء سيرك / على أصبع قدميك الخفيف الرائع»⁷. وقد تجلب الرياضة قدراً هائلاً من البهجة، للاعبين والمشاهدين على حد سواء، غير أن متلازمتها، وآثارها لم تعد تتمثل في المرح والبهجة. لقد كانت الرياضة في العصور القديمة والوسطى خفيفة بصورة واضحة على العقل كخفة أصبع القدم. ومهما اتسم اللّعب بالعنف والدموية، فقد ظلت الرياضة في منظور الناس قليلة الشأن خالية من العواقب. وعلى التقيض من ذلك، صارت الرياضة في العصر الحديث جادة بصورة شديدة. فقد تحولت الرياضة، إذا جاز التعبير، إلى احترافية. وبالفعل، أصبحت أكثر جدية حتى من مسألة كسب المرء لقوت يومه، وهو ما يجب على غالبيتنا القيام به من باب الضرورة. وتفيد حقيقة أن الرياضة هي عبارة عن شكل اختياري من الكفاح، بأن متطلباتها مطلقة ولا نهائية. وتتطلب الرياضة التنافسية مستويات خفية، تكاد تتخطى قدرات البشر، من العزيمة المتواصلة والتكريس من أجل الوصول إلى أهدافها الاستبدادية، وذلك لأنها هي ذاتها استبدادية، وذاتية التعريف، ولأنّ الهدف منها يكمن في ذاتها، وليس في أي شيء آخر.

وربما كان بمقدورنا أن نقول إنّ الرياضة لم تنفصل عن الضحك، بل إنها اضطلعت بدور رئيس في صياغة الضحك. ويتساوى تطور فن إلقاء النكات، الذي حل ببطء محل الدعابات بدءاً من القرن السادس الميلادي فصاعداً، مع تطور الرياضات الخاضعة للقوانين، التي حلّت محل المفاهيم الرياضية التي كانت تتسم بدرجة أكبر من العفوية وعدم الانتظام في الفترات السابقة. وتمثل النكتة التلاحم بين القانون والحرية. وطبقاً لفرويد Freud، وهو أول مهندسي النكتة العظام، يأتي تدفق الضحك الذي يدل على ذروة النكتة من الكبت غير المتوقع الذي يتبعه تفرّغ مفاجئ لهذا الكبت. ولا يتولد الضحك في النكتة من مجرّد التفجر البسيط للروح الجيدة، التي تفهقه أو تتدفق في وجه الجدية والصرامة، لكنها تأتي عوضاً عن ذلك من «الاقتصاد في الإنفاق الجسدي»⁸. ويخلق ذلك معادلات معقدة من الكبت والتفريغ، وبكل تأكيد يكون للزمن هنا دور. وبالنسبة لفرويد، فإنّ الطاقة التي تحفّز النكتة تتمثل في الحاجة إلى الكبت،

أو نوع من أصول التركيز الفكري المستعارة من المستقبل. وعندما يتضح عدم وجود حاجة له، يمكن تفريره عند تطهير النفس بالضحك.

ومن ثم، تتبع النكتة من تنسيق الطاقات، وليس من خلال الكلمات غير المترابطة المرحية. ويمكن أن تستغل النكتة كذلك شرح اللاعقلاني، والتوسع فيه، على غرار قصة الكلب الأشعث (حكاية تفاصيلها غير ذات صلة، ونهايتها لا هدف منها)، لكن الهدف منها يكمن بالتحديد في استغلالها المتعمد لأساليب تضيق الوقت، التي تندرج دائماً تحت مظلة التوتر الذي ينتج عن انتظار ذروة النكتة، تلك النهاية التي سيظهر أنها في واقع الأمر وحدة مترابطة، لا خليط من الأشياء المتغايرة. ولقد ظلت تلك الذروة تعرف منذ بداية القرن العشرين بـ«المفارقة». وكما هو الحال في الرياضات الحديثة المنظمة، فإن النكتة لا تشعب أو تتفرع ببساطة، أي تتضح معالمها من داخلها بمجرد أن يتم النطق بها، لكنها تخضع لانضباط زمني، حيث تستغل الوقت الذي يستغرقه إلقاءها؛ أو إن جاز لنا القول: تستفيد من هذا الوقت. وتمثل النكات بالنسبة للدعابة ما تمثله الرياضة بالنسبة للمرح. وتعد أهمية الرياضة في العصر الحديث أهمية أن يكون المرء جدياً، وهي كلمة يمكننا أن نقول عنها بشكل عابر إنها ترتبط على ما يبدو بكلمة «غضب» (erre) في اللغات التيوتونية القديمة، التي تطورت لاحقاً لتصبح كلمة «ornest» في اللغة الإنجليزية القديمة، التي تعني: «المحارب»، وكذلك كلمة «orrosta» في اللغة الإسكندنافية القديمة، التي تعني «المعركة».

الخصومة

لقد رأينا في الفصل الثاني أن العنف الذي يميز الرياضات الحديثة يقوم على مبدأ واحد مهم. ويتمثل هذا المبدأ، على وجه التحديد، في أن الرياضة تتطلب ما يعرف بـ«المباريات»، أو تحريض فريقين متشابهين ضد بعضهما بعضاً، وهو الأمر الذي تطلب أن تختفي المنافسة الجلية في انعدام عدالتها بين البشر والحيوانات من الرياضة على نحو بطيء. وعندما تشارك الحيوانات في الرياضة من خلال السماح للمشاهد بالتظاهر بأنهم خصمان، يصبح عندها من الممكن أن تتسم خصومة

البشر بـ«الرياضية»؛ أي المشاركة في الرياضة ضد بعضها بعضاً على قدم المساواة. وتمثل المشكلة في الخصومة التمثيلية التي تأتي من مشاركة الحيوانات في الرياضة في كونها في الأصل توحدية، وذلك نظراً لأن اللاعب يفوز حتماً، فهو إذن يلعب ضد نفسه، وذلك بغض النظر عن الخطورة التي يعرض الصياد نفسه لها. ولكن إذا كان الإنسان حتماً سيفوز، فإن ذلك يجعل من المستحيل أن يفوز الإنسان فعلياً، ويقصد بذلك تحقيق النصر الذي لا يكون مضموناً منذ البداية، حيث يتحقق النصر المطلق أو الحاسم فقط من خلال عدم اليقين. ويمثل ذلك مثلاً على الرابطة الذي أشار كايوا إلى وجوده في المجتمعات الأوروبية، والذي يربط بين مبادئ المنافسة (agon) والفرصة (alea).⁹ وتحقق الرياضة بين نذيرين محددين متكافئين من أجل أن يتحقق القبول، خصوصاً القبول بالعنف والمعاناة اللذين يعدان - كما هو واضح - جزءاً من جوهر الرياضة. ولكن الأصل في ذلك لا يستتبع السعي إلى زيادة نظافة اللعب، أو تقليل وحشيته، بل إلى جعل الفوز أمراً ممكناً.

ويتمثل أهم جانب من جوانب جدية الرياضة الحديثة في أنه لا يمكن للمرء أن يلعب دون أن اللعب من أجل الفوز، وذلك لأن عدم اللعب من أجل الفوز - كما رأينا في الفصل السادس - يعد احتيالياً، وخيانة للثقة. ويفيد الفوز، مقارنةً بالتجاح، بوجود خصم، وهو شخص مثلك لديه الاستعداد نفسه للمخاطرة بالخسارة من أجل تحقيق الفوز. ويخلق الفوز الفاعلين، ذلك أن الطرف الذي يفوز يصبح تلقائياً نوعاً من أنواع الفاعل المعزز. ويتطلب الفوز كذلك الخاسرين ويخلقهم؛ وبعبارة أخرى، فإنه يؤدي إلى نفاذ الفعالية. ويفقد المرء تفردَه عندما يصير هو الطرف الخاسر. وقد اقترح إيمانويل ليفينز Emmanuel Levinas نظرية عن الأخلاق كان لها تأثير كبير، على الرغم من تشددها اللامعقول. وتقوم الأخلاقيات عند ليفينز على شعور فطري بالذنب، إذ تقول إنني كي أكون كائناً بشرياً، أو كي أصير كائناً بشرياً، فعلي «أن تكون نفسي قد سألت بالفعل ذاتها ما إذا كان هناك مبرر لوجودي، وكذلك عما إذا كان وجودي قد نتج عن سلب وجود شخص آخر».¹⁰ ومن ثم، فإن وجودي هو استفاد أو حرمان شخص

آخر من وجوده. ولقد كُتِبَ الكثير عن أخلاقيات الرِّياضة، غير أنه لا يمكن - على ما يبدو - أن تُفسَّر الرِّياضة من خلال أخلاقيات تماثل أخلاق ليفينز، وذلك لأنني لا أملك في الرِّياضة أي خيار غير احتلال مكان الغير وتجريده من مميزاته، وهذا الغير لا يملك سوى احتلال المكان نفسه الذي أتطلع إلى احتلاله. فلا يمكن لي الفوز في الرِّياضة إلا من خلال هزيمة خصم ما، وكذلك من خلال حمله على الإذعان، والقضاء على نطاق فاعليتهم وعزة أنفسهم. فالخسارة لا تعني القيام بفعل ما، بل الحرمان من القدرة على إتيان هذا الفعل: الخسارة هي أمر يُفعل بك، لا أمر تقوم أنت بفعله بنفسك. فالفوز هو أمر مُسبب للحرمان؛ لا يمكن أن يحدث بصورة حيادية أو غير متحيزة. كما أن الفوز يجب ألا يكون دائماً سادياً، أو ليس من الضروري أن يكون كذلك، ولكنه يجب أن يكون كذلك بشكل جزئي، وذلك لأنه ينطوي على متعة تحفيز الأمل، وعلى ألم قبول خسارة الآخرين.

وهناك دائماً خاسرون، حتى في الألعاب التي لا يوجد فيها خصم، والتي يكون الهدف فيها هو التنافس ضد أنواع عدة من القيود البدنية. ويتمثل الخاسرون في أولئك الذين لا يتمكّنون من تحطّي إنجازات الفائز التي لا يمكن تجاوزها. ومن ثم، يأتون في مرتبة تالية للفائز. ويوجد انقسام داخلي، على أقل تقدير، لدى الفائز ذاته: يُضحى بالذات التي تتمسك بحدود الماضي وقدراته من أجل الذات التي تتخطى تلك الحدود.

وكما هو الحال بالنسبة للعديد من المفاهيم الشائعة، فقد يكون من الصعب أن تحدد على وجه الدقة ما يعنيه الفوز، بخلاف ما استقر في أفكارنا بالفعل. ولا تعني الخسارة الإذعان والخضوع والتسلُّط، كما أنها لا تتصف مطلقاً بالسيادة، وذلك لأنَّ قوة السيادة وسلطتها تتبع من عدم التماثل البدائي، التي تتبع فيها سلطة الحاكم بشكل صرف من ذاته، أو من حقِّ رباني. ويؤدّي ذلك إلى مضاعفة الصيغة التوحيدية للألوهية: «أَهْيَهُ الَّذِي أَهْيَهُ» (سفر الخروج، 14-3). غير أن النَّصر في الرِّياضة يكون دائماً مشروطاً، لا يملك القدرة على تحديد شروط أهميته ذاتها. وكما يوضح كايوا، فإنَّ «الهدف» في الرِّياضات التنافسية «لا يتمثل

في الفوز بأي ثمن، بل يتم كذلك من خلال إظهار الاستبسال، في ظل ظروف عادلة، وضد متنافس يُكن له المرء الاحترام، ويساعده كلما أمكن، باستخدام طرق مشروعة متفق عليها مسبقاً، في مكانٍ وزمانٍ محدَّين¹¹. وعلى النقيض، يستطيع النَّصر فقط، من خلال الشُّروط الصارمة التي ترتبط بالنَّصر في الرياضة، ادعاء اتصافه بالكمال. فالملك يملك الحق في الحكم تبعاً للحقيقة المشروطة من كونه ملكاً. ويحصل الرياضي على الكأس؛ لأنه قد أذعن للمتطلبات وللتدريبات التي تحدد مفهوم الفوز، فهو يستطيع الهيمنة فقط لأنه مقيد بما سبق. فالأبطال هم من يتقنون مجالاً رياضياً ما، إلا أنهم هم أنفسهم يخضعون لنطاق القدرات التي تحددها اللعبة. ويقال إنَّ الأبطال هم من يستطيعون التركيز داخلياً على أهدافهم، والتركيز على الجائزة، ولكن ذلك يحولهم إلى خاضعين يرضون أن يكونوا مقيدين بصورةٍ مطلقةٍ، أو خاضعين لهذا الهدف المفرد أو لمجال إنجازٍ محدّد.

ويتطلَّب الفوز وجود ما يعرف بالخصم، وكذلك يحتاج إلى علاقةٍ تنافسيةٍ. ويتخطى مفهوم الخصم مفهوم العدو، أو الغريم. فالخصم يتصف بالتجريد بصورةٍ مطلقةٍ، كما أنه شخصي بشكلٍ تام. فيستطيع أي شخص أن يكتسب الأعداء، أو أن يستثير عداوة من قد تتعارض مصلحته مع مصلحتهم، وهذا هو ما أطلق عليه أنطوني يوليوس Antony Julius «العداوة المنطقية» للمصالح المتعارضة بشكلٍ عرضي¹². وقد تدرج عداوتي تجاه جاري الذي يستنفد ماء النهر الذي يمر من خلال أرضٍ تحت هذا النوع العرضي، حيث تنبع تلك العداوة نتيجةً للمكان الذي نعيش فيه معاً، وللموارد التي نتقاسمها بصورةٍ إجباريةٍ. غير أن علاقتي تجاه خصمي تختلف عن ذلك كلية، حيث لا توجد أسس للخلاف الشخصي معهم (وإذا كانت هناك مثل هذه الأسس، فإنه لا يكون لها تأثير على خصومتنا الرياضية، حيث لا تستطيع أن تزيد من خصومتي تجاهه أو تقلل منها). وليس هناك ما أرغب في الفوز به أمام خصمي بخلاف إمكانية الفوز ذاته. وهناك أسبابٌ معينةٌ قد تجعل شخصاً ما يصبح عدوًّا لي، وهي أسباب لا يتحتم أن تكون واضحةً بالنسبة لي. ومن المنطقي جداً أن يقال

إنَّ فلاناً هو عدوّ لي دون علم منّي بذلك. ولكن بما أنني يجب أن أشارك في المنافسة الرياضيّة بمحض إرادتي، وعن وعي تام بذلك، فإنني أكون على علم بخصمي، أو أعلم على الأقل أنه خصم لي، وأن أقر بخصومته تلك.

ويتجسّد ذلك في المشهد الذي يتكرر عرضه، ويظهر فيه خصمان يتقاتلان، ويكون ذلك في العادة في محيط عام. فيطرح أحدهما الآخر أرضاً، ويبدو بذلك أنه قد ضمن إذعانه، فيلتفت ليلتقى تحية الجماهير. وفي هذه اللّحظة، ينهض فجاءة خصمه الذي طرح أرضاً، ويتابع القتال بهجوم عنيف من الخلف؛ يعتقد المتصر أن المنافسة قد انتهت، وأن خصمه لم يعد خصمه، ولم تعد هناك حاجة للإقرار بوجوده وجهاً لوجه. وتمثل حيلة الخاسر المفترضة في أن يُظهر أنه على الرغم من الظاهر، فإنّ العلاقة التي نطلق عليها «الخصومة»، وفي ذلك إحياء لكلمة عتيقة، ما زالت قائمة. وهنا يتضح أن الالتفات بعيداً عن الخصم لم يمثل نهاية المنافسة، بل كان مجرد خطأ استراتيجي ارتكبه اللاعب في أثناء الخصومة.

تمنيت لو نشبت العداوة بيني وبين أعدائي نتيجة لخلافاتٍ منطقيةٍ فحسب، وذلك لكي يكون أعدائي هم فقط أشخاص معينون. أما في الواقع فمن الوارد أن يكون أي شخصٍ عدوآلي، وذلك لأنّ علاقة الخصومة مجردة ذاتية التعريف. والعدو المنطقي هو العدو الذي يكن لي مظلمة ما، أو يضمّر لي العداوة (حتى لو كانت غير منطقية، أو غير مفهومة). فالخصم هو الشخص الذي يمتلك الاستعداد، ويكون مطلوباً منه كذلك، أن يقف مني موقف الخصومة.

وتتصف تلك العلاقة بالمساواة المجردة؛ يحق للخصم -طبقاً لقواعد اللعبة- أن يتمتع بالشروط والمزايا نفسها التي أتمتع بها. ويتضح لكل واحد منا تقريباً، ومنذ مرحلة مبكرة في العمر، أن هناك مخلوقات في هذا العالم لا هي أنا ولا هي ليست أنا بصورة مطلقة، وذلك من حيث الطريفة التي يكون عليها الغرض المادي. ويمكن أن نفترض أن تلك المخلوقات تمتلك الاهتمامات والدوافع نفسها التي نمتلكها، على الرغم من أنها لا تتزامن مطلقاً مع اهتماماتي ودوافعي. ومن هذه الناحية، فإنها تكون في زوايا مختلفة من الميل بالنسبة لي. لكن الخصم، كذلك الذي يتمثّل بشكلٍ مجردٍ في اللعبة، يمكن أن نقول إنه يمتلك الاهتمامات

والدوافع نفسها التي أمتلكها، وذلك في أثناء مدة المباراة، وهي تحديداً: الرغبة في الفوز، والفوز من خلال التسبب في خسارتي للمباراة.

ومن المفارقة أنه بمجرد أن يمتلك المرء الأدوات المحددة، علاوةً على تساوي الظروف، يصبح من الممكن عندها مرة أخرى أن نتصور وجود المنافسة بين الأنواع المختلفة من الكائنات، وذلك على غرار السباق الذي جرى بين لاعب الرجبي برايان هابانا Bryan Habana من جنوب أفريقيا وأحد الفهود (كان من المحتم منح هابانا أسبقية كبيرة، حيث تبلغ أقصى سرعة له في العدو 30 ميلاً في الساعة تقريباً، وذلك حتى تكون هناك فرصة في أن يعبر خط النهاية في وقت عبور الفهد نفسه).

ويستطيع المرء، على غرار الكثيرين، أن يقارن بين المشاركة في مباراة ما والقتال في المعركة، التي نادراً ما تكون فيها النتائج على أرض الواقع، وفي وقت إقامة تلك المباراة نفسه، واضحة قاطعة، مقارنة بما قد تشير إليه السجلات التاريخية. وفي الرياضة، كما هو الحال في الحرب، لا يمكن أن نقول إنَّ هناك شخصاً ما قد فاز حتى يستسلم الطرف الآخر؛ ولا تكفي مجرد الإحصاءات الخاصة بالقتل أو كسب الأرض أو تسجيل الأهداف. وفي الواقع، فإنَّ الإقرار بخسارة المرء يعد جزءاً من العقوبة التي يستوجبها تعرضه للخسارة. لكن ذلك يحد دائماً من إنجاز المنتصر، الذي سيتوقف نصره جزئياً على هذا الإقرار. وحتى في المساعي الحربية، يكون من الضروري أن يمتنع الجيش المنتصر عن تدمير العدو بصورةٍ شاملة، وذلك كي يترك له بعض البنية التحتية دون المساس بها، مثل الاتصالات وصناعة القرار، كي يتمكنوا من إدراك أن موقفهم قد صار ميئوساً منه، فيستسلموا تبعاً لذلك. ولا يتأتى الإقرار بالهزيمة، الذي يسمح بأنَّ يكون انتصار المرء قطعياً، إلا من عدو، أو خصم يمتلك قدرًا كافيًا من الكرامة. ومن ثم، يتوقف الانتصار الكامل، أو القاطع على عدم تحطيم الخصم بصورة كاملة. ومن هنا، يتضح أن الطرف المنهزم غير مسلوب القوة بصورة كاملة، وذلك لأنَّ المرء لا يستطيع المخاطرة بالقضاء عليه تماماً. وفي حقيقة الأمر، فإنَّ بمقدورنا أن نُعرِّف الرياضة على أنها الحالة التي تجعل من الممكن أن يكون هناك خاسر،

يتعرّض للخسارة بأكبر قدر من القطعية دون أن يناله أدنى ضررٍ تقريباً. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ هذا يتطابق مع الحجة التي سقناها في الفصل السادس، التي تقول إنّ من وظائف الرّياضة أن توفر فرصاً تتحقّق فيها الحسمية القاطعة التي يمثلها النّصر، وهو الأمر الذي نادراً ما يتحقّق في الجوانب الأخرى من الحياة.

وربما كان ذلك هو السّبب في أنه على الرغم من سماح بعض الرّياضات بإلحاق هزيمة ساحقة بالخصوم، أي بفروق تكاد تكون غير محدودة، فإنّ معظم الرّياضات يسود بها قاعدة توقف المباراة عند نقطة تحقيق تقدم، أو ميزة لا يمكن تخطئها. ويقلل القيام بخلاف ذلك من كمال النّصر. فإذا فاز لاعب تنس بالمباراة بمجموع (3-6) أشواط في المجموعة الأخيرة، فعندها يتوقف اللاعبان عن مواصلة اللعب. وفي حال مواصلتهم للمباراة، فإنّ هذا سيفيد بأنّ الخاسر لم يُسلم في حقيقة الأمر بهزيمته في النقطة التي كان ينبغي أو يجب فيها ذلك (فتتحوّل مباراة التنس إلى «13 شوطاً بدلاً من 5»). ومن ثم، فمن الصّورري أن يتخطى النّصر مجرد تحقيق أكبر نتيجة، وذلك لكي يكون كاملاً ومطلقاً.

ويوضح ذلك وجود تناقض آخر بالنّسبة للفوز على الخصم. فعلى الرغم من أن الخصم قد يكون ببساطة أي شخص كان في الواقع (ربما كان زميلي في التدريب، أو أحد الإخوة، كما قد يكون الحال بالنّسبة للاعبتي التنس الأخيّتين فينوس وسيرينا وليامز)، فإنّ هناك علاقة خاصة تربطني معه، وذلك خلال مدة المباراة. وهذا هو المعنى الحقيقي للخصومة، وهو العلاقة التي أواجه فيها الخصم وجهاً لوجه، لا يلتفت فيها أحدهما سوى للآخر. ولا يوجد في هذا التوازي المطلق زاوية ارتفاع (الشبيكة)، ولا منظورٌ عرضيٌّ، ولا ظلٌّ، ولا احترازٌ، حيث ينظر كل منهما، فلا يرى الآخر، بل يرى انعكاساً لنظرته التي تخاطبه بوصفه خصماً (وكانها تقول: تبارى أو تنافس ضدي).

وعلى الرغم من أن المناقشة التي تدور بين العبد والسيد في الفصل الرابع من كتاب هيجل «ظواهرية العقل» (Phenomenology of Mind) لا ترتبط بالرّياضة، فإنّه يمكن تطبيقها على السّعي وراء الفوز في الرّياضة. فالخصم هو الشخص الذي ينبغي أن أتغلب عليه كي أحقق قدراتي اللامتناهية، وأثبتها؛ أي أثبت

حقيقة عدم اعتمادي على أي شيء خارج ذاتي. ولكن ذلك ينطوي على خطورة معينة، حيث يختبر المرء ذاته أو يتنافس معها ضد ما ليس بنفسه. وعلى الرغم من أن هيجل لم يتناول مسألة التنافس الرياضي في أي مناسبة بشكل مطول، فإن عمله يقوم على معارضة الكفاح، وما يميل إلى تسميته «اللعب» (spielen)، إذ يستخدم هيجل فكرة «اللعب» بصورة دائمة تقريباً بمعناها القديم، الذي يشير إلى الانغماس الذي لا يتخذ شكلاً بعينه، والذي يكون في نهاية المطاف سرمدياً. وبالفعل، فإن جاي إس بايلي J. S. Baillie، وهو صاحب ترجمة كتاب «ظواهرية العقل» إلى الإنجليزية، التي تستحوذ على أعلى نسبة من الاقتباس، يميل إلى استخدام المعاني القديمة لكلمة الرياضة في ترجمته لكلمة «spiel» وكلمة «spielen». ويطبق الصراع العام من أجل البقاء - تلك الحرب التي يقاتل فيها الكل ضد الكل، «والتي ينتزع فيها كل شخص لنفسه ما تطاله يده - العدالة بإنصافٍ على الحياة الخاصة للآخرين، كما يحقق هذا الصراع العام وجوده الفردي، الذي يتلاشى بدوره على يد الآخرين»، لكن هذا الصراع لا يوفر على الإطلاق الظروف المناسبة لسمو العقل، أو الروح.¹³ وذلك لأنَّ هذا الصراع غير المنظم ليس له اتجاه، ولا توجه، ولا هدف ثابت، وكذلك هو حال «كل ما قد يكون له مظهر التوجه المنتظم الثابت، لكنه مجرد تظاهر بالشمولية، الذي تتمثل فحواه بكل تأكيد في الرياضة الواهنة التي لا مغزى لها (das wesnlose Spile)، والتي تجعل الكائنات الفردية ثابتةً مستقرةً، فتؤدي إلى تلاشيها».¹⁴ وعلى ما يبدو، فإن الحياة ذاتها تتطلب تلك الروابط التنافسية مع الآخرين: «ومن ثم، يمكننا - إن شئنا - أن نصف الحياة بأنها لعبة حُب تتلهى بنفسها (einSpielen der Liebe mit sich selbst)، لكن تلك الفكرة ستقع ضمن ما يحتاج إلى تهذيب، بل إنها حتى ستسقط في بئر التفاهة، إذا افتقرت إلى الجدية والمعاناة والصبر، وإلى الكفاح ضد نقيضها».¹⁵

ومن وجهة نظر هيجل، فإنَّ الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها أن أحقق وعيي الذاتي المستقل تكون من خلال إدراكي من قبل وعي ذاتي آخر. ولكن ذلك سيفيد بأنَّ استقلالي صار يعتمد في واقع الأمر على ذلك الذي يخضع لي:

وبمجرد أن يحقق السيد هيمنته بشكل فعّال، يجد أن ما تحقق يختلف في واقع الأمر تماماً عن الوعي المستقل، وذلك لأنّ ما حققه ليس بوعي مستقلّ، بل هو بالأحرى وعي تابع لغيره. ومن ثم، لا يضمن أن تتمثّل حقيقته في وجوده الذاتي، حيث اكتشف أن تلك الحقيقة هي بالأحرى الوعي غير الجوهرية، والفعل العرضي غير الضّروري لهذا الوعي.¹⁶

وتُعبّر علاقة التخاصم عن علاقة التبادل في الكفاح في أضيق حدودٍ ممكنة، وذلك لأنّ الطّريقة الوحيدة التي يمكن أن أتخلص فيها من خصمي هي من خلال التغلب عليه، وذلك على الرغم من أنني لا يمكن أن أتغلب عليه كلياً دون أن أكشف اعتمادي على حقيقة إقراره بانتصاري عليه، وبذلك يكون عدوي الطريق الموصل إلى تحقيق حرية ذاتي، وكذلك فحماً يترصد لها على هذا الطريق. وربما يكون هذا هو السّبب في تحول خصمي - على ما يبدو - ليصبح هو ذاتي نفسها بصورةٍ جوهريةٍ وأساسيةٍ، وذلك على الرغم من إمكانية مبادلتها بصورةٍ تجريدية مع أي خصمٍ آخر.

ويميل ذلك في بعض الأحيان إلى التقليل من تجريدية الخصومة، وذلك عندما تبدأ في التركيز على أحد الخصوم الذين تواجههم بصورةٍ منتظمةٍ، الذي يصير أكثر الخصوم الذين أحتاج إلى إقرارهم بنصري، في ظل جميع ظروف الخصومة. ويمكن أن تقدّم تلك العلاقة بين الخصومة، والاعتماد على الخصم تفسيراً لحدّة الخصومات التّقليدية في الرّياضة، ولاستمرارها لفترةٍ طويلةٍ، التي تختلط فيها الذات مع الآخر بصورةٍ معقّدة. فعندما لا تجري الرّياح بما تشتهي سفن فريق الأرسنال لكرة القدم على ملعب الإمارات، يبدأ الجمهور في الهتاف: «قف على قدميك، إن كنت تكره توتنهام». وتكمن الفكرة في أنه ينبغي على كل مشجع في منزله عند هذه اللّحظة أن يُظهر ولاءه الذي لا يلين للنادي، من خلال الوقوف على قدميه، والانضمام إلى هذا الهتاف.

أما من هم على شاكلة مؤلفكم، فإنهم يتشبثون بمقاعدهم، في اعتراض يتسم بالجبين على جميع مظاهر الكراهية الأبدية المتوارثة، التي يدلّل عليها هذا التشجيع

بشكل واضح جلي («قف على قدميك، إذا كنت تكره اليهود!») - نعم، فإن هذا هو المقصود بالضبط من هذا الهتاف، وذلك، لأن الناس تسمى قاطني توتنهام هو تسبور «اليهود»، كما لو كانت صدعاً غادراً في سور الخصومة الجماعية. وبينما تقبع بين كنفني مقعدك الذي أصابته الكآبة المكتومة، تُنصت لأصوات المباراة، وتنتظر في تجاهل إلى الصدام بين الفريقين الهائجين. عندها، يصبح بدهياً أن اللوم سيقع عليك، إذا استطاع الخصم اختراق دفاعات فريقك، وتسجيل هدف في مرماه، وذلك بسبب إصرارك على الجلوس، والسمّاح بتسرّب الطّاقة التضامنيّة من بين جنبات حصن عزيمة الفريق. فأنت إذن خائن، مثلك في ذلك كالذي يعطي الأولوية لكبريائه الضئيل، وهو اجسه في مقابل أمر أهم وأخطر، كدعم معتقداً، وهو بذلك يكون بغيضاً تماماً، بدرجة بغض تلك الشخصية نفسها في قصة «بيتر بان»، التي تمتنع عن التّصفيق الذي له القدرة على إعادة الحياة إلى تنكر بيل، عندما يخفون ضوءها وتوشك على الموت. وحتى إذا صرخت في يأس في وجه هذا المعتوه الأحمر المتورّم الذي أوقفك عنوة على قدميك، وقلت له: لكننا لا نلعب ضد توتنهام - نحن نخسر الآن أمام فريق مختلف تماماً - فلن يكون لذلك أدنى تأثير عليه. وبغضّ النظر عن هوية الخصم المحلية أو العرضية، فإنّه يُنظر إلى التذكير بالخصومة الخالدة ذات الطّابع الخاص بين أرسنال وجارتها توتنهام من شمال لندن بوصفها مصدراً سيادياً للارتياح والقوّة.

ولعل هذا هو السّبب وراء ما ساقه فرويد في كتابه «قلق في الحضارة» (Civilization and Its Discontents)، فمن الممكن دائماً «أن نجتمع بين عدد كبير من الناس، ممن تربط بينهم المحبة، ما دام هناك عدد كافٍ غيرهم يفرغون فيهم مظاهر مشاعرهم العدوانية».¹⁷ وقد عبر بيتر سلوترديك Peter Sloterdijk عن الأمر ذاته مؤخراً، فقال إنه لا توجد شموليّة تستطيع أن تستوعب الجميع.¹⁸ ومن المرجّح جداً ألاّ يكون من يتلقون تلك المشاعر العدوانية أفراداً أو جماعاتٍ لكلٍ منهم مصالحٌ مختلفةٌ كليّةٌ عن الآخر، بل إنّ مصالحهم تكاد تتطابق مع مصالح الفريق الأول. ويُطلق فرويد على ذلك «نرجسية الاختلافات الضئيلة»، وهو بذلك يشير إلى الفكرة القائلة إنّ الاختلاف الكلي للآخر ليس هو السّبب

وراء ظهور العنف أو السماح به، بل إنَّ السَّبب يعود إلى الفارق الضئيل، الذي حال بين أن يكون الطرفان متطابقين تماماً، وهو ما كان ينبغي أن يكون عليه الحال لولا ذلك.¹⁹

ومن هنا، نجد الأفراد والجماعات والمجتمعات بأسرها وقد أحاطت بها أحقاد سرمدية (وهي أحقاد لا يعرف أحد سببها، أو حتى كيف يشعرون بها) تجاه من يكادون يشبهوننا تماماً. ويُعرَّف الخصم من الناحية اللغوية بأنه ذلك الشخص الذي يعيش على الضفة الأخرى من النهر. ويتسم وجه الشبه هنا بأنه ملائم معبر، وذلك لأنَّ الخصم إما أن يسير محاذياً لك في اتجاه النهر نفسه، أو يقف على الضفة الأخرى أمامك مباشرة، وذلك اعتماداً على وجهة نظرك الخاصة. وفي العادة، يكون الخصم هو الشخص الذي ربما نقول عنه إنه يقف بمحاذاتك، وإلى جانبك، وفي الاتجاه نفسه. ولكن عندما يتحوّل هذا الاتجاه بنسبة 180 درجة، يتحوّل إلى شيءٍ معادٍ لنا، فيتحوّل وقوفه إلى جوارك إلى وقوفه ضدك. ومن ثم، يصير خصمك، ويصبح خائناً كريهاً، وزنديقاً ملحداً؛ وكان الشيطان يلعب مبارياتٍ للزوجي المختلط.

الاختناق (العجز عن استكمال الفوز)

بالفعل، هناك لمحة من الخداع الشيطاني في ما يتعلق بمسألة الفوز. فينبغي أن يتصف الفوز بالصعوبة كي يكون موثقاً به، وذلك لأننا قد نظّمنا الرياضة الحديثة كي توفر المنافسة بين متنافسين شبه أنداد، كما أن هناك لمحة من الخزي وانعدام الجدارة عندما يُلحق المرء هزيمة ساحقة بخصومه. وحال حدوث ذلك، فربما قيل إنَّ فوز الفريق (8-0) يدل على احترافيته، وكأنَّ ذلك عذرٌ للخزي الذي لحق بهم بسبب تنمرهم. ولا يُقصد بذلك أن اللّعب ضد الخصوم الضعفاء يجعل من الفوز أمراً سهلاً. وكما نوهت في الفصل السادس، فإنَّ التعادل سيكون بطعم الفوز بالنسبة لهذا الخصم. فكما قال هنري كيسنجر Henry Kissinger عن الحروب بين رجال العصابات والجيش التقليديّة: «يفوز رجال العصابات إذا لم يهزموا. كما يخسر الجيش التقليديّ إذا لم يحقق الفوز».²⁰ غير أن هناك صعوبات

أخرى محدّدة ترتبط بالفوز، تأتي في صورة الوصف القاسي المعروف بالاختناق أو العجز عن استكمال النَّصر، رغم أن المرء يكون على وشك الوصول إليه. وهناك أسباب شتى يمكن أن نوردّها لمثل هذه الظاهرة المتكررة، التي يبدو فيها الفوز ممكناً ما دام أنه صعب فقط، غير أنه يصير صعباً بصورةٍ شبه مستحيلةٍ، وذلك في اللَّحظة التي ينبغي أن يكون فيها سهلاً.

ومن النَّاحية الإحصائية، ينبغي أن نتوقع في نسبة معينة من المباريات أن يرتكب اللاعب أو الفريق الذي يوشك على الفوز أخطاء تسمح لخصومهم بانتزاع الفوز منهم. وتصف مقولة صحفية شائعة هذا الحدث بأنَّ الفريق تمكن في ظل هذه الظروف من «انتزاع الهزيمة من بين فكي النَّصر». غير أن هذه الحالات قد تكون أقل شيوعاً بكثير مما نعتقد، وذلك لأننا عندما نتوقع حدوثها، فإنَّ ذلك يفيد بأننا نلاحظها عندما تحدث فعلاً، كما لا نلاحظ عدم حدوثها عندما لا تحدث. وبالفعل، فقد يعود السَّبب جزئياً في ملاحظتنا لحالات الاختناق إلى عدم شيوعها، وهو الأمر الذي قد يشير إلى أنها ربما تشكّل عرضاً مرضياً. وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ مجرد الوعي بتلك الإمكانية، وكذلك تركيز الانتباه على الصَّعوبة المزعومة لتحقيق الفوز، قد يكفي في حدِّ ذاته لخلق مشطباتٍ يصاحبها القلق لدى اللَّاعبين والرَّياضيين.

وربما ازدادت حدة هذا الأثر في الرِّياضات التي يؤدِّي فيها نظام التسجيل إلى خلق حد فاصل أو نقطة انقلاب. ويُعد تسجيل 100 هدف أو أكثر في جولة واحدة في لعبة الكريكت من الأمثلة على النوع الأول، الذي يؤدِّي على ما يبدو إلى الظاهرة التي تعرف بـ«السُّلل التحليلي»، والتي نرى فيها حامل المضرب، وقد ركز كل تفكيره على القضاء على الرّامي كي يصل مجموع أهدافه إلى هذه النقطة، ثم فجاءه ينهار ليصل به الحال إلى الترنح والحاجة إلى من يحثه على مواصلة اللعب. وتقدم لنا لعبة التَّنس أفضل مثال على نقطة الانقلاب، وذلك في صورة النقطة الفاصلة، أو نقطة الفوز بالمباراة، حيث يمنح اللاعب الذي يفشل في الفوز بنقطة المباراة زخماً لمنافسه، فيحصل الأخير على ميزة غامضة، على الرغم من أنه لا يزال في وضع خطر. وهناك ظاهرة مماثلة تنتج عن المثال الذي

يتمتع فيه أحد فرق كرة القدم بسيطرة تامة طوال المباراة حتى يطرد أحد أفراد الفريق المنافس. ويعرف الجميع صعوبة استغلال الميزة التي تأتي من اللعب ضد منافس أقل عدداً. وفي بعض الأحيان، يبدو الأمر وكأن الميزة قد مُنحت للفريق الأضعف، الذي تملأه الحماسة بدلاً من الانهيار نتيجة شعورهم بأن طرد زميلهم لم يكن صحيحاً، وهو ما يحدث تقريباً في معظم الأحيان، ويعرف بالغضب الناتج عن القوامة الأخلاقية.

ويكتب فرويد، في مقاله المعنون بـ«بعض أنواع الشخصيات التي قابلتها في أثناء عملي بالتحليل النفسي» (Some Character-Types met with I Psycho-Analytic Work)، عن شخصية من وصفهم بـ«من دمرهم التّجّاح».²¹ ومن الممكن أن يكون هؤلاء الذين يتعرّضون للانتكاس مع اقتراب التّصرّ من يعانون عقدة حرمان أوديب؛ أو الخوف من قتل الأب التي يرمز لها التّصرّ لدى الذكور. وفي حالة النساء، ربما كن يعانين النسخة النسائية لعقدة أوديب؛ أو الخوف من مقاومة الأعراف الداخلية لديهن، المتمثلة في السلبية والإذعان. ويمكن تعميم هذا الأمر بالنسبة للرجال والنساء، وذلك في صورة رغبة لاشعورية يثيرها الفوز تجاه كبت التخيلات العنيفة التي قد تكون قاتلة، والتي قد تمتد في نهاية المطاف إلى قتل المرء لمنافسه. ليس ذلك فحسب، بل وإلى التهامه أيضاً؛ أو القضاء النهائي على وجود الآخر. وربما كان ذلك هو مصدر استعارة الاختناق، حيث لا يستطيع اللاعب تحمل المواجهة المفاجئة لتخيل ابتلاعه لمنافسه المهزوم.

غير أن هناك احتمالات أخرى عدة، تتوقف بقدر أقل على استنادها إلى الدوافع اللاشعورية الغريبة المنحرفة. ومن بين هذه الاحتمالات أن يكون اللاعب قد صار منغمساً كلية في سعيه، من خلال الحماسة الغامرة للتوتر الذي ينطوي عليه الكفاح لتحقيق الفوز. وينطوي الاقتراب المفاجئ من خط النهاية على تحول كبير في الجهد. فبدلاً من مواصلة اللعب، من أجل التغلب على مقاومة كبيرة متواصلة، يكون المرء على وشك الخروج من لعب المباراة إلى حالة أخرى مختلفة تماماً. فالنهاية أكبر بكثير من مجرد التوقف عن اللّعب، إذ إنّ لها وقتاً معيناً،

ذا بدايةٍ ووسطٍ ونهايةٍ خاصةٍ به. فعندما تحفر ثقباً في قطعةٍ من الخشب، فإنك تقلل من الضَّغط عندما توشك على الخروج من الجانب الآخر لقطعة الخشب. كما أن الهبوط بالطائرة يختلف تماماً عن مجرد توجيهها ناحية الأرض، أو تجاه مبنى، على الرغم من أن كليهما سيؤدِّي إلى توقفها بصورةٍ مفاجئةٍ.

ومن ثم، ومن قبيل المفارقة، فإنَّ إحدى طرق الانتهاء من نهاية المباراة بصورةٍ ناجحةٍ تتمثل في التظاهر بعدم بدايتها من الأصل. وقد اعتادت بيبي جين كينج Billie Jen King على محاولة تجنب التعرض لمخاطر التوتر الذي يؤدِّي إلى الارتخاء، والذي ينتج عند إرسال الكرة للفوز بالشوط، حال تقدمها بخمس نقاطٍ مقابل ثلاث (وما يصاحب ذلك من توتر يتسم بالخطورة)، بالتظاهر بأنها متأخرة في هذا الشوط بثلاث نقاطٍ مقابل خمسٍ لمنافستها. ويشبه الفوز الموت، وكل شيء في الحياة يقود إلى الموت، وربما حصلت الحياة من الموت على هدف وتوجه تسير طبقاً له. ويحمل اللاعب الفوز بين جوانحه تماماً كما يحمل البشر الموت بين جوانحهم، على حد وصف هيدجر Heidegger.²² ولكن الموت، كما يؤكد لنا فيتغنشتاين Wittgenstein، «لا يمثل حدثاً من أحداث الحياة، فنحن لا نعيش كي نمر بتجربة الموت».²³ فلا يستطيع المرء المرور بتجربة موته، وذلك لأنَّ الموت هو الحدث الذي تتوقف فيه عن البقاء على قيد الحياة. وعلى الرغم من ذلك، يجب على المرء أن يمر به لأنه لا أحد سواك يستطيع خوض تجربة وفاتك. وبالمثل، ينبغي على المرء أن يتعلم تحقيق الفوز، بطريقةٍ أو بأخرى، دون القيام بفعل خاص يعرف بـ«الفوز»، على الرغم من أن الهدف والنقطة والخطوة التي تؤدِّي إلى الفوز هي فقط أفعال ذات طبيعة خاصة للغاية. فالمرء يحتاج إلى أسلوبٍ وطريقةٍ من نوع خاص من أجل تحقيق الفوز، مقارنة بمجرد اللعب حتى الوصول إلى وضع يتم فيه تحقيق الفوز، وذلك كي يمنع المرء نفسه من الميل الخطر للبدء في استخدام أساليبٍ جديدةٍ أو طرقٍ خاصة.

ولو كان هناك وجه شبه بسيط بين الموت والفوز، فيمكننا القول إنَّ المرء يفوز بالقليل، تماماً كما يموت، أي دون قصد ذلك، أو دون الوجود عند حدوثه.

ويواصل المرء اللّعب حتى النقطة التي تنتهي فيها المباراة، وعندها يتحتم عليك الفوز. أما إن توقفت عن اللّعب، وبدأت في الفوز، فإنك بذلك تعرض نصرك للخطر. ومن أجل تحقيق الفوز، أو من أجل تجنب الحرمان التناقضي الخاص بالفوز، الذي يظهر نتيجة إدراك قرب تحقق الفوز، يجب عليك أن تحاول تجنب الانقسام والتشتت، ويجب أن تحاول أن تستمر في التركيز على اللّحظة الراهنة، وأن تضرب الكرة من أجل اللّعب فقط. وبطبيعة الحال، فإنّ التركيز المستمر على اللّحظة الراهنة هو على الدرجة نفسها من الصعوبة والتناقض، تماماً كتلك الأمور غير المنطقية التي يوصوننا بها بصورة اعتيادية، مثل: «كن على سجيتك» أو «تصرف بشكل طبيعي». فمقدورك فقط أن تعيش في الواقع، أو تركز على اللّحظة، من خلال الاغتراب أو الابتعاد الشديد عن الواقع؛ التظاهر بأنك لم تعد تلعب من أجل الفوز بالمباراة، ولكنك تُسقط الكرة في الحفرة، أو تضرب الكرة ببطن المضرب بشكل عادي للغاية، على الرغم من أن ذلك سيعتبر في ظروف مختلفة أمراً مرضياً.

وتتضاعف صعوبة الفوز بشكل مثير للاهتمام نتيجة للصعوبة التي تواجه اللاعبين والرياضيين عند مناقشة مسألة الصعوبة في حدّ ذاتها. فليس هناك إهانة جارحة مثل التلميح بتعرض الرياضي لفشل غير متوقع (الاختناق). وحتى في رياضة كرة السلة التي تتسم بالقسوة الصّارخة، والتي لا يوجد بها سوى قليل من القيود على ما يمكن للاعبين المتنافسين والمدربين قوله لبعضهم بعضاً، فإنّه ينظر إلى التلميح بفشل الخصم بصورة غير متوقعة (ويكون ذلك باستخدام إشارة معينة، لا باستخدام اللفظ ذاته. ويؤدّي هذا التعريض من خلال الإيحاء إلى إلغاء آثار عدم استخدام الألفاظ، وبالتالي فإنّه يباثل الإشارة الصريحة إلى الاختناق) على أنه انتقاص شديد من احترام الخصم، يقلل كذلك من فرص الاعتذار عنه، ويزيد من استهجان الإقدام عليه. ويتمثل جزء كبير من الخطأ هنا في أن الإقرار بوجود إمكانية لحدوث مثل هذا الفشل من قبل الفريق الذي يتعرّض للتلميح سوف يجعلهم ينظرون للتلميح وكأنه استدعاءً سحريّ

سيؤدّي بالفعل إلى فشلهم. ومن ثم، وعلى الرغم من أن الوعي بوجود الفشل غير المتوقّع والقلق منه هو من الأمور الشائعة في الرياضة، فإنّ هناك تضييقاً على الموضوع ذاته.

إن حقيقة وجود خصم آخر للاعب، يمتلك تأثيراً له الدرّجة نفسها من القوّة والحسم التي يمتلكها المنافس الظاهري للاعب، تعدّ من أكثر الأمور المذهلة التي يكشف الكبت المتعلّق بالفوز النقب عنها. ويوصف هذا الخصم الآخر في بعض الأحيان بأنه يشبه ذاتاً ثانية مشرفةً ناقدةً، أو الناقد الذاتي الذي لا يمكن مطلقاً إشباع متطلباته. وبطبيعة الحال، فإنّ هذه الذات، التي يطلق عليها فرويد «الأنا العليا»، هي الشّكل الدّاخلي للأشكال الخارجيّة للسلطة. وربما كان لدينا مسبقاً اعتقاد بأنه قد تكون هناك حاجة أقل في الرياضة عما سواها للعودة إلى فكرة الاستبطان، وذلك لأنّ الشّكل الخارجيّ من تلك الفاعليّة المشرفة الناقدة ملموس واضح جداً. ويلاحظ في الغالب أن القلق من توقّع تحقيق الفوز يعود إلى الإدراك المتزايد بتوقعات الآخرين.²⁴

تماماً كالحرب ينقصها القتلُ

تنطوي الرياضات على أنواع مختلفة من العنف؛ كالتصادمات العنيفة، ومحاولات إلحاق الضرر بالخصم، والتقليل منه وتحقيره، والرغبات المفرطة في العنف، والرغبات العنيفة. وقد يغوينا ذلك بعقد تشبيه بين نوع العنف الذي نشاهده في الرياضات وألعاب العنف التي تمارسها صغار الحيوانات. ففي كلتا الحالتين، تبدو المعارك حامية الوطيس، وقد تؤدّي بالفعل إلى إصابة جسيمة. وعلى الرغم من ذلك، يسيطر على الموقف ما يشبه مانعاً غير رسميّ يحول دون خروج المنافسة إلى مسار كانت ستسير عليه حتماً خارج نطاق اللعبة. ويرى أولئك الذين ينظرون للرياضة بوصفها استعداداً للحرب، بدءاً من سكان أسبرطة إلى النازيين، تشابهاً مثاليّاً بينها وبين هذا النوع من السلوك. وبالنسبة للعديد من النقاد، ليس هناك ببساطة فرق بين العنف في الرياضات

والعنف بشكل عام. وقد قدم آر سي سايس R. C. Sipes، في عام 1973، وصفاً دقيقاً للصلة بين الاثنين بقوله: «بما أن المجتمعات شبه الحربية تنتشر بصورة واسعة، وكذلك الأمر بالنسبة للرياضات القتالية».²⁵ وهناك القليلون ممن سيشتكون، على سبيل المثال، في أن الرياضة والنزعة العسكرية يعكس كل منهما الآخر، ويغذيه ويجدد نشاطه، حتى إن كان هناك شك في أن ذلك هو مجمل ما تقومون به. ويقول غالبية الكُتَّاب الذين أسهموا في كتابة المقالات التي جُمعت في مجلد قام بإعداده جي إيه مانجان J. A. Mangan، المعنون بـ«النزعة العسكرية... والرياضة... وأوروبا» (Militarism, Sport, Europe)، بقبولهم بالمفهوم القائل بتشابك الاثنين معاً، وربما شكل كل منهما كذلك بعضاً من جوانب الآخر.²⁶ ويعكس العنوان الفرعي لمجموعة المقالات، الحرب دون أسلحة، الوصف الذي صاغه جورج أورويل George Orwell للرياضة، في معرض رد تعمد فيه عدم التحمس تجاه زيارة فريق دينمو موسكو لبريطانيا في نوفمبر من عام 1945: «ليس هناك صلة بين الرياضة الجادة واللعب النظيف، وذلك لأنها مغلفة بالكراهية والغيرة والتباهي، والاستخفاف بجميع القواعد، والمتعة السادية في مشاهدة العنف. وبمعنى آخر، فهي كالحرب ينقصها القتل».²⁷ كتب أورويل تلك الكلمات في الفترة التي تلت مباشرة نهاية العمليات الحربية المنهكة للحرب العالمية الثانية، التي شهدت رغبة قوية في أن يجد الناس في الرياضة نوعاً من الترويح عن النفس من الصراع الدموي والمواجهات الأيديولوجية. وقد عارض أورويل بصورة واضحة تلك المثالية التي سادت وقتئذ:

أشعر بالدهشة دائماً عندما أسمع الناس وهم يقولون إنَّ الرياضة تخلق النوايا الحسنة بين الأمم، وإنه لو تمكن عامة الناس في العالم من الالتقاء في مباريات كرة القدم والكريكت، فلن يميلون إلى الالتقاء في ساحة المعركة. فحتى إن لم تكن تعلم من الأمثلة الملموسة (على سبيل المثال، الألعاب الأولمبية لعام 1936)، فإنَّ المسابقات الرياضية الدولية تؤدي إلى

ويحتقر أورويل «اللغظ القائل بالمنافسة التّظيفة والصّحيّة في ملعب كرة القدم، والدّور الكبير الذي تلعبه الألعاب الأولمبية في الجمع بين الأمم». وبدلاً عن ذلك، يقدم لنا حكمه على المسألة، القائل إنّ الرّياضة المنظمة ترتبط بنمو النزعة القومية، تلك «العادة الحديثة التي تتسم بالجنون، من خلال ربط المرء بين ذاته ووحدات قوى كبيرة، ورؤية كل شيء من منظور المنافسة التي تجلب الهيبة».²⁹ ويُقر أورويل بأنّ المتعة السادية بالعنف، واحتفاليات العنف على وجه خاص (كان أورويل يرى أن جماهير مباريات الملاكمة من النساء يمثلن أعلى درجة من تلك السادية الصّارخة غير المقيدة)، كانت من بين خصائص الألعاب والاحتفالات في روما وبيزنطة وأوروبا في العصور الوسطى. وعلى الرغم من ذلك، يصر أورويل على أن الخطورة والشر الكامن في المنافسة الرّياضية الحديثة يتمثل في تشابكها مع عالم السياسة.

ولقد دعا نوربرت إلياس Norbert Elias إلى رأي بديل مختلف تماماً، حيث يرى أن الرّياضة ليست تدريباً أو تحضيراً للعنف، بل هي حاجز قوي ضد ممارسة العنف. كما شدد على أن الرّياضة هي «دائماً معركة تخضع للسيطرة في بيئة تخيلية». ويرى إلياس كذلك أن الرّياضة جزء مهم مما يطلق عليه «عملية التحضر».³⁰ ويشير كذلك إلى تطور الرّياضة في إنجلترا، بالتوازي مع تطور الديمقراطية البرلمانية، كوسيلة لاحتواء الانشقاقات الدّموية للحرب الأهلية، حيث يقول إنّ «اتباع النّظام البرلماني» من قبل طبقة مُلاك الأراضي في إنجلترا كان له نظير يتمثل في «اتباع النهج الرّياضي في أوقات فراغهم».³¹ أما المشكلة التي يكمن حلها في الرّياضة المنظمة بكل أنواعها، فتمثل في «كيفية التقليل من الإصابات التي يتعرّض لها اللاعبون، مع المحافظة في الوقت ذاته على درجة عالية من إثارة المعركة الممتعة».³²

غير أن كلا المنظورين لا يناسب - على ما يبدو - حالة الرّياضة، مع أنها

يتفقان ظاهراً على أن الرياضات تحد من العنف، سواء من خلال جعله خاضعاً للتنظيم بدرجة أكبر، وبالتالي بصير أكثر فاعلية في حالة الحرب، أو من أجل تقديمها لبدائل للعنف الفعلي في أشكال تخيلية، وذلك لأنها أبعد ما يكون عن فرض قيود على السلوك العنيف، فهي في واقع الأمر تسمح - على ما يبدو - بالعنف الذي لا يُسمح به، أو لا يكون مقبولاً في الحياة الاجتماعية العادية. ومن ثم، فإنَّ التدريب على القتال عند الحيوانات، يتسم بدرجة أقل من العنف بشكل متعمدٍ عما يكون عليه الحال في الصراعات الحقيقية، بينما تكون الرياضة أكثر عنفاً عما عليه الحال في الواقع. ولو أنني تعرضت في حياتي اليومية للكدمات والركلات التي تعد من الأمور العادية في العديد من الرياضات، لاعتبرت ذلك أمراً صاعقاً محبطاً. ويتضح أنه بينما يجد إطار اللّعب لدى الحيوانات من العنف، فإنّه يخدم عند البشر في العادة غرض إطلاق العنان للعنف، علاوة على تضخيمه وتعزيزه. وبالنسبة للإلياس، يعود ذلك إلى أن الرياضة قد وُجدت لتخدم، غالباً، غرضاً مضاداً، يتمثل تحديداً في توفير المتعة والإثارة التي نشعر بصورة متزايدة بالافتقاد إليها في حياتنا المعاصرة، بما فيها من محظوراتٍ معقدةٍ شاملةٍ تستهدف السلوك الذي يتّسم بالإثارة، وكذلك التعبير العاطفي. وتستثير الرياضات تلك الاندفاعات العنيفة، وبشكل متعمد، وذلك من أجل السماح بإطلاق العنان لها في شكلٍ منظمٍ لا يؤدي إلى الإصابة، مما يوفر «تفريغاً ممتعاً ومنظماً للمشاعر».³³

وقد يبدو من المنطقي أن نرى أن عنف الرياضة قد تغير، لأنه صار جزءاً من الرياضة، أو نتيجة حدوثه في أثناء ممارسة الرياضة. كما أن القوانين التي تحكم السلوك العنيف والضار في الحياة الاجتماعية العادية تنطبق كذلك على الرياضة. وعلى الرغم من عدم وجود ما يحول دون احتجاز الشرطي لرياضي، نتيجة اقترافه لسلوكٍ يتسم بالعنف، أو الخطورة على نحوٍ خاص، فإنَّ ساحة اللّعب تبدو كما هو واضح ساحة للاستثناء القانوني، تُعلّق فيها المفاهيم العادية الخاصّة بالسلوك العنيف والعدواني والفوضوي، أو التي يُفسّر فيها هذا السلوك بصورة

مختلفة تماماً. ويظهر ذلك بصورة ملفتة للأنظار على نحوٍ خاص في رياضة الملاكمة، التي لا تعد فيها الإصابة، وهو ما ينوه إليه منتقدوها بصورة منتظمة (خصوصاً إصابة المخ، التي يتحتم أن يتعرّض اللاعب لشكل من أشكالها عندما يتلقى ضربات تفقده الوعي)، خطورة عرضية، بل إنها تُمثل الغرض المحدد من تلك الرياضة. ويمثل ذلك بالنسبة للبعض شذوذاً يدعو للانزعاج بدرجة تكفي للتشكيك في حق رياضة الملاكمة في أن تُعتبر في الأساس من بين الرياضات. ويشير هذا الجدل إلى أن الإحلال، أو التحوّل الرمزي للعنف يرتبط، بشكلٍ أو بآخر، بتعريف الرياضة.

ويُعد افتراض الرضا، كما تنصُّ عليه الشروط القانونية في مبادئ القانون العام من أنه لا ضرر حال وجود الرضا، وهو ما يمنع احتجاز لاعبي كرة القدم وهوكي الجليد في زنانات مراكز الشرطة بعد المباريات، حيث يوجد تفاهم يفيد بأن المشاركين في الرياضة يوافقون بشكل عام على أنهم عرضة للإصابات التي قد تحدث لهم في أثناء ممارسة الرياضة. ومن ثم، فإنه يتم في العادة اتخاذ الإجراءات القانونية ضدّ السلطات المسؤولة عن الرياضة، لا ضدّ المشاركين فيها، وذلك عند عدم اتخاذ إجراءات السّلامة المناسبة، على سبيل المثال.³⁴ ولقد حوكم بالفعل لاعبان: ففي عام 2000، أُدينَ لاعب الرجبي مارك موس Mark Moss بالاعتداء المفضي إلى ضرر جسائي بالغ، وحُكِمَ عليه بالسجن لمدة ثمانية أشهر للكم لاعب آخر في وجهه، مما أدى إلى كسر مجهر عينه.³⁵ وعلى الرغم من ذلك، يظل من الصّعب أن نقرر في رياضات الالتحام الفرق بين العنف الذي ينبغي على اللاعب أن يتوقع تعرضه له كجزء من اللعبة، ومن ثم يكون قد وافق عليه تبعاً لموافقته على المشاركة في المباراة، وبين العنف الذي يتخطى هذا المستوى.

وقد ركزت معظم المحاكمات الناجحة على الحوادث التي وقعت خارج الملاعب، أو في أثناء توقف اللعب، حيث يسهل كثيراً التدليل على تعمد إلحاق الضرر. وعلى الرغم من إمكانية محاكمة لاعب ما بصورة ناجحة بسبب قيامه

بعرقله أدت إلى إصابة بالغة في أثناء اللعب، فقد أدت حقيقة وجود عقوبات داخل نطاق اللعبة، علاوة على صعوبة التعامل مع مسألة الرضا المفترض، إلى عدم شيوع مثل هذا النوع من المحاكمات، مما كان من المفترض أن يكون عليه. إنَّ الفهم القائم في عالم الملاكمة، الذي يقول إنه من المتوقع أن يحاول الملاكم، علاوة على غير ذلك من الأمور، إلحاق الضرر بخصمه إلى درجة يكون فيها غير قادر على مواصلة اللُّعب من الناحية الجسدية، قد أدى إلى انتقال تحمل المسؤولية إلى الحكام، الذين قد يتحملون مسؤولية إصابة الملاكم، حال فشلهم في وقف الملاكمة في وقت مبكر بصورة كافية.

ولقد صُمِّمَ اللُّعب القتالي بين الحيوانات كي يمنع في العادة حدوث إصابة بالغة أو فعلية. أما في حالة الرياضة البشرية، فإنَّ الأمور تتسم بدرجة أكبر بكثير من التعقيد. إنَّ الحجة التي ذكرتها منذ برهة، التي تقول باختلاف الملاكمة عن غيرها من الرياضات، من حيث إنَّ الإصابة فيها تعدُّ هي الهدف، وليس مجرد نتيجة عرضية لتلك الرياضة، لا يمكن أن تصمد في واقع الأمر في مواجهة الحقيقة القائلة إنَّ غالبية الرياضات تؤدي إلى الإصابة، خصوصاً إذا مُورِسَتْ بصورة احترافية منتظمة، وبشكل يمكن توقعه. وفي الواقع، ينتج عن الرياضة كم أكبر من الإصابات عن الحياة العادية، وبصورة يمكن وصفها بأنها منتظمة. وبما أن العديد من تلك الإصابات، إن لم يكن غالبيتها، ينتج عن تخطي اللاعب لقدراته الجسدية، أو لاستمراره في اللُّعب بعد حصول الإصابة، وليس من خشونة اللُّعب أو نتيجة لحادث، فإنه يمكن القول إنَّ هذه الإصابات تعد ضرورة، لا نتائج عرضية لممارسة الرياضة.

ويُعد العنف، علاوة على انتشار سوء السلوك، والمواقف السلبية التي تميز المباريات الرياضية، هو ما يفرض أصعب الأسئلة التي تثار حول العلاقة بين الرياضة والحياة الاجتماعية العادية. ويظل مؤرخو الرياضة وفلاسفتها منقسمين على أنفسهم حول مسألة: هل تسبب الرياضة استمرار العنف أم أنها تؤدي إلى تحجيمه؟! وهناك صعوبة خاصة في تحديد الفروق التعريفية بين الرياضات

والحياة اليومية، فيما يتعلّق بالرياضات التنافسية عما عليه الحال بالنسبة لغير ذلك من أشكال الرّياضات. وقد كرّس روجيه كايوا الجزء الثاني من كتابه «الإنسان.. واللعب.. والمباريات» (Man, Play and Games) لتطوير أنماط تاريخية للثقافات، طبقاً لقيمهم المفضلة الخاصّة باللعب. وقد تكون الرّياضات والألعاب مستقلة، أي تضع قوانينها الخاصّة بنفسها، لكن هناك حاجة للنظر إلى السّؤال الذي يتعلّق بنوع هذا القانون على أنه متغيّر الأنماط، أي مكيف أو متوافق من قبل جهةٍ أخرى. ويتمثل التناقض الذي تتسم به الرّياضة الحديثة في انفصالها عن الحياة العادية، مع تشكيلها لجزء فاعل منها، في آنٍ واحد. ويصل هذا التناقض إلى ذروته في ما يتعلّق بالطبيعة التنافسية للألعاب، وذلك لأنّه إنّ صحَّ ما يصر عليه كايوا من أن «الغاية الصحيحة للألعاب لا تكمن في تطوير القدرات، فإنّ اللّعب هو غاية في حدّ ذاته»³⁶، وعلى الرغم من ذلك، فإنّ التشابه بين القيم التي تطورت في الرّياضة التنافسية والقيم التي تحظى بالتشجيع داخل المجتمعات الأوربية والأمريكية التي يسودها الفكر المنطقي خلال القرنين الماضيين - الخاصّة بالقوّة والاعتماد على النفس والهدف المنضبط والنهم الشديد تجاه المنافسة - يبدو على درجة كبيرة من القوّة، بحيث لا يمكن تجاهله. وفي حقيقة الأمر، فإنّ كايوا نفسه يشير إلى أن «التحوّل إلى التحضر من هذا المنطلق يحوي في طياته القضاء التدريجي على أسبقية المزيج المكون من اللّعب الذي يؤدّي إلى الدوار والمحاكاة (ilinxand mimicry)، حيث يحل محلها الاقتران بين المنافسة والفرصة (agónalea) وهيمنتها»³⁷. ثم يكرّس كايوا النصف الثاني من كتابه لتوضيح الطرق التي حلّت من خلالها المبادئ المقترنة بالمنافسة والفرصة محل مثيلاتها المرتبطة بالمحاكاة والدوار، وذلك في المجتمعات التي يكون لمبدأ «انتهاز الفرص»، على حد التعبير الرّياضي، بها أهمية كبيرة.

وقد زاد القلق في ثمانينات القرن الماضي، خصوصاً بالنسبة لكرة القدم، من انهيار ذلك النوع الخاص من التشكيل التوفيقي الذي تمثله الرّياضة - تطويق التّنافس العنيف وجعله آمناً من خلال القواعد - وذلك بعد أن أصبح العنف

على أرضية الملعب يصاحبه عنفٌ بين الجماهير، كان ينتشر خارج أسوار الاستاد، ويتقل إلى الشوارع المحيطة به. ويعد حدوث هذا الانهيار الواضح، من قبل جماهير كرة القدم على وجه الخصوص، أمراً ملائماً ومقلقاً في آنٍ واحد، وذلك لأنَّ تاريخ صقل رياضة كرة القدم الشعبية في العصور الوسطى وتشذيبها يوفر، من عدة جوانب، نموذجاً لتطور الرياضة كما نعرفها اليوم. ومع استمرار نمو كرة القدم على مر العقود الماضية، فإنَّ مثل هذا النوع من العنف يمثل بصورةٍ متزايدةً خطورةً اقتصاديةً بالنسبةً للجهات المسؤولة عن اللعبة. ومن ثم، فقد تمت مواجهة التهديد الناجم عن العنف، وبدرجةٍ كبيرة، بأساليب سيطرة على الجماهير أكثر فعالية وصرامة، وربما تم احتواؤه، علاوةً على السيطرة على سلوك اللاعبين في الملعب. ويسود افتراض بأنَّ العنف في هذه الحالة هو كالعُدوى؛ يمكن أن ينتشر، وبأنَّ العنف المفرط بين المتنافسين على أرضية الملعب سوف يحفز على تقليد العنف من قبل الجماهير المتنافسة.

ولكن ذلك يتجاهل ما قد يكون أكثر شكل مذهل من أشكال الخصومة التي تحتوي عليها الرياضة الحديثة؛ خصومة بعيدة للغاية على أن تكون موازية للخصومة على أرض الملعب، بل ربما اعتبرناها عمودية عليها «مضادة لها»، إنَّ جاز التعبير. لقد أشرت سابقاً، عندما تناولت ظاهرة الاختناق أو مشبط الفوز، إلى أن جزءاً من الضَّغط الذي يشعر به اللاعبون أو الرياضيون الذين يوشكون على تحقيق الفوز يعود إلى إدراكهم المتزايد بتوقعات مشجعيهم. والآن، أريد أن أزيد على ذلك القول إنه في ظل هذه الظروف، فإنَّ المشجعين يصيرون كما لو كانوا خصماً. ويدلُّ القلق من الفوز على أن الخصم الحقيقي للاعب يتمثل في الجمهور المشاهد للمباراة، وفي تلك العزيمة التي تنهوى، والرغبة التي تصبح محط التركيز مع دنو إمكانية الفوز، حيث يجد اللاعب نفسه وقد احترق فوق نار رغبته في تحطى تلك النقطة الشائكة. فبينما يوشك على انتزاع الاعتراف بتفوقه على منافسه في اللعبة، هذا الخصم الذي يفترض أن يضفي على نصره المعنى المطلوب، إذا بطرفٍ ثالثٍ يخترق تلك المواجهة الثنائية، فيُعقِّد من عمقها ومن

فعاليتها. ولكن هناك شيئاً واحداً مؤكداً يعرفه اللاعب، ألا وهو أن هذا الطرف الثالث يسانده بكل تأكيد؛ ما دام أن الفوز قد تحقق له. أما إذا لم يفز، وإذا ظهر أن اللاعب قد ضيَّع هذا النَّصر بصورة غريبة بعد أن كان قاب قوسين، أو أدنى من تحقيقه، فإنَّ خيانتَه ستؤدِّي إلى غضب وخذلان مروعين، وهو الأمر الذي قد يذِيب في واقع الأمر انعكاس الخصومة بين مشجعي كل فريق، حيث سيتوخدان في صيحة استهجانية من المدرجات. وفي الوقت الحاضر، يزداد احتمال أن يجلب اللاعب أو الفريق الذي يفشل ببساطة في تحقيق أداءٍ لا يرقى للمستوى الذي تتوقعه الجماهير على نفسه مثل هذا النوع من الإدانة.

وتكشف تلك العداوة بين الجمهور واللاعبين عن حقيقةٍ تتعلَّق بالرياضة الحديثة، لا ندرکها إلا نادراً، تتمثل تحديداً في أنها تجسّد مصدراً لمشاهد الخصومة العنيفة؛ ليس ذلك فحسب، بل والخصومة العنيفة من قبل المشاهدين. وتُعد أنجيلا باتموري Angela Patmore أحد المعلقين القلائل الذين درسوا هذا الجانب من جوانب الرياضة، حيث أشارت في عام 1979 إلى أنه يمكن النظر للرياضة على أنها نوع من التجربة المتجددة لإنتاج التوتر الشديد والاستجابة له. ولقد عرفت ما أطلقت عليه «التجربة الرياضيّة» على النحو التالي:

من خلال طرقٍ اصطناعيّة، وباستخدام الرّموز والأدوات والعارضات والخطوط الفاصلة والقيود الزّمنية، تُفرض الشّروط على الفاعل أو الفاعلين، التي تستثير أقصى درجة من التوتر، داخل المنطقة ومن خلال الوقت المحدّد. وعلى الرغم من أن الموت لا يكون من بين الحوافز الممكنة، فإنّه سيُعرض أو سيُرمز إلى وجوده. وفي ظل هذه الظروف، تُقاس قدرة الفاعل أو الفاعلين على تحمل التوتر؛ ويُقاس ذلك من خلال تأدية مهارةٍ مختارة في المنطقة والزّمان المحددين... سوف يُشار إلى الطّاقات التي تتولّد بصورةٍ جماعيةٍ بمصطلح (الرياضة).³⁸

وهذا هو السرُّ المعلن عن عنف الرياضة. فهي طريقةٌ لمعايرة (مستعيراً لغة المحاكمات والاختبارات والمنافسات) مدى مقاومة التوتر. وفي حين يظهر أن التوتر ينطوي على التقليل من خطورة الإصابة الجسدية (حتى ذلك قد يكون قابلاً للشك، نظراً للضغط الذي ينتج لدى اللاعبين نتيجة تعرض أجسامهم للخطر)، فإنه يتطلّب - على ما يبدو - تعظيم التوتر النفسي لدى ممارسي الرياضة إلى الدرجة التي ينتج عنها الانهيار. وبالنسبة لباتموري، فإنّ الرياضة تتشكّل من خلال «الأساليب المذهلة التي يُجرِّج المنافسون بها من استقرارهم العقلي أمام الجماهير».³⁹ وعلى حد قول أرنولد بيسير Arnold Beisser، في كتابه «جنون الرياضة» (The Madness in Sports): «تمثل الملاعب الرياضيّة معملاً شبه مثالي للبحث النفسي».⁴⁰ ويعود ذلك بدرجة كبيرة إلى أنه على عكس العديد من أشكال الاختبارات، التي يهدف فيها المراقب إلى تقليل الآثار المشتتة للخاضعين للتجربة الناتجة عن وجوده، فإنّ التجربة ذاتها في عالم الرياضة تتشكّل من هذا الوجود الواضح المسموع للمراقب، وكذلك الضغط الذي ينتج لدى الخاضع للتجربة، والذي يتولّد من هذا الوجود. فعندما نشاهد رياضةً ما، فإننا نترقب المدى الذي يستطيعون الوصول إليه (وبالتالي الذي نصل إليه نحن أيضاً)، قبل أن يصابوا بالانهيار. وهنا، فإنّ النقطة البارزة لا تتمثل في العنف الواقع في الرياضة، ولا حتى في العنف الذي يمكن أن تشجع على وقوعه، ولكن في العنف الذي يُمارس ضدها ومن خلالها.

وسواء كنا نعتقد أن الرياضة تمجد العنف أو تلتطف منه، فإنّ الرياضة المنظمة التي تطورت خلال القرنين الثامن والتاسع عشر كانت - ولا تزال - ترتبط بعلاقة وثيقة بالعنف. ومن الممكن أن يُقال كذلك إنّ الرياضة تحل مشكلة العنف، أو على الأقل تقلل من حدته. غير أن الطريقتي التي تحقق بها ذلك تجعل هي الأخرى الرياضة تتركز حول مسألة العنف، مما يجعل الرياضة والعنف لا ينفصلان، كما يضمّن كذلك ظهور العنف إلى السطح أينما وجدت الرياضة. فالعنف هو الذي يضيف على الرياضة مضمونها وغرضها وضرورتها، وليس

الملل أو الفضول أو التضليل، وليس اللعب، ولا حتى «الإثارة»، ما دام أن الإثارة ترتبط بصورةٍ شبه كاملةٍ (تبعاً لما قاله إلياس) بأشكال الإثارة التي تنتج عن تجربة العنف أو مشاهدته. والميزة هنا واضحة، وهي تكمن في الزعم القائل إنَّ الرِّياضة تملك القدرة على احتواء العنف وتطهيره والسموَّ به. أما الجانب السلبي، فيتمثل في إطالة الرِّياضة للعنف، وربما ضخمت منه كذلك بعد أن كان قابلاً للانحسار بصورةٍ أسرع، أو لعدم الظهور من الأصل، وذلك نتيجةً لاقترائها الأصيل.

الأثار النيكوتينية

تتوقف وجهة النظر التي يتبناها المرء حول عنف الرِّياضة، بدرجةٍ كبيرة، على ما إذا كان يرى أن هناك، بصورةٍ عامّةٍ، عنفاً ناتجاً عن الرِّياضة، بغض النظر عن درجته. ويأتي هذا الحكم دائماً مبنياً على أساس يتسم هو ذاته دوماً بعدم اليقين؛ ويتطلب ذلك أن يطور المرء نموذجاً لاقتصاد العنف. ولو عدنا إلى مسألة ظهور الرِّياضة من التسلية، التي بدأنا بها هذا الكتاب، فربما كان ممكناً أن نولد فهماً أكثر تعقيداً لمثل هذا الاقتصاد. وفي الغالب، يركز الرأي الذي يقول إنَّ الرِّياضة المنظمة تتضمن احتواء للعنف على تاريخ كرة القدم. ولقد رأينا أن كرة القدم كانت، بكل تأكيد، ممارسة دموية محطمة للعظام، وذلك حسب الطريقة التي كانت تُمارس بها في العصور الوسطى بأوروبا. ولكن من غير الواضح ما إذا كان هذا هو السبب الوحيد، أو حتى السبب الرئيس، وراء سعي السلطات لتقييدها. وذلك لأنه كان من المحتمل أن تدان مثل تلك الرِّياضات لكونها مخربة. وبالفعل، فقد كان من بين الشكاوى الكثيرة تجاه الأمور الملهية من قبيل كرة القدم تلك التي تقول إنها تضيع وقت الطبقة العاملة وطاقاتهم، للذين يمكن الاستفادة منها بصورة أفضل من خلال تحسين مهاراتهم الحربية، خصوصاً مهارة رمي السهام التي كانت الجيوش الإنجليزية تعول عليها كثيراً.

وقد جاء في أمر ملكي صدر في عام 1365 أنه يجب على كلِّ رجلٍ سليمٍ

البنية في مدينة لندن أن «يستخدم خلال ممارسته للرياضة القوس والسهم، أو الرصاص الكبير أو صغير الحجم». كما منعهم وهددهم «بالسجن، إذا انخرطوا في ألعاب رمي الصخور، وقطع الخشب، وكرة اليد، وكرة القدم... وغير ذلك من الألعاب التافهة التي لا قيمة لها».⁴¹ فلم تكن المشكلة تتمثل في العنف على ما يبدو، ولكنها كانت تكمن في أنها «ألعاب لا مقصد منها، أو مُعطلّة، من المرجح ألاّ تشمل على القوس والسهم».⁴² وقد كان يُنظر إلى «اللعب القاتل» على أنه غير مجدٍ، وذلك لأنه عنفٌ غير موجّه. ومن ثم، لم تكن المشكلة تتمثل في كيفية الحد من العنف، ولكن في تركيز العنف والمحافظة عليه، وفي كيفية منع الاندفاعات العنيفة من الانتشار بصورة غير مثمرة، وبالتالي المحافظة على سيطرة الدولة على العنف (كان قطع رؤوس من يُتهم بممارسة عراك كرة القدم من بين الطرق الفعالة لتحقيق ذلك!).

وأعتقد هنا أن بمقدورنا أن نرى تشابهاً مع حديث بيتر سلوتردايك Peter Sloterdijk مؤخراً عن اقتصادات الغضب، في كتابه «الغضب والعصر» (Rage and Time).⁴³ ويصف سلوتردايك الغضب انطلاقاً من المبدأ الذي أطلق عليه أفلاطون «المزاج» (thymos)، والذي يشتمل - علاوة على الغضب - على مبادئ الفخر والإذلال والرغبة في تعظيم الذات وتأكيد الذات العدوانية. وبالفعل، نستطيع أن نقول إنّ المشاعر التي ترتبط بالنصر في الرياضة والحرب، والتي يمكن أن نعبر عنها بالأثار النيكوتينيّة، هي جزء من إمبراطورية «المزاج». ويتمثل رأي سلوتردايك في أنه تحتم على المجتمعات الأوروبية اكتشاف طرق للسيطرة على الغضب، ولا نقصد بذلك القضاء عليه، ولكن بدلاً من ذلك تركيز هذا الغضب بطريقة تحفظ طاقته، وتقوم بتوجيهها، عوضاً عن استهلاكها بصورة تؤدي إلى ضياعها في أعمال صخبٍ مبهرجة غير مثمرة. وينظر سلوتردايك إلى تاريخ المؤسسات السياسيّة بصورة تتسم بالفطنة، وبشكل يشير الاستفزاز، وذلك بوصفها بـ«رأسمالية الغضب»، حيث تستطيع بنوك الغضب أن تركز رأسمال الغضب، كما تقوم بتوزيعه كذلك حيثما يمكن استغلاله بأفضل صورةٍ ممكنة.

ويرى سلوتردايك أن اقتصاد الغضب مصمّم لتركيز الموارد التي كانت ستضيع لولاه بصورة تتسم بالتبذير، وذلك لأنّ الغضب يميل إلى إنتاج ثورات مفاجئة تخفف التوتر. وتمثل الرّغبة في الانتقام أكثر طرق تخزين الغضب شيوعاً. ويجب تحوّل الغضب إلى نقمة، وإلى رغبة في الانتقام، وذلك لكي يصبح معمرأً قابلاً للاستبدال؛ من المرجح أن يكون الغضب الذي يمكن المحافظة عليه من قبل العامّة غضباً يمكن تضخيمه والمحافظة عليه عبر فترة من الزمن. ومن ناحيةٍ ما، يتضمّن التحرك تجاه الرّياضة المنظمة نوعاً مشابهاً من التركيز، لكن ذلك يتحقّق بطريقةٍ مغايرةٍ تماماً. فقد كان الهدف من ادخار العنف الديني أو الثوري يكمن في تفويض الغاضبين أو الناقمين لغضبهم أو نقمتهم إلى سلطةٍ مركزية، أو إيداع مدّخراتهم في بنك الغضب الوطني، على حد تعبير سلوتردايك (يشبه الإله الذي يقول «لِي الْإِنْتِقَامُ» الدولة التي تجعل من تطبيق المرء لأحكام القانون بنفسه جريمة تستحق العقاب).

وعلى نقيض ذلك، فقد كان الهدف من الرّياضة المنظمة يتمثل في تشعب وانتشار الرّغبة في تحقيق النّصر، وفي المتعة التي تنتج عن تحقيقه، والتي كانت تتركز سابقاً في المراكز الملكية والأرستقراطية التي تتمتع وحدها بتلك المميزات. ومن الممكن أن ننظر إلى التحوّل من عوامل الإلهاء الفوضوية المشتتة من قبيل كرة قدم العصور الوسطى إلى الرّياضات المنظمة، على أنه تحوّل من اقتصاد النّصر المقيد، الذي كانت تقتصر فيها تجربة التفوق المجيدة على الملك، سواء أكان ذلك في صورة رحلات صيد الغزلان في ربوع غابات جنوب إنجلترا التي صادر ملكيتها أو في مغامراته العسكرية، إلى اقتصاد تفوق موزع، يمكن فيه توزيع الأثر النيكوتيني، وإن كان ذلك في صورة جرعات صغيرة بصورة تثير الإحباط توزع بين السكان كافة. ومن ثم، فإنّ المشكلة التي تساعد الرّياضة على حلها لا تتمثل بدرجة كبيرة في احتواء العنف، بقدر ما تتمثل في توزيعه وفي مضاعفة فرصة المشاركة فيه. ويفسر ذلك التناقض الغريب في أن الرّياضة - على ما يبدو - تزيد في واقع الأمر من إجمالي العنف، بدلاً من التقليل منه. وفي مثل

هذا الاقتصاد، لا يحقق أي إنسان أكبر درجة من الاكتمال الباعث على الانتشاء، المتمثل في النَّصر المطلق، إلا في أزمنة الحرب. وتسمح الرياضات التي تعتمد على المتفرجين بامتداد الأثر النيكوتيني بصور أكثر اتساعاً، وذلك لأنها تمكن من المشاركة غير المباشرة في النَّصر. وفي نهاية المطاف، سيتطلَّب قانون الروح الرياضية أن يتحلَّى الخصم بروح طيبة، وبذلك يُسَمَح للخصم بالمشاركة في متعة الفائز المتواضعة اللطيفة، وذلك مثلما يحدث عندما يهنئ كابتن الفريق الخاسر الفائز على نصره، بدلاً من إخفاء نواياه في الانتقام، كما يحدث في مسرحية «انتقام مالفوليو».

ومن الشائع أن نرى الاتجار بالرياضة بوصفها جزءاً من التحوّل من السلوكيات التقليدية المقدسة إلى السلوكيات العلمانية، وهو بذلك يمثل خيانة لما هو مجرد لذاته، أو لمبدأ الرياضة من أجل ذاتها. أما إذا نظرنا إليه من منظور الاقتصاد المؤثّر، فإنّه يمثل ذاته كطريقة لنشر نشوة الانتصار المحرّمة بين عدد كبير من المشاركين، دون إبقاء الشَّعب في حالة حربٍ دائمة، وهو الأمر الذي يتطلب سلسلة لا تنضب من الخصوم الذين يمكن هزيمتهم، بخلاف ما لذلك من مساوئ أخرى، من قبيل ميل ذلك لاستنزاف عدد السكان بصورة سريعة. وتربط عملية تعميم كلِّ من الرّغبة في الفوز ودفع مقابل هذا الفوز (التي تؤخذ هنا حرفياً، حيث يُصرَف العائد في صورة عملة الأثر النيكوتيني للفوز ذاته) بين زيادة أخلاقيات المنافسة في الرياضة وزيادتها في غير ذلك من النواحي، مثل السياسة. وكما يلاحظ روجيه كايوا، فقد أصبحت الأعراف الرياضية تميز المنافسات السياسية في الدول الديمقراطيّة، التي تميل إلى «اعتبار الصراع بين الأحزاب السياسية بمثابة خصومة رياضية، فيظهر عليها غالبية خصائص القتال في ساحة اللّعب أو حلبات المنافسة؛ كتدني المخاطر، واحترام الخصم، واحترام قرار الحكم، والولاء والتعاون الصادق بين الخصوم، بمجرد التوصل إلى قرار».⁴⁴

وبمائل الاقتصاد النيكوتيني للرياضة كذلك توزيع التّجّاح في ظل الاقتصاد السياسي، الذي سعى أيضاً خلال القرنين الثامن والتاسع عشر في إنجلترا،

وبصورة بارزة، إلى تعميم الوصول إلى إمكانية الفوز؛ ويقصد بتكلفة تعميم الوصول إلى الفوز في كلتا الحالتين أن ذلك لا يمكن أن يكون مضموناً أو دائماً. ويجب السماح للأحزاب السياسية المتنافسة بخوض الانتخابات على فترات منتظمة، كما يجب منح الفريق المهزوم الفرصة بصورة موثوق بها لعكس النتيجة في المباراة التالية من البطولة، أو في جدول مبارياته خارج أرضه. وتمثل تكلفة كسر احتكار الاقتصاد النيكوتيني في أن الفوز لا يكون حاسماً، فمن الممكن لترتيب الفرق في جدول الدوري أن يرتفع وينخفض، تماماً كما هو الحال بالنسبة لأسعار الأسهم. لكن الميزة الكبيرة تتمثل في عدم وجود خاسرين، بشكل صريح مطلق، لا أمل لهم. فبمقدور كل إنسان أن يجد لنفسه فريقاً يشجعه، يتمكن من تحقيق الفوز من حين لآخر، أو تحقيق التعادل أمام خصم أقوى بكثير.

الانزلاق

أدى أسلوب «كرة القدم الشاملة» الذي طوره الهولنديون في سبعينيات القرن الماضي إلى تعبئة فكرة تمرکز اللاعبين ذاتها. فقد كان كل لاعب قادراً ومستعداً للعب في أي مركز في الملعب، مع توقف ذلك على المنطقة التي يتسلم فيها الكرة، وعلى الظروف السائدة في المباراة. ويُنظر للمركز في هذا السياق على أنه مجموعات من الحركات التي تُمرّر تماماً كالكرة من لاعب لآخر. وتتسم تلك النقلات والتبادلات للطاقة والإمكانات والسرعات بالتعقيد الشديد، خصوصاً في الألعاب الجماعية، لكنها تؤدي كذلك دوراً مهماً في العديد من أشكال الرياضة التي لا يتمثل الهدف فيها في إخضاع خصم بشري، بل في تحقيق نوع من الالتقاء مع شكل من الأشكال الطبيعية أو القوى الطبيعية. وقد أشار جيليس ديلوزي Gilles Deleuze بشكل ارتجالي وبارع إلى التحوّل نحو تلك الرياضات منذ أكثر من عشرين عاماً مضت:

لقد قضينا وقتاً طويلاً ونحن نتبع مفهوماً حماسياً للحركة، حيث

تكون هناك نقطة اتصال، أو حين نكون نحن مصدر الحركة: كالجري، والتسديد، وهلم جرا؛ والجهد، والمقاومة، مع وجود نقطة بداية وارتكاز. أما في الوقت الحالي، فقد تضاعف تعريف الحركة شيئاً فشيئاً، تبعاً لنقطة قوة. وتأخذ جميع الرياضات الجديدة - كركوب الأمواج، وركوب القوارب الشراعية، والطيران الشراعي المعلق - شكل الانضمام إلى موجة قائمة من الرياضات. فلم يعد هناك منشأ يمثل نقطة بداية، ولكن ما يحدث يشبه وضع القمر الاصطناعي في مداره المحدد مسبقاً. وأهم ما في هذا الأمر هو كيفية الاندماج في حركة الموجة الكبيرة، أو عامود الهواء المتصاعد، وذلك بغية الانضمام إلى شيء موجود، بدلاً من تكوين منشأ جديد للجهد.⁴⁵

وتشير ملاحظة ديلوزي إلى التحوّل من نوع معين من الحركة إلى آخر؛ وهي حركة تُستحث في نطاق حركي ثابت ومتقطع، حيث تُطبّق القوّة بطريقة محدّدة مسبقاً وعلى نقطة ثابتة، وحركة تقع داخل نطاق حركات متفاعلة مؤثرة على الآخر، الذي يُتّاقَل بين أجسام مختلطة، علاوة على تشكيله بذاته لتلك الأجسام. ويتحوّل نظام الفعل والإنتاج تجاه نظام التقليد والترديد. وفي النظام الأول، تتصادم الأجسام والحركات مع بعضها بعضاً في الفضاء الذي توجد فيه؛ وفي النظام الثاني، تتكثّف الحركات لتصير أجساماً، ثم تُغرّس الحركة في الأجسام في الفضاء الذي تستحثه بنفسها وتشكل جوهره. وتشدّد الأنواع الجديدة من الرياضات التي يشير إليها ديلوزي على أهمية الانزلاق أو ما يماثله من حركات - التزلج، والارتفاع المفاجئ، والتخليق، والطفو، والتحويم - يُعبّر عنها باستخدام كلمات من قبيل: بموازاة، وعبر؛ بدلاً من: على أو فوق.

وربما بدأنا نشهد تركيبات لغوية تخص العلاقات التنافسية في أنواع الرياضة التي تنبأ بها ديلوزي بشكل دقيق قبل ظهورها. وليس هناك تضاؤل في شدة الرغبة في الكفاح التي تظهر في رياضات ركوب الأمواج، وركوب لوح التزلج، وركوب الأمواج على مزلجة، والجري الحر، والتزلج على الجليد، والتزلج على

الماء بالمظلة، والبوسابول (تجمع بين كرة القدم، والكرة الطائرة والقفز على الترامبولين). ولكن لم تعد الرياضات التي تؤدي - على ما يبدو - إلى أكثر التأملات الفلسفية إثارة للاهتمام هي تلك التي تثير التساؤلات حول القواعد الإنسانية والأخلاقيات، بل تلك التي تجسد العلاقة الإنسانية بعالم القوى والأغراض غير البشرية. وعلى سبيل المثال، قدم جنار بريفيك Gunnar Breivik مؤخراً «تحليلاً هيدجربياً عن رياضة القفز بالمظلات»، توصل إلى أن المرء عندما يكون قافز مظلات مبتدئاً، فإنه «يعرض نفسه لمزيج فريد من انهيار العالم الجذري، والوجود في الفراغ، وتجربة الشعور بالقلق، والاقتراب من الموت، وهو ما ينبغي أن يسهل، وذلك طبقاً لهيدجر، فهم ماهية الحياة بصورة أكثر واقعية».⁴⁶

ويقدم سارتر Sartre أول تحليل رائع للعلاقة الرياضية بين ما هو بشري وما هو غير بشري، في فصل «الفعل والامتلاك» (Doing and Having) من كتابه «الوجودية والعدم» (Being and Nothingness)، يهدف فيه إلى توضيح أن «قهر تلك الكتل الهائلة من الماء واليابسة والهواء، التي كانت تبدو عصية على القهر قبل ذلك، علاوة على عدم استغلالها، يمثل أهم جوانب الرياضة، خصوصاً رياضات الهواء المفتوح».⁴⁷ ولا يتمثل الفعل والعلاقة المثاليين في فعل وعلاقة يُعبر فيها ببساطة الغرض، والهجوم عليه، واستيعابه. وبدلاً عن ذلك، نضرب لها مثلاً بالزلاجات التي تتزحلق فوق الجليد، وهو ما يؤدي إلى خليط من الدعم والسرعة (فحركة الزلاجة فوق الجليد هي الشيء الوحيد الذي يجعل من الممكن للجليد أن يكون بمثابة الدعم)، وهو الذي «تشبه فيه المادة ذاتها، فتصلب من أجل أن تتحمل ثقلها، ثم تتساقط من خلفي مبعثرة مرهقة».⁴⁸ ويتمثل أهم شيء بالنسبة لسارتر في أنه ينبغي أن يتحوّل الجليد فقط في اللحظة التي أمر فيها فوقه، ثم يعيد تشكيل ذاته بعد مروري دون ترك أي أثر على حدوث تغيير، وهذا هو السبب وراء تفوق رياضة التزلج على الماء على التزلج على الجليد. فعلى الرغم من «اختراعها منذ عهد قريب، فإنها تمثل من هذا المنظور الحد المثالي للرياضات المائية».⁴⁹

ويصر سارتر على أن نشوة هذا الفعل تنبع من حقيقة أن «التخليق بين ما هو

ذاتي وما هو غير ذاتي، الذي يتحقّق هنا نتيجة فعل الرياضي، يُعبّر عنه، كما هو الحال بالنسبة للمعرفة التأمليّة وأعمال الفن، من خلال التأكيد على حق المترحلق تجاه الجليد. فذلك هو ميدان الجليد الخاص بي». ⁵⁰ وينظر سارتر إلى مقولتيّه التاليتين على أنّهما متساويتان: «يبدو الترحلق وكأنه متطابق مع الخلق المستمر»، و«تشبه السّرعَة الوعي، كما أنّها ترمز هنا إلى الوعي».

ويبدو أنّ الكُتّاب المتخصصين في التزلج ينجذبون إلى وصف سارتر الخاص بالسيادة على الأشياء. وقد تمادى كتاب «المشي فوق الماء» (Walking on Water) (1992)، لكتابه أندي مارتن Andy Martin، حتى وصل به الحدُّ إلى تفسير الآية الأولى والثانية من سفر التكوين «وروح الله يرف على وجه المياه»، كإشارة إلى أنه يمكن النظر إلى الخلق ذاته على أنه نوع من ركوب الأمواج: «راح يرفرف على وجه البحر: فوق الماء، يركب الأمواج حتى وهو يخلقها، فقد ركب الأمواج في كل ربوع العالم حتى يخرجه إلى الوجود». ⁵¹ ويهدف ممارسو رياضة ركوب الأمواج على الماء إلى الحصول على بعض من تلك الطاقة المقدسة:

يبدو من وجهة نظري أنّ جميع راكبي الأمواج قد طمحووا إلى الوصول إلى حالة الألوهية. فقد رغبوا جميعاً في أن يصيروا أقوى من أعتى الأمواج. لقد أدركت ذلك خلال تلك اللحظات الخالدة، إذ شعرت أنا أيضاً بأنني كائن خارق، وذلك حتى لطمتني الأمواج إلى الأسفل مرة أخرى، لتحولني ثانية إلى كائن زاحف يحبو على وجه الأرض. ⁵²

وبالفعل، هناك قدرٌ كبيرٌ من الفخر والعدوانية والخصومة والرغبة والسعي وراء المكانة في وصف مارتن لعالم ركوب الأمواج، في كتابه «المشي فوق الماء»، وكذلك في كتابه الأخير «سرقة الموجه: الصراع الملحمي بين كين برادشو ومارك فوو» (Stealing the Wave: The Epic Struggle Between Ken Bradshaw and Mark Foo)، الذي يجعل من البحر - كما يشير العنوان الفرعي - ساحة للنزال البشري. ⁵³

وبحسب اعتقادي، فنحن لسنا في حاجةٍ على الإطلاق إلى أن ننظر إلى هذا الخلق بتلك الطريقة الأنوية، وكأنه قد جاء ببساطة من إرادة وفعل المتزلج أو راكب الأمواج، ليحول بصورةٍ سحريةٍ مؤقتةٍ جمود الجليد، أو المحيط ذاته إلى شيء، يخص الرياضي بصورة متفردة حصرية. ومن بين خصائص هذين الأسلوبين الرياضيين ذلك التحوّل الذي يتسبب فيه بين الانزلاق بالتوازي مع أسطح البحر والجليد - الانزلاق على البطن، الذي يعد من الأمور الطبيعية عند الأطفال، أو وضعية راكبي زلاجة الجليد الجماعية - والوقوف منتصبين في كبرياء. وفي العادة، يقصد بالسقوط فقدان المرء لقوة الجاذبية مع السطح، أو الشعور بقدمك وقد ابتعدت عنك ومعك بصورة مفاجئة وغير متوقعة وسخيفة، ويتبع ذلك هدوء مفاجئ فكاهي. ويتعلم المتزلج على الجليد أو راكب الأمواج، مثله في ذلك مثل راكب الدراجات، كيفية المحافظة على ثباته واستقامة وضعيته في أثناء التزلج، وذلك من خلال الإبقاء على مركز الجاذبية أمام الحركة بمقدار ضئيل، وكذلك باستخدام الانعطافات لتخفيض سرعته والسيطرة على مساره، وبذلك يدخلون على الحركة ويخضعونها لما يهزم في العادة الرغبة في الاستقامة أو يخضعها. ويستحضر أندى مارتن بصورة جيدة لحظة التحوّل السحرية بالنسبة لراكب الأمواج، وذلك عندما ينتقل فجأة من سباحة الكلب المذلة إلى الوقوف منتصباً:

هناك أمر سحري في لحظة الانطلاق. فتستحضر البداية المفعول السحري لعبارة (افتح يا سمسم) على الأمواج، مع التركيز على نقطة التلاشي - كجزيءٍ دون ذري في مسار يتلاشى في لحظة - بين التحطيم والمحطم، بين الأخضر والأبيض. وكما في الحيل السحرية، فإن العين لا تكاد تملك الوقت الكافي لفهم ما تراه. وسيحتاج المرء إلى شريط سينمائي بالحركة البطيئة كي يتمكن من رؤية تقوس الظهر، وانتصاب جذع الجسم بسرعة خاطفة، ثم موالة الرجلين بالانتصاب هي الأخرى. ولرؤية جميع أجزاء الجسم، يعاد ترتيبها بصورة جذرية مفاجئة. ففي لحظة، يكون

راكب الأمواج في وضع ضعيف فوق لوحه، ثم في التآلية ينتصب على قدميه، من خلال حركة واحدة تتسم بالسرعة السلسة، مع تقارب قدميه وانفراج ركبتيه، وذراعاه يشقان الهواء، فينقض مسارعاً نحو الأسفل فوق وجه الموجة.⁵⁴

وتتناوب هنا الاستقامة والتوازي مع التساوي. ولعل قراءة ذلك على أنه مجرد نزعة ساريرية للتملك، من خلال الاستحواذ على ملكية الموجة، ستبدو أمراً انتقاصياً جامعاً باعثاً على الشفقة إلى حد ما، إذ ينتصب المشاركون في تلك الرياضات وقوفاً فوق الأمواج، أو متدلين في الهواء، نتيجة لتبادل التدفق المتوازي للطاقت والاتجاهات والحركات. ويشبه راكب الأمواج صقر «العوسق» (Windhover) في قصيدة هوبكنز Hopkins، التي استحضرها بصيغة اسم الفاعل، والتي تحوي في الفضاء المعلق للقصيدة الحركات التي تمنح الصقر الحوام قدرته على الحركة:

صقر رسمته ألوان الفجر المبرقشة، يمتطى الهواء كأنه فارسٌ متمرّسٌ فوق صهوة جواد، يقبع عالياً في سمو وثبات وجناحاه يخفقان. وفي لحظة، يحوم ثابتاً في نشوة وطاقه مركزة! ثم في اللحظة التي تليها، ينطلق كمتزلج على الجليد يوازن القوى من حوله بينما ينعطف: فيوازن أولاً سرعة الرياح ليبقى ثابتاً، ثم يشقّ الرياح باندفاعه القوي للأمام.⁵⁵

وفي واقع الأمر، لو أمعنا النظر في قراءة استحضار سارتر لحركة التزلج على الجليد، لوجدناه يشير بالفعل إلى أمر يتخطى مجرد نزعة الملكية المبسطة، حيث إنها تنطوي على نقلٍ معقدٍ للصفات:

الملكيّة علاقة سحرية؛ فأنا تلك الأغراض التي أمتلكها. ولكن بخلاف ذلك، وعندما أواجه نفسي، إن جاز التعبير، فإنني أجدها مستقلة عن ذاتي، بعيدة عن كل الذاتية، تهرب كذات منفصلة مني في كل لحظة،

كما أنني أخلد إيجادها في كل لحظة، وتحديداً لأنني أكون دائماً في مكان ما خارج ذاتي، وذلك كتنقص يجعل من وجوده أمراً معلوماً من قبل ذاته، من خلال ما هي ليست عليه. أما عندما أمتلك، فإنني أنقل ذاتي إلى الأغراض التي أمتلكها. ويسود مصطلح الغرض المملوك في علاقة الملكية، فمن دونه أكون لا شيء عدا العدم الذي يمتلك، لا شيء سوى الملكية النقية البسيطة، نقصاناً وعدم كفاية، التي تكمن كفايتها وكمالها في هذا الغرض الذي أملكه.⁵⁶

وفي المقام الأول، تمثل حركة الانزلاق المتحكم فيه في ما صار يعرف بـ«رياضات التزلج» تلك العلاقة الجديدة مع الأغراض، التي يمنحها الرياضي والعالم الحركة، ويستمدونها منها بصورة متبادلة. وفي اللحظة التي لا يعود فيها المرء يصارع ببساطة خصماً بشرياً أو طبيعياً، بل يصير محصوراً بين خصم ثلاثي، يتكون من الرياح والصخر والأمواج، فإن المرء عندها يسعى للعودة من الانزلاق فوق خصم يهدف إلى تحويله إلى داعم له.

والرياضة من الأشياء شديدة القدم، لكنها أيضاً فتية للغاية. وفي أعقاب ظهور النظم المجردة والمنظمة لأشكال المنافسة الجسدية، التي تقتصر بصورة صارمة على البشر، والتي أصبحت سائدة في كل أرجاء العالم، ربما بدأ نوع جديد من الإجهاد يتسم بدرجة أكبر من الانحراف واللّهو في تعزيز مكانته بين العديد من أشكال الرياضة التي لا يكون النصر هو الهدف منها، طبقاً للقواعد المجردة ومقاييس السيطرة، ولكنه يتمثل عوضاً عن ذلك في اكتساب الوجهة. وحتى وقتنا هذا، حاكت الرياضة شكل الحرب التي كانت تمارس عبر التاريخ البشري، وذلك في صورة صراع الخصمين ضد بعضها بعضاً. لقد صرنا منومين مغناطيسياً من قبل صراع البشر ضد بعضهم بعضاً، ومهووسين بسؤال: مَنْ سيفوز؟⁵⁷ ولكن على حدّ الملاحظة الخالدة لمايكل سايرس Michel Serres، فالمشهد المبهر للمحاربين من بني الإنسان وهم يكافحون من أجل السيطرة - يذكرنا سايرس بلوحة

«جويا» (Goya) الرائعة التي يظهر فيها عملاقان يقتتلان فيما بينهما بالعصي بينما يغوصان في الطين - قد عميت أعيننا عن ساحة أو مسرح صراعهم:

الرمال المتحركة تهدد المتبارزين، والنهر يهدد المقاتل: فاليااسة والبحار والماناخ والعالم الصامت، وكل الأشياء التي لا صوت لها التي كانت فيما مضى مجرد محيطٍ شكليٍّ للمشاهد المعتادة؛ كل تلك الأشياء التي لم تثر اهتمام أحدٍ ستخترق من الآن فصاعداً، وبصورةٍ وحشيةٍ ودون سابق إنذار، مخططاتنا ومناوراتنا.⁵⁸

إننا نخوض غمار حرب لا نستطيع الفوز بها، ولا حتى نجرؤ على ذلك أو نحلم به، فهي حرب ضد العالم. لقد خسرنا في العادة ضد الطبيعة، ونحن نعلم أن الخسارة ضد الطبيعة تكون خسارة فادحة. ولكن بعد فترةٍ وجيزةٍ من التوقف عن الخسارة بشكل صريح ضد الطبيعة، بدأنا كذلك نكتشف أننا إذا خاطرنا بالفوز، فإننا قد نخسر كل شيء. إن توقع أن تمنحنا الرياضة نموذجاً جديداً للوعي، والمثل والقيم، أو أن تمنحنا أنماطاً لعلاقةٍ مختلفةٍ، اقتصاديةٍ وأخلاقيةٍ وقانونيةٍ، مع الطبيعة، سيكون على القدر نفسه من السخافة والخطورة المبالغ فيها، التي كانت عليها جهودنا في الماضي للوصول إلى مستقبل بشريٍّ من خلال الرياضة. وعلى الرغم من ذلك، فإن تلك الرياضات الجديدة، التي بدأت في التوجه نحو مبادئ الوجهة والازدهار، عوضاً عن مبادئ حصول الفائز على كل شيء وامتلاكه للقرار الأخير، ولكن دون تلاشي حدة الغرض منها على الإطلاق، قد تساعد في تجهيزنا من أجل إدخال التعديلات التي قد نحتاج إليها في سلوكياتنا تجاه الطبيعة. وبالنظر إلى الدور الكبير الذي لعبته الضرورة غير الضرورية للرياضة في تطوير البشر لطبيعة ثانية من أنفسهم ولأنفسهم، فقد يكون من المبهج أن نعتقد في أن المرء قد يتمكن من جعل تلك الرياضات الجديدة بداياتٍ لطبيعةٍ ثالثةٍ، يمكن فيها للممنوح والمصنوع، للضروري وغير الضروري، أن يستمدا من بعضهما بعضاً، وأن يؤثر كل منهما في الآخر.

المراجع

المقدمة

- 1 Mark Perryman, *Philosophy Football: Eleven Great Thinkers Play It Deep* (London, 1997); *Philosophical Football: The Team That Plays With Strength in Depth* (Edinburgh, 1999).
- 2 Aristotle, *On Rhetoric: A Theory of Civic Discourse*, trans. and ed. George A. Kennedy, 2nd edn (Oxford, 2007), 1.5, p. 59.
- 3 Plato, *Euthydemus*, trans. Robin Waterfield, in *Early Socratic Dialogues*, ed. Trevor J. Saunders (London, 2005), 271d-272a, p. 316.
- 4 Harold Tarrant, 'Athletics, Competition and the Intellectual', in David J. Phillips and David Pritchard, eds, *Sport and Festival in the Ancient Greek World* (Swansea, 2003), p. 351.
- 5 *Isocrates: With An English Translation by George Norlin*, 3 vols (London and New York, 1929), vol. II, pp. 289, 291.
- 6 Michel Serres, *Variations sur le corps* (Paris, 1999), p. 5 (my translation).
- 7 Heather L. Reid, 'Socrates at the Ballpark', in *Baseball and Philosophy: Thinking Outside the Batter's Box*, ed. Eric Bronson (Chicago, IL, and La Salle, IL, 2004), pp. 274, 283.
- 8 Geoff Bennington and Jacques Derrida, *Jacques Derrida* (Chicago, IL, 1993), pp. 327, 341.
- 9 Ben Rogers, *A. J. Ayer: A Life* (London, 1999), p. 20.
- 10 *Ibid.*, p. 26.
- 11 Lincoln Allison, 'How Cool Is This: A. J. Ayer's *Language, Truth and Logic*' (2005). Online at www.socialaffairsunit.org.uk/blog/archives/000458.php, accessed 14 March 2011.
- 12 Rogers, *A. J. Ayer*, p. 344.
- 13 Paul Weiss, *Sport: A Philosophic Inquiry* (Carbondale, IL, 1969), p. 8.
- 14 Robert G. Osterhoudt, ed., *The Philosophy of Sport: A Collection of Original Essays* (Carbondale, IL, 1973); Hans Lenk, *Social Philosophy of Athletics: A Pluralistic and Practice-Oriented Philosophical Analysis of Top Level Amateur Sport* (Champaign, IL, 1979); B. C. Postow, ed., *Women, Philosophy, and Sport: A Collection of New Essays* (New York, 1983); C. E. Thomas, *Sport in a Philosophic Context* (Philadelphia, PA, 1983); H. J. Vander Zwaag, *Toward a Philosophy of*

- Sport* (Fort Worth, TX, 1985); Pasquale J. Galasso, ed., *Philosophy of Sport and Physical Activity: Issues and Concepts* (Toronto, 1988); Drew Hyland, *A Philosophy of Sport* (New York, 1990); Martin A. Bertman, *The Philosophy of Sport* (Penrith, 2007).
- 15 Eric Bronson, ed., *Baseball and Philosophy: Thinking Outside the Batter's Box* (Chicago, IL, 2004); Jerry L. Walls and Gregory Bassham, eds, *Basketball and Philosophy: Thinking Outside the Pain* (Lexington, KY, 2008); Michael W. Austin, *Football and Philosophy: Going Deep* (Lexington, KY, 2008).
 - 16 Bernard Suits, *The Grasshopper: Games, Life, and Utopia* (Toronto and Buffalo, 1978); Graham McFee, *Sport, Rules and Values: Philosophical Investigations Into the Nature of Sport* (London, 2004); Bertman, *The Philosophy of Sport*.
 - 17 William J. Morgan, *Why Sports Morally Matter* (London, 2006).
 - 18 Randolph Feezell, *Sport, Play, and Ethical Reflection* (Urbana, IL, 2004).
 - 19 Hans Ulrich Gumbrecht, *In Praise of Athletic Beauty* (Cambridge, MA and London, 2006).
 - 20 David Best, 'Sport Is Not Art', *Journal of the Philosophy of Sport*, XII (1985), pp. 25-40; Andrew Edgar, 'What Is Art? James and Collingwood on Sport', in *Sporting Reflections: Some Philosophical Perspectives*, ed. Heather Sheridan, Leslie A. Howe and Keith Thompson (Aachen, 2007), pp. 20-31.
 - 21 Roger Caillois, *Man, Play and Games*, trans. Meyer Barash (Urbana, IL, 2001), p. 12.
 - 22 Gaston Bachelard, *La Terre et les rêveries de la volonté* (Paris, 1948), p. 78.
 - 23 Jean-Paul Sartre, *Being and Nothingness: An Essay on Phenomenological Ontology*, trans. Hazel E. Barnes (London, 1984), p. 328.
 - 24 Bernard Suits, 'The Grasshopper: A Thesis Concerning the Moral Idea of Man', in Robert G. Osterhoudt, *The Philosophy of Sport: A Collection of Original Essays* (Springfield, IL, 1973), p. 204.
 - 25 *Ulama: Jeu de balle des Olmèques aux Aztèques/Ballgame from the Olmecs to the Aztecs* (Lausanne, 1997).
 - 26 Sartre, *Being and Nothingness*, p. 328.

الفصل الأول: التاريخ

- 1 William Camden, *Britain, or A Chorographical Description of the Most Flourishing Kingdoms, England, Scotland, and Ireland, and the Ilands Adioyning, Out of the Depth of Antiquitie . . .* (London, 1610), p. 203.
- 2 B.J., *Two Letters Written to a Gentleman of Note Guilty of Common Swearing* (London, 1691), p. 64.
- 3 Thomas Adams, *Five Sermons Preached Vpon Sundry Especiall Occasions* (London, 1626), p. 22.
- 4 Thomas Adams, *The Deuills Banquet Described in Fourre Sermons* (London, 1614), p. 11.

- 5 Thomas Adams, *The Happines of the Church, or, A Description of Those Spirituall Prerogatiues Wherewith Christ Hath Endowed Her* (London, 1619), p. 71.
- 6 *Ibid.*, pp. 89–90.
- 7 Adams, *The Happines of the Church*, p. 318.
- 8 Thomas Adams, *The Souldiers Honour Wherein by Diuers Inferences and Gradations it is Euinced, That the Profession is Iust, Necessarie, and Honourable . . .* (London, 1617) sig. A3v.
- 9 Norbert Elias and Eric Dunning, eds, *Quest for Excitement: Sport and Leisure in the Civilizing Process* (Oxford, 1986), p. 127.
- 10 Roger Caillois, *Man, Play and Games*, trans. Meyer Barash (Urbana, IL, 2001), p. 27.
- 11 *Ibid.*, p. 23.
- 12 *Ibid.*, p. 14.
- 13 Giorgio Agamben, *The Open: Man and Animal*, trans. Kevin Attell (Stanford, CA, 2004), p. 37.
- 14 Jean-Paul Sartre, *Being and Nothingness: An Essay on Phenomenological Ontology*, trans. Hazel E. Barnes (London, 1984), p. 581.
- 15 Phillip Stubbes, *The Anatomie of Abuses Contayning a Discouerie, or Briefe Summarie of Such Notable Vices and Imperfections, as Now Raigne in Many Christian Countreyes of the Worlde . . .* (London, 1583), sig. P5r.
- 16 *Ibid.*, sig. P4v.
- 17 Emma Griffin, *Blood Sport: Hunting in Britain Since 1066* (New Haven, CT, and London, 2007), p. 233.
- 18 Samuel Beckett, *More Pricks Than Kicks* (London, 1970), p. 21.
- 19 Karl Groos, *The Play of Animals: A Study of Animal Life and Instinct*, trans. Elizabeth L. Baldwin (London, 1898).
- 20 Michel de Montaigne, *The Complete Essays*, ed. and trans. M. A. Screech (London, 1991), p. 505; *Les Essais*, ed. Pierre Villey and Verdun-L. Saunier (Paris, 1965), p. 452.
- 21 Barnabe Rich, *The Aduentures of Brusanus Prince of Hungaria* (London, 1592), pp. 73–4.
- 22 Montaigne, *The Complete Essays*, p. 516; *Les Essais*, p. 462.
- 23 Matt Cartmill, *A View to a Death in the Morning: Hunting and Nature Through History* (Cambridge, MA and London, 1993), p. 30.
- 24 Edward Cummins, *The Hound and the Hawk: The Art of Medieval Hunting* (London, 1988), p. 31.
- 25 Edward, Duke of York, *The Master of Game*, ed. W. A. and F. Baillie-Grohmann (London, 1904), p. 153.
- 26 George Gascoigne, *The Noble Arte of Venerie or Hunting* (London, 1575), p. 96.
- 27 Richard Almond, *Medieval Hunting* (Stroud, 2003), pp. 75–82.
- 28 *Ibid.*, p. 35.
- 29 Ted Hughes, *Collected Poems*, ed. Paul Keegan (London, 2003), p. 766.
- 30 Pliny the Elder, *The Historie of the World: Commonly Called, The Naturall Historie of C. Plinius Secundus*, vol. I, trans. Philéon Holland (London, 1634), p. 199.

- 31 Antonin Artaud, *The Theater and Its Double*, trans. Mary Caroline Richards (New York, 1958), pp. 89–100.
- 32 Anon, 'Recent Sporting Adventure in the Old World', *Edinburgh Review*, CLXXXIX (1899), p. 213.
- 33 Anon, 'Sport in the Snow; or, Bear-hunting in Russia', *Temple Bar*, xcVII (1893), pp. 107–22.
- 34 Donna Landry, *The Invention of the Countryside: Hunting, Walking, and Ecology in English Literature, 1671–1831* (Basingstoke, 2001), pp. 95–6.
- 35 José Ortega y Gasset, *Meditations on Hunting*, trans. Howard B. Wescott (New York, 1972).
- 36 José Ortega y Gasset, 'The Sportive Origin of the State', in *History as a System: And Other Essays Toward a Philosophy of History*, trans. Helene Weyl (New York, 1961), pp. 16, 31.
- 37 *Ibid.*, p. 18.
- 38 *Ibid.*, p. 29.
- 39 *Ibid.*, p. 32.
- 40 G.W.F. Hegel, *The Philosophy of History*, trans. J. Sibree (Kitchener, Ontario, 2001), pp. 260–61.
- 41 John M. Hoberman, *Sport and Political Ideology* (Austin, TX, 1984), p. 123.
- 42 Heinz Risse, *Soziologie des Sports* (Münster, 1979), p. 77 (my translation).
- 43 *Ibid.*, p. 78.
- 44 Karl Jaspers, *Man in the Modern Age*, trans. Eden and Cedar Paul (Garden City, NJ, 1957), p. 68.
- 45 *Ibid.*, p. 70.
- 46 Johan Huizinga, *Homo Ludens: A Study of the Play-Element in Culture*, trans. R.F.C. Hull (Boston, MA, 1955), p. 3.
- 47 Lewis Mumford, *Technics and Civilization* (New York, 1963), p. 307.
- 48 Robert Musil, 'Als Papa Tennis lernte', *Tagebücher, Aphorismen, Essays und Reden*, ed. Adolf Frisé (Hamburg, 1955), p. 820 (my translation).
- 49 T. W. Adorno and Max Horkheimer, *Dialectic of Enlightenment*, trans. John Cumming (London, 1986), p. 88.
- 50 T. W. Adorno, *Introduction to the Sociology of Music*, trans. E. B. Ashton (New York, 1972), pp. 49–50.
- 51 T. W. Adorno, *Prisms*, trans. Samuel and Sherry Weber (Cambridge, MA, 1981), p. 81.
- 52 *Ibid.*, p. 81.
- 53 Philip Larkin, *Collected Poems*, ed. Anthony Thwaite (London, 1990), p. 127.
- 54 H. Graves, 'A Philosophy of Sport', *Contemporary Review*, LXXVIII (1900), p. 877. References hereafter parenthetically in text.
- 55 Allen Guttmann, *The Olympics: A History of the Modern Games*, 2nd edn (Urbana and Chicago, IL, 2002), p. 18.
- 56 Charles Harrison and Paul Wood, eds, *Art in Theory 1900–1990: An Anthology of Changing Ideas* (Oxford and Cambridge, MA, 1992), p. 156.
- 57 Michel Leiris, 'The Bullfight as Mirror', trans. Ann Smock, *October*,

- LXIII (1993), p. 24.
- 58 Ibid., p. 39.
- 59 Ibid., p. 34.
- 60 Harrison and Wood, *Art in Theory*, pp. 728, 729.
- 61 Alain Finkielkraut, *The Undoing of Thought*, trans. Dennis O'Keefe (London, 1988), p. 113.
- 62 Susan Sontag, *A Susan Sontag Reader* (London 1982), p. 314.
- 63 Ibid., p. 317.
- 64 Roland Barthes, *What Is Sport?* trans. Richard Howard (New Haven, CT, and London, 2007), p. 63.
- 65 Walter Benjamin, *Illuminations*, trans. Harry Zohn (New York, 1968), p. 251.
- 66 Jacques Lacan, *Ecrits: A Selection*, trans. Alan Sheridan (New York, 1977), p. 5; Alan Meek, 'Benjamin, the Televisual and the "Fascistic Subject"', in *Screening the Past*, IV (1998). Online at www.latrobe.edu.au/screeningthepast/firstrelease/fir998/AMfr4e.htm, accessed 3 January 2010.
- 67 Kevin Krein, 'Sport, Nature and Worldmaking', *Sport, Ethics and Philosophy*, II (2008), p. 267.

الفصل الثاني: الفضاء

- 1 Maurice Merleau-Ponty, *The Structure of Behavior*, trans. Alden L. Fisher (London, 1965), p. 168.
- 2 Ibid., pp. 167–8.
- 3 Knut Dietrich, 'New Demands for Sports Facilities: Principles for Future Planning', in *Sport and Space: New Challenges to Planning and Architecture*, ed. Søren Riiskjær (Copenhagen, 1992), p. 24.
- 4 John Bale, 'The Stadium as Theatre: A Metaphor for Our Times', in *The Stadium and the City*, ed. John Bale and Olof Moen (Keele, 1995), p. 316.
- 5 John Donne, *The Elegies and The Songs and Sonnets*, ed. Helen Gardner (Oxford, 1965), p. 70.
- 6 Peter Sloterdijk, *Im Weltinnenraum des Kapital: für eine philosophische Theorie der Globalisierung* (Frankfurt am Main, 2005).
- 7 John Bale, *Running Cultures: Racing in Time and Space* (London and New York, 2004), p. 38.
- 8 Ibid.
- 9 Ibid., p. 39.
- 10 Bale, 'The Stadium as Theatre', p. 318.
- 11 John Milton, *Paradise Lost*, ed. Barbara K. Lewalski (Oxford, 2007), Book 8, l. 132, p. 229.
- 12 Michel Serres, *Genesis*, trans. Geneviève James and James Nielson (Ann Arbor, MI, 1995), p. 19.
- 13 Simon Inglis, *Sightlines: A Stadium Odyssey* (London, 2001), pp. 254–7.
- 14 Serres, *Genesis*, p. 52.
- 15 David H. J. Larmour, *Stage and Stadium: Drama and Athletics in Ancient Greece* (Hildesheim, 1999), p. 134.

- 16 Peter Sloterdijk, *Schäume: Sphären*, Vol. 3: *Plurale Sphärologie* (Frankfurt am Main, 2004), pp. 63–4 (my translation).
- 17 Johann Wilhelm von Archenholz, *England und Italien*, 2 vols (Leipzig, 1785), vol. II, p. 61 (my translation).
- 18 Michel Serres, *Hominescence* (Paris, 2001), pp. 179–80.
- 19 *Ibid.*, p. 180 (my translation).
- 20 Michel Serres, *L'Incandescent* (Paris, 2003), pp. 216–27.
- 21 Gerulamo Cardano, *A Book on Games of Chance*, trans. Sydney Henry Gould, in Ostein One, *Cardano: The Gambling Scholar* (New York, 1953), p. 191.
- 22 Bradd Shore, 'Marginal Play: Sport at the Borderlands of Time and Space', *International Review for the Sociology of Sport*, XXIX (1994), p. 353.
- 23 Michel Serres, *The Parasite*, trans. Lawrence R. Schehr (Baltimore, MD, and London, 1982), p. 227.
- 24 Don DeLillo, *Underworld* (London, 1997), p. 51.

الفصل الثالث: الزمان

- 1 Andrew Marvell, *Poems*, ed. Nigel Smith (London, 2007), p. 84.
- 2 Murray Ross, 'Football Red and Baseball Green: The Heroics and Bucolics of American Sport', *Chicago Review*, XXII (1971), pp. 33, 32.
- 3 *Ibid.*, p. 35.
- 4 *Ibid.*
- 5 Michel Serres, *The Troubadour of Knowledge*, trans. Sheila Faria Glaser and William Paulson (Ann Arbor, MI, 1997), p. 9 (translation modified).
- 6 *Ibid.*, p. 31.
- 7 Robert Perinbanayagam, *Games and Sport in Everyday Life: Dialogues and Narratives of the Self* (Boulder, CO and London, 2006), p. 38.
- 8 *Ibid.*, p. 39.
- 9 *Ibid.*, p. 38.
- 10 Samuel Beckett, *Complete Dramatic Works* (London, 1986), p. 46.
- 11 Jean-Paul Sartre, *Being and Nothingness: An Essay on Phenomenological Ontology*, trans. Hazel E. Barnes (London, 1984), p. 329.
- 12 Mircea Eliade, *The Sacred and the Profane: The Nature of Religion*, trans. Willard R. Trask (New York and London, 1959), p. 69.
- 13 Peter Reichel, *La Fascination du nazisme* (Paris, 1993), p. 241.
- 14 Dennis Brailsford, *Sport, Time and Society: The British at Play* (London and New York, 1991), pp. 12–13.
- 15 Eliade, *The Sacred and the Profane*, p. 104.
- 16 *Ibid.*, p. 88.
- 17 *Ibid.*, p. 87.
- 18 Allen Guttmann, *From Ritual to Record: The Nature of Modern Sports*, 2nd edn (New York, 2004), p. 26.
- 19 Brailsford, *Sport, Time and Society*, p. 27.
- 20 *Ibid.*, p. 94.

- 21 Jean-Marie Brohm, *Sport – A Prison of Measured Time*, trans. Ian Fraser (London, 1978), p. 176.
- 22 Jean-Marie Brohm, *La Tyrannie sportive: Theorie critique d'un opium du peuple* (Paris, 2006), p. 152 (my translation).
- 23 *Ibid.*, p. 153.
- 24 Brailsford, *Sport, Time and Society*, p. 113.
- 25 John Bale, *Running Cultures: Racing in Time and Space* (London and New York, 2004), p. 22.
- 26 *Ibid.*, p. 23.
- 27 *Ibid.*, p. 27.
- 28 Guttman, *From Ritual to Record*, pp. 51–2.
- 29 Fred Stein, *A History of the Baseball Fan* (Jefferson, NC and London, 2005), pp. 180–91.
- 30 Kevin G. Quinn, *Sports and Their Fans: The History, Economics and Culture of the Relationship Between Spectator and Sport* (Jefferson, NC, and London, 2009), pp. 90–91.
- 31 Brailsford, *Sport, Time and Society*, p. 146.
- 32 Quoted in Richard Haynes, "Lobby" and the Formative Years of Radio Sports Commentary, 1935–1952', *Sport in History*, XXIX (2009), p. 34.
- 33 Brailsford, *Sport, Time and Society*, p. 126.

الفصل الرابع: الحركة

- 1 Henri Bergson, *Time and Free Will: An Essay on the Immediate Data of Consciousness*, trans. F. L. Pogson (London, 1910), p. 115.
- 2 Gerard Manley Hopkins, *Poems*, 4th edn, ed. W. H. Gardner and N. H. Mackenzie (Oxford, 1970), p. 52.
- 3 Jean-Paul Sartre, *Being and Nothingness: An Essay on Phenomenological Ontology*, trans. Hazel E. Barnes (London, 1984), p. 125.
- 4 *Ibid.*, p. 128.
- 5 John Dryden, *The Works of Virgil Containing his Pastorals, Georgics and Aeneis* (London, 1697), p. 89.
- 6 Ian Stewart, *Flatterland: Like Flatland Only More So* (London, 2001), p. 46.
- 7 Sartre, *Being and Nothingness*, p. 306.
- 8 *Ibid.*, p. 308.
- 9 Robert Recorde, *The Whetstone of Witte Whiche is the Seconde Parte of Arithmetike . . .* (London, 1557), sig. Ff1r.
- 10 Lucretius (Titus Lucretius Carus), *On the Nature of the Universe*. trans. R. E. Latham, ed. John Godwin (London, 1994), 2.220, p. 43.
- 11 Michel Serres, *The Birth of Physics*, trans. Jack Hawkes (Manchester, 2000), p. 11.
- 12 Michel Serres, *The Troubadour of Knowledge*, trans. Sheila Faria Glaser and William Paulson (Ann Arbor, MI, 1997), p. 24.
- 13 *Ibid.*, p. 27.
- 14 Samuel Beckett, *Murphy* (New York, 1957), pp. 47–8.

- 15 Luke Howard Hodgkin, *A History of Mathematics: From Mesopotamia to Modernity* (Oxford, 2005), pp. 45–6.
- 16 Michel Serres, *Récits d'humanisme* (Paris, 2006), p. 154 (my translation).
- 17 Serres, *The Birth of Physics*, p. 10.
- 18 John Nyren, *The Young Cricketer's Tutor*, ed. Charles Cowden Clarke (London, 1833), pp. 32, 68, 69.
- 19 Allison Danzig and Joe Reichler, *The History of Baseball: Its Great Players, Teams and Managers* (Englewood Cliffs, NJ, 1959), p. 39.
- 20 Paul Dickson, *The Dickson Baseball Dictionary* (New York, 2009), p. 233.
- 21 W. F. Hopkinson, 'The Theory of the Curve Ball', *Outing*, x (1887), pp. 102, 98.
- 22 Brian Wilkins, *The Bowler's Art: Understanding Spin, Swing, and Swerve* (London, 1991), pp. 46–8.
- 23 'Revealed: Why Curve Balls Are So Hard to Hit', *New Scientist*, 2711 (7 June 2009), p. 7.
- 24 Garrett Soden, *Defying Gravity: Land Divers, Roller Coasters, Gravity Bums, and the Human Obsession With Falling* (New York, 2003), pp. 72–3.
- 25 *Ibid.*, p. 206.
- 26 *Ibid.*, p. 219.
- 27 *Ibid.*, p. 9.

الفصل الخامس: المعدات الرياضية

- 1 Roland Barthes, *What Is Sport?* trans. Richard Howard (New Haven, CT, and London, 2007), pp. 59, 63.
- 2 Martin Heidegger, *Being and Time*, trans. John Macquarrie and Edward Robinson (Oxford, 1962), pp. 96–7.
- 3 Warren P. Fraleigh, 'The Moving "I"', in *The Philosophy of Sport: A Collection of Original Essays*, ed. Robert G. Osterhoudt (Carbondale, IL, 1973), p. 114.
- 4 Sigmund Freud, *Gesammelte Werke*, vol. xv: *Neue Folge der Vorlesungen zur Einführung in die Psychoanalyse* (London, 1940), p. 86.
- 5 Michel Serres, *Variations sur le corps* (Paris, 1999), pp. 152–3 (my translation).
- 6 *Ibid.*, pp. 151–2.
- 7 Harry Vardon, *The Complete Golfer*, 9th edn (London, 1908), p. 174.
- 8 Lucien Lévy-Bruhl, *How Natives Think*, trans. Lillian A. Clare (Princeton, NJ, 1985), p. 76.
- 9 P. A. Vaile, *The New Golf* (New York, 1917), pp. 26, 25–6.
- 10 James Braid and Harry Vardon, *How to Play Golf* (New York, 1914), p. 45.
- 11 Ludwig Wittgenstein, *Philosophical Investigations*, 4th edn, trans. G.E.M. Anscombe, P.M.S. Hacker and Joachim Schulte (Chichester, 2009), § 68–71, pp. 37e–38e.

- 12 Sigmund Freud, *Beyond the Pleasure Principle* in *The Standard Edition of the Psychological Works of Sigmund Freud*, vol. XVIII, trans. James Strachey et al. (London, 1955), p. 38.
- 13 Robert W. Henderson, *Ball, Bat and Bishop: The Origin of Ball Games* (New York, 1947), p. 19.
- 14 Michel Serres, *The Parasite*, trans. Lawrence R. Schehr (Baltimore, MD, and London, 1982), p. 227.
- 15 Fintan Lane, *Long Bullets: A History of Road Bowling in Ireland* (Cork, 2005).
- 16 John Newbery, *A Little Pretty Pocket-Book, Intended for the Instruction and Amusement of Little master Tommy, and Pretty Miss Polly* (London, 1760), sig. c4v.
- 17 Freud, *Beyond the Pleasure Principle*, p. 15.
- 18 *Ibid.*, p. 16.
- 19 H. A. Harris, *Sport in Greece and Rome* (London, 1972), pp. 79–80; Nigel B. Crowther, *Sport in Ancient Times* (Westport, CT and London, 2007), pp. 157–8.
- 20 Christopher Thacker, *The History of Gardens* (Berkeley and Los Angeles, 1979), pp. 230–33.
- 21 Francisco Xavier Clavigero, *The History of Mexico*, trans. Charles Cullen, 2 vols (London, 1787), vol. I, p. 403.
- 22 P. G. Tait and W. J. Steele, *A Treatise on the Dynamics of a Particle*, 2nd edn (Cambridge, 1865), p. 288.
- 23 Serres, *Variations sur le corps*, pp. 179–80.
- 24 Galen (Claudius Galenus), 'Galen's Treatise on the Small Ball', trans. F. A. Wright, in F. A. Wright, *Greek Athletics* (London, 1925), p. 115.
- 25 Richard Carew, *The Survey of Cornwall* (London, 1602), sigs v3r–v3v.
- 26 James Shirley, *The Bird in a Cage: A Comedie* (London, 1633), sig. G2v.
- 27 St Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, trans. the Fathers of the English Dominican Province, 5 vols (Westminster, MD, 1981), Supplement, question 80.3, vol. v, p. 2883.
- 28 Janet and Peter Phillips, 'History From Below: Women's Underwear and the Rise of Women's Sport', *Journal of Popular Culture*, XXVII (1993), pp. 129–48.
- 29 Phil Pilley, ed., *The Story of Bowls: From Drake to Bryant* (London, 1987), pp. 50–51.
- 30 Bernard Adams, *The Badminton Story* (London, 1980), p. 18.
- 31 *Ibid.*, p. 17.
- 32 Aristides Quintilianus, *On Music: In Three Books*, ed. and trans. Thomas J. Mathiesen (New Haven, CT, and London, 1983), p. 152.

الفصل السادس: القواعد

- 1 Jean Baudrillard, 'Forget Baudrillard: An Interview With Sylvère Lotringer', in *Forget Foucault*, trans. Nicole Dufresne (New York, 1987), p. 92.

- 2 Ken Bray, *How to Score: Science and the Beautiful Game* (London, 2006), pp. 21–6.
- 3 Tim Harris, *Sport: Almost Everything You Ever Wanted to Know* (London, 2007), p. 243.
- 4 Peter Sloterdijk, *Schäume: Sphären*, vol. III: *Plurale Sphärologie* (Frankfurt, 2004), p. 87.
- 5 Robert Coover, *The Universal Baseball Association, Inc. J. Henry Waugh, Prop.* (New York and Scarborough, Ontario, 1971), p. 45.
- 6 Centre for Notational Analysis, *Notational Analysis of Sport 1 and II* (Cardiff, 1997).
- 7 Gerulamo Cardano, *A Book on Games of Chance*, trans. Sydney Henry Gould, in Ostein One, *Cardano: The Gambling Scholar* (New York, 1953).
- 8 Galileo Galileo, 'Sopra le scoperte dei dadi', trans. E. H. Thorne, in F. N. David, *Gods, Games, and Gambling: The Origins and History of Probability and Statistical Ideas from the Earliest Times to the Newtonian Era* (London, 1962), pp. 192–5.
- 9 Carl Friedrich Gauss, *Theory of the Motion of the Heavenly Bodies Moving About the Sun in Conic Sections*, trans. Charles Henry Davies (Boston, MA, 1857); Stephen M. Stigler, *Statistics on the Table: The History of Statistical Concepts and Methods* (Cambridge, MA, 1999), pp. 178–80.
- 10 Deborah J. Bennett, *Randomness* (Cambridge, MA and London, 1998), p. 62.
- 11 Leonard Mlodinow *The Drunkard's Walk: How Randomness Rules Our Lives* (London, 2008), pp. 50–51.
- 12 Jean-Paul Sartre, *Being and Nothingness: An Essay on Phenomenological Ontology*, trans. Hazel E. Barnes (London, 1984), p. 309.
- 13 Simon Barnes, 'The Team Who Conquered the Continent By Accident', *The Times* (25 May 2007), p. 106.
- 14 Marshall Swain and Myles Brand, 'The True Nature of Cheating', in *Football and Philosophy: Going Deep*, ed. Michael W. Austin (Lexington, KY, 2008), p. 93.
- 15 Horace Traubel, *With Walt Whitman in Camden*, vol. v: *April 8–September 14, 1889*, ed. Gertrude Traubel (Carbondale, IL, 1964), p. 145.
- 16 Brian Wilkins, *The Bowler's Art: Understanding Spin, Swing, and Swerve* (London, 1991), p. 165.
- 17 Scott Ostler, *How To Cheat in Sports* (London, 2008), p. 80.
- 18 Graham McFee, *Sport, Rules, and Values: Philosophical Investigations Into the Nature of Sport* (London, 2004), p. 45.

الفصل السابع: الفوز

- 1 William Somerville, *The Chace. A Poem* (London, 1735), p. 2.
- 2 William Somerville, *Field-Sports. A Poem* (London, 1742), p. 5.

- 3 Phillip Stubbes, *The Anatomie of Abuses Contayning a Discouerie, or Briefe Summarie of Such Notable Vices and Imperfections, as Now Raigne in Many Christian Countreyes of the Worlde . . .* (London, 1583), sigs. P7r–P8r.
- 4 Eric Dunning, *Sport Matters: Sociological Studies of Sport, Violence and Civilization* (London and New York, 1999), p. 81.
- 5 Richard Baxter, *The Saints Everlasting Rest, or, A Treatise of the Blessed State of the Saints in their Enjoyment of God in Glory . . .* (London, 1650), p. 818.
- 6 Richard Baxter, *A Saint or a Brute the Certain Necessity and Excellency of Holiness . . .* (London, 1662), p. 233.
- 7 John Milton, *Poems*, ed. John Carey and Alistair Fowler (London, 1968), p. 134.
- 8 Sigmund Freud, *Jokes and their Relation to the Unconscious, The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, trans. James Strachey et al., vol. VIII (London, 1955), pp. 118.
- 9 Roger Caillois, *Man, Play and Games*, trans. Meyer Barash (Urbana, IL, 2001), pp. 74–5, 97.
- 10 Emmanuel Levinas, *Entre Nous: On Thinking-of-the-Other* (New York, 1998), p. 148.
- 11 Caillois, *Man, Play and Games*, p. 109.
- 12 Anthony Julius, *Trails of the Diaspora: A History of Anti-Semitism in England* (Oxford, 2010), pp. 3, 6–11.
- 13 G.W.F. Hegel, *The Phenomenology of Mind*, trans. J. B. Baillie, 2 vols (London, 1910), vol. I, p. 366.
- 14 *Ibid.*
- 15 *Ibid.*, vol. I, pp. 16–17.
- 16 *Ibid.*, vol. I, p. 184.
- 17 Sigmund Freud, *Civilization and its Discontents*, in *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, vol. XXI (London, 1964), p. 114.
- 18 Peter Sloterdijk, *God's Zeal: The Battle of the Three Monotheisms*, trans. Wieland Hoban (Cambridge and Malden, MA, 2009), p. 130.
- 19 Freud, *Civilization and Its Discontents*, p. 114.
- 20 Henry A. Kissinger, 'The Viet Nam Negotiations', *Foreign Affairs*, XLVII (1969), p. 214.
- 21 Sigmund Freud, 'Some Character-Types Met with in Psycho-Analytic Work', *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, ed. and trans. James Strachey et al., vol. XIV (London, 1955), pp. 315–30.
- 22 Martin Heidegger, *Being and Time*, trans. John Macquarrie and Edward Robinson (Oxford, 1962), pp. 304–11.
- 23 Ludwig Wittgenstein, *Tractatus Logico-Philosophicus*, trans. D. F. Pears and B. F. McGuinness (London, 1963), p. 147.
- 24 Elias Ashmore, *Making Sense of Sport*, 4th edn (London and New York, 2005), p. 136.
- 25 R. C. Sipes, 'War, Sports and Aggression: An Empirical Test of Two Rival Theories', *American Anthropologist*, LXXV (1973), p. 80.

- 26 J. A. Mangan, ed., *Militarism, Sport, Europe: War Without Weapons* (London and Portland, OR, 2003).
- 27 George Orwell, 'The Sporting Spirit', in *I Belong to the Left: The Complete Works of George Orwell*, vol. XVII: 1945 (London, 1998), p. 442.
- 28 *Ibid.*, p. 441.
- 29 *Ibid.*, p. 442.
- 30 Norbert Elias and Eric Dunning, eds, *Quest for Excitement: Sport and Leisure in the Civilizing Process* (Oxford, 1986) pp. 50–51.
- 31 *Ibid.*, p. 34.
- 32 *Ibid.*, p. 51.
- 33 *Ibid.*, p. 44.
- 34 Hazel Hartley, *Sport, Physical Recreation and the Law* (London and New York, 2009), pp. 69–92.
- 35 *Ibid.*, p. 103.
- 36 Caillois, *Man, Play and Games*, p. 167.
- 37 *Ibid.*, p. 97.
- 38 Angela Patmore, *Playing On Their Nerves: The Sport Experiment* (London, 1979), pp. 12–13.
- 39 *Ibid.*, p. 24.
- 40 Arnold R. Beisser, *The Madness in Sports*, 2nd edn (Bowie, MD, 1977), p. 159.
- 41 *Calendar of the Close Rolls 1910*, pp. 181–2, quoted Elias and Dunning, *Quest for Excitement*, p. 176.
- 42 *Ibid.*
- 43 Peter Sloterdijk, *Rage and Time: A Psychopolitical Investigation*, trans. Mario Wenning (New York, 2010).
- 44 Caillois, *Man, Play and Games*, p. 110.
- 45 Gilles Deleuze, *Negotiations 1972–1990*, trans. Martin Joughin (New York, 1995), p. 119.
- 46 Gunnar Breivik, 'Being-in-the-Void: A Heideggerian Analysis of Skydiving', *Journal of the Philosophy of Sport*, XXXVII (2010), p. 42.
- 47 Jean-Paul Sartre, *Being and Nothingness: An Essay on Phenomenological Ontology*, trans. Hazel E. Barnes (London, 1984), p. 585.
- 48 *Ibid.*, p. 584.
- 49 *Ibid.*
- 50 *Ibid.*, p. 585.
- 51 Andy Martin, *Walking on Water* (London, 1992), p. 102.
- 52 *Ibid.*
- 53 Andy Martin, *Stealing the Wave: The Epic Struggle Between Ken Bradshaw and Mark Foo* (London, 2007).
- 54 Martin, *Walking on Water*, p. 23.
- 55 Gerard Manley Hopkins, *Poems*, 4th edn, ed. W. H. Gardner and N. H. Mackenzie (Oxford, 1970), p. 69.
- 56 Sartre, *Being and Nothingness*, pp. 591–2.
- 57 Michel Serres, *La Guerre mondiale* (Paris, 2008), pp. 67–9.
- 58 Michel Serres, *The Natural Contract*, trans. Elizabeth MacArthur and William Paulson (Ann Arbor, MI, 1995), p. 3.

نبذة عن المؤلف

ستيفن كونور أستاذ اللغة الإنجليزية في جامعة كمبردج وزميل بيترهاوس، كمبردج. وكان قبل ذلك المدير الأكاديمي لكونسورتيوم لندن وأستاذ الأدب الحديث في كلية بيركبيك بجامعة لندن.

صدر له في مشروع «كلمة» كتاب «مادة الهواء: علم وفن ما هو أثري».

نبذة عن المترجم

طارق راشد عليان: باحثٌ ومُعدُّ برامج في مركز الأخبار، شبكة قنوات أبوظبي. عمل محرراً ومترجماً في مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية. ينشر أعماله في مجلة «العربي»، و«الثقافة العالمية»، و«المجلة العربية»، ومجلة «الفيصل العلمية»، ومجلة «ساينتفك أميركان» الطبعة العربية. ترجم وراجع عدداً من الكتب لدى مشروع «كلمة»، والمركز القومي للترجمة، ومدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، وعالم المعرفة.

فلسفة الرياضة

في الوقت الذي نزعت فيه الكتابات السابقة حول فلسفة الرياضة إلى اعتبار الرياضة ضرباً من ميادين اختبار النظريات الفلسفية المبتكرة للتعامل مع ألوان أخرى من المشكلات - مثل مشكلات الأخلاق أو الجماليات أو التصنيفات المنطقية - يقدم لنا ستيفن كونر فهماً فلسفياً جديداً للرياضة باصطلاحاتها الخاصة.

ولتعريف ماهية الرياضة ومعناها تحديداً، يقدم لنا كونر هيكلاً كاملاً للرياضات، عازلاً عناصرها الجوهرية وشارحاً إياها، بما في ذلك مساحات الرياضة المميزة، وطبيعة زمن ممارسة الرياضة، وأهمية الأدوات الرياضية، مثل المضارب والكرات، وطرائق الحركة في الرياضة، ودور القواعد والحظ، والمعنى الحقيقي للغش والفوز.

تُعرف الرياضة بالألعاب الرياضية التي تنطوي على مجهودٍ جسديٍّ ومشقّةٍ، وهي تتطلّب في الوقت عينه تقييداً وقدرةً على التغلب على هذا التقييد. ويرى كونر أن الرياضة سمة جوهرية يتسم بها البشر الحداثيون. ولقد ثبت أن الرياضة من أقوى الطرائق التي نبني بها العلاقة بين عالم البشر وعالم الطبيعة. وإذ يستوعب كتاب «فلسفة الرياضة» نطاقاً ضخماً من الرياضات المختلفة، ويلتمس عون أكابر الفلاسفة، مثل هيجل وفرويد وفيتغنشتاين وهايدغر وأدورنو وسارتر ودولوز وسيريس، فإنه سيثقف الرياضيين والفلاسفة العاشقين للرياضة عميق التفكير على حد سواء، ويفاجئهم ويستميل قلوبهم.

السعر 90 درهماً



9 789948 371861

